



وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا

إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ
وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا









د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhering to any specific sect. The goal is to officially archive and legally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،
يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.
لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.
نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.
إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

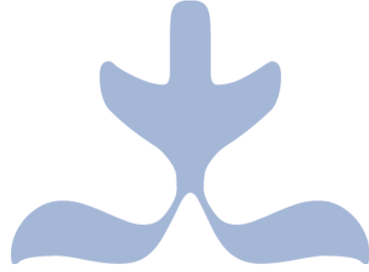
- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:

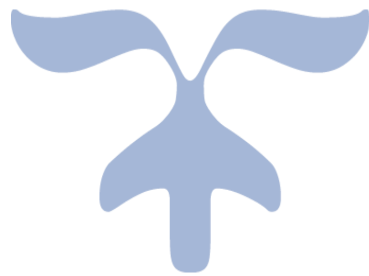
الفهرس

الفهرس



قصة داوود

الجزء الأول



قصة داوود - الجزء الأول

1. من هو داوود؟

سنحاول التعرض في هذه السلسلة الجديدة من المقالات لقصة داوود كما نفهمها من النص الديني، محاولين تسطير بعض الافتراءات التي ربما تكون غير مسبوقة في هذا السياق، مؤكدين منذ البداية بأن هذه ليست أكثر من افتراءات من عند أنفسنا. لذا، يجب تناولها بحذر، والتحقق منها بالقبول إن وجد الدليل على صحتها، أو بالرفض إن وجد الدليل على بطلانها. وفي حالة صعوبة إيجاد الدليل بأي الاتجاهين، تبقى افتراءات متخيلة يمكن أن ينظر إليها من الناحية الأدبية، ربما يُستفاد منها في صناعة أفلام هوليودية أو بوليوودية.

(أدعو الله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، فلا افتري عليه الكذب، إنه هو السميع العليم)

أما بعد،

إن محرك البحث هنا هو سؤال واحد، ألا وهو: من هو داوود الذي جاء أول ذكر لاسمه صراحة في قصة طالوت وجالوت التي ترد في سورة البقرة؟ قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

فعلى الرغم من أن المواجهة كانت بين طالوت (المؤمن) من جهة وجالوت (الكافر) من جهة أخرى، وعلى الرغم من أن الشعور الأوّلي للقصة يذهب نحو توقع حصول المواجهة بين هاتين الشخصيتين (اللتين تبدوان متكافئتين من حيث القوة)، إلا أن المشهد ينتقل (بطريقة مفاجئة للقارئ) ليصور لنا بأن الذي قتل جالوت (الكافر) هو داوود وليس طالوت (الند المكافئ لجالوت). ليكون السؤال المطروح مرة أخرى هو: من هو داوود هذا؟ وكيف يظهر في هذا المشهد دون سابق إنذار أو دون إشارة مسبقة لوجوده في جيش طالوت؟

إذن، دعنا نجلب السياق كله لنتدبره من هذا الجانب، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ
يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن
شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا
صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ
جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا
عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 246-252]

2. افتراءات سابقة

لقد حاولنا في مقالات سابقة لنا تقديم بعض الافتراءات من عند أنفسنا حول هذه القصة، فزعمنا الظن بأن ذلك النبي الذي كان لبني إسرائيل (ولم يكن من بني إسرائيل) هو لقمان الحكيم. وأن تلك القصة قد حصلت بعد الخروج الأول لبني إسرائيل من الأرض المقدسة على يد العمالقة الذين كان يمثلهم جالوت حينئذ.

كما افترينا الظن بأن جالوت وطالوت اللذين يأتي ذكرهما في هذا السياق هما من ذرية الملكين ببابل هاروت وماروت، قال تعالى:

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم

بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ [البقرة: 102]

فهذه الشخصيات الغريبة يتجمعون معا في الفترة الزمنية التي كانت مميزة لحكم داوود (كخليفة في الأرض وحكم ولده سليمان من بعده (كملك). إذن، علينا ابتداءً أن نحاول تخيّل تفاصيل تلك المرحلة الزمنية بوجود هذه الشخصيات وتلك الأماكن والأحداث، وهي:

⇐ بابل (مكان)
⇐ الأرض المقدسة (مكان)
⇐ هاروت وماروت (ملكان)
⇐ نبي لبني إسرائيل (لا نعرف اسمه بعد – نظنه لقمان)
⇐ طالوت (ملك - مؤمن - مبعوث لبني إسرائيل - زاده الله بسطة في العلم والجسم)
⇐ جالوت (ملك - غير مؤمن - لغير بني إسرائيل - يحكم الأرض المقدسة)
⇐ بنو إسرائيل (مخرجين من الأرض)
⇐ داوود (خليفة في الأرض)
⇐ سليمان (ملك في الأرض)
⇐ الشياطين (مسخرين لسليمان)
⇐ الجن (معذبين على يد سليمان)... الخ

3. تخيلات عامة بمشاهد سينمائية

تعود بنا كاميرا المصور إلى فترة زمنية حيث المكان الذي يدعى بابل، وفي ذلك المكان كان هناك "ملكان" هما هاروت وماروت، وكان هناك شيء أنزل على هذين الملكين، وكان هناك شياطين يتعلمون السحر وما أنزل على هذين الملكين ببابل هاروت وماروت.

ثم تنتقل بنا كاميرا المصور إلى وجود بني إسرائيل حينئذ خارج الأرض المقدسة، مخرجين منها هم وأبناءهم (جيلين)، وكان الذي يحكم الأرض المقدسة حينها هم جماعة من القوم الجبارين بقيادة شخص كافر يسمى جالوت.

وكان هناك (في فترة من تلك الحقبة من الزمن) نبي لبني إسرائيل، ولكنه لم يكن نبيا من بني إسرائيل. وهنا تركّز كاميرا المصور على هذا النبي والملأ من بني إسرائيل يحاولون جهدهم مع هذا النبي أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ ... [البقرة: 246]

افتراء مهم: كان هناك (نحن نتخيل) مسافة فاصلة بين ذلك النبي من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى، بدليل طلبهم منه أن يبعث لهم. فالبعث (نحن نظن) هو إرسال من مكان ما إلى مكان آخر. لذا، دعنا نتيخل ذلك النبي متواجدا في مكان ما (سنحاول تحديده لاحقا بإذن الله) وبني إسرائيل متواجدين في مكان آخر (سنتعرض له بالتفصيل لاحقا إن شاء الله).

لكن المشهد يصوّر محاولة ذلك النبي ألا ينزل عند رغبتهم على الفور، وإنما يذكرهم بأن ذلك قد يشق عليهم، فلا يقاتلوا:

- قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ... [البقرة: 246]

لكن الملأ يصرون على مطلبهم، ويثبتون رغبتهم في القتال، معلّلين ذلك بإنهم قد أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم:

- قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ... [البقرة: 246]

وبالفعل يُكتب عليهم القتال بعد ذلك، لكن النتيجة الطبيعية كانت على نحو ما يُصدّق ظن ذلك النبي فيهم من قبل، بأن لا يقاتلوا، فما يثبت على موقفه من القتال إلا قليل منهم، وذلك لأن الله عليم بالظالمين الذين لا يتبعون ما كتب الله عليهم:

- فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

وكان السبب الذي دفع بهؤلاء ألا يقاتلوا بعد قطعهم العهد على ذلك من قبل هو أن ذلك الملك المبعوث لهم لم يكن منهم، فكان طالوت هو من بعثه الله ملكا:

- وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ... [البقرة: 247]

وكان احتجاج الملأ من بني إسرائيل على أن يكون ذلك الشخص – على وجه التحديد- هو الملك الذي يقاتلون معه في سبيل الله مدفوعا بقلقين اثنين تجاهه؛ أولهما، أن هذا الملك المبعوث إليهم (أي طالوت) ليس له – حسب رأيهم- أحقية بالملك مادام أنه ليس من بني إسرائيل، فهم يرون أن فيهم من هو أحق بالملك منه:

- قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ... [البقرة: 247]

ثانيهما، أن هذا الملك المبعوث إليهم (أي طالوت) لم يؤت سعة من المال:

- وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ... [البقرة: 247]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل بأن الأمل كان يحدو الملأ من بني إسرائيل بأن يكون الملك الذي يطلبونه من نبيهم منهم أو أن يكون شخصا ذا سعة من المال. لنطرح حول ذلك جملة من التساؤلات، نذكر منها:

⇐ لماذا كان ظن الملأ أن يكون الملك منهم؟
⇐ لماذا برروا احتجاجهم بأن ذلك الملك لم يؤت سعة من المال؟
⇐ هل لو كان لذلك الملك سعة من المال، هل كانوا سيذعنون له، ويقبلون به؟
⇐ هل كان الملأ يتوقعون شخصا محددا بعينه (ذا سعة من المال) ليكون هو الملك؟
⇐ ما الذي كان يتوقعه الملأ بخصوص ذلك الملك؟
⇐ لماذا طلبوا ذلك من النبي الذي كان لهم في تلك الفترة؟
⇐ لماذا لم يعمدوا إلى اتخاذ ملك منهم ماداموا يظنون أنهم أصحاب أحقية في ذلك دون الرجوع لذلك اانبي؟
⇐ ما سبب أن يكون القرار بيد ذلك النبي وليس بيدهم مجتمعين؟
⇐ أين كان يتواجد بنو إسرائيل عندما طلبوا ذلك من ذاك النبي؟
⇐ أين كان ذاك النبي متواجدا عندما طلبوا ذلك منه؟
⇐ هل كان ذلك النبي متواجدا بينهم حينئذ؟
⇐ من أين جاء طالوت؟
⇐ هل كان طالوت (الملك المنصّب عليهم حديثا) متواجدا بين ظهرانيهم حينئذ؟
⇐ الخ

نتيجة مفتراة من عندنا مهمة في هذا النقاش الموجّه بمخيلتنا (غير المنضبط بالدليل القاطع): كان ظن الملأ من بني إسرائيل أن ذلك الملك المنشود سيكون منهم لظنهم أنهم أصحاب أحقية في ذلك، أو أن يكون الاختيار (إن تعذر أن يكون منهم) في رجل ذي سعة من المال.

لكن لو تابعنا السياق القرآني ذاته، لوجدنا أن مبررات النبي لأن يكون طالوت هو الملك كانت على نحو أن الله قد زاده بسطة في العلم (مقابل أحقية بني إسرائيل) كما زاده أيضا بسطة في الجسم (مقابل أحقية من كان ذا مال). وما فات ذلك النبي أن يذكرهم (أي الملأ من بني إسرائيل) بأن المُلك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وأن الله واسع عليم:

- قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

ويمكن تلخيص منطق الطرفين على النحو التالي:

منطق الملأ من بني إسرائيل فيمن سيكون ملكا

قرار ذلك النبي فيمن سيكون ملكا

⇐ احقيتهم هم بالملك
⇐ احقية من كان ذو سعة من المال
⇐ بسطة في العلم
⇐ بسطة في الجسم

ونستطيع أن نتخيل (من خلال كاميرا المصور) كيف استمر الجدل بين الطرفين، وكيف أن الغالبية العظمى من الملأ من بني إسرائيل لم تكن لتتنزل عند هذا القرار الرباني بسهولة، فما يكون للخلاف أن يحسم بين الفريقين إلا بالدليل المادي القطعي، فكان هناك آية الملك، ألا وهي التابوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

وهنا لا يستطيع المحتجون من الملأ الاستمرار بالتشكيك بأحقية هذا الرجل (طالوت) بالملك لأنه يملك آية ملكه، وهي التابوت الذي جاء فيه سكينة من ربهم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون (ميراث النبوة في بني إسرائيل)، وتحمله الملائكة. فهم يستطيعون أن يتلكأوا عن المشاركة معه في القتال (كما حصل فعلا)، لكنهم لا يستطيعون أن يستمروا في جدال هم يعلمون الآن يقينا بأنه قد حسم بشكل قاطع في غير صالحهم. وهذا الطرح يثير لدى القارئ حول شخصية هذا الرجل الذي اسمه طالوت، وحول آية ملكه وهو التابوت، وحول ما في ذلك التابوت من إرث النبوة، جملة من التساؤلات، نذكر منها:

⇐ من هو هذا الرجل المسمى طالوت؟
⇐ من أين جاء؟
⇐ كيف كان له بسطة في العلم؟ ما هو ذلك العلم الذي كان عنده؟ ومن أين اكتسب ذلك العلم؟
⇐ كيف كان له بسطة في الجسم؟ وكيف نتخيل بسطته في الجسم؟ ومن أين أكتسب ذلك؟
⇐ كيف جاء معه التابوت؟
⇐ من أين حصل على ذلك التابوت؟
⇐ ما أهمية ذلك التابوت؟
⇐ ما الذي كان في ذلك التابوت؟
⇐ الخ

ولا يفوتنا هنا أن نثير جملة من التساؤلات حول ذلك النبي الذي كان خطاب بني إسرائيل موجها له، نذكر منها:

- ⇐ من هو ذلك النبي الذي كان من بعد موسى؟
- ⇐ لماذا طلب بنو إسرائيل منه أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا معه في سبيل الله؟
- ⇐ لماذا لم يتخذ الملأ من بني إسرائيل قرارا بأنفسهم بتسمية شخص منهم أن يكون ملكا لهم؟
- ⇐ لماذا تقبل الملأ من بني إسرائيل أن يكون ذلك نبيا لهم (وإن لم يكن منهم) لكنهم لم يتقبلوا ابتداء أن يكون الملك من غيرهم؟
- ⇐ هل كان الملأ من بني إسرائيل قادرين على تنصيب ملك منهم دون الرجوع لذلك النبي؟
- ⇐ لماذا لم يكن ذلك النبي هو نفسه ملكا يقاتلون معه؟
- ⇐ الخ

رأينا المفترى: من أجل محاولة الإجابة على مثل هذه التساؤلات (وغيرها)، نجد لزاما إعادة تسطير (وبالتالي تصوير) بعض مشاهد قصة بني إسرائيل منذ بدايتها.

أما بعد،

4. تخيلات مفتراة من عند أنفسنا

تعود بنا كاميرا المصور إلى قصة بني إسرائيل في رجوعهم من مصر إلى الأرض المقدسة مع نبيهم موسى، بعد أن أنجاهم الله من فرعون وقومه. وهناك عند بداية الأرض المقدسة، طلب منهم نبيهم موسى أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم، قائلا:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

لنجد أن بني إسرائيل قد اختاروا ألا يدخلوا الأرض المقدسة حينها، وذلك لأن تلك الأرض كان فيها قوم جبارون. فيرفضون دخولها إلا بشرط أن يخرج منها أولئك القوم الجبارون:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 22]

وما نسمع إلا صوت رجلين اثنين من الذين أنعم الله عليهم يحثان قومهما على الدخول على القوم الجبارين من الباب، مؤكدين بأنهم إن هم دخلوا عليهم الأرض المقدسة من الباب، فإنهم لا محالة غالبون، مع توكلهم في ذلك على الله:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: 23]

لكن بنو إسرائيل يرفضون رفضا قاطعا دخول الأرض المقدسة، ويطلبون من موسى أن يذهب ليقاتل هو وربه، وأنهم منتظرون حتى ينفذ موسى المهمة، وأنه سيجدهم قاعدين، لا يبرحون مكانهم الذي سيتركهم فيه حتى ينفذ المهمة:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]

(انظر مقالاتنا السابقة عن سبب رفضهم دخول الأرض المقدسة مع نبيهم موسى)

وهنا يدع موسى ربه أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، ويحصل تحريم دخول الأرض المقدسة على بني إسرائيل أربعين سنة، فيتيهوا في الأرض:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 25-26]

السؤال: كيف دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل بأن بني إسرائيل لم يستطيعوا دخول الأرض المقدسة إلا بعد أربعين سنة من التيه في الأرض، وذلك لأنها حرمت عليهم كل تلك الفترة الزمنية، ليكون السؤال الآن هو: هل دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد انقضاء فترة التيه؟ وإذا كانوا قد دخلوها فعلا بعد انقضاء فترة التيه، كيف استطاعوا ذلك؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن بني إسرائيل قد استطاعوا دخول الأرض المقدسة بعد فترة التيه، وليس أدل على ذلك – برأينا- بأننا نجدهم مخرجين في زمن ذلك النبي الذي كان لهم من بعد موسى. فهم قد أخرجوا من ديارهم، وليس أدل على ذلك مما جاء في السياق القرآني الذي نحن بصدد التعرض له، وهو الذي يصور لنا حالة بني إسرائيل مع ذلك النبي بعد موسى الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله، فيعودوا إلى الأرض المقدسة بعد أن أخرجوا من ديارهم وأبنائهم:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

نتيجة مهمة جدا جدا مفتراة من عند أنفسنا: تصوّر لنا هذه الآية الكريمة بأن بني إسرائيل قد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم من بعد موسى (حتى زمن ذلك النبي الذي كان لهم من بعد موسى). الأمر الذي يجعلنا نتبنى الظن بأنهم كانوا قبل ذلك متواجدين في مكان ما، فاخرجوا منه وأبنائهم، ليكون السؤال المهم جدا الآن هو: كيف نفهم أن بني إسرائيل رفضوا دخول الأرض المقدسة عندما عاد بهم موسى من مصر وأنهم يقولون الآن لنبي لهم من بعد موسى أنهم قد أخرجوا من ديارهم ويطالبون بالعودة إليها على يد ملك يقاتلون معه في سبيل الله؟

افتراء 1: بنو إسرائيل يرفضون دخول الأرض مع موسى ويتيهون في الأرض

افتراء 2: بنو إسرائيل يقولون لنبي لهم من بعد موسى أنهم قد أخرجوا من ديارهم وأبناءهم

المعضلة: هل دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد موسى وهم من تاهوا في الأرض أربعين سنة؟ وإن كان كذلك، فكيف أخرجوا منها قبل ذلك النبي الذي جاء لهم من بعد موسى، فطلبوا منه أن يبعث الله لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله ليدخلوا الأرض المقدسة؟

تخيلات من عند أنفسنا: لقد تاه بنو إسرائيل في الأرض أربعين سنة بعد أن رفضوا دخولها مع موسى طالبين أن يذهب هو وربه فيقاتلا، فحصل هناك فراق بينهم من جهة ونبيهم موسى (وأخيه هارون) من جهة أخرى. وانظر عزيزي القارئ –إن شئت- السياق كاملا:

- ﴿يَـٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ [المائدة: 21-26]

السؤال: ما الذي حصل بعد فترة التيه التي استمرت أربعين سنة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن بني إسرائيل قد هادوا، أي رجعوا، ودخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم:

- ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 156]

ليكون السؤال الآن هو: كيف دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد أن كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم؟

رأينا المفترى: لو دققنا في النص القرآني، لتوجب علينا البحث في مفرداته مليّا حتى نستطيع أن نتصور القصة كما حصلت على أرض الواقع حينذ. وأول ما نريد جلب انتباه القارئ له هو مفردة "ديارنا" الواردة في الآية الكريمة ذاتها، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

ليكون السؤال الآن هو: ما هي تلك الديار التي أُخرج منها بنو إسرائيل وأبنائهم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هناك سيناريوهين اثنين يمكن تبنيهما لمحاولة الإجابة على هذا التساؤل، وهما:

⇐ أن ديار بني إسرائيل التي أخرجوا منها وأبنائهم هي الأرض المقدسة
⇐ أن ديار بني إسرائيل التي أخرجوا منها وأبنائهم هي ليست الأرض المقدسة، وإنما مكانا آخر في الأرض كأرض مصر مثلا

السؤال: أي الخيارين يمكن أن يكون أقرب للحقيقة؟

أما بعد،

لو حاولنا البحث عن مفردة الديار في النص القرآني، لوجدنا الآيات القرآنية التالية التي تصور لنا (كما نفهمها) أن الديار هي الأرض المقدسة التي كتبها الله لبني إسرائيل:

- ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: 4-5]

- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: 243]
- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 83-85]

ولكن لو تدبرنا الآيات التالية، لوجدنا بأن مفردة الديار قد وردت لتصف أرضا غير الأرض المقدسة كأرض مصر مثلا، فهي التي خرج منها الذين صدوا عن سبيل الله في المواجهة مع بني إسرائيل. ففرعون وجنوده هم من تحالفوا مع هامان وجنوده، ولكن الطرف الثاني تخلى عن الطرف الأول بعد أن عبر فرعون وجنوده طريق البحر مطاردين لبني إسرائيل:

- ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 47-48]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: عندما جاءت مفردة الديار للحديث عن بني إسرائيل، كانت تصف الأرض المقدسة

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: عندما وردت مفردة الديار للحديث عن فرعون وجنوده، كانت مفردة الديار تصف أرض مصر

لكن يمكن لنا – حتى الساعة- أن نتخيل الأمر على الحالتين، أن خروج بني إسرائيل كان من الأرض المقدسة أو خروجهم من ديارهم من مكان آخر غير الأرض المقدسة. فكيف ستحل الإشكالة؟

رأينا المفترى: دعنا نتخيل ابتداء ذلك المشهد الذي تم فيه الفراق بين موسى وأخيه هارون من جهة والقوم الفاسقين (الذين رفضوا دخول الأرض المقدسة) من جهة أخرى، وكانت النتيجة أنهم تاهوا في الأرض أربعين سنة بعد تحريم الأرض المقدسة عليهم. فها هم بنو إسرائيل تائهين طوال كل تلك الفترة من الزمن خارج حدود الأرض المقدسة. ولكن ما أن انقضت الفترة الزمنية التي حرم عليهم طوالها دخول الأرض

المقدسة حتى كان دخولهم إليها مشروعا. ليكون السؤال الآن هو: كيف دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد انقضاء فترة التية؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربنا مخطئين) أنه منذ تلك اللحظة التي انقضت فيها فترة التيه حتى أصبح أولئك القوم يعرفون بمسى يهودا. فهم يهود لأنهم – نحن نظن- قد هادوا (أي رجعوا)، وهناك كان دخولهم الأرض المقدسة، ومكثوا فيها فترة من الزمن، ليكون السؤال مرة أخرى على النحو التالي: كيف دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد موسى؟ ومتى أخرجوا منها إن كانت هي تلك الديار التي أخرجوا منها لاحقا قبل ذاك النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله فيرجعوا إليها من جديد؟

رأينا المفترى: نحن نرى أنه من أجل حلّ هذه الإشكالية، يتوجب علينا (ربما مخطئين) إعادة رأينا المفترى من ذي قبل، ألا وهو: أن دخول بني إسرائيل الارض المقدسة يجب أن يكون بإذن إلهي، وأن خروجهم منها يكون بفسادهم فيها. انتهى.

السؤال: ما هو الإذن الإلهي لبني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة؟

جواب مفترى: أن يدخلوها من الباب.

السؤال: وكيف يدخلونها من الباب؟

جواب مفترى: بالمفتاح

السؤال: وما هو مفتاح الأرض المقدسة؟

جواب مفترى: إنه التابوت – تابوت العهد القديم. The Arch of Covenant

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

نتيجة مفتراه من عند أنفسنا: لا يحتاج بنو إسرائيل – نحن نظن- أن يشنوا الحروب لدخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم. فالله هو من كتب لهم وراثة الأرض المقدسة:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

ولكن ما يحتاجونه هو أن يأخذوا الإذن الإلهي بدخولها من الباب، ولا يمكن – نحن نفتري الظن - أن يدخلوها من الباب إلا أن يكون بيدهم مفتاح تلك الأرض، ألا وهو تابوت العهد القديم. فمتى كان ذلك المفتاح بيد بني إسرائيل، لا تستطيع (نحن نظن) قوة على الأرض أن تمنعهم من دخولها حتى لو كان من يحاول منعهم من دخولها قوم جبارون (كجالوت وجنوده مثلا). فوراثة الأرض المقدسة حق لبني إسرائيل مادام أنهم قد دخلوها بالإذن الإلهي. والدليل على الإذن الإلهي لهم بدخول الأرض المقدسة هو – برأينا-

وجود ذلك التابوت معهم. فنحن نعتقد جازمين بأن تابوث العهد القديم هو بمثابة سفينة نجاة بني إسرائيل. فكما كانت سفينة نوح The Arch of Noah هي وسيلة النجاة للقوم المؤمنين مع نوح، كان تابوت العهد القديم هو سفينة نجاة المؤمنين الصالحين من بني إسرائيل الذين لهم حق وراثة الأرض المقدسة التي كتب الله لهم. فذلك هو (نحن نظن) الميثاق الذي أخذه الله منهم. لذا يتوجب علينا الآن البحث في تفاصيل ذلك الميثاق الذي واثق الله به المؤمنين من بني إسرائيل. ولكن قبل الدخول في باب الميثاق، وجب التنبيه للفكرة المضادة التي يجب أن تكون حاضرة في الأذهان، ألا وهي: إذا دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بدون الحصول على الإذن الإلهي بحيازة التابوت الذي يفتح باب الأرض المقدسة، فإنهم – لا محالة- سيطردون منها على يد قوم آخرين. ولا أشك قيد أنملة أن العلم المسمى بعلم الآثار تنطعا هو أصلا العلم الذي يبحث عن ذلك التابوت، وهو ما يعرف بعلم الاركيولوجي. وانظر عزيزي – إن شئت- في المفردة نفسها .ARCHAEOLOGY فهي علم (LOGY) مهتم بالتابوت.(ARCH)

5. باب الميثاق

أولا، علينا أن نثبت – ابتداء- بأن الالتزام بالميثاق مع الله يعني الحصول على ما واثقهم الله به، لكن نقض ذلك الميثاق (بقطع ما أمر الله به وبالفساد في الأرض) ستكون نتيجته الحتمية هي الخسارة، قال تعالى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧﴾ [البقرة: 27]

ثانيا، كان بنو إسرائيل من الأقوام التي أخذ الله عليهم الميثاق، فرفع فوقهم الطور، لكنهم تولوا من بعد ذلك، واعتدوا في السبت:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٤ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ فَجَعَلۡنَٰهَا نَكَٰلٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهَا وَمَا خَلۡفَهَا وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٦٦﴾ [البقرة: 63-66]

ثالثا، كانت ذلك الميثاق مع بني إسرائيل مشروطا بأن لا يعبدوا إلا الله، مضافا إليها الاحسان بالوالدين وبذي القربى والمساكين، وكذلك القول للناس حسنا، وإيتاء الزكاة، لكنهم تولوا بعد ذلك إلا قليلا منهم:

- ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾ [البقرة: 83]

رابعا، كان هناك شروطا أخرى في ذلك الميثاق تتمثل بأن لا يسفكون دماءهم ولا يخرجون أنفسهم من ديارهم، ولكن كانت النتيجة التحايل على ذلك الميثاق، فقتلوا أنفسهم وأخرجوا فريقا منهم من ديارهم بعد أن ظاهروا عليهم بالأثم والعدوان:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 84-85]

خامسا: كان هناك شيء آخر آتاه الله لمن أخذ ميثاقهم من بني إسرائيل، وطلب منهم أن يأخذوه بقوة، لكنهم سمعوا وعصوا، وأشربوا في قلوبهم العجل، فنكصوا بعد أن كانوا مؤمنين:

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: 93]

ونحن نظن بأن ذلك الشي هو الكتاب. (وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل لاحقا إن أذن الله لنا بذلك).

سادسا، كان ميثاق الله للذين أوتوا الكتاب أن يبينوه للناس ولا يكتمونه، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا:

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: 187]

سابعا، رفع الله الطور فوق بني إسرائيل بذلك الميثاق، وطلب منهم أن يدخلوا الباب سجدا ولا يعتدوا في السبت، وكان ذلك ميثاقا غليظا:

- ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾﴾ [النساء: 154]

ثامنا: نقض بنو إسرائيل ميقاقهم وكفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء بغر حق، وقالوا على مريم بهتانا عظيما، وقالوا أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم:

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ

عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ [النساء: 155-157]

تاسعا، كان ميثاق الله مع بني إسرائيل يتضمن الشروط التي ترد في هذه الآيات، ولكنهم نقضوا ذلك الميثاق أيضا، فكانت قلوبهم قاسية، وحرفوا الكلم عن مواضعه:

- ﴿۞وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: 12-15]

عاشرا، كان فريق من بني إسرائيل يكذبون رسل الله، وكان فريق آخر منهم يقتلونهم عندما كان أولئك الرسل يأتونهم بما لا تهوى أنفسهم:

- ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المائدة: 70-71]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا من عند أنفسنا: كان ميثاق الله مع بني إسرائيل ينص على وراثة الأرض المقدسة تحت شروط محددة.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (لا تصدقوها إن استطعتم): كان تحقيق الميثاق يتمثل بحيازة تابوت العهد القديم، وكان نقض الميثاق ينطوي على خسارتها. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يقف موسى مع بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر على باب الأرض المقدسة، ويكون بحيازتهم التابوت. فيطلب موسى من قومه دخول الأرض المقدسة التي كان يقطنها قوم جبارون حينئذ، ويعلموا على لسان اثنين منهم أنهم بمجرد دخولهم من الباب سيكونوا – لا محالة - غالبين:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

لكن خوف بني إسرائيل على أنفسهم (بسبب ما حصل لهم في أرض مصر من الاستعباد) هو (نحن نظن) ما جعلهم يتلكأون، فيرفضون الدخول، ويطلبون من موسى أن يذهب ويقاتل هو وربه. فمنطق بني إسرائيل حينئذ هو على النحو التالي (حسب فهمنا طبعا): مادام أنهم غالبون لمجرد أنهم يدخلون الأرض من بابها، ومادام أن بحيازتهم ذلك التابوت الذي هو مفتاح باب الأرض المقدسة، فلا داع – هم يظنون- أن يذهبوا مع موسى. فيستطيع موسى - هم يظنون- أن يذهب هو وربه، فيقاتلا، وستكون النصرة لهما. فذهاب بني إسرائيل أجمعين مع موسى – هم يعتقدون- لا طائلة منه لا سيما أن الغلبة ليست للقوة أو لكثرة العدد، وإنما لوجود مفتاح الأرض المقدسة؛ فسواء ذهب القوم مع موسى أو لم يذهبوا، سيتمكن موسى أن يدخل الأرض المقدسة، ويغلب القوم الجبارين، وعندها سيدخل بنو إسرائيل بكل يسر وسهولة، والأهم من ذلك أنهم لا يكونوا بحاجة للمخاطرة. فبنو إسرائيل – كعلماء- لا يحبذون الدخول في مغامرات ربما لا تكون محسومة مسبقا لصالحهم.

أما منطق موسى - بالمقابل- فهو مبني على أن لبني إسرائيل الأحقية في الأرض المقدسة مادام أنهم ينصاعون للأمر الإلهي، لكن إن هم لم ينصاعوا للأمر الإلهي، يصبحوا إذا قوما فاسقين. ولا يستحقون بذلك وراثة الأرض المقدسة.

الدليل

لو تدبرنا مفردة الفسق على مساحة النص القرآني، سنجد أن الفسق الأول قد حصل من الشيطان الذي لم ينصاع للأمر الإلهي:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠﴾ [الكهف: 50]

فكانت النتيجة لفسق الشيطان أن أخرجه الله مطرودا من الجنة، قال تعالى:

- ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]
- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [الحجر: 34]
- ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧﴾ [ص: 77]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأنه مادام أن بني إسرائيل قد فسقوا عن الأمر الإلهي، فإن موسى لن يدخل بهم الأرض المقدسة. لذا، جاء طلبه من الله أن يفرق بينه ومن آمن معه من جهة وبين القوم الفاسقين من جهة أخرى:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

نتيجة مفتراة: كان بنو إسرائيل في تلك اللحظة قوما فاسقين، لأنهم لم يتقبلوا الأمر الذي جاءهم على لسان نبيهم موسى. فكانت النتيجة على النحو التالي:
عدم دخولهم الأرض المقدسة
ينيهون في الأرض أربعين سنة
فراق بين القوم الفاسقين من جهة وموسى ومن معه من الذين آمنوا من جهة أخرى (وهم موسى وأخوه هارون والرجلان اللذان يخافان أنعم الله عليهما).

6. تساؤلات

⇐ أين ذهب موسى وهارون؟
⇐ أين ذهب الرجلان اللذان أنعم الله عليهما؟
⇐ ماذا حصل للتابوت الذي هو مفتاح الأرض المقدسة؟
⇐ ماذا حلّ ببني إسرائيل في فترة التيه؟
⇐ أين قضى بنو إسرائيل فترة التيه؟
⇐ ماذا حصل لهم بعد انقضاء فترة التيه؟
⇐ هل دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة بعد انقضاء فترة التيه؟
⇐ إن كانوا قد دخلوها، فكيف كان لهم ذلك؟
⇐ كم استمر وجودهم في الأرض المقدسة بعد أن دخلوها بعد فترة التيه؟... الخ

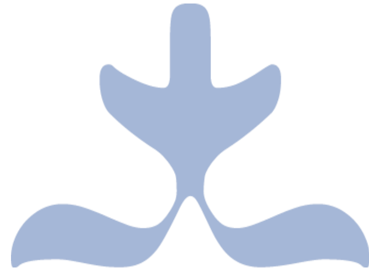
تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن موسى قد ترك بني إسرائيل في التيه، وذهب مع فتاه (وهو أحد هذين الرجلين اللذين أنعم الله عليهما) إلى مجمع البحرين:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

وهناك تبدأ أحداث قصة موسى مع ذلك الرجل. (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)
بينما كان الرجل الآخر (نحن مازلنا نتخيل) برفقه هارون، ليكون السؤال الآن هو: أين كان التابوت؟
رأينا المفترى: عندما حصل الفراق بين موسى وأخيه والرجلين المؤمنين من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى، ذهب موسى وفتاه إلى مجمع البحرين، تاركا هارون والرجل الآخر في المكان الذي حصل فيه الفراق بين الطرفين. وسار موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين، بينما ذهب هارون والرجل الآخر باتجاه آخر، ليكون السؤال الآن هو: أين كان التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد بأن هناك احتمالين اثنين لا ثالث لهما: أن يكون التابوت بحيازة هارون وذلك الرجل الذي ظل معه بعد أن فرق الله بين الطرفين، وظلا ينتظران عودة موسى وفتاه من رحلة البحر. أو أن يكون التابوت قد ذهب مع موسى وفتاه عندما توجها إلى مجمع البحرين. ليكون السؤال المطروح على الفور هو: ما علاقة كل ذلك بقصة داوود الذي هو محور حديثنا في هذه السلسلة من المقالات؟

من يدري ...؟!



قصة داوود

الجزء الثاني



قصة داوود - الجزء الثاني

خلصنا في الجزء السابق من هذه السلسلة من المقالات إلى جملة من الافتراءات، نذكر أبرزها:

⇐ التابوت هو مفتاح باب الأرض المقدسة
⇐ كان التابوت بحيازة موسى مع بني إسرائيل عندما خرجوا من مصر
⇐ عندما وصل بنو إسرائيل مع نبيهم موسى إلى مشارف الأرض المقدسة، طلب منهم دخول الأرض المقدسة التي كتب الله لهم

- ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة: 21]

⇐ رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة خوفا من القوم الجبارين الذين كانوا متواجدين فيها حينئذ

- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: 22]

الافتراء: نحن نجزم الظن بأن موسى قد أخبر قومه بأن دخولهم الآن قد جاء بشرعية إلهية وذلك لحيازتهم التابوت الذي هو مفتاح الأرض المقدسة، فهم لا يحتاجون إلى قتال، فلا قوة على الأرض تستطيع منعهم دخول الأرض المقدسة مادام أن التابوت بحيازتهم

⇐ حاول رجلان من بني إسرائيل أن يحثا قومهما على المضي قدما مع نبيهم موسى، وبالتالي دخول الأرض المقدسة معه، إلا أن محاولتهما باءت بالفشل

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: 23]

⇐ لم يثن ذلك بني إسرائيل عن رفضهم دخول الأرض المقدسة، فطلبوا من موسى أن يذهب هو وربه فيقاتلا مادام أن مفتاح الأرض المقدسة يكفيهم القتال ويحقق لهم النصر

- ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: 24]

⇐ أصبح بنو إسرائيل – بذلك- قوما فاسقين لأنهم لم ينصاعوا للأمر الإلهي على لسان نبيهم موسى
⇐ ما عاد بنو إسرائيل يستحقون دخول الأرض المقدسة، بل خسروها حينئذ لأن الأرض المقدسة من نصيب عباد الله الصالحين (وليس الفاسقين)
⇐ طلب موسى من ربه أن يفرق بين الطرفين

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]

⇐ كان العقاب الإلهي لفسقهم عن الأمر أن يحرم عليهم دخولها، فيتيهوا في الأرض أربعين سنة

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 26]

الافتراء: كانت مدة التيه في الأرض أربعين سنة، فذهب موسى وأخوه هارون (مع الرجلين المؤمنين) باتجاه، وذهب مجموع بني إسرائيل حينئذ باتجاه آخر، نحو التيه ... الخ

1. الإسقاط الجغرافي:

السؤال: أين حصل ذلك جغرافيا على أرض الواقع؟

أما بعد،

ما أن يحصل الفراق بين الطرفين حتى يتخذ موسى قراره – نحن نظن- بأن يبلغ مجمع البحرين بصحبة فتاه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

وقد افترينا سابقا بأن مجمع البحرين هي منطقة الالتقاء بين خليج السويس وخليج العقبة اللذين يشكلان ما يشبه ذيل الحوت بطرفيه. ونحن ندعو الجميع إلى النظر في شكل ما يسمى بالبحر الأحمر على الخريطة الجغرافية ليرى بأنه كله على شكل حوت يبدأ رأسه عند باب المندب وخليج عدن، وينتهي ذيله المفترع بخليج العقبة وخليج السويس.

ليكون السؤال الآن هو: أين باب الأرض المقدسة الذي يفتحه التابوت؟

رأينا المفترى: لو دققنا بمسألة التيه التي امتدت لمدة أربعين سنة، لربما حقّ لنا أن نفتري القول أن التيه كان في منطقة جغرافية واسعة على الأطراف الجنوبية للأرض المقدسة، وذلك لأن رحلة بني إسرائيل من مصر باتجاه الأرض المقدسة كانت من الجنوب إلى الشمال بعد عبورهما البحر، ونجاتهما من فرعون وقومه. لذا، فهي رحلة سارت مع امتداد ساحل البحر الأحمر الشرقي من جهة الجزيرة العربية، ابتداء من مدينة جدة باتجاه منطقة العقبة، التي تقع على بداية الأرض المباركة، قال تعالى:

- ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾ [البلد: 11-12]

(أنا أدري ما العقبة! بس بكفي لهون)

تخيلات مفتراة: هذا موسى يترك قومه (الذين فسقوا عن الأمر يتيهون في الأرض أربعين سنة)، ذاهبا مع فتاه، وقاصدا مجمع البحرين (نقطة الالتقاء بين خليج السويس وخليج العقبة)، لملاقاة ذلك العبد

الذي آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علما. وبغض النظر عن تفاصيل القصة الآن (ومن أراد ذلك فليرجع إلى سلسلة مقالات قصة موسى على المدونة)، ها هما يجدان ذلك العبد الصالح هناك

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥﴾ [الكهف: 65]

فيذهب موسى مع ذلك العبد الصالح طالبا أن يعلمه من علم رشد:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

وكانت واحدة من القصص التي حصلت مع موسى في صحبته لذاك العبد الصالح هو قتل الغلام الذي لقياه في طريق رحلتهما:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]

وكان السبب الذي قدّمه العبد الصالح لموسى لتبرير قتله لذاك الغلام هو التالي:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 80-81]

بعيدا أن تفاصيل القصة حول من هو ذلك الغلام ولماذا قتله وكيف قتله وأين قتله، الخ. فالسؤال المحوري الذي سنطرحه الآن، وسيكون له - لا شك- تبعات جمّة على تفاصيل القصة كما سنرويها مفتراة من عند أنفسنا، هو: هل أبدلهما ربهما خيرا من ذلك الغلام الذي قتله صاحب موسى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من الاستحالة بمكان ألا يبدلهما ربهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا. فمادام أن قتل الغلام كان مبررا لهذه الغاية، فنحن نؤمن أنها قد تحققت فعلًا على أرض الواقع، بدليل أن قتل الغلام كان من الإرادة الإلهية (بالإضافة طبعا لإرادة العبد الصالح صاحب موسى)، قال تعالى:

- ﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 81]

ليثير هذا الطرح جملة من التساؤلات تعرضنا لها في مقالات سابقة لنا، والتي نجد أن من الضرورة بمكان إعادتها هنا من أجل وضوح الفكرة للقارئ الكريم:

⇐ من هو ذلك الغلام الذي قتله العبد الصالح؟
⇐ من هما أبواه اللذان كاد ذاك الغلام أن يرهقهما طغيانا وكفرا؟
⇐ هل أبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما؟
⇐ متى أبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما؟
⇐ هل للغلام الجديد ذكر في كتاب الله؟
⇐ هل كان لذلك الغلام الجديد مهمة محددة؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية لوجدنا بأن الغلام المقتول كاد أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانًا وكفرًا (وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)، فهو إذًا من جاء ذكره – كما زعمنا في مقالاتنا السابقة - في الآيات التالية:

- ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: 17]

(للتفصيل حول شخصية هذا الغلام وصفاته وسبب قتله، انظر مقالاتنا السابقة)

فالله هو إذا من أبدلهما خيرًا من ذلك الغلام الذي قتله صاحب موسى. ليكون السؤال الآن هو: ماذا كانت مهمة ذلك الغلام الذي كان خيرًا من الذي قتله صاحب موسى؟

جواب مفترى: دعنا نثبت الفكرة البسيطة التالية: لقد كانت مشكلة الغلام المقتول ناشبة مع أبويه، وأنه كاد أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وأنه (نحن نظن) هو من قال لأبويه أف لكما. أليس كذلك؟

إذا، لو بحثنا في النص القرآني عن علاقة أي شخص مع أبويه، سنجد على الفور الآيات الكريمة التالية التي تسطر الأساس المتين للعلاقة السليمة بين الابن ووالديه:

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: 15-16]

ولو تدبرنا هذه الآيات في سياقها الأوسع، سنجدها تتحدث عن الشكر لله وللوالدين، لكن يبرز هنا السؤال المثير جدا عن الحكمة في أن تأتي قصة من قال لوالديه أف لكما – على وجه التحديد- في سياق الحديث عن الوصاية للإنسان بوالديه في الايات السابقة. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- السياق كله الآن:

- ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 15-18]

السؤال مرة أخرى: لماذا جاءت قصة من قال لوالديه أف لكما في هذا السياق القرآني على وجه التحديد؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: لو تدبرنا السياقات القرآنية على مساحة النص كله، لوجدنا بأن آيات الشكر بشكل عام وآيات الشكر للوالدين بشكل خاص قد جاءت مصاحبة على الدوام لـ آل داوود. انتهى

دعنا نحاول الآن جلب السياقات القرآنية الخاصة بالشكر لله وللوالدين، لنرى إن صح افتراؤنا هذا. فلو بحثنا عن آل داوود على مساحة النص القرآني، لوجدناهم هم الذين كانوا يعملون شكرا، قال تعالى:

- ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: 13]

كما نجد أن الشكر قد جاء صراحة على لسان سليمان (وهو لا شك من آل داوود):

- ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: 40]

ولو حاولنا أن نتدبر الآيات الخاصة بسليمان أكثر، لوجدنا سليمان نفسه يتحدث عن نعمة الله عليه وعلى والديه. وانظر إلى الدقة في اللفظ هنا، حيث التقاطع بين آية الوصاية بالوالدين التي وردت في السياق القرآني السابق الذي يتحدث عن الشكر للوالدين الذي نعيده هنا للأهمية:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

مع ما قاله سليمان في آية أخرى في كتاب الله:

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19]

ولو عدنا الآن إلى موعظة لقمان (وهو من نظن أنه والد داوود) لابنه (داوود)، لوجدناها تتحدث صراحة عن الشكر لله وللوالدين:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: 13-14]

إن الغاية من هذا السرد هو الوصول إلى افتراء خطير (هو لا شك من عند أنفسنا) مفاده: إثبات خط نبوة جديد في بيت الذين كانوا يعملون شكرا، ألا وهم آل داوود. لكن السؤال هو: كيف جاءت النبوة في آل داوود؟

إن هذا الطرح يتطلب منا وضع جملة من التساؤلات الأولية، نذكر منها:

⇐ أليس موسى هو النبي الرسول لبني إسرائيل قبل مجيئ آل داوود؟
⇐ ألم يكن هارون نبيا رسولا قبل مجيئ آل داوود؟
⇐ كيف وصلت النبوة إلى آل داوود؟
⇐ هل هناك فرق بين آل موسى وآل هارون من جهة وآل داوود من جهة أخرى؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن خط النبوة الذي كان في آل موسى وآل هارون قد انتقل إلى بيت جديد من المؤمنين.

السؤال: من هو ذلك البيت من المؤمنين الذي حاز على خط النبوة من بعد موسى؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): لقد بدأ خط النبوة الجديد في بيت الوالدين المؤمنين لذلك الغلام الذي قتله صاحب موسى. انتهى.

افتراء خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأنه لو لم يحصل قتل لذلك الغلام على يد صاحب موسى، ولولا الإرادة الإلهية باستبدال أبويه المؤمنين خيرا منه زكاة وأقرب رحما، لتغيرت مجريات أحداث التاريخ كلها. فقتل ذلك الغلام هو – نحن نفتري الظن- من فتح الباب لبزوغ بيت نبوة جديد في غير بني إسرائيل. ألا وهم آل داوود. فكيف حصل ذلك؟

سيناريو غريب عجيب: نحن نتخيل ما حصل على نحو أن كان هناك غلام كاد أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانا وكفرا:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: 80-81]

وقد بذل الأبوان جهدهما ليصداه عن كفره، وجلبه إلى دائرة الإيمان، لكن ذلك الغلام أبى تلبيه دعوة الأبوين، وقطع العلاقة معهما بقوله إف لكما، ظانا أن الخروج للحساب من أساطير الأولين:

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾ [الأحقاف: 17]

فخرج ذلك الغلام من بيت والديه إلى غير رجعة، لكن ما أن رءاه صاحب موسى عندما لقياه حتى بادره بالقتل، لئلا يرهق أبويه طغيانا وكفرا:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: 80-81]

ونحن لا نتردد أن نؤمن بأن الله قد أبدل والديه خيرا منه زكاة وأقرب رحما، ليكون خيرا من ذاك الذي قتله صاحب موسى. فالسؤال الذي خالج القارئ لهذه الآيات الكريمة في كتاب الله الآن هو: من هو الغلام الجديد الذي هو خير زكاة من أخيه المقتول وأقرب رحما لوالديهما؟ هل هذه حادثة عارضة في التاريخ تقرأ على سبيل العبرة؟ هل لهذه الحادثة اثر على مجريات أحداث التاريخ حتى سطرها النص القرآني؟ هل لها انعكاسات علينا وعلى العالمين حتى تصبح جزءا من قرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار في كل أرجاء المعمورة؟

رأينا المفترى: علينا أن نكف أخذ كل ما في قصص الكتاب على سبيل العبرة والتعلم كما أفهمنا سادتنا وكبراؤنا، وعلينا أن نبحث بجدية عن حقيقة تلك القصص وكيف أثرت في مجرى أحداث التاريخ، وكيف لها انعكاسات على حياة الناس في كل زمان ومكان. فلولا جدية الأمر لما جاء تفصيلها في كتاب الله العزيز. إذا، لابد من طرح السؤال ذاته مرات ومرات: من هو ذلك الغلام الذي أبدله الله الأبوين المؤمنين تعويضا لهما عن ابنهما الذي قتله العبد الصالح، صاحب موسى؟

جواب مفترى لا تصدقوه: إنه لقمان

الدليل

كانت الغاية من استبدال الغلام المقتول هو أن يكون الغلام المولود خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: 80-81]

ولو بحثنا في النص القرآني عن ذلك الذي تعلم الشكر لله وللوالدين، وأصبح واعضا للآخرين بهما، لوجدنا موعظة لقمان العظيمة لولده، وكانت تلك هي الوصية التي جاءت في خطابه مع ابنه بعد أن وصاه بألا يشرك بالله شيئا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾ [لقمان: 13-15]

وما أن تزوج لقمان (نحن ما زلنا نتخيل) حتى أنجب داوود الذي بدوره أنجب سليمان، فكانوا هم بيت من العاملين شكرا.

- ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]

فأصبح هناك خط نبوة في بيت الوالدين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما، وأبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما، فأصبح خط بيت النبوة الحديد هو على النحو التالي:

الدليل: باب الشكر

لو حاولنا جلب السياقات القرآنية التي تتحدث عن الشكر مرتبطا بأشخاص محددين على مساحة النص القرآني، لوجدناها على النحو التالي:

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل: 19]
- ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾ [النمل: 40]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: 12-15]
- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾ [سبأ: 15-19]
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣﴾ [النحل: 112-113]

2. ربط السياقات

السؤال: كيف يمكن أن نربط هذه السياقات القرآنية معا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لندع كاميرا المصور تعود بنا قليلا إلى رحلة خروج بني إسرائيل مع نبيهم موسى من أرض مصر، وهلاك فرعون وجنوده، فكانت وراثة الأرض من بني إسرائيل:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: 52-59]
- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ۝١٣٧﴾ [الأعراف: 136-137]

كما كانت من نصيب قوم آخرين:

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: 23-28]

فأصبحت مشارق الأرض ومغاربها من نصيب بني إسرائيل وشاركهم فيها قوم آخرون (للتفصيل انظر مقالتنا السابقة تحت عنوان قصة سبأ)

فكانت هناك حضارة في وادي النيل تسمى يتشارك فيها بقية من بني إسرائيل مع قوم آخرين، ألا وهي حضارة سبأ (شيبة، طيبة) حيث كانت رحلة موسى مع صاحبه إليها. حيث لقيا ذلك الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانا وكفرا هناك، فعمد صاحب موسى إلى قتله على الفور:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ۝٧٤﴾ [الكهف: 74]

وكان تبرير العبد الصالح قتله ذلك الغلام على النحو التالي:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: 80-81]

لذا، فإن المنطق الذي نحاول تبريره هو على نحو أن الله قد أبدل فعلا هذين الأبوين خيرًا من ذلك الغلام زكاة وأقرب رحما، أي غلاما لا يمكن أن يقول لهما أف، ولا يمكن إلا أن يكون شاكرا لله ولوالديه.

السؤال: كيف أبدل الله هذين الأبوين ذلك الغلام؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق في السياق القرآني الذي جاءت فيه آية الشكر لله وللوالدين، قال تعالى:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 15-18]

انظر عزيزي القارئ - إن شئت - بين الآيات الأولى التي تسطر السنة الإلهية بالوصاية بالوالدين:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأحقاف: 15-16]

والآيات اللاحقة مباشرة التي تبين قصة من قال لوالديه إف لكما:

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 17-18]

ففي حين أن الله يتقبل عن من أحسن لوالديه ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة، وذلك وعد الصدق الذي كانوا يوعدون، كان الذي قال لوالديه أف لكما ممن حق عليهم القول، فكانوا خاسرين.

لكن دعنا الآن ندقق في جزئية غاية في الغرابة ترد في هذا السياق، ألا وهي تحديد الفترة الزمنية لمن يشكر لوالديه، ألا وهي أربعين سنة:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

ليكون السؤال هو: لماذا جاء تحديد ذلك بسن معين، ألا وهو أربعين سنة؟

رأينا المفترى: إنه سن النبوة. انتهى

السؤال: ما معنى ذلك؟ ما الذي نفهمه من ذلك؟ أين الغرابة في الموضوع؟ يسأل صاحبنا.

رأينا المفترى: دعنا نربط هذه الآية الكريمة الخاصة بالشكر للوالدين (عند سن الأربعين) مع الآية التي تتحدث عن فترة التيه لبني إسرائيل عند فراقهم نبيهم موسى وأخيه هارون، قال تعالى:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]
- ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 21-26]

نتيجة مفتراة 1: بلغ الغلام الذي أبدله الله لأبويه المؤمنين سن الأربعين
نتيجة مفتراة 2: تاه بنو إسرائيل في الأرض 40 سنة بعد أن حرم الله عليهم دخول الأرض المقدسة طوال تلك الفترة.

السؤال: ما علاقة هذه بتلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: يفارق موسى بني إسرائيل، فيتيهون في الأرض أربعين سنة، ويذهب موسى في رحلته مع العبد الصالح، فيقتل ذلك الرجل الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا، ويبدل الله الأبوين خيرا منه زكاة وأقرب رحما، فيتزامن تيه بني إسرائيل مدة الأربعين سنة مع ابدال الأبوين غلاما خيرا من الذي فقداه على يد العبد الصالح. ليكون السؤال الآن هو: ماذا حلّ ببني إسرائيل بعد انقضاء فترة التيه؟

جواب مفترى: بعد انقضاء فترة التيه، يكون التية الذي فرض على بني إسرائيل قد انتهى، ويكون حضر دخولهم الأرض المقدسة خلال تلك الفترة قد رفع عنهم، فهم الآن بحاجة أن يدخلوها بإذن إلهي. فكيف سيحصل لهم ذلك؟

رأينا: لو حاولنا تخيل بني إسرائيل في فترة التية، لربما ساغ لنا أن نتخيل محاولاتهم المتكررة بدخول الأرض المقدسة والخروج من التيه، لكن حتى لو حصل أن حاولوا دخول الأرض المقدسة، وحتى لو نجحوا في دخولها، لكان لزاما أن يخرجوا منها على يد قوم آخرين، مادام أنهم لم يدخلوها بالإذن الإلهي. والإذن الإلهي لشرعية دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة هو وجود التابوت. انتهى.

رأينا المفترى: كان لابد لبني إسرائيل من الحصول على الإذن الإلهي بشرعية دخول الأرض المقدسة، فكيف سيحصلون على الإذن الإلهي؟

رأينا المفترى: كان لابد من حصولهم على مفتاح الأرض المقدسة، ألا وهو التابوت. فبنو إسرائيل يعلمون يقينا بأن شرعية دخولهم الأرض المقدسة لن تكون متوافرة إلا بأن يأتيهم تابوت العهد القديم. فكيف أتاهم ذلك التابوت؟

فلربما يحل مثل هذا الطرح – على ركاكته - سبب أن يطلب الملأ من بني إسرائيل من نبي لهم من بعد موسى أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله للعودة إلى الديار التي أخرجوا منها وابناءهم. فكيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: هناك على أطراف الأرض المباركة يتواجد التائهون من بني إسرائيل، تنقضي فترة التيه التي استمرت أربعين سنة، وهناك في الطرف الآخر البعيد (في سبأ) يبلغ ذلك الغلام الذي أبدله الله لوالديه أربعين سنة. ويصبح هو نبي لبني إسرائيل وإن لم يكن منهم، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

وهنا نجد أنفسنا ملزمين أن نطرح جملة من التساؤلات حول ما جاء في هذه الآية الكريمة من جديد، نبدأها بهذه الحزمة؟

⇐ هل كان ذلك النبي من بني إسرائيل؟
⇐ من هو ذلك النبي الذي كان لبني إسرائيل من بعد موسى؟
⇐ كم كانت مدة الفترة الزمنية التي تفصل بين موسى وهذا النبي الذي جاء بني إسرائيل من بعده؟
⇐ لماذا حصل الحوار بين الملأ من بني إسرائيل وهذا النبي؟
⇐ لماذا كان الحوار مع الملأ من بني إسرائيل وليس مع العامة منهم؟
⇐ كيف حصل الحوار بينهما؟
⇐ هل كان طرفا الحوار متواجدين معا في نفس المكان؟
⇐ لماذا كان الملأ مستعجلين القتال؟
⇐ لماذا كان ذلك النبي غير مستعجلا القتال؟
⇐ الخ

أما بعد،

بناء على تصورنا الخيالي لهذه القصة، نتجرأ أن نقدم هنا مجموعة من الافتراءات التي هي من عند أنفسنا:

- ⇐ لم يكن ذلك النبي الذي كان لبني إسرائيل من بني إسرائيل وإنما كان من قوم آخرين
- ⇐ كان ذلك النبي هو لقمان
- ⇐ كانت الفترة الزمنية الفاصلة بين موسى وهذا النبي هي أربعين سنة
- ⇐ كان ذلك النبي متواجدا في غير المكان الذي كان الملأ من بني إسرائيل متواجدين فيه
- ⇐ حصل الحوار بين الطرفين عن بعد، فطلبوا منه أن يبعث لهم من عنده ملكا.
- ⇐ كان الملأ من بني إسرائيل متعجلين أن يبعث لهم ملكا لأنهم انهوا فترة التيه التي كانت أربعين سنة
- ⇐ الخ

3. أحداث بني إسرائيل مع لقمان

السؤال: كيف حصل ذلك كله؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 1: عندما أنهى بنو إسرائيل فترة التيه، كانوا على يقين بأنهم يستطيعون الآن دخول الأرض المقدسة، لكنهم كانوا على يقين أيضا بأن دخولهم الأرض المقدسة لابد أن يكون بشرعية. ولا يمكن لهذه الشرعية أن تتأتى لهم إلا بحيازة المفتاح الذي هو تابوت العهد القديم. فكان لابد لهم أن يبحثوا عمن يملك تابوت العهد القديم، الذي ذهب مع موسى عندما فارقهم بعد أن رفضوا دخول الأرض المقدسة. فلسان حال بني إسرائيل حينئذ هو: أين ذهب موسى بالتابوت بعد أن فارقنا قبل أربعين سنة؟ أين استقر ذلك التابوت؟ الخ

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 2: في هذه اللحظة، جاء بني إسرائيل العلم بأن هناك نبي لهم (وليس منهم) هو فقط من يعلم أين هو تابوت العهد القديم، فحصلت المراسلات بين الملأ من بني إسرائيل وهذا النبي، وكان هدف الملأ من بني إسرائيل التأكد من أمرين اثنين لا ثالث لهما:

أن هذا النبي (الذي لهم وليس منهم) هو فعلا نبي حقيقي

معرفة خبر تابوت العهد القديم

فمنطق الملأ من بني إسرائيل هو على النحو التالي: مادام أنك نبي لنا، فأنت إذا تعلم خبر تابوت العهد القديم، فابعث لنا إذا ملكا نقاتل معه في سبيل الله:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي

﴿... سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

فالملأ من بني إسرائيل على يقين بأن صحة نبوته يؤكدها خبر التابوت. ولكن كان الأمل يحدوهم بأن يكون ذلك الملك (المبعوث من طرف ذاك النبي) منهم أو أن يكون شخصا محددا بعينه ذو سعة من المال. لكن جاءهم الخبر على غير ما يتمنون ويرغبون، فكان الملك الذي بعثه الله لهم هو طالوت:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ ...﴾ [البقرة: 247]

وهنا لا يتواني الملأ من بني إسرائيل عن اظهار امتعاضهم من ذلك (خاصة أنهم في مواجهة مع جالوت)، معللين احتجاهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ ...﴾ [البقرة: 247]

لكن ذلك النبي رد حجتهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

فكيف سيحسم الجدل بين الطرفين؟
رأينا المفترى: لم يجد ذلك النبي بدّا من تقديم الحجة التي لن يستطيع الملأ من بني إسرائيل الاعتراض عليها، ألا وهي حيازة ذلك الملك المصطفى عليهم على تابوت العهد القديم:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

وهنا تخرس الألسنة، فلا يجد الملأ من بني إسرائيل إلا الإقرار لذلك النبي بأنه فعلا نبي لبني إسرائيل (وإن لم يكن من بني إسرائيل)، وأن ذلك الملك المصطفى هو صاحب الشرعية في قيادة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، في مواجهة حتمية مع القوم الجبارين الذين منعوهم من دخولها أول مرة.
وعلى الرغم من عدم قدرة الملأ على الاستمرار في الجدل، لكن لم يثبت في المواجهة الفعلية مع طالوت في مقارعة جالوت وجنوده إلا قليل منهم:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

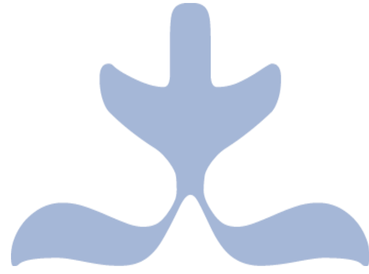
أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ

﴿٢٤٩﴾ [البقرة: 249]

وتتم المواجهة بين الطرفين، فيثبت الذين آمنوا، ويتحقق لهم الغلبة بإذن الله، ويظهر في هذه اللحظة الشخص الذي استطاع أن يقتل جالوت، ألا وهو نبي الله داوود الذي لم يكن حينئذ إلا شابا يافعا، هو من سيكون له وراثة الأرض كخليفة:

- ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ [البقرة: 250-252]

فمن هو داوود؟ من يدري؟



قصة داوود

الجزء الثالث



قصة داوود الجزء الثالث

1. قصة النبوة في بيت آل داوود

في المرة السابقة، حاولنا ربط الايتين التاليتين معا:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: 15]
- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 26]

وكان الهدف هو أن نثبت بأن فترة تحريم الأرض على بني إسرائيل مدة أربعين سنة على وجه التحديد مرتبطة ارتباطا مباشرا بتأهيل رسول جديد يستطيع أن يعيد بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة بشرعية حيازة تابوت العهد القديم الذي هو مفتاح الأرض المقدسة. (للتفصيل انظر الجزئين السابقين)

أما اليوم، لنبدأ النقاش بالافتراء الذي ربما يصعب المجادلة فيه، ألا وهو إيماننا القاطع بأن كتاب الله قد جاء مفصلا على علم:

- ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٥٢﴾ [الأعراف: 52]

لذا، لما جاءت كل قصصه مفصلة، كانت مهمة كل من يحاول تدبرها منصبة في البحث عن التفصيل الحكيم لهذه القصص. ولما كانت مهمتنا في هذه السلسلة منصبة في البحث في تفصيل قصة داوود، أصبح لزاما علينا ايجاد تقاطعات هذه القصة مع كل ما في كتاب الله. فكانت أول المحطات التي وجدنا أنفسنا نبحث فيها هي الربط الواضح بين قصة داوود من جهة وقصة موسى من جهة أخرى. وقد كان حلقة الوصل بينهما هو ذلك النبي الذي توسط خط الرسالة بين موسى من جهة وداوود من جهة أخرى، وهو النبي نفسه الذي يرد ذكره في الآيات الكريمة التي كان جلّ نقاشنا في الأجزاء السابقة منصبا عليها، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ

ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ
عَلِيمٞ ٢٤٧ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ
لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن
شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ
إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا
صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ
جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم
بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا
عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٥٢﴾ [البقرة: 246-252]

فيصبح التسلسل التاريخي لسيرة الأنبياء مع بني إسرائيل على النحو التالي:

موسى (نبي من بني إسرائيل) ⇐ نبي لبني إسرائيل ⇐ داوود ⇐ سليمان

فحاولنا في الجزئين السابقين الاجابة على على تساؤلين اثنين هما:

- من هو ذلك النبي الذي جاء من بعد موسى ومن قبل داوود؟
- كيف انتقل خط النبوة من آل موسى إلى آل داوود؟

وخلصنا إلى تقديم بعض الافتراءات التي ربما هي غير مسبوقة، نذكر منها:

⇐ أن ذلك النبي الذي جاء من بعد موسى ومن قبل داوود هو لقمان
⇐ أن لقمان هذا هو من أبدل الله به الأبوين المومنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما
⇐ أن قتل ذلك الغلام قد كانت نتيجته المباشرة بداية اصطفاء لبيت نبوة جديد في غير بني إسرائيل، وكان ذلك عن طريق الأبوين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى (العبد الصالح) ابنهما خشية أن يرهقهما طغيانا وكفرا.

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 80-81]

⇐ كان ذلك البيت المؤمن هو حلقة الوصل بين خط النبوة في بني إسرائيل (آل موسى) وفي غير بني إسرائيل (آل داوود).
⇐ كان موطن ذلك البيت المؤمن هو سبأ
⇐ أصبح لقمان هذا رسول سبأ التي وقع عليهم عذاب سيل العرم
⇐ أنجب لقمان ولده داوود الذي بدوره أنجب سليمان، فأصبح خط الرسالة الجديد على النحو التالي: الأبوين المؤمنين ⇐ لقمان⇐ داوود ⇐ سليمان

وهولاء هم من القوم الآخرين الذين تشاركوا وراثة مغارب الأرض مع بني إسرائيل بعد هلاك فرعون ملئه:

- ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 137]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: 23-28]

فلقد ذكرنا مرارار بأن وراثة الأرض من بعد فرعون لم تكن حكرا على بني إسرائيل ولكن شاركهم في ذلك قوم آخرون،

فكانت تلك هي أرض طيبة، أي تلك البلدة الطيبة التي كانت مطمئنة ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]

نتيجة مفتراة: كانت العائلة المؤمنة التي وعد الله أن يبدلهما خيرا من ابنهما الذي قتله العبد الصالح تقطن في تلك القرية المطمئنة:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

ولما كانت إرادة الله (نحن نؤمن يقينا) لا محالة نافذة، تحقق لاؤلئك الأبوين المؤمنين "ولدا صالحا" هو خير زكاة من الذي قتله العبد الصالح وأقرب رحما. ونحن نؤمن بأن الغلام الجديد كان شاكرا لله ولوالديه، فينشأ هذا الغلام الصالح الشاكر لله ولوالديه في تلك العائلة المؤمنة هناك في تلك البلدة التي

كانت مطمئنة، والتي كان يأتيها رزقها من كل مكان. وما أن يبلغ سن الرسالة حتى يكون هو رسول تلك القرية التي كفرت بأنعم الله:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرۡيَةً كَانَتۡ ءَامِنَةً مُّطۡمَئِنَّةً يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]

ونحن نفتري الظن بأن تلك القرية قد كانت سبأ التي كانت قرية مطمئنة قبل أن يرسل الله عليها العذاب:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ﴿١٥﴾ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: 15-21]

الدليل:

إن الترابط الزمني بين آل داوود من جهة وسبأ من جهة أخرى لا يمكن أنكاره، وسنجلب دليلين اثنين فقط لاثبات التزامن التاريخي بين الطرفين.

أولا، لو جلبنا الآيات الكريمة التي تسبق الحديث عن قصة سبأ، سنجد أن قصة داوود وسليمان هي التي كانت محور الحديث من ذي قبل. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق الأوسع لهذه الآيات الكريمة، قال تعالى:

- ﴿۞ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ

شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝١٤﴾ [سبأ: 10-14]

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ۝١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ۝١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ۝١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ۝٢١﴾ [سبأ: 15-21]

ثانيا، ربما لا يغيب عن الأذهان ذكر سبأ في قصة سليمان (ابن داوود) التي جاءه الهدهد منها بخبر يقين بعد أن تفقد سليمان الطير وتوعد الهدهد الذي كان من الغائبين في واد النمل:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 20-22]

لذا، نحن نؤكد مرة أخرى بإن التزامن التاريخي بين داوود وسليمان (أي آل داوود) من جهة وحضارة سبأ من جهة أخرى يصعب انكاره. فداوود وسليمان كانا متواجدين في الفترة الزمنية التي كانت فيها حضارة سبأ قائمة. ليكون السؤال الآن هو: كيف كانت علاقة آل داوود بسبأ؟

رأينا المفترى: كانت سبأ قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكانت قرية طيبة، يشطرها نهر عظيم، فأصبحت عباره عن جنتين عن يمين وشمال، فكانوا مطالبين أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروا له. لكن – كعادة الأمم السابقة- ما كان من أهل تلك القرية إلا الاعراض. وكحال كل تلك القرى التي كفرت بأنعم ربها من ذي قبل، كان لزاما أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ليكون بشيرا ونذيرا، حتى يحق على قريتهم العذاب إن هم كذبوه. فمن هو الرسول الذي سيبعثه الله لسبأ؟

رأينا المفترى: لم يكن هناك من هو مؤهل في سبأ أن يكون رسولا حتى الساعة. ولكن كان فيها بيت من المؤمنين، وكان للأبوين المؤمنين في هذا البيت غلاما شقيا. فيحالو الأبوان المؤمنان جهدهما أن يصداه عن كفره، إلا أن الولد يرفض أن يطعهما، ويقل لهما أف، فيكون من الذين حق عليهم القول في واحدة من الأمم التي خلت:

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ [الأحقاف: 17-18]

لا بل، ويكاد ذلك الوالد العاق أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا. ويتزامن ذلك مع قصة موسى في رحلته مع العبد الصالح الذي طلب صحبته ليتعلم مما علم هذا الرجل رشدا:

- ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 66]

فما كان من العبد الصالح إلا أن يقدم على قتل الغلام العاق لوالديه:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]

ويعلل العبد الصالح قتله للغلام على نحو أن الإدراة الإلهية قد قضت بأن يبدل الله الأبوين المؤمنين خيرا من هذا الذي قتله غلاما آخر هو خيرا زكا وأقرب رحما.

وبالفعل، يبدل الله هذين الأبوين غلاما خيرا من أخيه المقتول، ويكون هو رسول سبأ في قادم الأيام، ويكون عذاب قومه على نحو أن أرسل الله عليهم سيل العرم، فأفسد عليهم الجنتين، فما ترك فيهما إلا جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. واقرأ – إن شئت- الآيات الخاصة بسبب مرة أخرى:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 15-21]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن رسول سبأ هو لقمان، الذي هو ابن الابوين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسها ولدهما، تحقيقا للإرادة الإلهية أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما.

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

فكان قتل الغلام – نحن نرى- التمهيد الإلهي لأن يبعث رسولا في سبأ ليحق عليهم العذاب إن هم كذبوه، فكان الرسول في بيت الأبوين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما، ففي ذلك الوقت على وجه التحديد وفي ذلك المكان على وجه الدقة، تنشأ ذرية طيبة جديدة، وتكون النبوة في بيت الأبوين المؤمنين، فيكون ولدهما الجديد رسولا في قومه:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]

السؤال: كيف حصل كل هذا على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، يلزمنا العودة مرة أخرى للنبش أكثر في قصة الأبوين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما، لتحقيق الإرادة الإلهية بأن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

لنطرح هذه المرة التساؤلات التالية:

⇐ من هما الأبوان المؤمنان اللذان قتل موسى ولدهما؟ هل نعرف اسمهما؟
⇐ من هو الولد المقتول؟ هل نعرف اسمه؟
⇐ هل ذلك ممكنا؟

افتراء: إن صح منطقنا هذا، وإن كان افتراؤنا بأن الغلام الجديد الذي أصبح رسولا في قومه ونبيا إلى بني إسرائيل بعد ذلك هو لقمان، وإن صح افتراؤنا بأن لقمان هو والد داوود الذي ورثه سليمان، فإن منطقنا ذاته يدفعنا لأن نفتري القول بأن الولد المقتول كان اسمه (هارون) وأن الوالدين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما سابقا هما (عمران وزوجته)، ليكون الافتراء الأكبر حتى اللحظة هو أن العائلة التي قتل صاحب موسى ولدهما هي عائلة عمران الأول، وأن عمران هذا هو ما جاءت منه سلالة النبوة في لقمان وداوود وسليمان، الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]

الدليل:

غالبا ما ظن العامة من الناس (مدفوعين طبعا بما وصلهم من عند سادتهم وكبرائهم من أهل العلم) بأن آل عمران قد تواجدوا في زمن زكريا، فظنوا بأن آل عمران محصورين بمريم وابوها عمران. فعمران قد جاء ذكره في سياق الحديث عن مريم كشخص مرتين فقط في قوله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: 35]
- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

ليكون السؤال الآن هو: هل كان لعمران هذا آل؟ ومن هم آل عمران هذا إن كان ذلك صحيحا؟ هل كانت مريم هي جلّ آل عمران هذا؟ الخ.

افتراء من عند نفسي: أنا افتري الظن (ربما مخطئنا) بأن عمران هذا الذي يأتي ذكره في سياق الحديث عن قصة مريم هو ليس أكثر من اسم على مسمى، فهو شخص تعود جذوره إلى عمران الأول الذي في بيته تأسست ذرية طيبة كانت تضم لقمان وداوود وسليمان.

الدليل

لو دققنا النظر في قصة والدة مريم ابنت عمران، لوجدنا أن هناك اسمان بارزان، هما زكريا وعمران، أليس كذلك؟

فكان زكريا ينتمي لآل يعقوب بدليل أنه طلب الذرية ليرث فيهم:

- ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 6]

الذين هم في الأصل من ذرية آل يعقوب الأول:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [يوسف: 6]

وهؤ- لا شك – هم جميعا من آل إبراهيم الذين اصطفاهم الله.

وكان هناك – في المقابل – عمران (والد مريم) الذي لم يكن له آل بحد ذاته، ولكنه ينتمي عرقيا لآل عمران الذين هم امتداد لبيت النبوة الآخر الذي ضم لقمان وداوود وسليمان. فأصبح الاصطفاء الإلهي لآلين اثنين، هما آل إبراهيم وآل عمران فقط:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33]

فمن هم آل عمران المصطفين الذين يتقابلون مع آل عمران المصطفين بنص الآية السابقة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الاصطفاء الإلهي في هذين الآلين هو على النحو التالي:



السؤال: كيف تحصل الاصطفاء الإلهي لآل عمران؟

رأينا المفترى: لما كان عمران مقابلا لإبراهيم، وجب علينا أن نتفكر بشخصية هذا الرجل كما هي حالنا عندما نتفكر بشخصية إبراهيم. فللرجل من الامكانات ما يجعله محل الاصطفاء الإلهي. ونحن نظن بأن هذا الرجل قد كان باحثا عن ربه بكل الطرق الممكنة (كما فعل إبراهيم)، كما نعتقد بأنه قد تزوج هذا الرجل من امرأة مؤمنة (من ذرية من آل إبراهيم – سنتعرض لها لاحقا بإذن الله). وانجب هذا الرجل ولده الأول (وسنتحدث عن تفاصيل ذلك لاحقا بإذن الله)، وتزامن كل ذلك مع هلاك فرعون، فكبر هذا الابن حتى أصبح غلاما، لكن كانت المفاجأة بأن هذا الغلام الأول قد سلك مسلك الهالكين الذين حق عليهم القول (كفرعون)، وانكر البعث، وظن أن كل ذلك من باب أساطير الأولين، فكان هو الذي قال لوالديه أف لكما، كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأحقاف: 17-18]

فكانت خسارة الأبوين المؤمنين عظيمة، وكادا أن يقنطا من رحمة الله، بعد أن كاد أن يرهقهما ولدهما هذا طغيانا وكفرا. ولكن كانت الرحمة الإلهية حاضرة بأن جاء صاحب موسى، قاصدا هذا المكان

ليعلم موسى، فكانت واحدة من الأحداث الرئيسية التي مرا بها معا هي قتل ذلك الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه المؤمنين طغيانا وكفرا:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف: 80-81]

ولا شك عندنا أن الابوين (عمران وزوجته) كانا في سن متقدمة عندما قتل صاحب موسى ابنهما، ربما أصبح من المتعذر عليهما الانجاب بالطريقة الطبيعية الاعتيادية، فكيف ستتحصل لهما الذرية في ذلك السن؟

رأينا المفترى: لما علم موسى بإن الإرادة الإلهية حاضرة بأن يبدل هذين الأبوين المؤمنين خيرا من ولدهما المقتول، كان لزاما عليه أن يفعل شيئا تجاههما يساعدهما على الانجاب. فما الذي سيفعله موسى؟

جواب مفترى خطير جدا: أن يترك عندهما شيئا من إرث النبوة – إنه القميص (الموجود في التابوت). انتهى

2. عودة على بدء:

عندما ترك موسى قومه بعد أن فرق الله بينهما، لم يكن موسى ليدع إرث النبوة (التابوت ومقتنايته) في بني إسرائيل الذي أصبحوا فاسقين، كما لم يكن ليدع ذلك في عهدة هارون الذي عهد إليه بالعصا في قديم الزمان، فما حافظ عليها حتى وقعت بيد السامري وأخرج لهم بقبضة منها ذلك العجل الذي اشربوه بنو إسرائيل في قلوبهم. لذا عمد موسى نحن نتخيل أن يأخذ التابوت (بمقتنايته) معه في رحلته مع فتاه إلى مجمع البحرين ليلاقي العبد الصالح.

ما أن تعلم موسى من العبد الصالح عن هذا البيت من المؤمنين حتى أصبح يعلم يقينا بأن هذا البيت من المؤمنين هو المكان الأكثر أمنا للمحافظة على التابوت ومقتنايته. فعلم موسى بأن الغلام الذي سيولد في هذا البيت سيكون رسولا في قومه لكنه أيضا سيساعد بني إسرائيل على دخول الأرض المقدسة بعد انقضاء فترة التيه، وبعد أن يرفع عنهم حضر دخولها. فاستودع التابوت بمقتنياته في هذا البيت الطيب.

ما أن انقضت فترة التيه حتى سمع الملأ من بني إسرائيل بخبر هذا الرسول، فأجروا هم المراسلات معه، طالبين أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله، للعودة إلى ديارهم:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ

يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة: 246-248]

ولعل هدف بني إسرائيل – كما أسلفنا هو أن يتأكدوا من أمرين اثنين:

⇐ أن هذا النبي هو فعلا نبي حقيقي
⇐ أنه سيعلم خبر التابوت (إرث النبوة) إن كان فعلا نبيا حقيقيا

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن كبر لقمان حتى أصبح رسولا في قومه الذين كفروا بأنعم الله بعد أن متعهم بالجنات والخير الوفير في بلدتهم المطمئنة:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]

فكانت تلك هي سبأ:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ: 15-21]

ليكون السؤال المحوري هو: هل وقع العذاب على سبأ دون وجود رسول فيهم؟

رأينا المفترى: نحن ننفي احتمالية أن يكون العذاب الإلهي قد وقع على سبأ إلا بعد أن جاءهم رسول منهم. فالسنة الإلهية في إنزال العذاب تقتضي وجود الرسول المنذر:

- ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: 15]

السؤال: من هو رسول سبأ؟

السؤال: كيف حصل كل ذلك على أرض الواقع؟

تلخيص ما سبق: عندما حصل الفراق بين موسى وأخيه هارون من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى، ذهب موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين حيث وجد العبد الصالح. فطلب موسى صحبته، فانطلقا معا. وكانت الانطلاقة الثانية (نحن نتخيل) إلى سبأ حيث لقيا ذلك الغلام (وهو من نظن أن اسمه هارون) الذي كاد أن يرهق أبويه المؤمنين (عمران وزوجته) طغيانا وكفرا، سارع العبد الصالح إلى قتله على الفور، لتحقيق الإرادة الإلهية بأن يبدل الله أبويه المؤمنين خيرا منه زكاة وأقرب رحما. فتحققت تلك الإرادة الإلهية فعلا للأبوين المؤمنين بالرغم من تقدمهما في السن، فكان لقمان، وحصل ذلك ببركة إرث النبوة (القميص) الموجود في تابوت العهد القديم الذي استودعه موسى عند أهل هذا البيت المؤمن، لسببين اثنين:

⇐ تحقيق الإرادة الإلهية بالذرية الطيبة (زكاة)، فيكون لهما ذرية طيبة خيرا مما فقدا. فكان لهما غلاما شاكرا لله كما كان شاكرا لوالديه.

⇐ ليبقى التابوت في هذا البيت الطيب حتى انقضاء فترة التيه، فيكون مفتاح الأرض المقدسة للمؤمنين التائبين العائدين من بني إسرائيل بعد انتهاء فترة التيه ورفع الحضر عنهم لدخول الأرض المقدسة

فكان الغلام الجديد (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) هو لقمان، صاحب الحكمة العظيمة، الذي جاء ذكر اسمه صراحة في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: 12]

ولو دققنا فيما قاله العبد الصالح لموسى مبررا قتله الغلام، لوجدنا بأنه يصف الغلام الذي سيرزقانه هذين الأبوين على نحو أنه خير زكاة وأقرب رحما:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

ولو بحثنا عن مفردة الزكاة مع مولود جديد، لوجدناها في موضعين اثنين، **أولهما** في وصف عيسى بن مريم:

- ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩﴾ [مريم: 18-19]

وثانيهما، في وصف يحيى بن زكريا:

- ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ [مريم: 12-13]

ولو دققنا في اللفظ أكثر، لوجدنا بأن التقاطع اللفظي مع يحيى أقرب من التقاطع اللفظي مع المسيح. ففي حالة يحيى وهذا الغلام، جاء اللفظ على نحو (زَكَاةً)، بينما جاء في وصف المسيح على أنه (زَكِيًّا). لنخرج – بناء على ذلك - بالافتراء التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: كانت ولادة هذا الغلام الزكي بطريقة عجيبة كما كانت ولادة عيسى ويحيى من بعد ذلك، ولكنها أقرب إلى حالة يحيى منها إلى حالة المسيح. فكما ولد يحيى لأبوين تقدم بهما العمر، فكان (زَكَاةً)، كان هذا الولد الجديد للأبوين المؤمنين (زَكَاةً).

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن الله قد أبدل أولئك الأبوين بالغلام الذي هو خير زكاة وأقرب رحما من سابقة عندما كانا في مرحلة عمرية متقدمة. لذا، كان من المفترض أن تحل بهما البركة الإلهية حتى يستطيعا أن ينجبا من جديد. فعلم موسى بأن التابوت الذي يحوي على القميص يجب أن يبقى مدخرا ومحفوظا عند هذه العائلة. فببركة ذلك القميص المتواجد في التابوت حلت البركة في ذلك البيت، وانجبا طفلهما لقمان الذي اصبح مصدرا للحكمة. (للتفصيل حوال فاعلية القميص في الإنجاب انظر سلسلة مالاتنا لقصة يوسف وقصة أصحاب الجنة).

ولو دققنا في عبارة أقرب رحما، لوجدنا أن هذا الغلام سيحسن لوالديه عندما يصبح في سن النبوة:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾ [الأحقاف: 15]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لقمان ابن عمران هو رسول الله إلى سبأ. انتهى

تخيلات غريبة عجيبة: نشأ لقمان في تلك القرية الطيبة المطمئنة (سبأ)، فتزوج منها بامرأة جميلة جدا، وأنجب منها غلاما، وجاهد في الدعوة إلى الله في قومه، لكن العذاب أخذهم بما ظلموا، فكان سيل العرم هو عذابهم:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ
ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ
رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ
صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ
عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ
حَفِيظٞ ٢١ [سبأ: 15-21]

السؤال: ما الذي حل بالقوم بسبب سيل العرم؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا بأن الله لا محالة منجي المؤمنين من العذاب، فكانت نجاة لقمان وأهله، بمن فيهم ذلك الغلام الذي رزقه إياه الله من تلك المرأة التي تزوجها في سبأ. لكن كانت المفارقة العجيبة التي يجب التنبه لها تتمثل بما حلّ بذلك الغلام (ولد لقمان) وأمه (امرأة لقمان) بسبب سيل العرم. فالسؤال الذي يطرح ذاته هنا هو: ما الذي حل بذلك الولد وأمه؟

رأينا المفترى الخطير جدا (لا تصدقوه): عندما نحاول تتبع سير الأنبياء والرسل مع أبناءهم ونسائهم، نجد أن المشاكل كانت تحاصرهم من هذا الباب. فلا يفوتنا تذكير الجميع مثلا بمشاكل آدم مع ابنيه اللذين قتل أحدهما الآخر، ومشكلة نوح مع ابنه الذي رفض الركوب مع أبيه في السفينة، ومشكلة إبراهيم مع إسماعيل وإسحاق، وكيف فرق بينهما، ومشكلة يعقوب مع أبنائه، ومشكلة لوط مع امرأته، الخ. ليكون السؤال الآن: هل كانت هناك مشاكل عائلية عند لقمان مع أهل بيته؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن لقمان لم يكن استثناء في هذا الباب. لذا سنحاول طرح سيناريو تخيلي ربما يصلح للأفلام السينمائية العالمية، ونطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقه إن لم يجد الدليل على ما يثبته.

أما بعد،

مشاهد سينمائية متخيلة: تنشب المشاكل العائلية بين لقمان وامرأته، وتحصل تلك المشاكل عندما كان الولد الذي يجمعهما مايزال وليدا صغيرا، فكان في حضن أمه التي كانت (نحن نتخيل ربما مخطئين) في صف القوم الظالمين. وعندما وقع العذاب على القوم، حلّ بها ما حلّ لقومها. فكانت (نحن ما زلنا نتخيل) من الهالكين.

السؤال: أين الدليل على ما تفتري؟ وإن كان ما تقول صحيحا، فقل لنا ما حلّ بالطفل الرضيع الذي كان بين يديها. أليس هذا الطفل هو ابن نبي شاكر، ألا وهو لقمان ابن عمران (رسول سبأ الذين حل بهم عذاب سيل العرم) – كما تزعم؟ يسأل صاحبنا متعجلا.

رأينا المفترى: نحن نؤمن بأن الله – لا محالة- منجي الذين آمنوا وذريتهم الطيبة، فكانت النجاة للوليد حتى بعد هلاك والدته.

السؤال: كيف نجا ذلك الطفل من ذلك الطوفان العظيم الذي كان على شكل سيل العرم؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن الماء الذي حمل تابوت موسى في اليم، فأنجاه مع الغرق، قد حمل أيضا ذلك الطفل الرضيع في التابوت ذاته، فكانت نجاته من الغرق.

السؤال: أين تقاذفت الأمواج ذلك الطفل؟

جواب أغرب من الخيال: لقد تقاذفت الأمواج ذلك الطفل حتى حط به المقام في غابة شجرية عظيمة.

السؤال: كيف عاش ذلك الطفل في تلك الغابة؟

الخيال المفترى: لقد عاش ذلك الطفل مع الكائنات الحية في الغابة، فرضع منها، وتربى بينها، فكان داوود. انتهى.

السؤال: من هو داووود؟

الجواب: إنه فتى الغابة(Da wood)

3. إعادة تسطير أحداث القرى السابقة

دعنا نبدأ بالمفارقة العجيبة التي ذكرناها سابقا، ونعيدها هنا، لعلاقتها بالأحداث التاريخية التي حصلت حينئذ كما نحاول أن نتخيلها، ولنبدأ بما جاء في الآية الكريمة التالية حول بعض تفاصيل قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى بعد خروجهم من تحت الاستعباد الفرعوني، في طريق عودتهم إلى الأرض المقدسة:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 25-26]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه المفارقة: يكون التحريم الإلهي للأرض المقدسة على بني إسرائيل اربعين سنة، ويأتي الحديث عن ذلك الذي بلغ اشده أربعين سنة ليشكر لله ولوالديه:

يحصل الفراق بينهم وبين نبيهم موسى ومن كان يملك منهم، وينطلق موسى مع فتاه (أحد المؤمنين) إلى مجمع البحرين، ليجد العبد الصالح عند تلك الصخرة:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف: 60-66]

كانت واحدة من تلك الرحلات الثلاث لموسى مع العبد الصالح تفصّل لنا قصة قتل ذلك الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ٧٤﴾ [الكهف: 74]

يعلّل العبد الصالح لموسى قتله ذلك الغلام على النحو التالي:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 80-81]

ونحن لا نشك أبدا بأن الله بالفعل قد أبدل أولئك الأبوين خيرا من ذلك الغلام الذي قتله العبد الصالح خشية إرهاقه أبويه طغيانا وكفرا، فكان غلاما خيرا من سابقه زكاة وأقرب رحما، وما أن بلغ أشدة حتى كان من الشاكرين لله ولوالديه، على عكس ما كانت عليه حال أخيه الذي قتله العبد الصالح. فتنطبق عليهما (نحن نظن ربما مخطئين) الآيات الكريمة التي ترد في سورة الأحقاف:

- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ١٨﴾ [الأحقاف: 15-18]

الحلقة الأولى:

نحن نفتري الظن بأن سليمان كان متواجدا في مكان غير سبأ، بدليل أن الهدهد هو من جاءه بخبر ما كان يجري هناك على يد تلك المرأة وقومها:

- ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن





سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا
وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ
٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ٢٦﴾ [النمل: 20-26]

السؤال: أين كان يتواجد سليمان مكانيا عندما جاءه الهدهد بالخبر اليقين من سبأ؟ (انظر مقالاتنا حول قصة سليمان)

__الحلقة الثانية:__

نحن نفتري الظن بأن داوود كان في جيش طالوت الذي قارع جيش جالوت بعد أن جاوز هو وجنوده النهر في طريق العودة إلى الأرض المقدسة لإعادة بني إسرائيل إليها:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن
لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ
هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ
٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى
ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ
وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 249-251]

__الحلقة الثالثة:__

كيف وصل داوود إلى جيش طالوت؟ ومن هو – ابتداء- والد داوود؟

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن والد داوود هو ذلك النبي الذي كان لبني إسرائيل من بعد موسى، وهو من يرد ذكره في قصة طالوت وجالوت:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ

يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة: 246-248]

السؤال: من هو هذا النبي الذي كان لبني إسرائيل الذي تتحدث عنه هذه الآيات الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن ذلك النبي هو والد داوود، وهو برأينا المفترى من عند أنفسنا لقمان.

السؤال: من هو لقمان هذا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن لقمان هو ذلك الشخص الذي أبدل الله به والديه ذلك الغلام الذي قتله صاحب موسى:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

السؤال: أين كان يسكن لقمان؟ وماذا كانت مهمته؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن لقمان هو الرسول الذي جاء تلك القرية التي كانت مطمئنة والتي كان يأتيها رزقها رغدا من كل مكان قبل أن يقع عليها العذاب بعد إعراض أهلها، إنها سبأ، وحاول عزيزي القارئ – إن شئت- أن تربط السياق القرآني الذي يتحدث عن تلك القرية وعن ذلك الرسول الذي جاءهم فكذبوه:

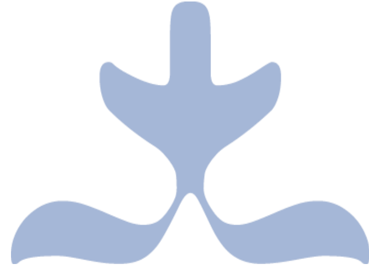
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: 112-113]

مع ما كان لسبأ وما حل بها لاحقا:

- ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟
رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ
عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ [سبأ: 15-21]

السؤال: كيف يمكن أن نربط الأحداث بناء على هذا الخيال الجامح الذي نحاول التسويق له في هذا النقاش؟



قصة داوود

الجزء الرابع



قصة داوود – الجزء الرابع

1. داوود فتى الأدغال

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالات اثبات نشوء بيت نبوة في غير بني إسرائيل، ابتدأ في سبأ في بيت الأبوين المؤمنين اللذين قتل صاحب موسى ابنهما لأنه كاد أن يرهقما طغيانا وكفرا. وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن هذه الأبوين هما عمران الأول وزوجته، وهو من جاء – برأينا- ذكره في قوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران: 33]

فقد بدأت النبوة في آل عمران (نحن نظن) هنا عند عمران هذا الذي أنجب بدوره لقمان والد داوود الذي أنجب سليمان، وانتهت ذريتهم عند عمران الثاني الذي أنجب مريم.

وقد حاولنا اثبات أن خط النبوة هذا يوازي خط النبوة في الاصطفاء لآل إبراهيم الذي يبدأ بإبراهيم، فاسحاق، فيعقوب، فيوسف حتى ينتهى بهم المطاف عند زكريا الذي أنجب يحيى، الذي هو آخر سلالة البيت الإبراهيمي هذا.



ولو تدبرنا سلسة الأسماء في آل عمران، لوجدنا أن هناك جانبا لفظيا وجب التنبيه إليه، ألا وهو أن جميع من ذكرناهم في سلالة آل عمران تنتهي اسمائهم بالمقطع الصوتي (-آن)، ولو بحثنا في النص القرآني عن الاسماء التي تنتهي بهذا المقطع الصوتي، لما وجدناه إلا في اسم "هامان" الذي جاء ذكره أكثر من مرة في سياق الحديث في قصة فرعون:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ۝٢٤﴾ [غافر: 24]

وقد افترينا في أكثر من مكان سابق بأن هامان هو ملك الجان الذي يستطيع أن يقوم بمهمات خارقة، كتلك التي أوكلها له فرعون ذات مرة:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ۝٣٧﴾ [غافر: 36-37]

لذا، نحن نظن بأن أفراد هذه العائلة (آل عمران) كانوا يستطيعون القيام بمهمات كبرى، خاصة ما يتعلق منها بالجان، ربما يصعب على العقل العادي استيعابها بيسر وسهولة. ومن هذا الباب جاءت مسميات نحن نعرفها كـ سوبرمان وباتمان وسبايدرمان، وحتى طرزان (تلك الشخصية الخيالية االتي يعرفها الصغير قبل الكبير)، الخ. لكن المفارقة العجيبة أننا لا نجد المقطع (آن) في اسم داوود، الذي هو – برأينا- واحد من أفراد عائلة .(MAN) ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الأمر ربما يؤكد ما ذهبنا إليه من افتراء بأن داوود نشأ في مكان بعيد عن والده منذ ولادته (أي ربما لم يكن لقمان حاضرا ولادة داوود)، فما اتخذ له اسما، ولكن عندما عاد إليه بعد غياب طويل (وسنتعرض لكيفية عودته لاحقا إن شاء الله)، أُطلق عليه اسم يعبر عن حالته (أي كصفة له)، فأصبح يعرفه الناس حينئذ بـ دا-وود (فتى الغابة)، أي الشخص الذي تربى في الغابة. وهذا الأمر ربما يدعونا لافتراء الظن بأن داوود قد ولد في مكان بعيد عن المكان الذي كان يتواجد به والده (لقمان)، فما سنحت للأب الفرصة بتسمية مولوده الجديد. وأنا أكاد أتخيل أن ولادة داوود قد حصلت في فترة زمنية قريبة جدا من تلك التي بدأ فيها حصول العذاب على القوم بسيل العرم. ويستطيع كاتب السيناريو والمخرج التلفزيوني إحداث الإثارة في هذا المشهد ليخلق متعة تجذب الجمهور إلى مواصلة المشاهدة .

على أي حال، لقد كان الهدف من النقاش حتى اللحظة هو تمرير مجموعة من الافتراءات، نذكر أبرزها:

- ⇐ رفض بني إسرائيل دخول الأرض المقدسة مع موسى
- ⇐ مفارقة موسى قومه الذين ضرب عليهم حظر دخول الأرض المقدسة أربعين سنة
- ⇐ ذهاب موسى مع فتاه (ومعهما التابوت) إلى مجمع البحرين، لملاقاة العبد الصالح
- ⇐ اصطحب العبد الصالح موسى ليعلمه، فكانت رحلة موسى الثانية معه إلى سبأ
- ⇐ كانت واحدة من الخبرات التي تعلمها موسى مع العبد الصالح في سبأ هي قصة قتل الغلام الذي كاد أن يرهق أبويه طغيانا وكفرا
- ⇐ كان الابوان هما عمران وامرأته
- ⇐ كان الغلام العاق لأبويه يسمى هارون
- ⇐ بلغ الأبوان الكبر، ولم يستطيعا أن يثنيا الولد عن كفره، فقال لهما أف لكما (أي قطع العلاقة معهما تماما)

⇐ قتل صاحب موسى هذا الغلام، وكان ذلك مدفوعا بالإرادة الإلهية أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما
⇐ تحصل للأبوين المؤمنين خيرا من سابقه، فكان لقمان
⇐ نشأ لقمان في سبأ التي كانت بلدة طيبة مطمئنة، فتزوج منها
⇐ بعث الله لهم لقمان رسولا منهم، فكذبوه
⇐ اعرض أهل سبأ، وكفروا بأنعم الله
⇐ أرسل الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم جنتين ذواتي خمط وأثل وشيء من سدر قليل
⇐ انجب لقمان من امرأته غلاما، لكن كان من عواقب ذلك السيل أنه أخذ الغلام الصغير (ولد لقمان) في التابوت الذي كان في حيازة هذا البيت الطيب
⇐ ألقى الماء التابوت (كما حصل مع موسى من قبل) في منطقة نائية في الطبيعة، بعيدا جدا عن الناس
⇐ نشأ ذلك الغلام بين كائنات الغابة ترعاه، ويتفاعل معها
⇐ فكان اسمه دا-وود (فتى الغابة)
⇐ الخ

أما بعد،

نجد أنفسنا بعد هذا السرد للافتراءات السابقة ملزمين بمهمتين أساسيتين، أولهما تقديم الدليل على صحة هذه الافتراءات التي لا تبدو حتى الساعة أكثر من خيال جامح لا يحكمه الدليل، وثانيهما المضي بالأحداث قدما (إن وجد الدليل على صحة هذه الافتراءات أو حتى جزء منها).

دعنا نبدأ النقاش في هذا الجزء من قصة نبي الله داوود، التي نحن بصدد تسطيرها بناء على خيالنا غير المنضبط بالدليل حتى اللحظة، بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ
١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ١٤ وَإِن
جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ١٦ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٧ وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن
صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 12-19]

إن محاولة تدبر هذا السياق القرآني يتطلب منا - كالعادة- طرح كل التساؤلات الممكنة حول ما جاء فيه، ولنبدأ بالحزم التالية من الأسئلة التي ستثير – برأينا- موجات من التفكير المدفوع بالخيال الجامح.

2. أمواج الأسئلة:

الموجة الأولى:

- من هو لقمان، صاحب الحكمة؟
- كيف آتى الله لقمان الحكمة؟
- من هو ابن لقمان؟ ولماذا يخبرنا الله بأن للقمان إبنا أصلا؟
- هل كان ذلك الابن محتاجا للعظة؟
- لماذا لم يخبرنا باسم الإبن مادام أن اسم الأب قد جاء صريحا؟
- لماذا جاءت هذه العظة على لسان لقمان على وجه التحديد؟
- لماذا لم تأت على لسان أحد من الأنبياء السابقين أو اللاحقين؟
- ألم يكن الأنبياء السابقون واللاحقون يقدمون العظة (النصيحة) لأبنائهم؟
- ألم يكن نوح – مثلا- ناصحا لإبنه؟ لِم لَم تأتينا عظة نوح لإبنه؟
- ألم يعاني يعقوب مع أبنائه؟ لماذا لم يقم بإدلاء النصيحة (العظة على وجه التحديد) لهم كما فعل لقمان؟
- الخ.

الموجة الثانية:

- لماذا جاءت عظة لقمان لإبنه مسبوقة بدعوته الشكر لله؟
- لماذا كان ذلك من باب الحكمة؟
- لماذا ابتدأ لقمان موعظته لإبنه بأن لا يشرك بالله؟
- هل كان لقمان يخشى أن يقع ابنه بالشرك؟
- لماذا توسطت آية الوصاية للانسان بوالديه وتفصيل الحمل أجزاء موعظة لقمان لابنه؟ فهل كان الابن في ذلك السن (المرحلة العمرية) يحتاج أن يعرف مثل هذه التفاصيل؟ فكم كان عمر ذلك الإبن عندما قدم الأب لقمان له العظة؟
- لماذا تحدث لقمان عن احتمالية أن يجاهد الوالدان ابنهما بالشرك؟
- هل كان لقمان يخشى أن يكون هو شخصيا ممن يجاهد ابنه بالشرك؟
- الخ

الموجة الثالثة:

- لماذا جلب لقمان انتباه ابنه أن الله يأت بمثقال الحبة من الخردل حتى وإن كانت في صخرة أو في السموات أو في الأرض؟

- لماذا انهى لقمان هذه الموعظة بالتذكير بأن الله لطيف خبير؟
- لماذا دعا لقمان ابنه إلى إقامة الصلاة؟ فهل كان ابن لقمان لا يقيم الصلاة حتى يذكّره بها الآن؟
- لماذا لم يأمره بإتاء الزكاة أيضا؟
- لماذا دعاه إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟
- الخ

الموجة الرابعة:

- لماذا دعا لقمان ابنه أن يصبر على ما أصابه؟
- هل فعلا أصاب ابن لقمان أمر جلل يدعو الأب ابنه أن يصبر عليه؟
- لماذا ذكر لقمان ابنه بأن ذلك من عزم الأمور؟
- لماذا دعا لقمان ابنه ألا يصعّر خده للناس؟
- هل كان هناك مشكلة عند الابن في علاقته بالناس؟
- لماذا دعا لقمان ابنه ألا يمشي في الأرض مرحا؟
- لماذا يجلب انتباهه أن الله لا يحب كل مختار فخور؟
- هل كان ابنه يمشي في الأرض مرحا حينئذ؟ أو هل كان هناك احتمالية أن يمشي الولد في الأرض مرحا في قادم الأيام؟
- الخ

الموجة الخامسة:

- لماذا طلب لقمان من ابنه وهو يعظه أن يقصد في مشيته؟
- هل كان هناك مشكلة عند الإبن في المشي؟
- لماذا طلب لقمان من ابنه أن يغضض من صوته؟
- هل كان هناك مشكلة في صوت ابنه؟ .... الخ

أما بعد،

إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات تتطلب منا – ابتداء- أن نضع جانبا الفكرة الشعبية الراسخة في أذهان العامة من الناس بأن هذه نصيحة من أب لابنه وكفى، وأن الغاية من أنها قد جاءت على لسان هذا الشخص تكمن في أن نتأسى بها فقط. فهذا ما نرفضه جملة وتفصيلا لأسباب لا داع لذكرها الآن.

لذا، علينا – بالمقابل- أن نحاول التفكير بهذه الموعظة كحدث عظيم وقع على الأرض في فترة زمنية محددة، ومع أشخاص محددين بعينهم. وأن ذلك كان مدفوعا بظروف الزمان والمكان حينئذ. فما كان ذلك من قبيل المصادفة أو الأحداث العامة التي يمكن أن تحصل في كل زمان ومكان. ويجب أن نؤمن يقينا بأن كتاب الله ما كان ليسطرها على لسان لقمان لولا أن الاحداث تخص هذا الرجل (وذريته المتمثلة بإبنه هذا الذي يعظه) على وجه التحديد، فالموعظة إذا هي – برأينا- تفصيل لقصة حقيقية، دعت الحاجة إليها في وقت محدد، بسبب ظروف محددة كانت قائمة في مكان محدد ومع أشخاص محددين بعينهم.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم تلك الموعظة ضمن سياقها الزماني والمكاني؟

افتراء من عند أنفسنا: نحن نعتقد (ربما مخطئين) بأن لقمان قد عمد إلى إسداء الموعظة لابنه لأن ذلك الإبن كان بحاجة إليها.

السؤال: لماذا كان الابن بحاجة إلى تلك الموعظة (بتفاصيلها كما وردت في كتاب الله)؟

رأينا المفترى: عندما ندقّق في تفاصيل تلك الموعظة، سنجد بأن تلك التفاصيل هي ما كان الابن بحاجة إليه، فالأب لم يعظ ابنه بما يتعلق – مثلا- بطرق كسب المال أو إنفاقه، ولم يعظه فيما يتعلق – مثلا- باختيار الزوجة، أو تناول الطعام والشراب، أو غض البصر وحفظ الفرج، في الوقت الذي وعظه فيه بطريقة المشي وغض الصوت. لذا، علينا أن لا ننظر إلى ذلك من باب العموميات، التي يمكن أن تنسحب على غيرها. فهذه مواعظ محددة بذاتها، كان الأب يريد من ابنه أن ينتبه لتفاصيلها على وجه التحديد. ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن ابن لقمان هذا كان يعاني من سلوكيات اجتماعية محددة غريبة الأطوار (غير مألوفة للناس من حوله)، فأراد الأب (لقمان) أن يسوّى تلك السلوكيات الاجتماعية (الغريبة) عند ابنه. فيكون السؤال الآن هو: ما هي المشاكل التي كان لقمان يراها عند ابنه ويريد أن يصححها على الفور؟

جواب مفترى: لو دققنا في الآيات التي يسدي فيها لقمان النصيحة لابنه مرة أخرى في السياق القرآني ذاته، لوجدناها قد بدأت بتذكيرنا بما آتاه اللهُ لقمانَ من الحكمة التي ظهرت نتائجها عند لقمان نفسه بالشكر لله:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢﴾ [لقمان: 12]

ثم تأتي مباشرة بعد ذلك تفاصيل موعظة (هذا العبد الشاكر لله) الموجهة خاصة لابنه، قائلا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان: 13-19]

فتصبح التفاصيل على الترتيب التالي:

⇐ عدم الشرك بالله (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ)
⇐ الشكر لله وللوالدين (أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ)
⇐ عدم طاعة الوالدين في حالة مجاهدتهم إياه بالشرك (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا)
⇐ مصاحبتهما في الدنيا معروفا في حالة أن جاهداه ليشرك بالله (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)
⇐ اتباع سبيل من أناب إلى الله (وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)
⇐ العلم بأن الله لطيف خبير، وذلك بأن الله يأتي بمثقال الحبة من خردل حتى وإن كانت في صخرة أو في السموات أو في الأرض (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)
⇐ إقامة الصلاة (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ)
⇐ الأمر بالمعروف (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ)
⇐ النهي عن المنكر (وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ)
⇐ الصبر على المصيبة (وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ)
⇐ عدم تصعير الخد للناس (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)
⇐ عدم المشي في الأرض مرحا لأن الله لا يحب كل مختال فخور (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)
⇐ القصد في المشي (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)
⇐ غض الصوت لأن أنكر الأصوات لصوت الحمير (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)
⇐ الخ

السؤال مرة أخرى: لماذا قدّم لقمان الموعظة لابنه بهذه الجزئيات على وجه التحديد؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن بأنه لمّا كان ابن لقمان هذا (داوود) يعاني من خلل في سلوكيات اجتماعية محددة، كان على أبيه (لقمان) أن يسويها قبل فوات الأوان. انتهى.

إن هذا الظن يدفعنا إلى تقديم افترائين مهمين هما:

⇐ أن الابن ما يزال في مرحلة عمرية قابلة للتعلم، فهو ليس صغير جدا بحيث لا يفهم الكلام، ولا كبير جدا بحيث أنه قد فات الآوان. لذا، نحن نتخيل أن الابن ما يزال غلاما على مقربة من سن البلوغ
⇐ أن هذا الفتى كانت يحتاج إلى تعديل السلوكات القديمة، واستبدالها بسلوكيات جديدة، يرشده الأب إليها في هذا الوقت على وجه التحديد.

السؤال: ما معنى أن لقمان كان يسوّي سلوك ابنه اجتماعيا؟

جواب مفترى: كان لقمان يحاول أن يعدّل سلوكات ابنه حتى يصبح شخصًا عاديًا – مثل غيره من بني قومه - فينخرط بسهولة في المجتمع في ذلك الوقت.

السؤال: لماذا كان لقمان يقوم بذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (لا تصدقوه): لأن ابنه ما عاش حتى هذه اللحظة (وقت تقديم النصيحة له) في كنف ابيه بين الناس العاديين من قومه، وبالتالي لم يتعلم (نحن مازلنا نتخيل) السلوك البشري الاجتماعي، فكان سلوكه مغايرا لسلوك الناس العاديين من البشر الذي جاءهم من مكان بعيد.

الدليل

ربما لا يحتاج القارئ لهذا السياق القرآني أن يبذل جهدا كبيرا ليعلم بأنه يمكن تجزئته إلى أربعة أجزاء تتعلق بالابن الذي يحتج إلى تلك الموعظة، ألا وهي:

3. علاقات الإبن المختلفة:

أولا، ما يخص علاقته بربه

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13]

ثانيا، ما يتعلق بعلاقته بعائلته (خاصة الوالدين)

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14-15]

ثالثا: ما يخص علاقته بنفسه

- ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: 16-17]

رابعا، ما يتعلق بعلاقته بالمجتمع

- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19]

وبناء على ذلك، علينا أن نعيد طرح التساؤلات حول كل واحدة من هذه الأجزاء، ولنبدأ بها تباعا.

4. دراسة في الأبواب الأربع:

باب ما يخص علاقة الغلام بربه

لو دققنا فيما قاله الأب لابنه في هذا الباب، لوجدناه يحذره أشد تحذير من الشرك بالله، فتلك هي العظة الأولى والأهم على سلم الأولويات:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13]

فالسؤال المطروح الآن هو: هل كان لقمان يخشى على ابنه من الوقوع من الشرك حتى حذره منه؟ ألم يكن الابن سيكتسب ذلك بالمراقبة العملية لوالديه أو للناس من حوله؟ لماذا انتظر لقمان فترة من الزمن حتى يقدم هذه الموعظة لابنه؟ فكم كان عمر هذا الابن عندما أقدم الاب على أن يعظه بمثل هذه العظة؟ ألم يكن من المفترض أن الابن يعلم مسبقا (منذ نعومة اظفاره) خطر الوقوع في الشرك مادام أنه ابن هذا الرجل الحكيم؟ الخ.

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: لم يكن الولد من ذي قبل يعلم أن هناك احتمالية وقوع في الشرك لأنه عاش بعيدا منعزلا عن المجتمع البشري الذي يقع في الشرك. فالمكان الذي عاش فيه هذا الغلام (الغابة) لم يكن الشرك احتمالا قائما. انتهى.

باب ما يتعلق بعلاقته بوالديه

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14-15]

لماذا جاء موضوع الشكر للوالدين مرتبطا بالشكر لله هنا؟ لماذا يحدث الأب ابنه عن طبيعة الحمل ومراحله؟ هل كان الأمر غريبا على الولد؟ هل كان الولد يعلم من ذي قبل كيف يخلق الانسان في بطن أمه وكيف يتربى في كنف والديه؟ ولماذا يحذر لقمان ابنه من احتمالية أن يجاهد الوالدان ابنهما ليشرك بالله ما ليس له به علم؟ وما الذي يمكن أن لا يكون للولد به علم فيجاهداه الأبوان به ليشرك بالله؟ لماذا يحثه على صحبة الوالدين في الدنيا معروفا حتى لو جاهداه ليشرك بالله؟ والأهم من ذلك لماذا يدعوه أن يتبع سبيل من أناب منهما؟ فهل هناك احتمال أن يكون أحد الأبوين مشركا بالله والآخر منيب لله؟ لماذا يطلب لقمان من ابنه أن يتبع سبيل أحد الوالدين وهو المنيب منها على وجه التحديد؟!

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: لم يكن الولد يعلم من ذي قبل كيف يخلق الإنسان في بطن أمه وكيف يتربى في كنف والديه أو حتى كيفية العلاقة السليمة بين الولد من جهة ووالديه من جهة أخرى، وذلك لأنه لم يخبر ذلك من قبل مادام أن عيناه قد تفتحت هناك في الغابة ولم يجد أحدا منها حوله.

باب ما يخص علاقة الابن بنفسه

- ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: 16-17]

لماذا يذكر الاب ابنه بعلم الله الذي يأتي بمثقال الحبة من الخردل حتى التي تكون في صخرة أو في السماوات والأرض؟ لماذا يذكره بالصخرة في سياق الحديث عن السموات والأرض؟ أليست تلك الصخرة من السماوات أو من في الأرض؟ لماذا يرشده الآن إلى إقامة الصلاة؟ ألم يكن الولد يقيمها من ذي قبل؟ لماذا يدعوه أن يكون ممن يأمر بالمعروف وينه عن المنكر؟ وكيف يكون الأمر بالمعروف؟ وكيف يكون النهي عن المنكر؟ أين سيتعلم الابن ما هو من المعروف الذي سيأمر به وما هو من المنكر الذي سينهى عنه؟

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: مادام أن الغلام سيعيش من الآن في مجتمع بشري، فعليه أن يتعلم عاداته وتقاليده، فيلتزم بما يقره المجتمع من الأعراف، ويبتعد عن ما يقره المجتمع من المنكر، فيكون هو من دعاة المعروف ومن الناهين عن المنكر، وعليه أن يكون قبل ذلك قما للصلاة، وذلك لا، الصلاة هي التي تتحقق بها هاتين الغايتين، قال تعالى:

- ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 45]

وبعد هذا كله يدعوه أن يصبر على ما أصابه، فما الذي أصاب الغلام من ذي قبل؟

جواب مفترى: أنه قد عاش حتى هذا الوقت في مجتمع الغابة، فما اكتسب الطبائع البشرية وعلى رأسها طريقة المشي والكلام.

باب علاقة الابن بالمجتمع

- ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: 18-19]

لماذا يطلب الاب من الابن أن لا يصعر خده للناس؟ وما معنى أن لا يصعر خده للناس؟ لماذا يدعوه ألا يمشي في الأرض مرحا؟ وكيف يكون المشي في الأرض مرحا؟ وما علاقة ذلك بأن الله لا يحب كل

مختال فخور؟ ولماذا يطلب منه أن يقصد من مشيته بعد أن طلب منه ألا يمشي في الأرض مرحا؟ وما معنى القصد في المشي؟ وكيف يختلف عن عدم المشي في الأرض مرحا؟ ولماذا يطلب منه أن يغضض من صوته؟ فهل كل هناك مشكلة في صوت الابن؟ ولماذا ذكره بصوت الحمير على وجه التحديد؟ الخ.

النتيجة المفتراة من عند أنفسنا: لما كان الغلام حتى اليوم قد قضى جل حياته بين كائنات الغابة، فقد تعلم منها طريقة الانتقال في الأرض، كما تعلم منها طريقة النداء (برفع الصوت). فكان الغلام يمشى مرحا (وبالتالي يظهر وبكانه مختال فخور) ولا يقصد في مشيته بالقفز من مكان إلى مكان بسرعة عالية جدا. (وسنتعرض بإذن الله لهذه التفاصيل لاحقا عندما يأتي الحديث عن داوود كخليفة في الأرض بإذن الله) (فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم) .

افتراءات غير مسبوقة: نحن نفتري الظن بأن الابن قد قضى حياته - حتى الساعة – في الطبيعية القاسية بين مخلوقات الغابة الكثيرة والمتنوعة. فاكتسب منها صفات يصعب أن تكون ملائمة لحياة الإنسان في مجتمع بشري. فكان على الاب أن يصحح سلوكيات هذا الفتى بعد أن عثر عليه، فعمد على تقديم هذه العظة بتفصيلاتها المحددة لهذا الفتى تأهيلا له لأن ينخرط لأول مرة في مجتمع بشري هو لم يالفه من ذي قبل. انتهى

إن هذا الطرح يجبرنا على أن نضع على طاولة البحث التساؤلات التالية:

- ⇐ كيف وصل هذا الفتى الى الغابة؟
- ⇐ كيف عاش فيها؟
- ⇐ كم طول الفترة الومنية التي عاش فيها هناك؟
- ⇐ كيف رجع إلى والدة؟
- ⇐ متى رجع إلى والده؟
- ⇐ الخ

قدمنا في الأجزاء السابقة افتراءتنا الخاصة بكيفية وصول (داوود – ولد لقمان) إلى الغابة. فزعمنا الظن مفترينه من عند أنفسنا بأن ذلك كان بسبب سيل العرم. وتخيلنا المشهد على نحو أنه ما أن حصل السيل الذي هدد حياة الجميع حتى حاول كل شخص النجاة بحياته بأي وسيلة كانت، ولكن لما كان هذا الطفل ما يزال في حضن أمه رضيعا (لأو ربما في لحظات وضعه)، جهدت الأم أن تنقذ حياة طفلها قبل أن تفكر في حياتها هي نفسها. فما وجدت هذه المرأة حاضرا نصب عينها في تلك اللحظة إلا طريقة واحدة قد تنقذ بها حياة ذلك الطفل (المولود) حتى لو غرقت هي في السيل، ألا وهي أن تقذف هذا الطفل في ذلك التابوت. ونستطيع أن نستحضر المشهد بمقارنته بما فعلت أم موسى عندما خافت على طفلها:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]

وبالتالي، نحن نكرر افتراءنا بأن الماء قد تقاذف ذلك التابوت الذي بداخله الطفل حتى وصل به إلى مكان لا يسكنه أحد من العالمين. ونكاد نجزم الظن بأن هذا قد حصل والطفل ما يزال وليدا صغيرا لا يتقن الكلام البشري، ولا المشي، وسنرى تبعات هذا الظن لاحقا بإذن الله.

كما ظننا أيضا بأن الطفل قد عاش في التابوت الذي تحمله الملائكة، فكان مرفوعا عن الأرض، فما تهدده خطر الكائنات البرية المفترسة لأنها ببساطة لا تستطيع أن تصل إليه. ولكن كانت أول الكائنات وصولا إليه هي الطير. ولك أن تتخيل حجم الطير من حيث العدد والنوع الذي يمكن أن يقف على أطراف ذلك التابوت المعلق في الفضاء خاصة مع حدوث سيل العرم، وفي تلك الغابة الشجرية الكثيفة جدا التي حطه السيل بها. ولو حاولت أن أصور ذلك مشهدا سينمائيا، لجلب عشرات الأنواع من الطير التي تحاول الوصول إلى ذلك التابوت خلال وقوع سيل العرم، وبعد أن حط بين كائنات الغابة، الأمر الذي لا شك سيجلب الرغبة والفضول للوصول إليه من تلك المخلوقات غير البشرية. ولو عدنا إلى قصة موسى في التابوت عندما التقطه آل فرعون، لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 39]

فمن كان في ذلك التابوت، ستكون المحبة (وربما الفضول والغريزة) من قبل الآخرين حاضرة. الأمر الذي – برأينا قد جلب مخلوقات أخرى في الغابة لتحاول الوصول إلى التابوت لترى ما فيه. لكن ظل التابوت بعيدا عن متناول المخلوقات الأخرى باستثناء الطير الذي كان يأتيه من الأعلى. فكان تواجد الطير (بأنواعه) كثيفا في التابوت حتى أصبح (نحن نتخيل) موطنا لهم، يجتمعون عنده في صلاتهم وتسبيحهم:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

فكانت أول السلوكيات التي تعلمها هذا الصبي في ذلك المهد (التابوت) هو منطق الطير، لذا نحن نفهم من هذا الباب لماذا جاء العلم بمنطق الطير خاصا بآل داوود على وجه التحديد، قال تعالى:

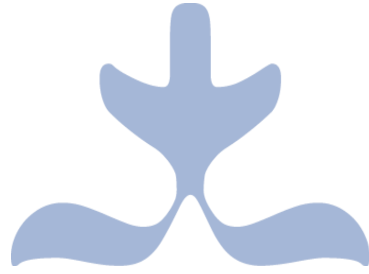
- ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: 16]

فكان ذلك أول ما نطق به لسان داوود، الذي هو لا شك مختلف عن لسان العالمين، بالضبط كما كان لسان عيسى ابن مريم مختلفا عن لسان العالمين، قال تعالى:

- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: 78]

وكان ذلك الطير هو الذي يأتي لهذا الطفل في ذلك التابوت بالرزق من ثمرات الغابة المتوافرة من حوله بكثافة. فنشأ الطفل في ذلك التابوت حتى بدأ يستطيع النزول من التابوت والعودة إليه، وتعلم هذا السلوك من بعض كائنات الغابة كالقرود والسناجب وما شابهها. فأخذ يقفز من وإلى التابوت بتلك الطريقة، فكانت طريقة انتقاله تشبه طريقة انتقال هذه الكائنات، لكنه أيضا كان يسمع صوتها، ويردد صداه بصوت مرتفع كما تفعل هذه الكائنات. وأصبح ينتقل بين التابوت وبين أشجار الغابة بطريقة بهلوانية، ويصرخ بصوته فيها كما تصرخ هذه الكائنات، ولكن وجود التابوت الذي يؤمن له المأوى كان كفيلا بأن يصد خطرها في بداية تجربته معها. وما أن أخذ يتعامل مع هذه الكائنات حتى اعتادت على وجوده، وما عادت تحاول أن تشكل خطرا عليه. ولو حاولت تصور ذلك بمشاهد سينمائية، لاظهرت حوادث كثيرة كان هذا الفتى يقدم العون والمساعدة لهذا الكائنات حتى أصبحت تحبه وتطيعه فيما يطلبه منها. فقد أصبح سيد الغابة بين هذه الكائنات التي أصبحت معضمها أليفة بالنسبة له. وأترك بقية التفاصيل لخيال كاتب السيناريو لهذه القصة ولقدرات المخرج وامكانات التصوير لتبيان ما جرى مع هذا الفتى في الغابة لمدة سنوات من الزمن.

لنترك المكان هذا، لتعود بنا الكاميرا إلى مسرح الأحداث هناك في سبأ.



قصة داوود

الجزء الخامس



قصة داوود – الجزء الخامس

1. داوود فتى الأدغال

غادرنا في الجزء السابق مسرح الأحداث في الغابة حيث ينشا الطفل داوود بين كائنات الغابة يتفاعل معها، ويتعلم منها بعض السلوكيات، ويقضي جل وقته متكيفا مع هذه الكائنات التي أخذت تألف وجوده وتتقبله شيئا فشيئا حتى ما عادت تشكل خطرا على حياته في ذلك المكان الذي يخلو من الجنس البشري غيره. لنعود إلى مسرح الأحداث في مكان آخر من الأرض.

أما بعد،

هناك في سبأ يهدأ سيل العرم، وينجو القليل من الناس، لكن تكون عاقبة المنطقة هو تدمير ما كانت جنتين عن يمين وشمال، وما عادت إلا جنتين ذواتي أكل وخمط وشيء من سدر قليل:

- ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦﴾ [سبأ: 16]

فتصبح سبأ فترة من الزمن بعد نزول عذاب سيل العرم عليها منطقة طاردة للناس، فما يكون ممن كان يسكنها من بني إسرائيل مع القوم الآخرين إلا أن يتركوها ويتجهوا في رحلتهم الجديدة قاصدين الأرض المقدسة. وهنا تقع أحداث عظيمة تعرضنا لها في مقالتنا تحت عنوان قصة سبأ. ولكن سنجلب هنا السياق القرآني الأوسع الذي جاءت فيه قصة سبأ. قال تعالى:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 15-21]

ولو دققت في هذا السياق جيدا، لوجدت ما نريد الوصول إليه: أنّ من كانوا في سبأ قد أصبحوا أحاديث بعد أن مزقهم الله كل ممزق، لقد تشتتوا في المعمورة، فما عادت سبأ كما كانت.

السؤال: في ظل هذه الظروف، ما الذي سيفعله لقمان (والد داوود) الذي فقد في تلك الأحداث ابنه المولود له جديدا؟

رأينا المفترى: لما كانت سنة الله تقضي بأن يقع العذاب على القرى التي تكذب رسلها، ما يكون من الرسول والذين آمنوا معه إلا أن ياتيهم الأمر الإلهي بالخروج من منطقة العذاب قبل وقوعه، لينجيهم الله وبلات العذاب، كما حصل – مثلا- مع نوح ولوط وعاد وثمود وأقوام أخرين:

- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۝١٢ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ۝١٣ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝١٤ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ۝١٥﴾ [الأنبياء: 11-15]

وهنا وجب التنبيه إلى جزئية ضرورية في سياق العذاب على الأقوام السابقة تتمثل بوجود فعلين اثنين؛ أحدهما أن الله يهلك القرى، وثانيهما أن الله يقصم القرى، قال تعالى:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾ [القصص: 58]
- ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١﴾ [الأنبياء: 11]

السؤال: ما الفرق بين أن يهلك الله القرى كما جاء في الآية الأولى وأن يقصم القرى كما جاء في الآية الثانية؟

نتيجة مفتراة 1: إذا حصل الهلاك لقرية، فإن مساكنهم لم تسكن من بعدهم
نتيجة مفتراة 2: إذا قصم الله قرية، فيمكن أن ينشأ بعدها قوم آخرين

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الله قد قصم سبأ، لذا سنجد أن المنطقة قد بدأت فيها الحياة من جديد بعد فترة من الزمن، ونشأ فيها قوم آخرون. وسنرى ذلك عندما يصل بنا النقاش إلى قصة سليمان عندما جاءه الهدد منها بخبر تلك المرأة التي لها عرش عظيم هناك في سبأ:

- ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢﴾ [النمل: 22]

إذن، ها هي سبأ تدب بها الحياة من جديد، وتبدأ حضارة جديدة تنشأ في المنطقة شيئا فشيئا بعيدا عن أعين الناظرين حتى تم اكتشاف ذلك من قبل الهدهد الذي استكشف أمر القوم هناك، والمرأة التي كانت تملكهم وعندها عرش عظيم:

- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣﴾ [النمل: 23]

ولو دققنا في هذا السياق القرآني متابعين جلب الآيات الكريمة التي تصور لنا المشهد هناك، لوجدنا أن هامان (الشيطان) كان ناشطا هناك في سبأ:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: 24]

السؤال: ماذا كان يفعل الشيطان هناك في سبأ؟ ولماذا تواجد هناك في سبأ؟

جواب مفترى: هذا ما سنتعرض له بإذن الله لاحقا عندما نصل إلى مجريات الأحداث زمن سليمان (ولد داوود) - فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير.

لكن دعنا الآن نعيد تصوير المشهد بطريقة بسيطة حتى يستطيع القارئ الكريم متابعة تفاصيل الأحداث بيسر وسهوله.

أما بعد،

تخيلات مفتراة: عاشت سبأ قرية مطمئنة فترة من الزمن، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم ربها، فبعث الله فيهم رسولا منهم (لقمان)، فأعرضوا، فوقع عليها العذاب، بأن قصمها الله ولكنه لم يهلكها، ويتضح ذلك في قوله تعالى:

- ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾ [سبأ: 16]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن الله لم يهلك سبأ (كليا ونهائيا)، ولكنه قصمها (جزئيا وآنيا).

وما حق على تلك القرية العذاب الإلهي حتى جاء الأمر الإلهي للقمان (رسول سبأ) بأن يخرج ومن آمن معه من منطقة العذاب، ففعل. ويحصل سيل العرم، فيدمر المنطقة، ويتركها على حال غير التي كانت عليه من قبل فترة من الزمن (لأن الله قد قصمها)، فما تبقى فيها إلا ما أبدلهم الله به، وهما جنتان ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. فما عادت صالحة للحضارة إلا بعد فترة من الزمن حتى ذهب تأثير ذلك السيل على المنطقة. وبعد ذلك عادت المنطقة صالحة لأن تكون قرية حضارية من جديد. وبالفعل حصل ذلك بعد فترة من الزمن حيث تواجدت تلك المرأة التي تملك قومها في سبأ زمن سليمان (ابن داوود). وسنرى تفاصيل حصول ذلك لاحقا بإذن الله. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو اللطيف الخبير.

أما بعد،

السؤال: ماذا فعل لقمان قبل حصول السيل وخلاله وبعده؟

تخيلات مفتراة من عند نفسي: بعد أن علم داوود أن العذاب لا محالة واقع على القوم المعرضين، ما كان منه إلا أن يخرج (ومن آمن معه طبعا) من المنطقة التي سيصيبها العذاب بأكملها. فأين توجه الرجل خارجا من سبأ؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الخارطة الجغرافية جيدا، لوجدنا بأن هناك منطقتين يمكن للقمان أن يذهب إليهما، وهما:

⇐ الاتجاه شمالا
⇐ الاتجاه شرقا

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى الفترة الزمنية التي كان لقمان يعيشها، لوجدنا أن الحضارة كانت هناك في الأرض المقدسة، حيث يتواجد القوم الجبارون داخلها، والمخرجون من بني إسرائيل منها على أطرافها تائهون. كما كانت تتواجد حضارة أخرى في الشرق الأدنى لها علاقة ببابل حيث بلاد الملكين هاروت وماروت:

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]

السؤال: إلى أين اتجه لقمان خارجا من سبأ عندما وقع عليها العذاب؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن لقمان قد اختار أن يذهب باتجاه بابل.

السؤال: أين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا فيما قاله الملأ من بني إسرائيل لذلك النبي الذي من بعد موسى، لوجدنا أنهم يطلبون منه أن يبعث لهم ملكا، أليس كذلك؟

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

السؤال: هل كان ذلك الذي بعثه لهم نبيهم ملكا قبل أن يبعثه أم أصبح ملكا بعد أن بعثه؟

رأينا المفترى: لو دققنا فيما قاله الملأ من بني إسرائيل، لخرجنا بالاستنباطات التالية:

- ⇐ أن ذلك الرجل المبعوث (طالوت) كان ملكا قبل أن يبعثه لهم بدليل أنه بعث ما طلبوا منه.
- ⇐ أن ذلك لم يصبح ملكا بعد أن بعثه لأنه لو كان كذلك لقالوا (اجعل لنا ملكا)
- ⇐ أن هناك عند داوود أكثر من ملك بدليل أنهم طلبوا (ملكا)
- ⇐ لو كان ذلك هو الملك الوحيد المتوافر عنه، لقالوا ابعث لنا (الملك).
- ⇐ أن القوم يعلمون بوجود الملوك المتعددة، وأنه يستطيع أن يبعث أحدهم
- ⇐ الخ

ولو جلبنا قصة المرأة في سبأ مع سليمان التي ستحصل لاحقا، لوجدنا كلام قومها بعد استشارتهم على النحو التالي:

- ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ۝٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ۝٣٣﴾ [النمل: 32-33]

لكن كان ردها الفوري على النحو التالي:

- ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ۝٣٤﴾ [النمل: 34]

السؤال: من هم أولئك الملوك (المتواجدين الآن عند سليمان – ولد داوود) الذين إن دخلوا قرية افسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة؟ وكيف كانت تلك المرأة تعلم بأن هذا ما يفعله الملوك كلما دخلوا قرية؟

رأينا المفترى: إنهم ملوك حضارة بابل المتواجدة في الشرق الأدنى.

(وسنتعرض لهذه الحضارة لاحقا بإذن الله عندما يأذن الله لنا بشيء من علمه فيها. فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم)

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل إذا لقمان تاركا سبأ ومتوجها إلى منطقة الملوك في بابل، حيث حضارة الملكين هاروت وماروت، وهناك وجد القوم مؤمنين يتعلمون ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، كما وجد من يتعلمون السحر (حيث ينشط الشياطين):

- ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنۡ أَحَدٍ حَتَّىٰ

يَقُولَآ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]

فيتحصل للقمان من العلم (والحكمة) ما يمكنه من التعامل مع الشياطين الذين كانوا يستغلون ذلك العلم. ويكون ذلك سببا في استتباب الأمر للملوك في بابل، فيكون لقمان صاحب الأمر في أولئك الملوك، فيصبح في مكانة تؤهله أن يرسل منهم ما يشاء لمقارعة الباطل في كل مكان.

تخيلات مفتراة: كان في بابل ملوك، لكن سلطتهم كانت غير مستقرة بسبب ما كانت تحدثه شياطين الإنس بالتعاون مع شياطين الجن. ولكن قدوم لقمان إلى تلك المنطقة جلب لها الاستقرار باخماد الثورات في تلك المناطق، فاستتب حكم الملوك، ولما وصل الخبر إلى بني إسرائيل بأن هذا النبي كان يساند الملوك في اخماد الثورات وإعادة الحق إلى أصحابه، وقدرته على الانتصار على أهل الباطل الذين كانت الشياطين تؤزهم أزا:

- ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: 81-83]

تواصلوا معه طالبين المساندة، بأن يبعث لهم أحد أولئك الملوك، ليتصدى للخطر الأخير على الأرض حينئذ، ألا وهو وجود جالوت (الكافر) في الأرض المقدسة.

السؤال: ما الذي حصل بين الطرفين (الملأ من بني إسرائيل من جهة وذلك النبي (لقمان) من جهة أخرى)؟

تخيلات مفتراة: لما كان لقمان يظن بأن بني إسرائيل لم يكونوا حتى الساعة جاهزين للقتال، لم ينزل عند طلبهم على الفور. وكان يخطط (نحن نظن) أن يفعل ذلك لاحقًا بعد أن يصل ابنه المفقود (الذي وجده للتو) للسن المطلوب. لكن بني إسرائيل كانوا متعجلين، فالحوا عليه بأن يبعث لهم ملكا، مؤكدين جاهزيتهم للقتال، فبعث لهم طالوت ملكا، وكان داوود في جيش طالوت ما يزال غلاما يافعا.

وهنا يبرز السؤال المثير التالي: كيف عثر لقمان على داوود المفقود في الغابة البعيدة؟ فهل استسلم لواقع الحال واعتبره ولده في عداد المفقودين إلى غير رجعه؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الرجل ما كان ليستسلم لواقع الأمر، وذلك لظننا بأن الرجل كان يؤمن إيمانا قاطعا بأن ولده سليما معافى في مكان ما في الأرض، وذلك – على الأقل- لسببين اثنين:

⇐ الحكمة التي يتمتع بها لقمان
⇐ العلم الذي كان عند الرجل، خاصة ما يتعلق بخبر التابوت

لذا فالرجل لن تشغله فقط مسألة البحث عن ولده المفقود (وإن كان هذا أمرا يهمه)، لكن كان يعنيه أيضا أمر التابوت الذي هو ما يزال آمانة في بيته، وهو ما كان موسى قد استودعه في بيت والديه المؤمنين قبل ما يقرب ما أربعين سنة، ليعيده إلى أصحابه الحقيقين، ألا وهم بنو إسرائيل الذين ما يزالون يقارعون القوم الجبارين للعودة إلى الأرض المقدسة. فداوود إذا لن يبعث لبني إسرائيل مالكا إلا إن كان التابوت (مفتاح الأرض المقدسة) متوافر معهم. فهو يعلم – يقينا- أنه من العبث محاولة دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة دون وجود التابوت، فذلك هو الشيء الذي هو علامة فارقة بالإذن الإلهي لبني إسرائيل دخول الأرض المقدسة بشرعية.

لذا، علينا أن نحاول أن نستكشف الأحداث حتى عودة الإبن المفقود (داوود) ومعه التابوت الذي سيكون العلامة الفارقة في شرعية دخول بني إسرائيل الأرض المقدسة. ويتطلب ذلك منا أن نحاول الوقوف على ما كان من أمر لقمان في تلك الحقبة من الزمن.

2. باب الحكمة فالشكر لله

لو بدأنا النبش في تفاصيل القصة منطلقين من الآية التالية:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾ [لقمان: 12]

لوجدنا بأن لقمان قد كان صاحب حكمة، ليكون السؤال الآن هو: ما هي الحكمة التي أوتيها لقمان؟

عندما حاولنا البحث في النص القرآني عن الحكمة، وجدنا الآيات القرآنية التي ترشدنا إلى بعض الحقائق التي نحتاجها لمعرفة حقائق الحكمة التي أوتيها لقمان، نذكر منها:

أولا، الفصل بين ما في الكتاب من جهة والحكمة من جهة أخرى (وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ):

- ﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]

(**ملاحظة غريبة**: لماذا جاءت مفردة "يعظكم" في سياق الحديث عن طلاق النساء؟ هل تستطيع أن تتخيل أن هناك علاقة بين هذا وقصة لقمان عندما كان يعظ ابنه؟ من يدري؟!)

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨﴾ [آل عمران: 48]

ثانيا، الفصل بين الملك والحكمة:

- ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ٥٤﴾ [النساء: 54]
- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١﴾ [البقرة: 251]

(**ملاحظة غريبة**: إذا كان داوود قد تحصل على الحكمة من والده لقمان، فمن أين تحصل له الملك؟ من يدري؟! والأهم من ذلك ما العلاقة بين الحكمة التي جاء ذكرها في هذه الآية الكريمة ومسألة دفع الله الناس بعضهم ببعض حتى لا تفسد الارض؟ هل يمكن أن نستفيد من هذه الملاحظة في قصة لقمان وداوود في ذلك الزمن؟ فهل كانت حكمة لقمان سببا في دفع الناس بعضهم ببعض حينئذ حتى لا تفسد الأرض؟ من يدري؟!)

ثالثا، الحكمة متاحة للجميع:

- ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩﴾ [البقرة: 269]

السؤال: ما علاقة الحكمة بأولي الألباب؟ ولو جلبنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن أولي الألباب وربطناها بالحكمة لوجدنا العجب العجاب. لذا، أدعو القارئ الكريم أن يستحضر تلك الآيات ويتفكر بها من هذا الجانب قبل أن ندخل بتفاصيل القضية لاحقا بإذن الله.

دعاء: اللهم رب داوود وسليمان، أسألك أن تؤتيني الحكمة، وأن أكون من أولي الألباب الذين يتذكرون، وأن تفضلني على كثير ممن خلقت تفضيلا

رابعا، الحكمة يمكن أن تُعلّم:

- ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: 2]

دعاء: اللهم رب محمد أن تعلمني تلك الحكمة التي كان محمد يعلمها للمؤمنين من حوله

خامسا، الفصل بين الحكمة والموعظة:

- ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: 125]

دعاء: اللهم ربي أسألك أن أكون من عبادك المهتدين، وأعوذ بك أن أكون ممن ضل عن سبيلك

سادسا، الفصل بين الآيات والحكمة

- ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: 34]

دعاء: أسألك رب أن أكون ممن يذكر آياتك والحكمة إنك كنت بي لطيفا خبيرا

سابعا، الحكمة مرتبطة بالبينات:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾ [الزخرف: 63]

دعاء: اللهم رب علمني الحكمة التي جاء بها عيسى، واهدني لما اختلف فيه الناس من الحق

ثامنا، تركيز الحكمة في آل داوود

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾ [لقمان: 12]
- ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]

السؤال: ما هي الحكمة إذا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الحكمة هي مجموعة من التعليمات / السلوكيات التي يتوجب على من يطلبها أن يتمثلها في حياته العملية، وهي التي نجد تفصيلها في الآيات الكريمة التالية التي جاءت في موضع واحد في كتاب الله (في سورة الإسراء)، لكن سنقدمها مجزئة لتوضيح التفاصيل الواردة فيها، قال تعالى:

- ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ
إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣
وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ
إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ
عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا
كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا
٣٠ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ
كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ
جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ
حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ
ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ٣٥ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ
مَسۡـُٔولٗا ٣٦ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ
مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 22-39]

لو تدبرنا هذا السياق القرآني بحد ذاته، سنجد لزاما على من أراد أن يتعلم الحكمة أن يحدد علاقته بالكون من حوله، بسلوكيات سليمة على النحو التالي:

⇐ علاقتك مع الله: ألا تجعل مع الله إلها آخر (عدم الشرك)

- ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [الإسراء: 22]

(تذكر أول وصايا لقمان لابنه المتمثلة بأن لا يشرك بالله)

⇐ علاقتك مع والديك

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: 23-25]

(تذكر وصية لقمان لابنه فيما يتعلق بعلاقته مع الوالدين)

⇐ علاقتك مع ذوي القربى والمساكين وابن السبيل

- ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإسراء: 26-28]

⇐ سلوكك في الانفاق

- ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء: 29-30]

⇐ علاقتك مع ذوي الإعاقة من الأولاد

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: 31]

⇐ علاقتك مع نساء العالمين

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: 32]

⇐ علاقتك مع الخاطئين

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: 33]

⇐ سلوكاتك تجاه الأيتام (من كان ضعيفا)

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ ... ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]

⇐ سلوكاتك تجاه العهود

- ﴿... وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]

⇐ سلوكاتك في المعاملات التجارية

- ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: 35]

⇐ سلوكك الأكاديمي العلمي

- ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: 36]

(تذكر ما قاله لقمان لابنه في موعظته عن علم الله وعن مجاهدة الوالدين لابنهما بما لا يعلم)

⇐ سلوكك الاجتماعي الشخصي:

- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧﴾ [الإسراء: 37]

(تذكر ما قاله لقمان لابنه بطريقة المشي في الأرض)

وسيكون نتيجة الالتزام بهذه السلوكات الاجتماعية اكتساب الحكمة، ولكن ستكون نتيجة عدم الالتزام بهذه السلوكات السليمة – بالمقابل - على نحو:

- ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨﴾ [الإسراء: 38]

نتيجة مهمة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن كل ما سبق هي ما تجعل الإنسان يتحصل على الحكمة.

- ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: 39]

إن ما يهمنا استنباطه هنا (ربما مخطئين) بأن هذه السلوكيات هي من مكتسبات الخبرات البشرية التجريبية التي يستطيع الإنسان الوصول إليها دون الحاجة إلى كتاب أو آيات تنزل إليه. فهي ما يستطيع الإنسان، صاحب الفطرة السليمة، أن يتمثلها بنفسه في كل وقت وحين، وفي كل مكان يعيش به في مجتمع بشري من حوله. فاكتساب الخبرات البشرية السليمة تجعل من الشخص إنسانا متمثلا للحكمة.

فلقد درج الناس على تسمية الطبيب الذي يشخّص المرض ويقدّم العلاج بالحكيم، كما درجوا على النظر إلى الشخص الذي يتوسط في إنهاء النزاع بين طرفين بالحكيم أيضا. وأصبح الشخص المجرب الذي عاش طويلا وتصرف بطريقة سوية في نظر الكثيرين حكيما، وهكذا. ونحن نظن أن السبب في ذلك هو القناعة البشرية بأن صاحب التجربة الحقيقة (الخبرة) الصحيحة يستطيع أن يحل المشاكل بأقل الخسائر، ويمكن التعبر عن ذلك كلاميا بجمل مقتضبة جدا تحمل في مفرداتها خبرة السنين الطوال والتجارب الكثيرة التي يتعلم منها من مر بها. انتهى

فالتجارب البشرية هي فرص متاحة للجميع للتعلم منها، لكن هنا يبرز سؤال محير: ما الذي يمكن أن يحصل لو أن شخصا ما لم يعش في مجتمع بشري، فهل يمكن أن يتحصل على الحكمة؟

سنعود للحديث عن هذا السؤال بعد أن نطرح سؤالا آخر ربما يمهد الطريق للاجابة على سابقه. إذا، نحن أمام تحدي للاجابة على سؤالين:

⇐ هل يمكن لشخص لم يعيش في مجتمع بشري أن يتحصل على الحكمة؟
⇐ كيف تحصل لقمان على الحكمة؟

3. عودة على بدء: قصة لقمان

إن سلمنا لبعض الوقت بأن افتراءاتنا السابقة فيما يتعلق بلقمان صحيحة، تصبح القصة التي تخيلناها على نحو أن لقمان قد جاء تحقيقا للإرادة الإلهية بأن أبدل الله الأبوين المؤمنين (عمران وزوجته) غلاما هو خير زكاة وأقرب رحما من الذي قتله صاحب موسى، وكان ذلك في سن متقدمة من العمر للأبوين، فإن المنطق يدفعنا إلى الظن بأن هذا الغلام الجديد (لقمان) قد عاش طفلا وغلاما وشابا في كنف أبويه المؤمنين، اللذين وصلا من العمر مراحل متقدمة، ومرا بتجارب بشرية متعددة (وسنتعرض لبعضها لاحقا بإذن الله)، فيجتهدان (نحن نتخيل) في أن يعلماه ويحسنا تربيته، فلا يكون نسخة طبق الأصل عن أخيه السابق الذي قتله العبد الصالح. وكان جلّ تعليمهما له منصبا على الحكمة، فيتلقن الغلام تلك الحكمة من أبويه المؤمنين اللذين مرا بتجارب قاسية في الحياة جعلتهما من أهل الحكمة.

ولو دققنا في قول الغلام المقتول لوالديه، لوجدنا بأنه قد قال لهما أف:

- ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٧﴾ [الأحقاف: 17]

ولو حاولنا أن نربط هذا بما جاء في سياق التوجيه الإلهي الخاص بالعلاقة مع الوالدين في قوله تعالى:

- ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣﴾ [الإسراء: 23]

لوجدنا بان قول الأف للوالدين لا يمكن أن يقع على أرض الواقع إلا عندما يكون الوالدان (أو أحدهما) قد بلغ الكبر. لذا نستطيع أن نستنبط بأنه مادام أن الإبن العاق الذي قتله صاحب موسى قد قال لوالديه أف لكما، فلابد (نحن نستنبط) بأن يكون أبواه المؤمنين قد بلغا الكبر. وبهذا عندما أراد ربك أن يبدالهما خيرا منه زكاة واقرب رحما، كان لابد أن يكون ذلك بطريقة غير اعتيادية. وما أن تحصلت لهما الذرية الجديدة (لقمان)، وما أن نشأ لقمان في كنف هذين الأبوين اللذين كانا قد بلغا الكبر حتى كان هذا (الطفل والغلام والشاب) يعيش في بيت هو مدرسة للحكمة. فنشأ لقمان هناك حكيما. قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ١٢﴾ [لقمان: 12]

عندما بلغ ذاك الغلام أشده، كانت المنة الإلهية عليه بأن يكون هو رسول تلك البلدة الطيبة التي كان يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكان رسولا منهم، يدعو قومه ألا يكفروا بأنعم الله، لكنهم يكذبوا ذلك الرسول، فيأخذهم العذاب بما كانوا يظلمون:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ
بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ
فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ
ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: 112-114]

ولمّا كانت تلك القرية هي – حسب ظننا- سبأ، كان عذابهم على نحو سيل العرم، فيقع العذاب عليهم إلا فئة قليلة من المؤمنين الذين نجوا من ذلك العذاب:

- ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ
وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ
وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ
ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ فَقَالُواْ
رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ
صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ
عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ
حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: 15-21]

وهنا تحصل المفارقة العجيبة التي نحاول الترويج لها - مدفوعين حتى اللحظة بالخيال الجامح أكثر من الدليل القاطع من النص الديني – ألا وهي أن لقمان هذا (رسول سبأ) كان له طفل وكان في بيته تابوت العهد القديم الذي استودعه موسى في بيت أبويه المؤمنين. ليبقى أمانة عندهم حتى موعد رفع الحضر عن بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة مع نهاية فترة التية التي ضربت عليهم أربعين سنة. فلقمان يعلم بما تعلم من والديه بأن ولادته قد تزامنت مع بداية حظر الأرض المقدسة على بني إسرائيل، وأن رسالته قد تزامنت مع انتهاء فترة التيه، فعليه أن يعيد تابوت العهد القديم إلى أصحابه الحقيقين. فأين هو تابوت العهد القديم بعد أن وقع عذاب سيل العرم على سبأ كلها؟

تخيلات مفتراة: يحاول لقمان في هذه الأثناء (بعد انتهاء سيل العرم) العودة إلى المنطقة التي وقع عليها العذاب باحثا عن شيئين اثنين:

⇐ ابنه (وأهل بيته)
⇐ تابوت العهد القديم

وهنا يصدم الواقع هذا الرجل الحكيم بأحداث ربما لم تكن في الحسبان، لكن كيف سيتصرف من كان حكيما كـ لقمان؟ (وهنا يستطيع كاتب السيناريو والمخرج تصوير أحداث كثيرة يبحث فيها لقمان عن

المفقودين مبتدأ بالبحث عن امرأته التي ربما تعلم كثيرا من الأخبار التي هو بحاجة إليها للوصول إلى المفقودات التي يهمه استعادتها) .

رأينا المفترى: نحن نظن أن رجلا كهذا لن يتسرع في اطلاق الأحكام المتسرعة، كما أنه لن يعدم الحكمة في تدبر ما كان، وبالتالي التصرف بروية وحكمة. فكانت أول ردة فعل له – نحن نتخيل- تحفيز الجانب العقائدي الذي يؤمن بأن الله لا محالة منجي المؤمنين. لذا، لن يعدم الأمل بعودة كل المفقودات، وسيبذل كل ما بوسعه في البحث عنها حتى يجدها، فيرجع ولده إلى حضنه، ويعيد الأمانة (تابوت العهد القديم) إلى أصحابها:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨﴾ [النساء: 58]

المشهد 1: هناك في سبأ يتواجد لقمان، فيبحث فيها وما حولها عن ابنه وعن تابوت العهد القديم

المشهد 2: هناك بين أحضان الطبيعة الطفل يلعب مع الطير في تابوت العهد القديم المعلق الذي تحمله الملائكة. فيكون ذلك الطفل (نحن ما زلنا نتخيل) تحت الرعاية الإلهية في أحضان الطبيعة القاسية بعيدا عن البشر، و تتكفل مخلوقات الغابة (بأمر ربها) رعاية ذلك الطفل. ويكون أول المخلوقات التي بدأ ذلك الطفل يتعلم منها - كما أسلفنا- هي الطير، فكانت تلك منّة إلهية باقية في آل داوود:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: 16]

المشهد 3: هناك على أطرف الأرض المقدسة تنتهي فترة التيه، ويرفع حظر دخول الأرض المقدسة عن بني إسرائيل. فما الذي سيفعلونه لتحقيق ذلك على أرض الواقع.

تخيلات مفتراة: تتنقل كاميرا المصور بنا بين مسارح الأحداث هذه، لتبين لنا ما كان يجري من أحداث كثيرة في كل منطقة، ولما كنا لا نستطيع تقديمها جملة واحدة، وجب علينا أن ننتقل إليها الواحدة تلو الأخرى، وسنبدا بالأحداث الجارية حينئذ في الأرض المقدسة (حيث يتواجد القوم الجبارون) وعلى مشارف الأرض المقدسة (حيث يتواجد العائدون من التيه من بني إسرائيل).

أما بعد،

لو دققنا فيما قاله الملأ من بني إسرائيل في مراسلاتهم مع لقمان ليبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله لوجدنا بأنهم يبررون رغبتهم في القتال على نحو أنهم قد أخرجوا من ديارهم:

- ﴿... قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ ... ۝٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

السؤال: متى أخرجوا من ديارهم إذًا حتى يطلبوا العودة لها؟

افتراء خطير جدا: نحن نظن أن بني إسرائيل قد حاولوا جهدهم دخول الأرض المقدسة مرارا وتكرارا حتى قبل انتهاء مدة الحظر (فترة التيه التي كانت أربعين سنة)، ونحن نتخيل بأنه قد حصل إخراجهم منها على يد القوم الجبارين بعد أن نجحوا بدخولها مؤقتا.

السؤال: أين الدليل على هذا الافتراء الغريب العجيب الذي لا يمكن أن يصدقه أحد من العالمين؟

رأينا المفترى: نحن نظن – ربما مخطئين- أن التيه لا يعني عدم معرفة المكان أو عدم القدرة على الوصول إليه. فلقد درج الفكر السائد على تصوير الأمر (والحالة) على نحو أن التيه (الذي وقع به بنو إسرائيل) على نحو أنهم قد ضلوا الطريق لدرجة أن تصور الكثيرون (من العامة وأهل العلم على حد سواء) أن بني إسرائيل كانوا متواجدين حينئذ في مكان مقفر واسع بعيد (كالصحراء أو ما يشبهها) عن الأرض المقدسة، غير قادرين على معرفة الطريق المؤدية إليها، ويكأن لسان حال هؤلاء يقول لو أن بني إسرائيل عرفوا مكان تواجدهم بالنسبة لموقع الأرض المقدسة، لما كانوا تائهين. ليكون السؤال المنطقي الآن هو: هل فعلا التيه في بني إسرائيل يعني ضلالة الطريق في مكان موحش مقفر، بعيد عن الأرض المقدسة، فعجزوا عن تحديدها بالنسبة لموقعهم الجغرافي المتواجدين فيه طوال تلك الفترة من الزمن؟

(انظر كيف اختلف أهل العلم القدماء منهم والمحدثون في تحديد جغرافية مكان التية الذي وقع به بنو إسرائيل)

رأينا المفترى: نحن ننفي ذلك جملة وتفصيلا، للأسباب التالية:

⇐ أن بني إسرائيل كانوا أصلا متواجدين على مشارف الأرض المقدسة عندما طلب منهم نبيهم موسى دخول الأرض التي كتب الله لهم، فهم ليسوا بعيدين جغرافيا عن المكان، فلا داع لتصوير الأمر على نحو وجود جموع غفيرة في منطقة مقفرة، ينشدون مكانا آخر بعيدا جدا عن مكان تواجدهم الحالي. فإياك - عزيزي المترجم- أن تنقل مفردة "التيه" إلى اللغة الإنجليزية - مثلا - بمعنى أنهم.strayed
⇐ أن بني إسرائيل كانوا متواجدين بأعداد غفيرة، فهل يعقل أن القوم كانوا جميعا تائهين بمعني لا يستطيعون العثور على المكان المنشود، فمنطقنا المفترى يقول بأنه لو ظل بعضهم المكان، لاهتدى بعضهم الآخر إليه. فمن الاستحالة أن يضيع في مكان مقفر جمع غفير من الناس كهذا، فلا يعودوا قادرين على تحديد جغرافية المنطقة التي يعيشون بها مع غيرها من المناطق المحيطة بهم.
⇐ أن فترة التيه كانت أربعين سنة، وهذه فترة ليست بالقصيرة، فكيف استطاع القوم أن يتدبروا أمورهم من المأكل والملبس والمشرب ونحوها لو أن الأمر على نحو ضلالة الطريق في مكان مقفر واسع بعيد أن الأماكن الحضارية الأخرى من حولهم؟
⇐ الخ

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إذن، لنكف عن تصوير ما حصل (وبالتالي تخيل الأحداث) على نحو وجود جموع غفيرة من بني إسرائيل منتشرين في بلاد مقفرة بعيدة عن الأرض المقدسة، لا يعرفون كيف يصلون إليها. انتهى

السؤال: ما معنى التيه إذا؟

جواب: ضلالة الطريق

السؤال: كيف ذلك؟ أليس هذا ما كنت تحاول نفيه قبل قليل؟

جواب: كلا. لأنه يمكن لك أن تضل الطريق وأنت في ذات الموقع. فلو كنت أنا في وسط المدينة باحثا عن محل تجاري هناك على مقربة مني، ولم أستطع الوصول إليه، فأنا إذا تائه حتى لو كان المكان يبعد عني خطوات قليلة. فالبعد المكاني ليس ضرورة لأن كون تائها. لذا، عليك أخي المترجم أن تنقل هذه المفردة "التيه" إلى اللغة الإنجليزية - مثلا - على نحو stranded. لذلك نحن نقول باللسان الأعجمي (They were stranded, not strayed). فسادتنا وكبراؤنا من أهل العلم لم ينبهوا العامة من الناس إلى الفرق بين أن تضل الطريق مقابل أن تتيه في المكان.

السؤال: كيف تاه بنو إسرائيل في المكان وهم على مقربة من ذات الموقع (الأرض المقدسة).

الجواب: لأنهم لم يعرفوا أين باب الأرض المقدسة الحقيقي الذي سيدخلهم إليها

السؤال: لم نفهم ما تقول. هل يمكن توضيح الأمر أكثر.

افتراءات ربما غير مسبوقة: نحن نتخيل بأن بني إسرائيل ما يزالون متواجدين على مقربة من الأرض المقدسة، فالتيه الذي وقعوا فيه كان أصلا على مشارف الأرض المقدسة، وهناك مكثوا أربعين سنة تاهين (stranded)، لأنهم لم يجدوا طوال تلك الفترة من الزمن الباب الحقيقي الذي يجب أن يدخلوا الأرض المقدسة من خلاله. فاختلوا في تحديد مكان الباب، فكانوا تائهين. وظلوا طوال أربعين سنة يبحثون عن ذلك الباب فلا يجدونه. ولكن هذا لم يمنعهم عن القيام بمحاولات متكررة لدخول الأرض المقدسة من أبواب أخرى، لظنهم أنها طرق ممكنة. وهنا يجب أن نجلب انتباه القارئ الكريم – إن أراد- لدور علماء بني إسرائيل الذي كان ديدنهم الاختلاف من بعد ما جاءهم العلم:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: 19]

فنحن نتخيل أن موسى قد طلب منهم قبل أربعين سنة أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كانت تحت سلطة قوم جبارين، فرفض ينو إسرائيل دخولهم إياه قبل أن يخرج منها أولئك القوم:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ٢٢﴾ [المائدة: 21-22]

جاءهم العلم على لسان رجلين من الذين أنعم الله عليهم أن يدخلوا الارض المقدسة من الباب، وبالتالي سيكونوا غالبين:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

لكن ذلك لم يزدهم إلا اصرارا على موقفهم السابق برفض دخولها رفضا قاطعا:

- ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]

فكانت النتيجة الحتمية هي تحريم دخولهم إياها أربعين سنة، يتتهون في الأرض:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 25-26]

فتركهم موسى وأخوه هارون والرجلان المؤمنان، وما أخبروهم عن المكان الحقيقي لباب الأرض المقدسة، لأنه لا جدوى من معرفة الباب مادام أن ذلك الباب لن يفتحه إلا التابوت الذي أخذه موسى معه في رحلته مع فتاه إلى ذلك العبد الصالح عند مجمع البحرين:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ [الكهف: 60]

ما أن فارق موسى بني إسرائيل حتى أدرك بعضهم خطأ ما فعلوا. لكن ما الذي يستطيعون فعله الآن؟

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل أنه قد حصل الشد والجذب بين الملأ من بني إسرائيل (ولا ننسى أنهم اثنا عشرا اسباطا أمما)، فكانوا مجمعين على ضرورة أن يدخلوا الأرض المقدسة، لكنهم مختلفين في طريقة تحيقيق هذا الهدف على أرض الواقع، أي كيفية دخولهم إليها ومكان دخولهم إليها. فجرت المحاولات منهم بطرق مختلفة وبأساليب متعددة، لكن باءت جلها بالفشل الذريع ربما بعد نجاح قصير. فنحن نظن أنهم قد دخلوها بعض الوقت لكن ما هي إلا فترة قصيرة حتى أخرجوا منها على يد القوم الجبارين. وانظر الآن في قول الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى لذلك النبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا يقاتلوا في سبيل الله (وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا):

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]

السؤال: كيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة 1: هناك على أطراف الأرض المقدسة يتواجد التائهون من بني إسرائيل، باحثين عن الباب الحقيقي الذي جاءهم خبره عن طريق نبيهم موسى على لسان الرجلين المؤمنين، فلا يجدونه. فيعمدون إلى محاولة الدخول بعدة طرق كان أولها (نحن نظن) الدخول السلمي بإجراء المراسلات ثم المفاوضات مع القوم الجبارين المتواجدين في الأرض المقدسة حينئذ. فماذا كانت نتيجة تلك المفاوضات؟

تخيلات مفتراة 2: في داخل الأرض المقدسة يتواجد القوم الجبارون الذي يصدون بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدسة. لكن وجود بني إسرائيل على مقربة من المكان قد كان يتميز بشيئين اثنين:

⇐ كثرة عددهم، وتكاثرهم، وربما لهذا جاء قولهم بأن إخراجهم منها كان لهم وأبنائهم (وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا)
⇐ طول الفترة التي تواجدوا فيها على مقربة من الأرض المقدسة (أربعين سنة).

4. التساؤلات:

⇐ ما الذي سيفعله القوم الجبارون إزاء وجود بني إسرائيل بأعداد غفيرة (ويتكاثرون) على مقربة من الأرض ولفترة زمنية طويلة؟
⇐ هل تراهم غافلين عن وجود بني إسرائيل هناك؟
⇐ هل سيسكتوا على الأمر ويكأنه لا يعنيهم؟
⇐ ألا يعلم هؤلاء أن بني إسرائيل مصرين على الدخول؟
⇐ ألم يأتيهم الخبر بأن بني إسرائيل مؤمنون بأن هذه الأرض لهم بشرعية دينية؟
⇐ فهل سيصموا آذانهم ويغمضوا أعينهم عن كل ما يجري على مشارف الأرض؟ ألن يسبب لهم ذلك ضيقا وحرجا (لا سيما أنهم أصلا قوم جبارون)؟
⇐ ألن تخرج الاصوات من هنا وهناك لصد خطر بني إسرائيل القادم؟
⇐ ألم يكن هؤلاء قوم جبارون يستطيعون شن الهجوم على بني إسرائيل بدلًا من انتظار دخول بني إسرائيل عليهم؟
⇐ الخ

السؤال: ما الذي حصل على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة: ما أن وجد بنو إسرائيل أنفسهم تائهين (stranded) لا يعرفون مكان الباب الذي يجب أن يدخلوا الأرض المقدسة من خلاله، وما أن وجدوا أن نبيهم موسى قد فارقهم ومعه مفتاح ذلك الباب الذي ما زالوا لا يتستطيعون تحديد مكانه بالضبط ، حتى انبروا للتعامل مع الموقف ببراغماتيتهم المعهودة، فكان أول طريق سلكوها هي الطريقة الدبلوماسية السلمية، وذلك بإرسال موفدهم للتفاوض مع القوم الجبارين، لكن حصل ما كان متوقعا، ألا وهو رفض القوم الجبارين دخول بني إسرائيل الأرض أو مشاركتهم إياها، وتوعدوهم بالقتل (زي اللي توعد يرميهم لسمك البحر قبل عهد قريب – اتقوع يا سمك) إن هم أقدموا على ذلك، لكن لم يكن ذلك التهديد والوعيد ليثني بني إسرائيل عن تكرار المحاولة، وسلوك الطرق الإلتواية لتحقيق هدفهم في دخول الأرض المقدسة. لذا، نحن نتخيل بأنهم قد عمدوا إلى إبرام الصفقات التجارية الخفية الفردية والشراكات الاقتصادية مع نفر من القوم الجبارين، لا سيما أنهم كانوا قادمين من مصر يحملون معهم كثيرا من كنوزها:

- ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء: 57-59]

فاستطاعوا بادي الأمر (نحن نتخيل) استمالة نفرا من القوم الجبارين بالمال وبطرق أخرى لا نريد الدخول في تفصيلاتها.

تخيلات مفتراة: ما هي إلا سنوات قليلة حتى ينجح نفر من بني إسرائيل بإختراق حاجز القوم الجبارين وبث الفرقة بينهم.

السؤال: كيف حصل ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نستطيع حتى الساعة أن نتخيل أكثر من سيناريو محتمل لما حصل على أرض الواقع. لذا سنقدم عدة سيناريوهات، ثم نترك للقارئ الكريم أن يطلق العنان للخيال أن يقرر أيهما أقرب للحقيقة بعد جلب الدليل الذي قد يثبت بعضها أو ينفي بعضها الآخر.

السيناريو رقم 1:

هناك – داخل الأرض المقدسة- كان أبرز المتواجدين بين القوم الجبارين هما "الأخوان" طالوت وجالوت، اللذان لم يصبحا على اتفاق بخصوص التعامل مع بني إسرائيل المتواجدين على مشارف الأرض المقدسة، الذين اصبحوا يتدخلون في شئوون البلاد شيئا فشيئا، ولكن بطرق فردية، وخفية، بما لديهم من قدرات مالية هائلة، تغري نفوس بعض الناس من القوم. (وارجعوا إلى التاريخ الحديث ثم انظروا ماذا فعلوا في نهاية الدولة العثمانية خاصة مع خليفة الإخوان قديما السلطان التركي عبد الحميد).

وكانت أول ثمار جهود بني إسرائيل (نحن ما زلنا نستخدم الخيال) هو تعميق الفجوة بين الأخوين، خاصة أن جالوت كان طامعا في وراثة الحكم الذي كان طالوت – برأينا- أحق به من أخيه جالوت. ففي حين أن طالوت كان الأحق بالملك من جالوت وفي حين أنه لم يكن معاد جدا لفكرة دخول بني إسرائيل الأرض ومشاركتهم إياها، كان جالوت - في المقابل - طامعا في استلاب الحكم من أخيه، ومعاديا في ذلك الوقت لفكرة مشاركة بني إسرائيل الأرض.

تخيلات مفتراة: استغل جالوت النزعة القومية بعدائه الصارخ لبني إسرائيل، واستطاع أن يوحد رجال الساسة الفاسدين من حوله (كما فعل بعض القومجيين العرب في زمن ليس ببعيد عنا)، كما استطاع أن يشتري العسكر بالمال حتى أصبحت له السطوة، فاستطاع أن يزيح أخاه طالوت عن الحكم وأن يجرده من المال، ولحق به مطاردا لما بعد مجمع البحرين في حرب عسكرية بحرية، حيث كانت أول ما رءاه العبد الصالح مع موسى في رحلتهم الأولى التي خرق فيها السفينة:

- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71]
- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]

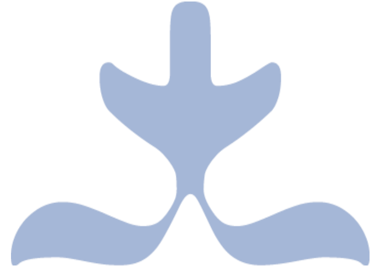
السؤال: من هو الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا؟ ولماذا جاءت تلك القصة في سياق رحلة موسى مع العبد الصالح؟ الخ.

تخيلات مفتراة: انطلق ذلك الملك (جالوت) مطاردا أخاه جالوت، ليستتب له الملك. وجرد أخاه من كل أسباب القوة المادية المالية، لذا عندما طلب الملأ من بني إسرائيل من ذلك النبي أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله، وعندما جاءهم رده على نحو أن الله قد بعث لهم طالوت ملكا، كانت واحدة من أسباب احتجاجهم عليه هو أنه لم يؤت سعة من المال:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾ [البقرة: 247]

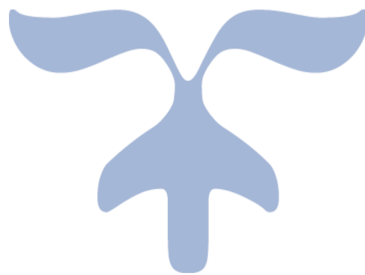
التساؤلات

- ⇐ الا تشعر - عزيزي القارئ- بأن ردهم يدل على أنهم يعرفون من هو طالوت؟
- ⇐ الا تشعر أنهم يعرفون شيئا عن تاريخه السابق؟
- ⇐ كيف عرفوا أن طالوت لم يؤت سعة من المال؟
- ⇐ كيف يكون ملكا وليس عنده سعة من المال؟ فأي ملك هذا الذي ليس لديه سعة من المال؟
- ⇐ هل كانوا يعرفون ملكا لديه سعة من المال كان من الممكن أن يبعثه ذلك الرسول لهم؟
- ⇐ من هو ذلك الملك ذو سعة المال الذي كان يمكن أن يقبل به الملأ من بني إسرائيل (لو أن ذلك الرسول بعثه لكم)؟
- ⇐ الخ



قصة داوود

الجزء السادس



قصة داوود – الجزء السادس

حاولنا في الأجزاء السابقة تصوير ما كان يجري – حسب خيالنا المفترى- مع الصبي داوود في ذلك المهد (التابوت) في الغابة بعيدا عن أعين الناظرين. فظننا بأن ذلك الصبي قد وصل إلى الغابة في التابوت الذي كانت تحمله الملائكة بسبب أمواج سيل العرم العاتية التي ضربت منطقة سبأ كعذاب من الله على القوم الذين كذبوا رسولهم (لقمان)، فتعلم منطق الطير الذي كان أول الواصلين للتابوت خلال حصول سيل العرم وبعده. كما افترينا القول من عند أنفسنا بأن ذلك الفتى قد تعلم من المخلوقات الكثيرة في الغابة طبائع أخرى، مثل:

⇐ طريقة المشي
⇐ طريقة الكلام
⇐ طريقة القتال
⇐ الخ

ومن هذا الباب جاء – حسب ظننا- جهد الوالد (لقمان) في تأهيل الولد (داوود) الذي عاد إليه بعد غياب طويل، مقدما له العظة على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۝١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾ [لقمان: 13-19]

فحاولنا ربط جزيئات هذه العظة على وجه التحديد بالقصة التي صنعها خيالنا عما كان يجري من أحداث حينئذ (للتفصيل انظر الجزء السابق).

ثم انتقلنا إلى مواقع آخر على الأرض محاولين تصور ما كان يجري هناك. فقدمنا افتراءاتنا عن الأحداث أولا في بابل (حيث وجود الملوك) وثانيا عن الأحداث التي كانت تجري (حسب مخيلتنا) في الأرض المقدسة (حيث يوجد القوم الجبارون) وعلى مقربة منها (حيث يتواجد التائهون من بني إسرائيل). وكانت أهم الافتراءات التي حاولنا جلب انتباه القارئ لها فيما يتعلق بأحداث بابل هي على النحو التالي:

⇐ وجود الملوك؛

⇐ نشاط شياطين الجن والإنس لاستغلال ما أنزل على الملكين هاروت وماروت هناك؛
⇐ وصول لقمان الحكيم إلى بابل؛
⇐ مساندته قوى الحق في مقارعة قوى الباطل؛
⇐ استتباب حكم الملوك في بابل وما حولها؛
⇐ حصول الحضوة للقمان عند أولئك الملوك؛
⇐ استطاعة لقمان أن يرسل أولئك الملوك للقتال في مناطق أخرى كتلك التي طلبها منه الملأ من بني إسرائيل لمقارعة جالوت (جبار الأرض المقدسة) الذي سلب الحكم من أخيه طالوت وجرده من المال؛
⇐ الخ

أما افتراءاتنا بالنسبة لما كان يجري في الأرض المقدسة وحولها، فكانت على النحو التالي:

⇐ كان "التيه" الذي وقع فيه بنو إسرائيل مدة أربعين سنة قد حصل على مقربة من الأرض المقدسة؛
⇐ أن التيه كان يتمثل بعدم قدرتهم على الاهتداء إلى طريقة الدخول في الأرض المقدسة، مادام أنهم لم يهتدوا بعد إلى الباب الحقيقي الذي يدخلهم إليها، ومادام أنهم لا يملكون تابوت العهد القديم الذي هو مفتاح ذلك الباب (انظر الأجزاء السابقة)؛
⇐ عمد القوم إلى محاولة دخول الأرض من أبواب أخرى مستغلين ما عندهم من العلم (ما دام أن فيهم العلماء) وما لديهم من المال (الذي جلبوه معهم من مصر)، متبعين طرق متعددة كانوا جميعا مختلفين فيها؛
⇐ نجاح بني إسرائيل (نحن نرى) في دخول مؤقت إليها؛
⇐ إخراج بني إسرائيل منها على يد القوم الجبارين. ومن هذا المنطلق فهمنا (ربما مخطئين) قولهم للنبي الذي طلبوا منه أن يبعث لهم رسولا بأنهم قد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم منها:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

وقدمنا سيناريو افتراضي (لم نتحقق بعد من واقعيته حتى الآن) عمّا كان يجري داخل الأرض المقدسة بين القوم الجبارين. فافترينا الظن بما يلي:

⇐ وجود بني إسرائيل بأعداد غفيرة ولفترة زمنية طويلة على مقربة من الأرض المقدسة ربما كان سببا في حصول شقاق بين طالوت وجالوت داخل الأرض المقدسة في تلك الفترة من الزمن؛

⇐ كان طالوت – كما تخيلنا الأمر حينئذ – هو صاحب الحق في الملك في الأرض المقدسة؛
⇐ لم يكن طالوت معاد لفكرة مشاركة بني إسرائيل الأرض المقدسة (لا ننسى أنه قد زاده الله بسطة في العلم)؛
⇐ كان أخوه جالوت - بالمقابل- طامعا في الحكم الذي هو من حق أخيه الأكبر طالوت، ومعاديا لفكرة مشاركة بني إسرائيل الأرض؛
⇐ استطاع جالوت هذا من تجريد أخاه طالوت من السلطة والمال بالقوة العسكرية بسبب استثارته للنزعة القومية بين القوم الجبارين. وبالفعل، استطاع (نحن ما زلنا نتخيل) أن يسلب الحكم منه؛
⇐ ذهب جالوت مطاردا لأخيه طالوت خارج حدود الأرض المقدسة. فافترينا القول م عند أنفسنا بوجود صراع على السلطة داخل الأرض المقدسة بين القوم الجبارين:
⇐ أشرنا إلى أن لهذا علاقة (حسب خيالنا) بقصة الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا، وهي تلك الحادثة (نحن نظن ربما مخطئين) التي صورها لنا العبد الصالح في بداية رحلته مع موسى:

- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]

⇐ ظننا (كسيناريو أولي) بأن ذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا هو الذي كان محكما سيطرته على الأرض المقدسة عندما وصل إليها موسى مع بني إسرائل بعد خروجهم من مص؛
⇐ استمر حكم ذلك الملك للأرض المقدسة فترة طويلة جدا خلال سنوات التيه لبني إسرائيل؛
⇐ ما أن مات هذا الملك حتى كان غدا لزاما أن يؤول الملك إلى واحد من اثنين، هما طالوت وجالوت؛
⇐ استغل جالوت فكرة عدائه لبني إسرائيل، وشن هجوما على طالوت، فاستطاع أن يجرده من السلطة والمال؛
⇐ وجد طالوت نفسه مطاردا، مخرجا من الأرض التي كان من المفترض أن يكون هو الملك فيها، مسلوبا من كل أسباب القوة العسكرية والمالية؛
⇐ كان لابد لطالوت من أن يبحث عمن يستطيع أن يكون عونا له في استعادة ملكه المسلوب من قبل "أخيه" الظالم الذي جرده من ذلك الملك دون وجه حق؛
⇐ الخ.

فأصبح السؤال المطروح الآن هو: لماذا عندما طلب الملأ من بني إسرائيل من ذلك النبي أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله معه ضد جالوت (المستبد في الأرض المقدسة) وقع الاختيار على طالوت الذي كان أصلا ملكًا لكن ليس له سعة من المال؟

رأينا المفترى: بالرغم من توافر أكثر من ملك عند ذلك النبي يستطيع أن يبعثه لهم بدليل قولهم له (ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا)، لم يقع اختيار ذلك النبي لهم (لبني إسرائيل) على ملك (من بين كل الملوك عنده حينئذ) يقاتلون معه في سبيل الله إلا طالوت، وذلك – برأينا- لسببين اثنين على الأقل:

⇐ أن طالوت كان رجلا مؤمنا، فما كان لنبي كهذا أن يثق إلا بمن كان مؤمنا حقا ليقود مثل تلك الحرب التي - لا شك -ستكون حربا ضروسا مادام أنها مواجهة عسكرية ضد جالوت والقوم الجبارين معه؛
⇐ أن طالوت هو الأحق بالملك في تلك الأرض متى حصلت الهزيمة لجالوت وجنوده.

الدليل

لو تدبرنا قصة طالوت في السياق القرآني، سنجد على الفور بأن هذا الرجل هو من كان ملكًا يقاتل المؤمنون من بني إسرائيل معه (تحت قيادته)، كما نجد بأن داوود (ولد لقمان الذي ما يزال شابا يافعا) قد كان أحدَ الجنود في جيشه (أي في جيش طالوت). لكن المفارقة العجيبة تكمن في أن طالوت لم يكن هو نفسه من قتل جالوت بالرغم من التكافؤ الظاهر بين الشخصيتين من حيث المكانة (ملكا مقابل ملكا) ومن حيث القوة البدنية (فهما من القوم الجبارين). فالسؤال المطروح هو: لماذا لم يكن طالوت هو من واجه جالوت في تلك المعركة؟ ولماذا انبرى داوود لقتل جالوت؟

رأينا المفترى: لما كان افتراؤنا بأن طالوت هو ربما "الأخ" الأكبر لجالوت، ما كان من طالوت (المؤمن) أن يُقدِم شخصيا على قتله بيده، فهو في نهاية المطاف (نحن نظن ربما مخطئين) أخوه البيولوجي بالرغم من الاختلاف بينهم في العقيدة وفي التوجه. لذا، كانت مهمة الرجل (طالوت) تنحصر في أمرين اثنين:

⇐ استعادة ملكه المسلوب
⇐ إرجاع الحق إلى أصحابه متمثلا في إعادة المخرجين من بني إسرائيل من الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم إليها.

ولو دققنا في السياق القرآني ذاته أكثر، لوجدنا بأن ذلك قد جاء صراحة في قول النبي لبني إسرائيل في قوله لهم (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ):

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

إذن، يقرّ ذلك النبي بأن لطالوت ملك (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ)، وأن آية ذلك المُلك هو أن يأتيهم التابوت (إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ). ولو دققنا في السياق ذاته أكثر، لربما حقّ لنا أن نفتري القول – على غير ما يظن العامة من الناس- بأن التابوت لم يكن في حيازة طالوت، ولكنه كان آية ملك لطالوت. فالنص جليّ يبين بأن التابوت يأتي بذاته (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ)، ولكنه لم يأت مع طالوت (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ

أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ). ولو كان التابوت في حيازة طالوت، أو أنه جاء مع طالوت شخصيا، لربما (نحن نظن) جاء النص على نحو:

- ⇐ أن يأتيكم بالتابوت، أو
- ⇐ أن يأتي معه التابوت
- ⇐ الخ

ونحن لا نشك قيد أنملة بأن التابوت قد جاء آيةً على ملك طالوت، لكنه كان بحيازة الفتى داوود الذي انبرى ليقتل جالوت في تلك المواجهة الشرسة بين الطرفين. وسنتعرض - بإذن الله- لتفاصيل المواجهة لاحقا لنحاول أن نبيّن - من وجهة نظرنا - كيف استطاع داوود بقدراته الذاتية التي اكتسبها في الغابة وبما لديه من إرث النبوة المتوافر في التابوت أن يقتل جالوت الذي ظن جيش المؤمنين بمجموعهم بأنه لا طاقة لهم به وبجنوده:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249]

ولعل المتابعين لهذه السلسة من المقالات قد تسآءلوا من أولها عن كيفية معرفة لقمان الأب (لقمان) بأن هذا الولد المفقود في الغابة (منذ سنين خلت) هو ابنه. فنرد على ذلك بالمنطق البسيط المفترى من عند أنفسنا على نحو بأن لقمان لم يكن يبحث – كما ذكرنا سابقا- عن ولده المفقود فقط، ولكنه كان يبحث أيضا عن ذلك التابوت الذي كان مستودعا – كأمانة- في بيت أبويه المؤمنين من قبل موسى الذي فارق بني إسرائيل قبل أربعين سنة. لذا لمّا وجد ذلك الغلام المفقود في الغابة وبحيازته التابوت الذي مازال فيه ما تبقى من إرث النبوة من آل موسى وآل هارون، لم يكن ذلك ليشكل على لقمان أن يعلم يقينا بأنه ما كان لأحد الحق بأن يتواجد في ذلك التابوت ويستطيع الاستفادة من مقتنياته إلا من كان التابوت في بيتهم من ذي قبل. وسنتعرض لتفاصيل ذلك عندما يرجع بنا الحديث - بإذن الله- إلى تفاصيل قصة لقمان مع أهل بيته في سبأ. (فالله وحده أسأل ألا أفتري عليه الكذب ولا أكون ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق. وأدعوه وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير).

لكن السؤال الذي سيبرز مباشرة من هذا السيناريو الخيالي هو: مادام أن التابوت لم يأت مع طالوت، فكيف كان آية على ملكه؟ وبكلمات أخرى – نحن نسأل- ما علاقة طالوت بالتابوت؟ وكيف أصبح التابوت آية على ملك الرجل؟

رأينا المفترى: سأحاول في الأسطرالقليلة التالية تقديم سيناريو افتراضي – من مخيلتنا- كاجابة على هذه التساؤلات الأولية، لنغوص في تفاصيلها لاحقا – بإذن الله- عندما نجلب الدليل الذي ربما يثبتها من مكان آخرى.

أما بعد،

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان طالوت – برأينا- غير معاد لفكرة مشاركة الأرض المقدسة مع بني إسرائيل، لكنه غير متيقن تماما من شرعية كتابة الأرض لهم بأمر إلهي كما جاء على لسان نبي بني إسرائيل موسى من ذي قبل:

- ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ٢١﴾ [المائدة: 21]

ولما قاربت فترة التيه (الأربعين سنة) أن تنقضي، احتدم الصراع بين طالوت وجالوت على الملك بعد موت والدهم الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا، يغذيه فكرة مشاركة (أو عدم مشاركة) بني إسرائيل الأرض. فكانت الشكوك تراود طالوت (الذي زاده اله بسطة في العلم بالإضافة إلى بسطة في الجسم) بأن بني إسرائيل لا محالة سيدخلون الأرض المقدسة شاء أم أبى، لكنه يعلم أيضا بأن ذلك غير ممكن إلا بوجود مفتاح باب الأرض المقدسة كما جاء على لسان الرجلين المؤمنين الذين حثا قومها على دخول الأرض من بابها:

- ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة: 23]

في هذه الأثناء، كان على طالوت (كسياسي وكصاحب علم) أن يزن كل الاحتمالات الممكنة بما فيها السؤال التالي: ماذا لو أن دخول بني إسرائيل حتمي؟ ماذا عساه أن يفعل لو أن ذلك فعلا وعد إلهي لزاما أن يصبح حقيقة على أرض الواقع في يوم من الأيام؟ ألا يتوجب عليه أن يتصرف بحكمة وروية (عكس أخيه جالوت العسكري الذي لا يكاد يفقه قولا)؟

لكن ألا يتوجب عليه أيضا أن يتأكد من صحة منطق بني إسرائيل الذين يروجون لشرعية دخولهم الأرض التي كتب الله لهم؟ ألا يتوجب أن يتأكد من صحة خبر الباب الذي سيدخلون منه، والمفتاح الذي سيمكنهم من دخول ذلك الباب؟ فما الذي يمكن له أن يفعله ليتأكد من صحة ما يروج له بنو إسرائيل على لسان علمائهم حينئذ؟

تخيلات مفتراة: ما أن وجد طالوت نفسه مدحورا من الأرض المقدسة على يد أخيه جالوت، حتى أصبح لزاما عليه – نحن نظن- أن يبحث عن صحة خبر التابوت الذي ينتظر قدومَه بنو إسرائيل. فأين سيجد خبره؟

رأينا المفترى: لو كنت أنا شخصيا مكان طالوت في تلك الفترة، لعمدت إلى التأكد من صحة الخبر من طرف محايد. فلن أقبل الخبر من لسان بني إسرائيل أنفسهم، لأن ذلك طرف غير محايد في الصراع حينئذ. وسأبحث - في المقابل- عن مصدر معلومات موثوق في غير بني إسرائيل. فأين يمكن أن أبحث عن ذلك المصدر المعلوماتي المحايد؟

تخيلات مفتراة: عند أخذ جميع الظروف التي كانت تجري في المنطقة وما حولها (كحصول سير العرم في سبأ في الجنوب الغربي، وكبداية استتباب حكم الملك في بابل في الشرق)، فلن أجد بدا من البحث عن ذلك الشخص الذي كان عاملا رئيسيا في ذلك كله. لذا، لم يكن خبر وجود (لقمان) كنبي عنده من العل ما يكفي ليخفى عن باحث عن الحقيقة كهذا الرجل الذي فقد مصدر السلطة (الملك) ومصدر الثروة (المال).

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل بأن طالوت قد ذهب في رحلة مليئة بالأحداث المثيرة (التي سنتعرض لها لاحقا بإذن الله) باحثا رجل ذاع صيته في البلاد شرقا وغربا لما يتمتع به من الحكمة، فكانت قبلته ذلك المسمى لقمان الحكيم. فطالوت الآن في أمس الحاجة إلى حكمة هذا الرجل، وذلك لسببين اثنين على الأقل:

- ⇐ محاولة إرشاده إلى الطريقة السليمة في استعادة ما سلب منه من الملك والمال
- ⇐ التأكد من صحة ما يتناقله بنو إسرائيل بأن دخولهم الأرض المقدسة لا محالة حاصل متى ما جاءهم التابوت

السؤال: ما الذي حصل فعلا على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: بعد رحلة شاقة تخللتها الأحداث التي أقل ما يمكن أن توصف بالمغامرات الجرئية والخطرة في ذات الوقت، وصل طالوت (نحن نتخيل) للقمان الحكيم. فما كان منه إلا أن يقص عليه القصص، طالبا المشورة والرأي، مادام أن لقمان ليس من بني إسرائيل، ما دام أن الرجل يملك كثيرا من الحقائق التي يبحث عنها طالوت.

السؤال: كيف استقبل لقمان طالوت هذا؟

رأينا المفترى: ما أن قص طالوت القصص على لقمان حتى كان أول ردة فعل له تتمثل بأن يطمئن الرجل على أنه قد نجا من القوم الظالمين (ولنتخيل خروج موسى من مصر بعد حادثة القتل وتوجهه إلى مدين حيث وجد شعيب)، وأنه يستطيع تقديم يد العون له لاستعادة ملكه المسلوب، لكنه أكد له شرعية حيازة الأرض المقدسة من قبل بني إسرائيل متى ما جاء الإذن الإلهي لهم بدخولها. وهنا يفاجئ لقمان طالوت بالخبر الصاعق: أن ذلك غير ممكن إلا بحيازة تابوت العهد القديم الذي هو مفتاح باب الأرض المقدسة الحقيقي. فما يكون من طالوت (نحن نتخيل) إلا أن يسأل لقمان عن ذلك التابوت.

السؤال على لسان طالوت: أين هو تابوت العهد القديم؟ هل تعرف مكانه؟

الجواب على لسان لقمان: لقد كان مستودعا في بيت والدي المؤمنين، لكن سيل العرم ذهب به (مع مقتنايته بعيدا).

السؤال: وأين يجب أن نبحث عنه؟

الجواب: في مكان ما حيث يمكن للسيل أن يأخذه.

تخيلات مفتراة: في هذا الوضع، لا يمكن لطالوت أن ينكر منطق بني إسرائيل الذي كان يسمعه منهم منذ زمن بعيد مادام أنه قد جاء على لسان هذا الحكيم الذي ليس من بني إسرائيل. لذا، لابد من البحث عن ذلك التابوت، وذلك لسبب بسيط يتمثل في أن الحصول عليه سيثبت له أمرين مهمين:

- ⇐ أن كل ما سمعه من الرجل الآن، وما كان يسمعه من بني إسرائيل من ذي قبل، صحيحا، وبالتالي فإنه لا طائلة من المكابرة بانكار ذلك (حق بني إسرائيل في الأرض المقدسة إن جاء الإذن الإلهي بذلك).
- ⇐ أن حصوله على ذلك التابوت سيكون السبب المباشر في استعادة ملكه المسلوب

السؤال: لو كنت – عزيزي القارئ- في مثل هذا الموقف فكيف ستتصرف؟ هل ستترك الأمر كله وتذهب باحثا عن طريقة أخرى لتحقيق هدفك المنشود؟ أم ستذهب باحثا عن ذلك التابوت الذي هو بصيص الأمل في استعادة حقك المهضوم؟

رأينا المفترى: لما كان طالوت رجلا يبحث عن الحق، ما كان له أن ينكره، ولما كان صاحب حق مسلوب، ما كان منه ليسكت عنه. لذا، تصرف الرجل (نحن ما زلنا نتخيل) ببرغماتية مدفوعة بالعقلانية وبالإيمان. فما كان منه إلا أن يقدّم خدماته للقمان بالبحث عن ذلك التابوت المفقود، ويصبح من الملوك الذين يأخذون برأيه بعد ذلك.

السؤال: ما الذي أقدم عليه طالوت في بحثه عن ذلك التابوت المفقود؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن طالوت قد بدأ يتدبر خارطة المنطقة كلها التي وضعها أمامه داوود، في محاولة لتحديد المكان الذي يمكن للتابوت أن يستقر به بقوة سيل العرم الذي بدأ بسبأ. وهنا انطلق الرجل (نحن نتخيل) – كمحقق يقتفي الأثر - باحثا عن التابوت المفقود بعد أن أخذ ما يكفي من المعلومات الأولية التي يحتاجها ذلك المحقق من مصدر المعلومات الأول وهو لقمان. فأخذ ينسج خيوط القصة شيئا فشيئا، ويسقطها على الأرض، لينظر من أين يبدأ رحلة البحث عن التابوت المفقود.

تخيلات مفتراة: ما أن جمع طالوت ما يكفي من المعلومات الضرورية في رحلة بحثه عن التابوت حتى انطلق في رحلة شاقة وغريبة تملئها المفاجئات الخطرة، ولا تخلو – في ذات الوقت- من الإثارة والغرابة في الأحداث التي واجهته خلال تلك المغامرة غير المحسوبة النتائج حتى الساعة. فطاف بلدانا عديدة، وزار مناطق غريبة، وقابل إناس كثيرين، ودخل في مغامرات خطيرة، باحثا عن ظالته التي لن يرجع دونها مهما كلف الأمر. ونترك لكاتب السيناريو وللمخرج تصوير الأحداث المثيرة (الشيقة والصعبة في ذات الوقت)، لنصل إلى نتيجتها النهائية هنا: وصول طالوت إلى قلب تلك الغابة الموحشة والخطرة التي سيجد بها ضالته، وهناك بالفعل تقع عينه لأول مرة على ما لا يمكن تجاوزه: وجود صندوق يشبه "المهد" معلقا في الفضاء فوق أشجار الغابة الكثيفة. لكن ما أن حاول هذا الجبار بجسمه (وزاده بسطة في الجسم) وقدراته البدنية الهائلة الوصول إليه (أي إلى التابوت) حتى تهاجمه مخلوقات الغابة من كل اتجاه. فما كانت تلك

الكائنات لتترك فرصة ليد غريبة أن تمتد إلى هذا التابوت الذي يعرفونه جيدا، ويعرفون صاحبه الحقيقي الذي يستطيع التحكم فيه. فانطلقت تلك الكائنات (نحن نتخيل) تنادي (كل بطريقته) صاحب التابوت بأصوات يعرفها فتى الغابة الذي تربى بينهم منذ نعومة أظفاره. وما هي إلا دقائق قليلة (نحن مازلنا نتخيل) حتى يكون ذلك الصبي قد هاجم طالوت بعنف بطريقة بهلونانية غير متوقعة من طالوت، داحرا إياه عن ذلك التابوت. لكن المفاجأة كانت صادمة للاثنين:

- ⇐ فتى (أي داوود) يرى لأول مرة كيانا فيزيائيا يشبه في الشكل ويختلف عنه في طريقة الانتقال والكلام والقتال؛
- ⇐ رجل (اي طالوت) يرى لأول مرة شخصا من بني جلدته يتصرف كمخلوقات الغابة في القفز والصوت والقتال.

السؤال: كيف سيتصرف كل منهما؟

رأينا المفترى: لم يكن الطرفان ليتقبلا بعضهما البعض بيسر وسهولة. لذا بدأ – نحن نتخيل- مسلسل المطاردة بينهما في الغابة الكثيفة. فالغلام يحاول الابتعاد عن هذا الكائن الغريب تسانده في ذلك مخلوقات الغابة، والرجل يحاول الوصول إليه لأن كل حياته المستقبلية مرتكزة على الحصول على ذلك التابوت، ويسانده في ذلك غريزة بشرية بمعرفة سر هذا الصبي غريب الأطوار في هذا المكان الغريب والبعيد. فما كان في ذهنه في تلك اللحظة (نحن نتخيل) إلا سؤالين اثنين محيرين: من هذا الفتى؟ وكيف جاء إلى هنا؟.

وهنا نتوقف أما سيناروهين اثنين لابد من وضعهما معا على طاولة النقاش للتأكد من صحة أحدهما لاحقا بإذن الله:

- ⇐ أن لقمان قد كان يعرف أن التابوت موجود معه ذلك الصبي الذي هو ابنه، فاخبر طالوت بذلك، وبالتالي لم يتفاجأ طالوت بوجود الغلام مع التابوت
- ⇐ أن لقمان لم يكن يعلم بأن له ولد مع التابوت المفقود، فلم يخبر طالوت عن أمر الصبي، وبالتالي تفاجأ طالوت من وجود غلام في الغابة البعيدة عن الناس.

السؤال: أي الاحتمالين هو ربما أقرب للحقيقية؟

رأينا المفترى: لما كنا حتى الساعة لا نملك الدليل على صحة هذا أو بطلان ذاك، فإننا سنتبنى – مبدئيا- الخيار الأخير، وهو عدم معرفة لقمان بأن ولده موجود مع التابوت المفقود. لذا، سأحاول تصوير المشهد على نحو أن طالوت الباحث عن التابوت قد تفاجأ بوجود الصبي مع التابوت. لكن ما الذي يمكنه فعله حيال ذلك؟

تخيلات مفتراة 1: حاول طالوت الحصول مرارا وتكرارا على التابوت لكن دون جدوى، فما كان منه إلا أن يحاول الوصول إلى الصبي ليتمكن من الوصول بعد ذلك إلى التابوت. فيمكث طالوت فترة من الزمن في الغابة، يرقب ذلك الصبي وما يفعله في الغابة مع تلك المخلوقات الغريبة فيها. فتشده العلاقة القائمة بين ذلك الصبي وتلك المخلوقات، وكيف يتفاعلون معا بانسجام تام لم يكن ليعهده في أي مكان آخر.

تخيلات مفتراة 2: وبالمقابل نجد هذا الصبي قد اعتاد – بعد فترة من الزمن- وجود ذلك الرجل معهم في الغابة، فتنشأ علاقة تفاهم بينهما بشكل تدريجي حتى يتمكنا في نهاية المطاف من التواجد معا دون خوف أو قلق. وهناك تبدأ رحلة العودة إلى لقمان المتواجد بعيدا عن الغابة. وخلال تلك الرحلة تقع (نحن نتخيل) أحداث مثيرة وشيقة بالنسبة للطرفين، خاصة للصبي داوود الذي بدأ يرى بأم عينه عالما آخر غير الذي تربى فيه فترة من الزمن، حتى يحط بهما الترحال في نهايته هناك عند لقمان.

تخيلات مفتراة 3: ما أن يصل التابوت إلى لقمان حتى يتأكد من أصالته، فتكون فرحته عارمة باستعادة الأمانة المفقودة التي وضعها موسى في بيت والديه المؤمنين قبل ما يقرب من أربعين سنة خلت، فما عاد ليشغله مسألة رجوع التائهين من بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة مادام أن مفتاح الأرض المقدسة قد أصبح اليوم في حيازته. لكن تأخذ لقمان نفسه المفاجأة عندما يرى ذلك الصبي الذي لا يكاد التابوت يفارقه، ولا تنفك الكائنات الأخرى عن حراسته. فمن هو ذلك الصبي؟ يسأل لقمان الحكيم نفسه؟

تخيلات مفتراة 4: ما أن يحاول لقمان أن يربط الأحداث بعضها ببعض حتى يصل إلى النتيجة التي لا مفر منها: لابد أن هذا الصبي صاحب الشرعية في حيازة التابوت واستخدام مقتنياته. فمن يكون إذًا؟

تخيلات مفتراة 5: يتذكر لقمان أنه قد غادر سبأ وترك فيها أهل بيته، ولا تنقصه الفطنة أن يستنتج بأن امرأته كانت تحمل في بطنها جنينا عندما غادرهم. فهل يا ترى هو نفسه ذلك الذي تركه جنينا في بطن امرأته؟

تخيلات مفتراة 6: ما كان من لقمان إلا أن يأخذ الأمر على محمل الجد، وأن يعود إلى سبأ باحثا عن امرأته هناك. وبالفعل يصل هناك ويجدها، ويعلم يقينا بأن هذا الصبي هو من وضعته امرأته في ذلك التابوت في غياب بعلها (كما فعلت أم موسى) لتنقذه من خطر سيل العرم الذي أصاب المنطقة.

نتيجة مفتراة: كانت امرأة لقمان ما زالت على قيد الحياة عندما عاد داوود إلى حضن والديه، بدليل ما جاء في قول لقمان لابنه وهو يعضه بما يتعلق بعلاقته بالوالدين:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: 14-15]

فالآية الكريمة تثبت بأن والدي الابن الاثنين مازالا على قيد الحياة، وإلا لما تحدث الأب – برأينا- عن احتمالية مجاهدة ابنهما بصيغة المثنى (وَإِنْ جَاهَدَاكَ).

تخيلات مفتراة 7: في تلك الاثناء، وخلال الرحلة ذهابا وأيابا مع طالوت، يرافقهم تابوت العهد القديم الذي تحمله الملائكة، ويتحكم بمقتنياته ذلك الصبي، وتحرسه مخلوقات الغابة الكثيرة التي جاءت معه، يبدأ لقمان تقديم العظة واحدة تلو الأخرى لابنه (داوود) الذي جاءه من مكان لم يشاركه فيه أحد من البشر:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 13-19]

والآن اقرأ – عزيزي القارئ- هذه الموعظة ضمن هذا الخيال المفترى، لترى كيف يمكن أن تطبق تفاصيلها على أرض الواقع شيئا فشيئا، حتى يصبح داوود (فتى الغابة) مؤهلا للانخراط بالمجتمع البشري الذي ما عهده من ذي قبل.

السؤال: ما الذي سيفعله الجمع بعد ذلك؟

رأينا المفترى: هذا طالوت يسدي خدمة عظيمة للقمان، فهو من استطاع أن يعيد له المفقودات الثمينة، وعلى رأسها الآن ابن له مفقود منذ زمن بعيد، وتابوت كان أمانة في بيت أبويه المؤمنين.

السؤال: **مرة أخرى**: ما الذي سيقدمه لقمان لطالوت بالمقابل؟

رأينا المفترى: لما جاء طلب الملأ من بني إسرائيل من ذلك النبي (لقمان) أن يبعث لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله، لم يكن ليقع اختياره على أحد (من بين جميع الملوك الذي كان يستطيع أن يرسلهم) غير طالوت.

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 246-248]

السؤال: هل كان إرسال طالوت ملكا لبني إسرائيل مشروطا باتفاق مبرم بين الطرفين (لقمان من جهة وطالوت من جهة أخرى)؟

جواب مفترى: نعم، نحن نظن أن الطرفين قد توصلا إلى اتفاق يحدد مكتسبات كل طرف وواجباته تجاه الطرف الآخر. ونحن نظن أن الخطوط العريضة لذلك الاتفاق كانت على النحو التالي:

- أن يكون طالوت ملكا؛
- أن يقود الحملة العسكرية مع بني إسرائيل ضد جالوت؛
- أن يكون لطالوت الملك على تلك الأرض مادام على قيد الحياة؛
- أن يدخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة، فلا يخرجهم طالوت منها مادام ملكا عليها؛
- أن يكون داوود جنديا في جيش طالوت؛
- أن يظل التابوت (ومقتناياته) في حيازة داوود؛
- أن تكون المواجهة بين داوود وجالوت في المعركة المرتقبة؛
- أن يؤول الملك لداوود من بعد طالوت؛
- أن يصبح داوود خليفة في الأرض؛
- أن لا يفسد بنو إسرائيل في الأرض ماداموا فيها؛
- الخ

الدليل

ما أن تضع تلك الحرب بين الفئتين أوزارها بانتصار مؤزر لطالوت وجيشه (الذي كان داوود أحد أفراده) على جالوت وجنوده حتى يصبح ذلك الرجل (طالوت) هو الملك الآن في تلك البلاد المستعادة من يد الظالم جالوت. ويستمر ملك ذلك الرجل (طالوت) في تلك الأرض فترة من الزمن حتى أصبح داوود رجلا سويا بينهم. لكن المفارقة العجيبة أن طالوت الملك (نحن نتخيل) لم يكن له ذرية من بعده، فكان لزاما أن ينتقل الملك إلى داوود من بعده. قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

نتيجة مفتراة مهمة: لقد كانت السنة الإلهية على الدوام أن لا تفسد الأرض (خاصة الأرض المقدسة) عن طريق دفع الله الناس بعضهم ببعض (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ). وهنا ندعو القارئ الكريم إلى ضرورة التفريق بين فساد الناس من جهة وفساد الأرض من جهة أخرى. فالأرض لن تفسد وذلك لأن سنة الله كانت على نحو:

- ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ ۝١٠٦﴾ [الأنبياء: 105-106]

فالبلاغ الإلهي للقوم العابدين تتمثل بأن تطمئن نفوسهم بدوام صلاح الأرض، فلا تفسد مادام أنها محرمة على القوم الفاسقين، كما حصل مع بني إسرائيل في نهاية رحلة موسى معهم إلى الأرض المقدسة خارجين من مصر:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦﴾ [المائدة: 25-26]

دعاء: اللهم نسألك وحدك أن نكون من القوم العابدين، ونعوذ بك أن نكون من القوم الفاسقين، إنك كنت بنا بصيرا.

وسنتعرض لهذه التفاصيل بإذن الله في نهاية سلسلة هذه المقالات عندما نحاول اسقاط فهمنا لها على أرض الواقع في ضوء مجريات الأحداث عبر التاريخ الطويل للأمم التي تعاقبت على هذه الأرض.

لكن نعود إلى فحوى الموضوع قيد البحث بالإشارة إلى أن داوود قد أصبح بعد ذلك (أي بعد الملك طالوت) خليفة في الأرض مادام أن المُلك لم يصله بالوراثة، ولكن بالخلافة (أي من شخص لا تربطه به صلة دم). قال تعالى:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص: 26]

الدليل: إن جلب الدليل على هذه الافتراءات الخيالية، تتطلب منا (نحن نرى) أن نتدبر التقاطعات بين هذا النبي الكريم (دا-وود) من جهة وبقية الأنبياء والأشخاص الذين جاءت قصصهم مفصّلة في كتاب الله الكريم، ولنبدأ بالتقاطع الأول مع آدم.

1. الباب الأول: داوود وآدم

لو رجعنا إلى قصة آدم، وحاولنا أن نتدبرها من هذا الجانب، سيكون لزاما علينا أن نجلب الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن آدم الذي كانت مهمته الأولى تتمثل في أن يكون في الأرض خليفة، قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

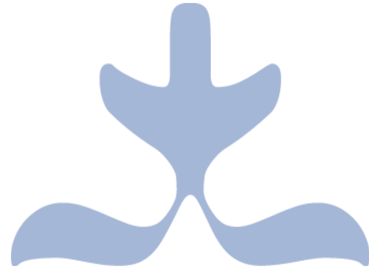
فهذه الآية الكريمة تبين لنا - بما لا يدعو مجالا للشك - بأن آدم كان في الأرض خليفة، أليس كذلك؟

ولو انطلقنا نبحث عن مفردة "خليفة" في النص القرآني على مساحته، لما وجدناها ترد مرة أخرى إلا بحق داوود في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

ليكون السؤال (الذي نريد من القارئ الكريم أن يتدبره مليًا) هو: لماذا كان آدم وداوود فقط هما خليفة؟ لِم لَم يكن غيرهما من الأنبياء أو من عباد الله الصالحين خليفة؟ لِم لَم يكن نوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى أو محمد أو حتى سليمان أو لقمان خليفة؟

هل تظن – عزيزي القارئ الكريم- بأن تكون الخلافة في آدم وداوود فقط من قبيل المصادقة؟ من يدري؟!



قصة داوود

الجزء السابع



قصة داوود – الجزء السابع

انتهينا في الجزء السابق من هذه المقالة عند تقديم الافتراء الاجرائي التالي: إن محاولة فهم موضوع معين في كتاب الله يتطلب ايجاد التقاطعات بينه من جهة وبين كل ما في كتاب الله من جهة أخرى. فكتاب الله محكم في تبيانه، وذلك لأن بعضه منسوج مع بعض كنسيج شبكة العنكبوت. فهو وحدة واحدة () يساند بعضه بعضا، فيكون فيه تفصيل لكل شيء. لذا، فإن الوصول إلى نقطة معينة (حبكة) في تلك الشبكة العنكبوتية محكمة النسيج والبناء يتطلب المرور بغيرها من النقاط من أكثر من اتجاه، فعليك – عزيزي الذي تحاول تدبر هذا النص العظيم- أن تسلك الطريق المؤدية إلى كل نقطة تتقاطع عندها الخيوط بالطريقة الاسهل، فيكون الفهم الأفضل (والأمثل) هو الذي ينقلك بين تلك التقاطعات بأقل جهد ممكن وبأعلى فائدة مرجوة (تقاس ببساطة الاستنباط). ونحن نظن في هذا المقام (ربما مخطئين) بأن قصة نبي الله داوود تمثل العقدة (الحبكة) التي تتوسط قصص القرآن الكريم كلها، ابتداء من قصة بداية الخلق (عند آدم وزوجه) وانتهاء بالتنزيل الكريم على محمد. لذا، ستتقاطع هذه القصة (قصة آل داوود) التي تكتنفها "الألغاز المحيرة" مع بقية القصص القرآني التي ربما تكون أكثر يسرا (وسهوله) في الفهم على القارئ العادي (من مثلنا). فلو تدبرنا الآيات القرآنية التي جاءت لتبين لنا قصة آل داوود التي نحن بصدد تقديم افتراءاتنا حولها، لوجدناها مليئة بما يسميها أهل العقائد السابقون بـ "المعجزات". وهنا نجد أنه من الضرورة بمكان أن نستعرض مع القارئ الكريم – إن شاء- الآيات التي جاء فيها اسم نبي الله داوود صراحة، والتي بظننا ربما أشغلت فكره حتى الساعة، وهي التي مازلنا (نحن نرى) بعيدين كل البعد عن الامساك بخيوط فهمها فهما حقيقيا. لذا، سأدعو القارئ الكريم أن يحاول أن يتدبر هذه الآيات معنا، ليرى بأم عينه كيف تشكل كل واحدة منها لغزا مازال محيرا لنا. قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]
- ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: 163]
- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: 78]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]
- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: 55]

- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 78-79]
- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: 15-16]
- ﴿۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ١٠﴾ [سبأ: 10]
- ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]
- ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]
- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22]
- ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ ٢٤﴾ [ص: 24]
- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]
- ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: 30]

لو حاولنا تدبر مفردات هذه الآيات القرآنية، لوجدنا على الفور أنّ محاولة فهم كل واحدة منها تتطلب إثارة عشرات (وربما مئات) الاسئلة التي مازالت تنتظر الاجابات الحقيقية. وسنحاول التعرض لجميع هذه الآيات في سلسلة المقالات هذه بما يأذن الله بما يشاء لنا فيها من علمه (فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب ن هذا رشدا؛ وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العلي العظيم).

لكن ما يجدر بنا التنبيه له الآن هو أن محاولة فهم مفردات هذه الآيات يضطرنا إلى الانتقال بطريقة منظمة ومنضبطة في كتاب الله من أوله حتى آخره، ويكون أول (وأهم) دواعي الانتقال هو توافر مفردات الآية الواحدة في سياقات أخرى من كتاب الله. وتكون فوائد هذا الانتقال على الأقل اثنتين:

- ⇐ الوقوف على معاني المفردات كما يبينها كتاب الله (لا كما نريدها)
- ⇐ محاولة تقديم الافتراءات، وذلك باستنباط العلاقات بين السياقات القرآنية التي ترد فيها المفردة الواحدة

والآن لننتقل إلى التطبيقي العملي لهذا الإطار النظري المبسط. فقد انتهينا في الجزء السابق من هذه المقالات مع الآية القرآنية التي بيّنت لنا بأن داوود قد جُعِل خليفة في الأرض. قال تعالى:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

فكان لزاما علينا أن ننتقل على الفور إلى قصة الخلق الأولى مع آدم الذي كان أيضا خليفة. فبعد محاولة استقصاء مفردة "خليفة" في القرآن كله، وجدنا بأن داوود وآدم فقط هما (دون خلق الله جميعا) كانا خليفة. فجاء ذكر "خلافة آدم" في سورة البقرة في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

وجاء ذكر "خلافة داوود" في سورة ص في قوله تعالى:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

وكان السؤال الذي انهينا به الجزء السابق هو: لماذا كان آدم وداوود فقط (دون خلق الله جميعا) خليفة (كأشخاص)؟

رأينا المفترى: لما كنا نؤمن يقينا بأن لا شيء في كتاب الله يقع في باب المصادفة، أصبح لزاما علينا أن نتفكر في السبب أن يكون آدم وداوود فقط هما (كأفراد) خليفة. وبالمنطق ذاته، وجب علينا التفكر في السبب أن الخلافة لم تتح لشخص آخر غيرهما، فما كان أحد من رسل الله (السابقين أو اللاحقين) أو أحد من عباده (الصالحين أو الظالمين لأنفسهم) خليفة إلا هذين الشخصين على وجه التحديد. لذا، سنتجرأ على الظن بما يلي:

- ⇐ لمفردة الخلافة معنى محدد في كتاب الله، وجب البحث عنه؛
- ⇐ لا يثبت كتاب الله الخلافة لاشخاص إلا لـ آدم وداوود؛
- ⇐ هناك علاقة بين آدم من جهة وداوود من جهة أخرى، وجب البحث عنها؛
- ⇐ هناك ظروف محيطة بقصة آدم تتقاطع مع الظروف المحيطة بقصة داوود؛
- ⇐ الخ

نتيجة مفتراة: هناك (نحن نظن) مسوغ يدعونا أن ننظر لقصة داوود (كخليفة) ضمن الاطار العام لقصة آدم (كخليفة) كما يبينها النص ذاته، والعكس صحيح. فالتقاطع بينهما (بالخلافة) يلزمنا محاولة تقديم الكثير من الاستنباطات التي تنطبق في الحالتين. فتكون التساؤلات المبدئية في هذا المجال على النحو التالي:

- لماذا كان آدم وداوود فقط هما خليفة؟
- لماذا لم يكن أحد من العالمين (غيرهما) خليفة؟
- كيف تتشابه خلافة آدم مع خلافة داوود؟
- كيف تختلف خلافة آدم عن خلافة داوود؟
- ما أهمية أن يكون آدم وداوود على وجه التحديد خليفة؟
- الخ

1. باب خلافة آدم وداوود

لو تدبرنا السياقين القرآنين الخاصين بخلافة آدم من جهة وخلافة داوود من جهة أخرى، لوجب علينا جلب انتباه القارئ إلى ملاحظة غاية في الأهمية تتعلق بدقة اللفظ في النص القرآني، ألا وهي ترتيب المفردات في الآيتين الكريمتين. ففي حين أن آدم كان في الأرض خليفة، كان داوود خليفة في الأرض:

- آدم : فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً
- داوود: خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ

السؤال: ما الذي يمكن أن نفهمه من "التناوب" اللفظي بين الحالتين؟

جواب مفترى: لو دققنا في هذا الاختلاف في ترتيب المفردات بين الحالتين، سنجد بأن آدم كان فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، وذلك لأن خلافته كانت (نحن نظن) في الأرض كلها. فلم يكن هناك بشر يشاركونه الخلافة في الأرض حينئذ. فهو من بدأت به رحلة البشرية على الأرض. فكان هو أول البشر، أليس كذلك؟

لكن كانت خلافة داوود – بالمقابل- مقتصرة على أرض محددة بعينها، فلم تشمل الأرض كلها، وإنما كانت على جزء منها، وذلك لأن كثيرا من أجزاء الأرض كانت معمورة بالجنس البشري في زمن داوود، فكان داوود خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ.

وبكلمات أخرى، نحن نفتري الظن بأنه لمّا كانت الأرض معمورة من بعد آدم، ولما كانت هناك أمم كثيرة منتشرة فيها، لم تكن الخلافة في الأرض كلها لأمة واحدة، وإنما كان لكل أمة (في فترة زمنية محددة) خلافة في جزء من الأرض. لذا نجد عبارة فِي الْأَرْضِ لاحقة لمفردة الخلافة (كما في حالة خلافة داوود)، وليست سابقة لها كما في حالة خلافة آدم. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- الآية الكريمة التالية التي تصور لنا خلافة الأمم في الأرض على هذا النحو:

- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 14]

لذا، نحن نكاد نجزم الظن (ربما مخطئين) بأنه لو كانت لأي من تلك الأمم خلافة الأرض كلها في فترة زمنية محددة، لكان النص على نحو أن يسبق الجار والمجرور مفردة الخلافة (ثم جعلناكم في الأرض خلائف)، وهو ما لا نجده على مساحة النص القرآني عند الحديث عن خلافة الأمم المتعددة في الارض في الحقبات الزمنية المتعاقبة. فقوم نوح كانوا خليفة على جزء من الأرض ولم يكونوا خلائف في الأرض كلها، وكذلك كانت حضارة عاد في فترة لاحقة، وكذلك كانت حضارة ثمود، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: الخلافة تكون لمن خلا له المكان، ليكون هو صاحب الأمر والنهي فيه. فإذا كنت أنت الوحيد في الأرض كلها (كـ آدم)، كنت (فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ولكن إذا لم تكن أنت الوحيد فيها، وشاركك فيها آخرون (كـ داوود)، فكانت خلافتك على جزء من الأرض، كنت (خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ).

السؤال: لماذا كان داوود خليفة بالرغم من أن كثيرا من أجزاء الأرض كانت معمورة من قبل أمم أخرى في زمنه؟

رأينا المفترى: لمّا كان داوود بشخصه خليفة على جزء من الأرض، كان هو صاحب الأمر والنهي في ذلك المكان الذي خلا له في الأرض على وجه التحديد. فالذي يجعل خلافة داوود تختلف عن خلافة آدم – كما أسلفنا- هو أن خلافة داوود لم تكن تشمل الأرض كلها (كما كانت خلافة آدم). لذا، نحن نتخيل توافر مكان محدد بعينه خلا لداوود وحده، فكان هو الخليفة فيه - إنها الأدغال. وفي ذات الوقت، علينا أن نتصور بأن أجزاء أخرى من الأرض كانت معمورة بالناس، وما كانت خلافة داوود لتشمل الجميع.

تخيلات أغرب من الخيال: عندما نشأ داوود بين أحضان الطبيعة، ترعاه العناية الإلهية التي سخرت له مخلوقات الغابة لتحفظ حياته، نشأ هذا الفتى بينها، فتعلم سلوكياتها، وطرق التواصل معها، وبالتالي سنحت له الفرصة الكافية لمعرفة الكثير من أسرارها، فأصبح هو قائد تلك المخلوقات، فكانت تأتمر بأمره وتنتهي بنهيه. انتهى.

لكن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا سيقودنا إلى طرح السؤال التالي: هل الخلافة تقتضي فقط وجود الشخص في مكان لا يشاركه فيه غيره؟

رأينا المفترى: نعم، نحن نظن بأنه حتى يتعين لشخص ما حيازة الخلافة على أرض محددة، فإن من الضرورة بمكان أن لا يشاركه ذلك المكان شخص مثله في المكان، فلا ينازعه الأمر فيه. لكن هذا لا يمنع وجود كائنات ليست مثله في ذات المكان. فلقد كان آدم خليفة في مكان لا يوجد فيه من جنسه غيره، لكن كان يتواجد في ذات المكان مخلوقات أخرى ليست من جنسه. ألا وهم الجن (بمن فيهم الملائكة)، فكان آدم خليفة لهم (للتفصيل في هذا الموضوع انظر مقالاتنا السابقة عن قصة الخلق الأول). فأصبحت الملائكة (وهم جزء من الجن) تأتمر بأمره مادام أنها أصبحت مكلفة بالسجود له:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]

فكان لآدم (الخليفة) كامل السيطرة على تلك المخلوقات (من غير جنسه)، المتواجدة معه في ذات المكان. فالخليفة (نحن نرى) هو الذي يكون له الأمر (السلطة) من بعد من جاء قبله، كما في حال الأمم التي تخلف بعضُها بعضا:

- ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 14]

نتيجة مفتراة: الخلافة تقتضي أن تحل كينونة جديدة (فردا أو مجموعة) مكان كينونة قديمة، فيكون الأمر للكينونة الجديدة بعدما كان للكينونة القديمة قبلها. ولو أسقطنا ذلك على أرض الواقع، لوجدنا بأن أبا بكر – مثلا- كان خليفة محمد. وكان عمر خليفة أبي بكر، وهكذا. وكانت عاد (كأمة) خليفة لقوم نوح، كما كانت ثمود – مثلا- خليفة لأمة عاد. وهكذا.

السؤال: ما هي مقومات الخلافة؟

راينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل أن تستقيم الخلافة لشخص (أو لأمة)، فلابد من توافر أدوات الخلافة التي تمكن ذلك الشخص من استتباب الأمر (السلطة) له على المخلوقات الأخرى التي تسكن المكان ذاته معه. فالخليفة (كشخص أو كأمة) هو صاحب القول الفصل الذي يجب على الآخرين النزول عنده. لذا يحتاج الخليفة إلى مقومات الخلافة التي تتمثل بقدرته (أي الخليفة) على أن يستتب الأمر له على المخلوقات الأخرى الذي أصبح هو خليفة فيهم، فلا يخرج عن سلطانه من كان تحت إمرته من تلك المخلوقات.

السؤال: ماذا كانت مقومات (أدوات) خلافة آدم وداوود؟

جواب مفترى: كان آدم يملك مقومات الخلافة التي تجعل الملائكة (وهم جزء من الجن) تحت إمرته. وكذلك كان داوود يملك مقومات الخلافة التي تمكنه من السيطرة على مخلوقات الغابة التي أصبحت تمتثل بأمره، فلا تخرج عن سيطرته.

السؤال: ما هي تلك الأدوات؟

رأينا المفترى: إنها التابوت ومقتنياته (اللباس والعصا) .

الدليل

لو جلبنا السياق القرآني السابق الخاص بخلافة داوود، فربما نستطيع أن نثير انتباه القارئ الكريم حول جزئية في النص ربما لم تكن بالحسبان من قبل. قال تعالى:

- ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ۝٢٦﴾ [ص: 26]

فالمدقق في النص سيجد بأن داوود قد أُمر أن يحكم بين الناس (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ) بالحق، ليكون السؤال الآن: لماذا جاءت مفردة الناس هنا؟ فهل من الضروري وجودها في هذا السياق؟ ألا يكون الحكم أصلا بين الناس؟ وهل هناك حكم بين كائنات أخرى غير الناس حتى يأتي تحديد هوية من يُطلب من داوود الآن أن يحكم بينهم (ألا وهم الناس)؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن من أهم مواصفات من أراد أن يكون حكما بين الناس أن ينظر إليهم بعين المحايد، حتى يستطيع أن يحكم بينهم بالعدل. الأمر الذي يدعونا إلى تقديم الافتراء التالي: لمّا كان داوود قد قضى طفولته وصباه بين كائنات الغابة، كان خليفة هناك. فكان يحكم بين كائنات الغابة، فقد اعتاد على أن يكون قراره هو النافذ فيها، فكان على دراية تامة بكيفية الحكم بين هذه الكائنات في تلك البقعة الجغرافية من الأرض. لكن ما أن انتقل إلى المجتمع البشري، وأصبح هو صاحب الأمر من بعد قتله جالوت، وبعد أن آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

حتى جاءه الأمر بأن يحكم الآن بين الناس الذين هم بالنسبة له مختلفين عنه بالحق، فكان الناس جميعا في عينه سواسية، فهو لا يعتبر نفسه منتميا لفئة منهم، يميل إليها، أو تجذبه العاطفة نحوها. لذا، وجب عليه أن يحكم بينهم فلا يتبع الهوى، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: 26]

ولو راقبنا ما قاله الخصم لداوود عندما طلبوا حكمه لاحقا، سنجد أنهم طالبوه بالشي ذاته، ألا وهو أن يحكم بينهم بالحق، وبأن لا يشطط، وأن يهديهم إلى سواء الصراط:

- ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: 21-22]

ولو دققنا أكثر في مفردات الآية، لوجب علينا أن نتنبه بأن داوود قد أمر أن يحكم بين الناس الحق. لكن المتتبع لمفردة الحكم بين الناس في سياقات القرآن الأخرى، سيجد أن الحكم يكون بين الناس بالعدل. قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: 58]

فيكون السؤال المطروح الآن هو: لماذا طلب من داوود الحكم بين الناس بالحق (وليس بالعدل)؟

رأينا المفترى: إن محاولة الإجابة على هذا السؤال الذي ربما يبدو للبعض غير ضروري، لكن لو جلبنا السياق القرآني التالي:

- ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾ [الأنبياء: 112]

لربما حق لنا أن نقول أن الحكم بالحق يتطلب توافر مصادر حكم معينة، ربما غير تلك التي يمكن أن تتوافر للحكم بين الناس بالعدل. ولكي نستطيع أن نضع خطا فاصلا بين الأمرين، فإنه يتوجب علينا طرح تساؤلات أولية كثيرة في هذا السياق، نذكر منها:

- كيف يكون الحكم بالحق؟
- هل كان من الممكن أن لا يحكم داوود بالحق؟
- كيف يمكن أن يحكم فيتبع (أو لا يتبع) الهوى؟
- هل كان من الممكن أن يتبع داوود الهوى؟
- كيف يمكن أن يحكم فيشطط (أو لا يشطط)؟
- هل كان من الممكن أن يشطط؟
- كيف يمكن أن يحكم فيهديهم إلى سواء الصراط؟
- الخ.

لنخرج بالاستنباطات الأولية التالي:

⇐ الذي يحكم بالحق لا يتبع الهوى (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)

⇐ الذي يحكم بالحق لا يشطط (فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ)

السؤال: كيف يمكن لمن يحكم بالحق أن لا يتبع الهوى؟ وكيف يمكن لمن يحكم بالحق أن لا يشطط؟

رأينا المفترى: أن يكون متوافرا بين يديه مصدر معلومات لا يمكن أن يكون فيه شائبة.

السؤال: ما هو مصدر المعلومات الذي توافر بين يدي داوود فكان يستطيع من خلاله أن يحكم بين الناس بالحق؟

جواب مفترى: إنه الزبور الذي انفرد به داوود على وجه التحديد:

- ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]

- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: 55]

لا شك عندنا بأن هذا موضوع هائل لا نستطيع أن نقحم أنفسنا به الآن ما دمنا لم ننته بعد من التعرض لجوانب حياة داوود في مراحلها المختلفة، لذا، علينا العودة قليلا إلى الوراء لجلب تفاصيل عظة لقمان (الأب) لابنه (داوود)، قبل أن ننطلق إلى تفاصيل ما كان لداوود كخليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق بما كان متوافرا بين يديه، ألا وهو الزبور.

فلنستعرض بعض أجزاء العظة التي ترد على لسان لقمان لابنه وهو يعظه، لظننا أن فيها من التفاصيل المهمة التي قد تسعفنا لاحقا عند الحديث عن حياة داوود كخليفة في الأرض. فما زلنا حتى الساعة مضطرين للبحث في مراحل حياته الأولى التي نحاول استنباط كثير من أحداثها من عظة لقمان له بعد أن كان مفقودا في الغابة البعيدة، قال تعالى :

- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19]

فالمدقق في هذا السياق القرآني سيجد مرة أخرى بأنه يبرز مفردة الناس. فهذا لقمان يقول لابنه (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ)، الأمر الذي يدعونا لطرح التساؤلات حوله

- هل يمكن أن يكون هناك تصعير للخد لغير الناس؟
- كيف يمكن لأحد أن يصعر خده لغير الناس؟
- هل من الضرورة أن تأتي مفردة الناس في هذا السياق؟
- لم لم يكن النص على نحو (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ... وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا) وكفى؟
- الخ.

تخيلات مفتراة: لمّا كان داوود قد قضى حياته السابقة بين مخلوقات الغابة، ولمّا كان هو الخليفة الذي يحكم بينهم، طور طريقة تواصل مع تلك الكائنات، لا تخلو من استخدام تعابير الوجه التي لا شك لها دلالات محددة. فنحن البشر العاديين نستخدم تعابير الوجه لارسال رسائل محددة لمن حولنا من العالمين في طريقة خطابنا معهم. لذا، كانت تعابير وجه داوود (نحن نتخيل) لا تخلو من الغرابة بالنسبة للبشر العاديين مادام أنها قد طُوّرت هناك في الغابة. لذا جاءت موعظة لقمان لابنه داوود هنا بأن هذه الطريقة غير ملائمة مع البشر. لذا عليه أن لا يستخدمها مع الناس على وجه التحديد بعد اليوم. لذا، جاءت – برأينا- مفردة الناس صريحة في النص (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) ضرورة لا يمكن استقامة النص بدونها.

ولو حاولنا إعادة النظر في العظة ذاتها، لوجدنا الأب ينهى ابنه في ذات الوقت عن المشي في الأرض مرحا:

- ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 18-19]

ليكون السؤال الآن هو: كيف يكون المشي في الأرض مرحا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فهم هذه الجزئية في العظة تتطلب منا ربطها مع جزئية أخرى جاءت في ذات السياق، ألا وهي القصد في المشي (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ). ليكون السؤال الآن هو: ما الفرق بين المشي في الأرض مرحا والقصد في المشي؟

رأينا المفترى: مادام أن الأب قد فصل بين المشي في الأرض مرحا من جهة والقصد في المشي من جهة أخرى، وجب علينا الظن بأنهما أمران مختلفان لزم التنبيه للفرق بينهما، بطرح سؤالين اثنين:

- كيف يكون المشي في الأرض مرحا؟
- كيف يكون القصد في المشي؟

نحن نظن أن من أبجديات فهم هذين الأمر هو تنبيه القارئ الكريم - إن شاء- إلى أن هذه العظة قد قدمها الأب لابنه وما يزال ذلك الابن شابا يافعا، ليكون طرح التساؤلين بشكل أكثر دقة على النحو التالي:

- كيف يمكن لغلام يافع (على مقربة من سن البلوغ مثلا) أن يمشي في الأرض مرحا؟
- كيف يمكن لغلام يافع أن يقصد في مشيته؟

رأينا المفترى: سأحاول الآن تقديم إجابة مفتراة من عند نفسي للسؤال الثاني (القصد في المشي) قبل السؤال الأول (المشي في الأرض مرحا) لظني بأن الإجابة عليه ربما تكون أكثر يسرا من سابقه.

2. باب القصد في المشي

لو جلبنا السياقات القرآنية الخاصة بمفردة "قصد" ومشتقاتها، سنجد الآيات الكريمة التالية حاضرة على الفور:

- ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 19]
- ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النحل: 9]
- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة: 42]

ولو تدبرنا مفردة المشي (في الأرض) بحد ذاتها، لوجدناها تشير إلى الذهاب بكل الاتجاهات الممكنة:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: 15]
- ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]

لكن لو جلبنا السياق الخاص بالقصد في المشي، لربما حق لنا ان نفتري القول بأن المشي في الأرض في أي تجاه يجب أن يكون مقصودا، أي وجب وجود القصد (أي الغاية والهدف) عند الذهاب بأي اتجاه في الأرض، فيصبح كل مشي في الأرض محكوما بغاية محددة بعينها. لذا، أنا أتجرأ على أن أتخيل بأن ذاك الغلام (داوود) كان لا يقصد في مشيته عندما وجده والده، فكان (أنا ما زلت أتخيل) يذهب في الأرض بكل اتجاه دون غاية محددة. وذاك سلوك كان ربما يبدو للناظر غير منضبط بظروف المكان والحال، وكأن الغلام كان يتمتع بمشيه في الأرض لكن دون هدف محدد بعينه. ليكون السؤال الآن: لماذا؟

رأينا المفترى: لما كان هذا الفتى يعيش في الغابة مع المخلوقات المتعددة فيها، كان يذهب معها في كل اتجاه، ليس لغاية محددة وإنما من قبيل اللعب واللهو. فجاء طلب الوالد من ابنه أن يغير هذا السلوك مادام أنه أصبح منخرطا في المجتمع البشري الجديد عليه، طالبا منه أن يكون مشيه في الأرض من الآن فصاعدا مقصودا، فما عاد زمن اللهو واللعب مع تلك الكائنات الخيار الأمثل في دائرة حياته الجديدة التي تتطلب منه الانخراط مع الناس من حوله.

تخيلات مفتراة: أنا أتخيل (ربما مخطئا) بأن هذا الغلام كان يصاحب الكائنات الحية في طريقة مشيها في الأرض التي كانت بكل اتجاه في تلك الغابة، فيمشي معها في الأرض لا تشغله الغاية في الانتقال من مكان لآخر، لكن كان أكثر ما يميز انتقال تلك الكائنات (أنا مازلت أتخيل) هما عنصرا السرعة والمفاجأة في الحركة (دون تخطيط مسبق). ولو جلبنا السياق القرآني الذي يتحدث عن داوود لاحقا بعد أن عاش في مجتمع بشري، سنجده على النحو التالي:

- ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ٢١ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ٢٤ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٢٥﴾ [ص: 25-21]

لنطرح التساؤلات التالية: لماذا تسور القوم المحراب عندما أرادوا أن يدخلوا على داوود هناك؟ ولماذا فزع منهم داوود؟ وكيف يمكن أن نتخيل المشهد كما حصل على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: لقد تعرضنا في واحدة من مقالاتنا السابقة لهذا السياق القرآني، وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن عملية تسور المحراب من قبل الخصم كانت على شكل أن يضربوا ما يشبه السور البشري حول المحراب الذي كان يتواجد به داوود حينئذ، كما افترينا الظن بأن القوم كلهم كانوا خصما واحدا، وكان الخصم

الآخر لهم هو داوود نفسه. فلقد كانت حاجتهم المنشودة هي عند داوود الذي ظنوا بأنه قد بغى عليهم (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان قصة سليمان). لذا، عندما جاءوا ليطلبوا حقهم من داوود نفسه هناك، كان عليهم أن يتسوروا المحراب حتى لا يدعوا فرجة أو فسحة لداوود أن يهرب من خلالها من المكان كله، وذلك لأنهم لو لم يفعلوا (أي لو أنهم لم يتسوروا المحراب)، لربما استطاع داوود (أنا أتخيل) ببعض الحركات البهلوانية في الانتقال (التي تعلمها في الغابة) أن يفلت من قبضتهم، وذلك لأنه قد فزع من وجودهم، فالذي يفزع من خطر ما، سيحاول أن يهرب منه قبل أن يقع في قبضة الخصم المقابل. لذا، كانت قدرة داوود على الانتقال غريبة في طريقتها وفي هدفها. ومن هنا، جاء طلب الأب من ابنه أن يقصد في مشيته، فلا يعود يتنقل في الأرض دون هدف محدد. فطلب منه أن يقصد في مشيته.

ولو تدبرنا مفردة القصد أكثر، لوجدنا بأن لها علاقة أيضا بمفردة "مقتصد" التي ترد في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [المائدة: 66]
- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: 32]
- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [ص: 32]

فالمقتصد هو - برأينا - من لا ينفق (أو لا يفعل) أكثر مما يجب. ومن هنا جاءت مفردة الاقتصاد التي نتداولها كثيرا في يومنا الحاضر. فهي إذًا تدبير الانفاق بطريقة سليمة لتقليل الخسائر التي لا طائلة منها. لذا، نحن نظن بأنه عندما طلب لقمان من ابنه أن يقصد في مشيته، فهو إذًا يطلب منه أن يكون مشيه في الأرض محكوما بضابطين اثنين على الأقل:

⇐ **الكمية**: أن لا يكثر منه، فيكون محسوبا حتى في عدده (مقتصد)
⇐ **النوعية**: أن يكون مقصودا بغاية محددة بذاتها (قاصدا)

وربما يثبت مثل هذا الظن ما جاء في الآية الكريمة مباشرة بعد عبارة القصد في المشي، ألا وهو طلب لقمان من ابنه أن يغضض من صوته:

- ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 19]

فلو لم يكن هناك مشكلة في صوت الابن، لما جاء جزء من تلك الموعظة خاصا بصوته. فالغلام (نحن نرى) قد جلب معه من تلك الغابة طريقة في الكلام لا يعرفها الناس العاديين، ألا وهي "عدم غض الصوت". ومما لا شك فيه عندنا بأن غض الصوت هو ما يقابل رفعه كما جاء في السياق القرآني التالي الذي يطالب المؤمنين بشئين اثنين:

⇐ عدم رفع أصواتهم فوق صوت النبي

⇐ غض الصوت عند النبي

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: 2-3]

لذا، نحن نتخيل بأن الغلام كان لا يغض صوته، فطلب منه الأب الآن أن يغضض من صوته، فلا يرفعه عاليا كما كان معتادا على ذلك بين مخلوات الغابة من ذي قبل. لكن لا يتوقف غض الصوت على رفعه بالكمية (volume) فقط، وإنما يتعدى أيضا إلى نوعيته. وليس أدل على ذلك من مقارنة ذلك (عدم غض الصوت) بصوت الحمير على وجه التحديد.

وقد ذكرنا في مقالة سابقة لنا بأن الذي يميز صوت الحمير عن بقية أصوات الكائنات الحية الأخرى هو ليس فقط مقدار أو حجم (قوة) الصوت، وإنما أيضا نوعيته. فصوت الحمير هو الأنكر لأنه – برأينا- هو الصوت الوحيد من بين جميع أصوات الكائنات الأخرى الذي لا يتغير مهما تغيرت الحاجة له. فالحمار يطلق الصوت ذاته سواء كان جائعا أو كان خائفا أو كانت عنده غريزة جنسية يريد التعبير عنها بالصوت. فهو إذًا ذات الصوت الذي لا يُعرف الغاية منه، لأنه لا يتغير مهما تغيرت حاجة مطلقه (أي الحمار)، وذلك على غير بقية الكائنات الحية التي تتفاوت نبرة أصواتها بتفوات الحاجة التي تريد. فقد تشعر – مثلا- أن القط مريض أو جائع أو ربما خائف من نبرة صوته، وهكذا بقية الكائنات الأخرى (طبعا بنسب متفاوت بينها). لكن صوت الحمار من دونها جميعا هو الأنكر (أي الذي لا يعرف غايته). لذا، عندما طلب لقمان من ابنه أن يغضض من صوته، فقد أراد أن ينتبه لأمرين اثنين متعلقين بصوت ذاك الغلام:

⇐ **الكمية** :(volume or intensity) فلا يرفع نبرة صوته أكثر مما يجب
⇐ **النوعية** :(quality) حتى يكون صوته مفهوما لمن حوله، فلا يكون كصوت الحمير الذي يصعب تمييز الغاية منه.

3. باب المشي في الأرض مرحا

ولو تدبرنا عبارة "القصد في المشي" أكثر، لوجدنا بأنها تختلف عن عبارة المشي في الأرض مرحا. ليكون السؤال الآن هو: ما معنى المشي في الأرض مرحا؟ وكيف يختلف المشي في الأرض مرحا عن القصد في المشي الذي حاولنا تقديم فهمنا المفترى له في الأسطر السابقة؟

رأينا المفترى: لمّا كانت هذه جزء من العظة ذاتها، وتلك جزء آخر منها، أصبح لزاما أن نحاول التفريق بينهما. لذا، علينا أن نحاول الآن البحث عن معنى المشي في الأرض مرحا حتى نستطيع أن نفرق بينها من جهة وبين القصد في المشي من جهة أخرى. وهنا نستحضر السياقات القرآنية التي وردت فيها عبارة "المشي في الأرض مرحا"، لنجدها حاضرة في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨﴾ [لقمان: 18]

- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء: 37]

ففي حين أن الأولى قد جاءت في سياق موعظة لقمان لابنه، جاءت الأخرى في سياق الحديث عن الحكمة التي تعرضنا لها في الجزء السابق من هذه المقالة. فالمدقق في الآية الأولى سيجد بأن المشي في الأرض مرحا أمر غير محمود لأن الله لا يحب كل مختال فخور، ليكون الاستنباط على النحو التالي:

افتراء: من يمشي في الأرض مرحا سيكون مختالا فخورا

لكن لو تدبرنا الآية الكريمة الثانية، سنصل الاستنباط المفترى التالي: من يمشي في الأرض مرحا، ربما يكون كمن يحاول أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولا.

نتيجة مفتراة: مادام أن لقمان يعظ ابنه ألا يمشي في الأرض مرحا، فهو ينهاه صراحة أن يكون مختالا فخورا، ويرشده ضمنيا إلى أنه مهما مشى في الأرض مرحا، فلن يستطيع أن يخرق الأرض ولن يستطيع أن يبلغ الجبال طولا. ولو عدنا إلى قصة داوود بكل تفاصيلها في كتاب الله، لوجدنا السياق القرآني التالي:

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ: 10]

الذي سيجلب معه حزمة كبيرة جدا من التساؤلات، نذكر منها:

- ما علاقة الجبال بـ داوود؟
- ما قصة داوود مع الجبال؟
- كيف كانت الجبال تؤوب مع داوود؟
- لماذا كانت الجبال تئوّب مع داوود على وجه التحديد؟
- لماذا لم تكن تئوب مع ولده سليمان مثلا؟
- لماذا لم تكن تئوب مع والده هذا الذي كان يسدي له العظة؟
- لماذا لا تئوب مع أحد غير داوود؟
- الخ.

ربما لا نستطيع الإجابة على كل هذه التساؤلات الآن، وسنحاول أن نتعرض لها لاحقا إن شاء الله عندما يأذن الله لنا بشيء من علمه فيها (فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم). لكننا سنحاول التعرض لمفردة الجبال في سياق عظة لقمان لابنه فقط، طارحين التساؤلات التالية:

- ما علاقة المشي في الأرض مرحا بخرق الأرض أو بلوغ الجبال طولا؟
- لماذا جاءت فكرة استحالة خرق الأرض أو بلوغ الجبال طولا في سياق الحديث عمن يمشي في الأرض مرحا؟
- كيف يمكن أن تخرق الأرض (لو أن ذلك ممكنا)؟

- ما أهمية بلوغ الجبال طولا (لو أن ذلك ممكنا)؟

لتكون أول النتائج المفتراة من عند أنفسنا هي:

⇐ من الاستحالة بمكان أن تخرق الأرض
⇐ من الاستحالة بمكان بلوغ الجبال طولا
⇐ الذي يمشي في الأرض مرحا هو الذي يكون مختالا فخورا.

لنبدأ بهذه القضايا الواحدة تلو الأخرى واضعين نصب أعين علاقة كل هذا بعظة لقمان لابنه، ليكون السؤال الأول هو: ما معنى أن تخرق الأرض؟ ويكون السؤال الثاني هو: ما معنى أن تبلغ الجبال طولا؟

4. باب خرق الأرض

لو بحثنا عن مفردة "خرق" ومشتقاتها في النص القرآني على مساحته، سنجدها حاضرة في قوله تعالى:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٖۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]
- ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولٗا ٣٧﴾ [الإسراء: 37]
- ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرٗا ٧١﴾ [الكهف: 71]

لنجد بأن مفردة "خرق" ومشتقاتها تتمثل (نحن نرى) في أن تجعل في الشي ثقبا لاحداث عيب (خلل) فيه، فيصبح معطلا. فهذا صاحب موسى يُحدِث في السفينة خرقا (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا)، وكان السبب من إحداث ذلك الخرق في تلك السفينة على وجه التحديد هو أن يعيبها (يحدث فيها عطلا) ليعطلها عن الحركة، فما تكون - بسبب ذلك الخرق- قادرة على مقارعة ماء البحر، وذلك لأنها لو أبحرت فيه وهي مخروقة، لربما أغرقها ماء البحر، فكان تبرير الرجل لما فعل لاحقا لموسى على النحو التالي:

- ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبٗا ٧٩﴾ [الكهف: 79]

فقد أسدى صاحب موسى معروفا لؤلئك المساكين عندما خرق سفينتهم، فما عادت صالحة للابحار، وبالتالي لم تمتد إليها يد ذلك الملك الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا. أليس كذلك؟

ولو جلبنا الآية الكريمة الأخرى الخاصة بخرق البنين والبنات لله:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٖۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]

سنجد بأن الكافرين المعاندين المتخذين مع الله إلها آخر، يحاولون إحداث فجوة في عقيدة الوحدانية التي لم يستطيعوا تشويهها في أذهان اتباعهم إلا بهذه الطريقة الشيطانية. فهم لا ينكرون وجود الإله بذاته، لكنهم يحاولون تعطيل عقيدة الوحدانية (المتمثلة بأن لا إله غيره) بخرق البنين والبنات له. أليس كذلك؟

السؤال: ماذا لو تم خرق الأرض مثلا؟

جواب مفترى: نحن نعتقد ابتداء بأنه من الاستحالة بمكان أن تخرق الأرض، لكن دعنا نتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لو أن ذلك كان ممكنا. فنحن نظن بأنه لو فعلا استطاع أحد أن يخرق الأرض، لأحدث فيها ثقبا، فيكون بذلك قد أعابها، فعطل حركتها، كتعطيل السفينة التي خرقها صاحب موسى، ولجعل الأرض كلها تغرق في بحر الظلمات (وسنتحدث عن تفاصيل ذلك لاحقا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها).

السؤال: ما علاقة ذلك بعظة لقمان عندما نصح ابنه بأن لا يمشي في الأرض مرحا؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن لقمان كان يرشد ابنه هذا – القادم إليه من بيئة طبيعية- بأنه مهما مشى في الأرض مرحا، فلن يصل إلى أن يخرقها. ويكأنه يقول له (نحن نتخيل) لا تغتر بما لديك من قدرات فائقة لا يملكها من هم حولك من الناس الآن، لأن تلك القدرات تبقى (مهما عظمت) محدودة مادام أنه من الاستحالة بمكان أن تخرق الأرض. فأنت لا تستطيع أن تغرق الأرض في هذا الكون الفسيح.

ولو انتقلنا إلى فكرة استحالة بلوغ الجبال طولا، لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: 88]

التي ترشدنا إلى أن الجبال هي الكينونة التي تحرك الأرض كلها. وقد افترينا القول في مقالات سابقة لنا بأن الجبال هي "بطاريات الطاقة" التي تجعل الأرض تتحرك، فالجبال هي التي تمر مر السحاب، فتجعل الأرض لا تتوقف عن المضي قدما في فلكها:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: 33]

لذا، نحن نعتقد (ربما مخطئين) بأنه لولا حركة الجبال التي تمر مر السحاب لما تعاقب الليل والنهار. وذلك لأن حركة الجبال هي التي تجعل النهار يجلي الشمس وهي التي تجعل الليل يغشاها:

- ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾ [الشمس: 1-4]

فالليل موجود بذاته، والنهار موجود بذاته (ككينونات منفصلة ومستقلة)، وحركة الجبال (نحن نظن) هي التي تجعل النهار يجلي الشمس (أي يظهرها)، وهي التي تجعل الليل يغشاها (أي يجعل على الشمس غشاوة). (وسنتعرض لهذه التفاصيل لاحقا بإذن الله)

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن خرق الأرض يؤدي إلى إحداث عيب فيها يكون سببا في إغراقها في بحر الظلمات، وأن التطاول فوق الجبال سيؤدي إلى التحكم بحركتها. فمنطقنا المفترى من عند أنفسنا يقول بأنه من أراد أن يغرق الأرض، فيوقفها، عليه أن يخرقها (كما فعل صاحب موسى بسفينة المساكين)، ومن أراد أن يغير (أو أن يتحكم بـ) حركة مسير الأرض الذي تتوكل به الجبال، فعليه أن يتجاوز طوله طول الجبال.

السؤال: لماذا قال لقمان لابنه وهو يعظه بأن لا يمشي في الأرض مرحا؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن لقمان يريد أن يجلب انتباه ابنه إلى أمرين اثنين:

⇐ **صراحة**: لئلا يكون مختالا فخورا
⇐ **ضمنيا**: أن قدراته مهما عظمت ستبقى محدودة، فهو لن يستطيع أن يخرق الأرض، ولن يستطيع أن يبلغ الجبال طولا.

السؤال: كيف كان الابن يمشي في الأرض مرحا؟

جواب مفترى: لو بحثنا في النص القرآني عن مفردة المرح، لوجدنا لزاما علينا أن نفرق بين المرح من جهة والفرح من جهة أخرى، وذلك لأن المفردتين اجتمعتا في آية واحدة في قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر: 75]

السؤال: ما هو المرح؟ وكيف يختلف عن الفرح؟

جواب مفترى: عند محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل، علينا أن لا ننسى بأن الذي يمشي في الأرض مرحا، هو من كان مختالا فخورا وهو كمن يحاول أن يخرق الارض أو يحاول أن يبلغ الجبال طولا، كما حاولنا تبيان ذلك في الأسطر القليلة السابقة، لكن يبقى السؤال قائما: كيف يمكن أن نتخيل (أو أن نتصور مشهد) من كان يمشي في الأرض مرحا، فيدو مختالا فخورا ويكأنه يحاول أن يخرق الأرض أو أن يبلغ الجبال طولا؟

رأينا المفترى: إنه من تُعد له المواكب العظيمة. انتهى.

الدليل

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجب علينا التفريق بين الفرح من جهة والمرح من جهة أخرى. قال تعالى:

- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ۝٧٥﴾ [غافر: 75]

وقد تعرضنا في واحدة من مقالاتنا السابقة (قصة يونس الجزء الأربعون) لمعنى الفرح، فظننا أن الفرح في الدنيا مذموما كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

بينما الفرح في الآخرة محمودا كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠﴾ [آل عمران: 170-169]

وظننا أن السبب في ذلك هو أن الفرح ينطوي على اغترار الشخص بما لديه، كما في قوله تعالى:

- ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: 32]

فالفرح في الدنيا سلوك غير محمود لأنه مهما أوتيت من شيء، فلا يمكن أن تكون على يقين بأنه هو نهاية المطاف:

- ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾ [غافر: 75]

لكن أكثر ما يهمنا طرحه هنا هو أن الفرح تكون نتيجته الاختيال والفخر:

- ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [الحديد: 23]

(للتفصيل انظر مقالتنا السابقة)

وكذلك هي نتيجة المشي في الأرض مرحا:

- ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان: 18]

السؤال: كيف تكون نتيجة المشي في الأرض مرحا كنتيجة الفرح على نحو أن يكون الشخص مختالا فخورا؟

جواب مفترى: لو عدنا إلى قصة قارون لوجدنا أنه كان من الفرحين، وكان ذلك بسبب زينته التي كان يخرج بها على قومه:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: 79]

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76]

نتيجة مفتراة: كان سبب فرح قارون هو المال (ما عنده من الكنوز)، لكن يبقى السؤال الآن: هل المال هو فقط ما يجعل الإنسان فرحا؟

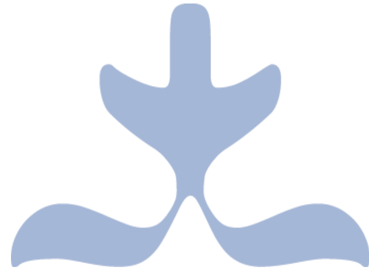
رأينا المفترى: نحن نظن أن الذي يجعل الإنسان مختالا فخورا أيضا هي المكانة الاجتماعية. فلو راقبنا سلوك بعض أهل السياسة، أصحاب المكانة الاجتماعية العالية في المجتمع، لوجدنا أن عملية انتقالهم في الأرض (أي مشيهم في الأرض)، تتميز بعظم "المواكب" المرافقة لهم، فيكون حجم الموكب مناسبا لدرجة صاحبه الاجتماعية ومكانته في المجتمع. فموكب الملك – لا شك- أكبر حجما وأعظم هيبة من موكب رئيس وزرائه الذي (لا محالة) يختلف عن موكب أحد وزرائه، وهكذا.

السؤال: ما علاقة هذا كله بعظة لقمان لابنه بأن لا يمشي في الأرض مرحا؟

تخيلات مفتراة من عند نفسي: لمّا كان هذا الفتى قادما من الغابة، كان موكبه بين الناس يتصف بالغرابة والعظمة في آن واحد في أعين التاظرين. فقد كانت كائنات الغابة (نحن ما زلنا نستخدم الخيال) ترافقه في تنقله على الأرض، الأمر الذي كان يبدو للناظر من بعيد بأن الغلام يبدو وبكأنه مختالا فخورا. لذا، جاء تنبيه الأب لابنه بأن هذه الطريقة في التنقل بين الناس غير محمودة. فما دام أن داوود قد أصبح يعيش بين الناس، فيجب أن تكون عملية الوصول إليه من قبلهم سهلة ميسرة.

السؤال: كيف كان داوود خليفة في الأرض؟ وكيف يمكن أن نستفيد من قصة خلافة آدم لتجلية بعض تفاصيل قصة داوود، والعكس صحيح؟

من يدري؟!



قصة داوود

الجزء الثامن



قصة داوود – الجزء الثامن

1. باب: داوود وذو القرنين

(**تنبيه**: نود جلب انتباه القارئ الكريم إلى أن فهم ما سيرد في هذا الجزء من افتراءات ربما تكون غير مسبوقة يتطلب الاطلاع على افتراءات كثيرة سابقة، وردت في مقالات عديدية من ذي قبل. لذا، ربما يبدو الكثير مما سنقول بعد قليل غير مفهوم لمن فاته الاطلاع على المدونة الخاصة بمقالاتنا، والمتوافرة في الشبكة العنكبوتية، على الرابط التالي:

https://www.dr-rasheed.com/

فهذه دعوة للمهتمين (ولا أخالهم كثيري العدد) للاطلاع على تلك المدونة، خاصة إذا ما وجدوا الحديث الجاري غير مفصل، مؤكدين في ذات الوقت أن كل ما جاء في تلك المدونة لا يشكل عقيدة إلا لمن ظن أنها مقنعة له. فالقارئ هو من يتحمل مسئولية الأخذ بهذه الافتراءات أو تركها، والأفضل بالنسبة لنا أن يتركنا وشأننا، فلا نحن ندعوه للأخذ بها، ولا هو مضطر لمحاسبتنا عليها. وبكلمات أكثر دقة نقول: المقالات مادة أكاديمية للبحث والنقاش، وليست مادة دينية للإيمان والاعتقاد).

أما بعد،

تحدثنا في الجزء السابق من هذه المقالة عن أول تقاطع بين قصة داوود مع القصص القرآنية الأخرى، وكان ذلك مع آدم. فظننا (ربما مخطئين) بأن أهم علاقة يمكن التركيز عليها عند دراسة قصة داوود في أطار قصة آدم تتمثل بفكرة الخلافة، وذلك لأن آدم وداوود هما فقط من كانا "خليفة" من بين عباد الله جميعا. لكن كان الفرق في الخلافة بينهما يتمثل (نحن نرى) بحجمها .(SCOPE) ففي حين كان آدم في الأرض كلها خليفة، كانت خلافة داوود محدودة في حجمها، فكانت - حسب ظننا- سارية المفعول على جزء من الأرض. وأكاد أجزم الظن بأن محدودية الخلافة عند داوود كان سببها محدودية "إرث النبوة" الذي وصله كبقية (أي منقوصا) في ذلك التابوت الذي كانت تحمله الملائكة. قال تعالى:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

نتيجة مفتراة: كان التابوت الذي جاء مع داوود، كآية على ملك طالوت، يحتوي على بقية مما ترك آل موسى وآل هارون. لذا، لعلي أجزم الظن (ربما مخطئا) بأن خلافة داوود لم تكن لتشمل الأرض كلها لسببين اثنين على الأقل:

⇐ **أولا**، وجود الأمم الأخرى على أجزء من الأرض في ذات الوقت الذي كان داوود خليفة في جزء منها

⇐ **ثانيا**، وصول أرث النبوة التي هي أدوات الخلافة كـ "بقية" (أي على غير ما كان عليه عند آدم)

وهنا سنطرح السؤال التالي: ما هي أدوات (أو لنقل مقتنيات) الخلافة (إرث النبوة) الذي وصل إلى داوود كبقية (منقوصا) في ذلك التابوت؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن أدوات الخلافة التي انتقصت هي محتويات التابوت الذي وصل ليد داوود كآية على ملك طالوت، وهو الذي كانت تحمله الملائكة، وتتمثل تلك المقتنيات بشيئن اثنين على الأقل:

⇐ القميص
⇐ العصا

السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: عندما كانت المشيئة الإلهية قد قضت بأن يكون آدم في الأرض خليفة، كان من أول متقضيات تلك الخلافة وجود الأداة التي تمكّن آدم من السيطرة على من كان خليفة لهم (ألا وهم الجن بمن فيهم الملائكة)، فكانت العصا. فأصبح الجن جميعا (بمن فيهم الملائكة) تسجد لآدم (أي تنفذ له أمره طوعا أو كرها) بسبب امتلاك آدم لتلك العصا (أداة الحكم). (للتفصيل في قصة العصا انظر مقالاتنا السابقة في قصة موسى والسامري وسليمان).

نتيجة مفتراة: كان حكم آدم في الأرض (التي كانت حينئذ جنة) خليفة مستتبا له بفعل تلك العصا التي كان يمكن أن يعذب بها من يزغ منهم عن أمره من الجن. فقد كانت الملائكة تأتمر بأمره بفعل تلك العصا، فما كانت لتعصي لآدم أمرا مادامت أنها قد سجدت له طواعية.

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

نتيجة مفتراة: عندما كان آدم خليفة في الأرض (يسكن تلك الجنة، ويأكل منها وزوجه رغدا)، كانت بيده أداة الحكم، ألا وهي العصا.

كما كان ثاني مستلزمات الخلافة في الجنة هو اللباس، فقد أُلبس آدم وزوجه ما يقيهما من تأثير عمل الشيطان الذي أبى السجود لآدم، فضُرب عليهما لباس التقوى، أي كواق لهما يحفظهما من أن يمسهم الشيطان بنصب وعذاب كما فعل – مثلا- مع أيوب لاحقا:

- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: 41]

فكان ذلك اللباس (نحن نفتري الظن) كفيلا بالتخلص من أذى الشيطان (حتى لو حصل). فكان ذلك اللباس بمثابة الواقي (shield) من أي ضرر قد يلحق بآدم وزوجه من جراء أكلهم من ثمار تلك الجنة التي أسكنهم الله إياها:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]

لذا، فإن النتيجة الطبيعية أن أكلهم من الجنة كان رغدا (وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا)، فلا يصيبهما "الضر"، أي مكروه من جراء ما يأكلون، وكان ذلك (نحن نرى ربما مخطئين) بسبب ما كانا يلبسان في الجنة. فما كانت سوءاتهما تُبدى لهما في الجنة لحاجات التغوط أو التبول بعد الأكل مما في الجنة. وذلك لأنه كان يتم استهلاك (أو التخلص من) كل ما يأكلانه بطريقة بيولوجية طبيعية نظيفة، فيتم استهلاك ما يأكلون بكامله بفعل ذلك اللباس، فما كان يجوع (فيتغوط)، ولا كان يظمأ (فيتبول):

- ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118-119]

الأمر الذي كان يجعلهما في غنى (نقول مرة أخرى) عن الذهاب إلى الغائط للتخلص من فضلات ما يأكلون بالتبول أو التغوط. لكن، ما كان ذلك ليرضي الشيطان الذي هو عدو لآدم وزوجه كما أخبر الله آدم بذلك:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: 117]

فما انفك يوسوس لهما حتى يبدي لهما سؤاتهما التي كانت موارة عنهما من ذي قبل بفعل ذلك اللباس:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]

وبالفعل نجح الشيطان في أن ينزع عنهما لباسهما:

- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

وبانتزاع ذلك اللباس عنهما، خسر آدم وزوجه واحدة من مقومات خلافتهما في الجنة - إنه اللباس.

نتيجة مفتراة 1: كان آدم خليفة للجن، فكانت تأتمر بأمره بسبب امتلاكه للعصا
نتيجة مفتراة 2: كان آدم وزوجه في وقاية من عمل الشياطين بسبب اللباس الذي هو لباس التقوى (أي وقاية)

لما كان آدم وزوجه يعيشان في الجنة حياة رغدا، بسب ذلك اللباس، كان لزاما أن تبقى سؤاتهما موارة عنهما، لكن كان من الطبيعي أن تتم عملية الانجاب، والتكاثر في الجنة.

السؤال: كيف كان من الممكن أن يحصل التكاثر في الجنة مادام أن سوءة آدم وزوجه موارة عنهما؟

رأينا المفترى: لمّا كان آدم وزوجه على وشك أن يقوما بمهمة التكاثر، كان من المفترض أن تتم العملية (نحن نتخيل) بطريقة لاجنسية (مادام أن سؤاتهما موارة عنهما). لذا، كان من المتوقع أن يتم ذلك (نحن نتخيل) بطريقة النفخ. ونحن نتخيل الأمر على نحو أن يقوم آدم بالنفخ في فرج زوجه (كما حصل مع مريم ابنت عمران لاحقا)، فيحصل الانجاب بطريقة مختلفة عن الطريقة التي صرنا نعرفها نحن البشر ونطبقها في حياتنا الدنيا بعد الهبوط من الجنة. ولو حصل ذلك بالطريقة اللاجنسية (النفخ)، لكنا نحن خلائف في الجنة، فلا أنساب بيننا، ولا نحن نتسآءل عن ذلك. فيعلم الواحد منا من هي أمه، لكن يبقى النافخ في فرج والدته بعيدا عن الساحة، ولا يسمى بهذه الحالة والد. ولو حصل ذلك لما كانت المسئولية ستقع على عاتق آدم نفسه، فما كان آدم (الزوج) سيشقى:

- ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]

فبالرغم أن الخروج من الجنة سيكون للاثنين (آدم وزوجه)، إلا أن التحذير من الخروج جاء على نحو أن آدم (الزوج) هو من سيشقى. (وقد تعرضنا لهذا المبحث في مقالات سابقة عديدة، فمن أراد الاستزادة في هذا الوضوع، فسيجد رأينا مسطرا هناك).

لكن ما يهمنا هنا هو الظن بأنه كان على زوج آدم (إن صح خيالنا المفترى هذا) أن تحضّر لهذا الحدث الذي هو بالنسبة لها حدث عظيم. فبدأت (نحن مازلنا نتخيل) التجهيز لاستقبال مولودها الأول بتحضير المهد له. فصدر الأمر من آدم (صاحب العصا) للملائكة للذين مازالوا يسجدون له باعداد ذلك المهد. وبالفعل جهّزت الملائكة ذلك المهد، وظلّت تحمله انصياعا لأمر آدم (الذي يحمل بيده تلك العصا التي هي تمثل سلطة آدم على الملائكة في ذلك الوقت).

نتيجة مفتراة 1: كان من المفترض أن تتم عملية التكاثر في الجنة بطريقة لاجنسية(*asexual*) **، لأن السوءة كانت موارة عن آدم وزوجه**

نتيجة مفتراة 2: كان من المفترض أن تتم عملية التكاثر في الجنة بالنفخ (أي أن ينفخ آدم في فرج زوجه)

نتيجة مفتراة 3: تم تجهيز المهد في الجنة للمولود المتوقع قدومه جراء عملية النفخ المنتظرة

نتيجة مفتراة 4: أعدت الملائكة ذلك المهد، وظلت تحمله بناء على الأمر الذي صدر لها من الخليفة (آدم)

نتيجة مفتراة 5: كان آدم يملك عصا الخلافة التي تطوّع له الجن

نتيجة مفتراة 6: كان آدم وزوجه ما يزالان يلبسان ذلك اللباس الذي يواري عنهما سوءاتهما

نتيجة مفتراة 7: نجح الشيطان في أن يزلّ آدم وزوجه، فأكلا من الشجرة

نتيجة مفتراة 8: نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما، فبدت لهما سؤاتهما

نتيجة مفتراة 9: خسر آدم العصا التي كانت أداة حكمه على الجن

نتيجة مفتراة 10: ما عاد التكاثر ممكنا بطريقة لاجنسية، فأصبح التكاثر متاحا فقط بالطريقة الجنسية (*sextual*)**التي نعرفها اليوم.**

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: وضعت مقتنيات الجنة (العصا واللباس) في ذلك التابوت الذي ظلت الملائكة تحمله.

والآن لو حاولنا - بناء على هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا عن قصة الخلق الأولى - أن نبحث أكثر في خيوط التقاط بين قصة آدم من جهة وقصة داوود من جهة أخرى، لربما حق لنا أن نحضر الآية الكريمة التالية إلى النقاش:

- ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ۝٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١﴾ [الأنبياء: 78-81]

وهنا سنطرح السؤال الكبير التالي الذي نظن أنه يتعلق بداوود، ألا وهو: ما هي الصنعة اللبوس الذي عُلِّمها داوود (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)؟

رأينا المفترى: إن أبسط ما يمكن أن نفتريه هنا - بناء على فهمنا لما جاء في الآيات الكريمة السابقة بهذا الموضوع - هو توافر عنصر صناعة اللباس عند داوود (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ)، ليكون التقاطع الجديد الآن بين داوود وآدم كـ "خليفة" له علاقة باللباس. فما يجمع الحالتين هو وجود اللباس الخاص بهما، وما يجعلهما مختلفين هو نوعية ذلك اللباس.

السؤال: ما وجه الاختلاف بين لباس آدم في الجنة من جهة ولباس داوود من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) أنه في حين أن لباس آدم وزوجه كان وقاية لهما من عمل الشيطان. كان لباس داوو هو التحصين من باس الناس (لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)، ليبدأ النقاش الآن عن ماهية لباس داوود، طارحين التساؤلات المثيرة التالية:

- ماذا كان لباس داوود كخليفة في الأرض؟
- ماذا كان لباس آدم (وزوجه) الذي كان في الأرض خليفة؟
- كيف يتشابه اللباسان؟
- كيف يختلف اللباسان؟
- ما أهمية كل لباس منهما؟
- الخ

2. باب لباس داوود

لو حاولنا التعرض للسؤال الأول الخاص بلباس داوود، لربما حق لنا أن نفتري الظن بأن لباس داوود كان له علاقة بالحديد. انتهى.

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة السابقة ذاتها، التي نعيدها هنا من أجل توضيح الفكرة التي نحاول تقديمها:

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80]

لوجدنا بأن ذلك اللباس كان يقوم بفعل التحصين من البأس (لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)، ولو حاولنا أن نبحث عن الشيء الذي يمكن أن يؤدي هذه المهمة، لوجدنا الحديد حاضرا على الفور:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]

فمادام أن الحديد فيه بأس شديد، فلربما حق لنا أن نقول بأن الغاية من الصنعة اللبوس التي تعلمها داوود من ربه (بطريقة محددة) كانت التحصين من بأس الحديد (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ)، لنخرج من ذلك بالافتراء التالي: كان لباس داوود بمثابة الحصن (أو لنقل الدرع) الواقي من بأس الحديد. فلو حصل أن تم الهجوم على من يلبس ذلك اللباس (كداوود)، لتكفل اللباس بذاته أن يصد بأس الحديد، فلا يصيب المتحصن بذلك اللباس أذى من بأس الحديد، الذي لا شك هو شديد.

السؤال: كيف يكون ذلك؟ ما نوعية اللباس الذي كان يصنعه داوود، فيكون بمثابة الدرع الواقي من بأس الحديد؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الحديد كان حاضرا في قصة داوود، والأهم من ذلك أنه حاضر بطريقة عجيبة تتمثل بأن الحديد قد كان لينًا بيد داوود، قال تعالى:

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: 10-11]

لنخرج بعد قراءة هذه الآيات الكريمة التي جاءت مبينة لبعض تفاصيل حياة داوود بافتراءات عجيبة هي على النحو التالي:

افتراء 1: تمت إلانة الحديد لداوود (وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ)

افتراء 2: لمّا كان الحديد لينا بيد داوود، كان يستطيع أن يعمل سابغات (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ)

افتراء 3: لمّا كان الحديد لينا بيد داوود، كان يستطيع أن يقدر في السرد (وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ)

الأمر الذي سيدعونا على الفور - كالعادة - إلى طرح العديد من التساؤلات، نذكر منها:

- كيف تمت إلانة الحديد لداوود؟
- لماذا كان الحديد لينا لداوود على وجه التحديد؟
- ما معنى أن داوود كان يعمل سابغات؟
- كيف كان يستطيع داوود أن يعمل سابغات؟
- ما معنى أن داوود كان يقدر في السرد؟
- كيف كان يقدّر في السرد؟
- ما علاقة كل ذلك بالصنعة اللبوس التي تعلمها داوود؟
- متى تعلم داوود تلك الصنعة؟
- كيف تعلم داوود تلك الصنعة؟
- كيف استخدم داوود تلك الصنعة؟
- الخ

(**تنبيه**: نحن نظلب من القارئ الكريم الذي لا يجد معنا صبرًا أن يترك النقاش هنا، ويذهب بعيدا ليطلب ضالته عند غيرنا. فما سنفتريه بعد قليل ربما يصعب تصديقة مهما حاولت أخي القارئ أن تجاريه. فدع عنك - يرحمك الله - افتراءاتنا لانها لا تخص أحدًا من العالمين غيرنا).

أما بعد،

نحن نرى بأنه من الممكن (إن أذن الله لنا بشيء من علمه) أن نجيب عن هذه التساؤلات بعد أن نحاول – ابتداء- ايجاد التقاطعات بين قصة داوود من جهة وقصة ذي القرنين من جهة أخرى، خاصة ما يتعلق بموضوع الحديد الذي يرد في القصتين، ثم محاولة ربط ما نخرج به من افتراءات في هذا الصدد بقصة لباس آدم في الجنة.

لو حاولنا أن نجلب قصة ذي القرنين إلى هذا النقاش، سيصبح لزاما (نحن نرى) أن نضع الآية الكريمة التالية على طاولة النقاش، قال تعالى:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 93-97]

فهذا ذو القرنين يطلب من القوم الذين طلبوا منه أن يكفّ عنهم فساد يأجوج ومأجوج في الأرض أن يؤتوه زبر الحديد (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ):

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

لذا، علينا – ابتداء- أن نميّز بين الحديد من جهة وزبر الحديد من جهة أخرى. فنحن نعرف (من خبراتنا البشرية ربما غير الدقيقة) بأنّ الحديد هو مادة تستخدم في الصناعات (خاصة العسكرية منها)، لكن الذي يجب أن نتذكره أيضًا في هذا المقام أنّ الحديد (كمادة خام) له – كما جاء في الآية الكريمة - زبر (زُبَرَ الْحَدِيدِ). وبالتالي تلزمنا الدقّة القرآنية في اللفظ أن نحاول الفصل بين الحديد ذاته من جهة وزبر الحديد من جهة أخرى. وقد نكون محقين إن نحن افترينا الظن بأنه يمكن أن يستخلص "زبر الحديد" من الحديد ذاته. فهو في نهاية المطاف زبر الحديد.

نتيجة مفتراة: هناك الحديد
نتيجة مفتراة: هناك زبر الحديد

السؤال: ما هي تلك المادة التي يمكن أن تسمى زبر الحديد؟ وكيف تختلف مادة زبر الحديد عن الحديد ذاته؟

جواب مفترى: لو حاولنا البحث عن مفردة "زبر" ومشتقاتها في النص القرآني على مساحته، سنجدها قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: 184]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: 43-44]
- ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 94-97]
- ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 52-53]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشعراء: 193-196]
- ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: 25]

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: 43]
- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: 52-53]
- ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: 55]
- ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: 105]

وقد افترينا الظن منذ أمد بعيد - بناء على فهمنا الخاص لهذه السياقات القرآنية بأن الزبور مشقة من مادة "زبر". فالزبور واحد، والزبر متعددة. وظننا بأن الزبور هو ما يشبه الدستور الذي توضع به القوانين الثابتة النافذة التي تمثل الحقائق المطلقة التي لا يمكن أن تبدّل أو أن تتغير. فالزبور هو - برأينا- المادة النقيّة التي لا يمكن أن تطولها شائبة.

ولو دققنا في الآيات الكريمة الخاصة بالزبور أكثر، لوجدنا بأنّ الكتابة في الزبور قد حصلت بعد الذكر. فهناك إذًا الزبور، وهناك الذكر، وأن الكتابة في الزبور قد جاءت لاحقة للذكر. ولو حاولنا تدبر الآيات الكريمة التالية:

- ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

لوجدنا بأن الذكر هو أداة التبين. فهو الأدوات التي بواسطتها يستطيع الرسول الكريم تفصيل (أي تحويل) الكلام الذي أنزل عليه بلسان الوحي المحكم إلى كلام بلسان قومه الذي بعث فيهم (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ). (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة خاصة تلك التي تتحدث عن ما كتب في الزبور وسلسلة مقالات لوط).

ولو دققنا أكثر، لوجدنا بأنّ الزبور عبارة عن فصول يمكن أن تقطّع:

- ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: 53]

وأن هذه الزبر (جمع زبور) قد جاء بها كثير من الرسل:

- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: 184]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ [فاطر: 25]

وأن الذي نزل به الروح الأمين على قلب محمد موجود من ذي قبل في زبر الأولين:

- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٩٦ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١٩٩ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٢٠١﴾ [الشعراء: 193-201]

وأن كل ما فعله من أهلكهم الله موجود كذلك في الزبر:

- ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢﴾ [القمر: 50-52]

لنصل من خلال هذا النقاش المبدئي عن مفردة "زبر" (ومشتقاتها) إلى النتيجة المفتراة التالية: هناك زبر كثيرة، جاءت بها رسل الله، وكان من نصيب داوود على وجه التحديد واحدة من هذه الزبر، فكان لداوود زبورا، قال تعالى:

- ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: 55]

ولمّا كان داوود قد أُوتي زبورا، كان بين يديه ما يشبه "كتاب ارشادي" (manual) "أي فيه تعليمات (كقوانين) واضحة وثابتة يمكن استخدامها لعمل شيء ما، فوجّه الله له الأمر بأن يكون خليفة يحكم بين الناس بالحق:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

(انظر المقالة السابقة عن الفرق بين الحكم بالحق كما كان يفعل داوود والحكم بالعدل كما طلب منا نحن البشر أن نعمل).

نتيجة مفتراة: الزبور هو المادة النقية التي لا تشوبها شائبة، يرشد من تقع بين يديه إلى طريقة عمل شيء ما.

لذا، عندما طلب ذو القرنين من القوم أن يعينوه بقوة، جاء طلبه محددا على نحو أن يأتوه "زبر الحديد:"

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

فكان ذلك سببا في أن يساوي بين الصدفين (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ)، أليس كذلك؟

افتراء خطير جدا جدا: نحن نظن بأن "زبر الحديد" هو المادة النقية المستخلصة من الحديد التي يمكن بواسطتها المساواة بين الصدفين.

السؤال: كيف كان "زبر الحديد" سببًا بأن يساوي ذو القرنين بين الصدفين؟

للإجابة على هذا التساؤل، نجد أنه من الضروري طرح سؤال آخر في هذا الصدد، ألا وهو: ما هما الصدفان اللذان يمكن مساواتهما باستخدام زبر الحديد؟

افتراء خطير جدا جدا: أنا أتجرأ على افتراء الظن من عند نفسي بإن الصدفين هما القطبان المغناطيسيان (السالب والموجب). فباستخدام زبر الحديد (أي المادة النقية المستخلصة من الحديد) تستطيع أن تخلق الحقول المغناطيسية (magnetic fields) شديدة القوة، فيكون الحديد فيه "بأس شديد"، كما جاء في سورة الحديد ذاتها:

- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]

فالمتفحص في دقة النص القرآني سيجد بأن البأس الشديد ليس هو الحديد ذاته، وإنما البأس الشديد الموجود فيه (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ). أما الحديد بذاته فهو منافع للناس (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ). ولو كانت المنافع في الحديد (أي يمكن استخلاصها من الحديد)، لربما جاء النص على نحو (وفيه منافع للناس). وبكلمات أخرى نقول: لو أن الحديد فيه باس شديد وفيه منافع للناس، لتكررت مفردة "فيه" مع كل واحدة منها كما جاء - مثلا- في قوله تعالى:

- ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ [يوسف: 49]
- ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥﴾ [الأعراف: 25]

وما يخرج من بطون النحل (أي ما نعرفه نحن تحت مسمى العسل) ليس شفاء للناس بحد ذاته، ولكن الشفاء موجود فيه، أي يمكن استخلاصه من مادة العسل:

- ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩﴾ [النحل: 69]

(وسنتحدث عن هذا الموضوع لاحقًا بإذن الله. فالله وحده أدعوه أن يعلمنا علما لا ينبغي لأحد غيري إنه هو العليم الحكيم).

إذا، علينا أن نفصل بين الشيء ذاته من جهة وما فيه من جهة أخرى، وذلك بمراقبة الدقة القرآنية في اللفظ في الآيات الكريمة. فهناك إذًا فصل بين إثم الخمر والميسر من جهة ومنافعهما من جهة أخرى:

- ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: 219]

فالخمر والميسر فيهما إثم كبير (فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ)، لكنهما بذاتهما منافع للناس (وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) بالرغم أن اثمهما أكبر من نفعهما. أما الأنعام فهي بحد ذاتها منافع:

- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾﴾ [النحل: 5]

وكذلك فيها منافع كثيرة

- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: 71-73]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]

والآن، لو عدنا إلى تدبر الآية الخاصة بالحديد بالدقة المطلوبة:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]

لربما حقّ أن نقدم افتراءين اثنين:

نتيجة مفتراة 1: الحديد بذاته منافع للناس
نتيجة مفتراة 2: الحديد فيه بأس شديد

وقد تحدثنا عن منافع الحديد في مقالات سابقة لنا، ومن أراد الاطلاع على رأينا في ذلك، يستطيع أن يعود إلى مقالاتنا في قصة يوسف وقصة موسى عندما تعرضنا للآيات الكريمة التالية:

- **قصة يوسف:**

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]
- قصة موسى:
- ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص: 9]

لكننا سنركز هنا على "زبر الحديد" فقط، لنحاول أن نربط ما تتحصل لنا من أفهام حول هذا الموضوع (زبر الحديد) بقصة الصنعة اللبوس التي تعلمها داوود، وكانت خاصة به.

أما بعد،

عندما طلب ذو القرنين من القوم أن يعونوه بقوة ليجعل بين الطرفين ردما (وليس سدا)، عمد القوم على أن يأتوه بما يمكن استخلاصه من الحديد، الا وهو زبر الحديد (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ)، فاستخدمه (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) في المساواة بين الصدفين، فخلق بذلك (نحن نظن) حقولا مغناطيسية (سالب وموجب) معلقة في الفضاء الخارجي.

- ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف: 96]

نتيجة مفتراة 1: استخدام ذو القرنين زبر الحديد الذي تم استخراجه من الحديد على يد من كان يحاورهم، فالقوم هم من آتوه زبر الحديد، الأمر الذي يدعونا إلى الظن بأن القوم كانوا على درجة من التقنية (التكنولوجيا) يستطيعون باستخدامها استخلاص زبر الحديد.
نتيجة مفتراة 2: كانت مهمة ذي القرنين تتمثل في المساواة بين الصدفين (أي القطبين الشمالي والجنوبي)، فأصبح هناك حقل مغناطيسي ثنائي القطب (قطب سالب وآخر موجب).

ما أن ساوى ذو القرنين بين الصدفين (القطبين) حتى طلب من القوم أن ينفخوا (قَالَ انْفُخُوا)، حتى جعل ذلك نارا (حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا)، ثم عمد مباشرة إلى أن يفرغ عليه القطر (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا)، الذي نظن بأنه الوقود المشغل له، فأحدث بذلك مجالًا مغناطيسيًا، يشتغل بطاقة القطر المفرغ على النار التي نفخت بعد المساواة بين الصدفين (أي القطبين). فاستعصى على تلك الكائنات الغازية للأرض (وهي الديناصورات) الاستمرار بالقدوم إلى الأرض من مكان آخر في الكون العامر. (للتفصيل انظر مقالاتنا حول ذي القرنين ورحلاته الفضائية، وقصة غزو الديناصورات للأرض في قديم الزمان).

لكن ما أن تنفذ المادة المشغّلة له (وهي مادة القطر) حتى يبدأ تفتح تلك المجالات المغناطيسية، بعد أن تبدأ قوتها تضعف شيئا فشيئا (بما أنها مصنعة تصنيعا)، وسيبدأ حينئذ يأجوج ومأجوج ينسلون من كل حدب نحو الأرض، ليعودوا إلى استعمارها في قادم الأيام بإذن الله كما استعمروها في سالف الزمان:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: 96]

نتيجة مفتراة 1: زبر الحديد هو المادة النقية المستخلصة من الحديد
نتيجة مفتراة 2: زبر الحديد هو المادة المستخدمة للمساواة بين الصدفين
نتيجة مفتراة 3: الصدفان هما القطبان (السالب والموجب)
نتيجة مفتراة 4: القطر هو الوقود المشغل للصدفين (للقطبين).

الدليل

لو دققنا بمعنى "صدف" ومشتقاتها في النص القرآني على مساحته، لربما حقّ لنا أن نفتري الظن بأنّ الصدف هو ما يشبه "النفور"، أو ما نسميه بلغاتنا التي تعلمناها في دروس العلوم الأولى تحت مسمى "التنافر (repel)"، كالذي يحدثه المغناطيس عندما تتساوى الشحنة في القطبين (سالب مع سالب أو موجب مع موجب). وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله تعالى:

- ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنعام: 46]
- ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 157]

فحال الذين يصدفون عن آيات الله هي كحال المادة التي تتنافر إذا تساوت الأقطاب في شحناتها المغناطيسية (سالب مع سالب أو موجب مع موجب).

ولو دققنا في اللفظ أكثر، لوجب علينا التمييز بين النفور من جهة والصدف (أو ما نعرفه نحن بالتنافر) من جهة أخرى. فقد وردت مفردة النفور في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: 41]
- ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: 46]
- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: 60]
- ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: 42]
- ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: 21]

فالمدقق بهذه السياقات القرآنية سيجد - حسب فهمنا طبعا - بأن الذي ينفر هو من كان قريبا من الشي لكنه يبتعد عنه. فستجد بعض الناس - عندما يكون النقاش كله من القرآن وحده - ينفرون على الفور، أي يتركون المكان ذاهبين بعيدا بعد أن كانوا يتواجدون فيه. فاقتصار أي حديث على كتاب الله وحده يسبب ردة فعل (عند بعض الناس) على نحو أن تكون "نفورا."

لكن - بالمقابل- فإن الذي يصدف عن آيات الله هو الذي لا يمكن أن يقترب منها من الأساس، فهناك عداء مستحكم له معها، تجعله على الدوام مبتعدا عنها، وبكأنهم قد أحدثوا مجالا مغناطيسيا (magnetic field)من حولهم، يبعدهم تلقائيا عن آيات الله. فيكون هناك تنافر (repel) بينهم من جهة وآيات الله من جهة أخرى.

نتيجة مفتراة: علينا أن نميز بين نوعين من السلوك عند بعض الناس تجاه آيات الله، فهناك من ينفر منها (أي يسمعها وربما يقترب منها، وربما يجادل فيها، لكنه يبتعد عنها بعد ذلك، فهذا الذي ينفر. وهناك - بالمقابل - من يصدف عنها، فلا يحاول أصلا الاقتراب منها، فهذا الذي – بمفرداتنا- يتنافر معها (يصدفون عنها) .

ولما طُلب من البعض أن ينفر في سبيل الله:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: 38]

اثاقلوا إلى الأرض، فما رضوا بأن يبتعدوا عن المكان الذي كانوا متواجدين فيه. وكذلك فعل المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله، فقالوا لا تنفروا، أي لا تبتعدوا عن المكان الذي أنتم متواجدين فيه:

- ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة: 81]

ولما صرف الله لمحمد نفرا من الجن:

- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: 29]
- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن: 1]

جاءوه إلى المكان الذي كان متواجدا فيه، ومبتعدين عن المكان الذي كان قومهم متواجدين فيه، بدليل أنهم عادوا إليهم بعد أن قضي استماعهم للقرآن. وربما بمثل هذا المنطق نفهم مفردة "نفرا" في السياق القرآني التالي:

- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]

فالذي هو أعز نفرا، هو القادر أن يجمع حوله مجموعة (تكبر أو تصغر) من الاشخاص الذين يمكن أن يساندوه لو أنه ذهب في مهمة معينة.

نتيجة مفتراة 1: النفر (النفور) هم من كانوا متواجدين في مكان ما، ويستطيعون أن يتركوا ذلك المكان ذاهبين في مهمة معينة.
نتيجة مفتراة 2: الصدف هو الذي لا يقترب من المكان ابتداء فيبقى بعيدا عنه بفعل وجود قوة خفية تجعله يظل مبتعدا، فلا يقترب، فتنشأ علاقة تنافر بينه من جهة وذلك الشيء الذي يصدف عنه (اي يتنافر معه) من جهة أخرى.

ولو جلبنا الآن الآية القرآنية الخاصة بذي القرنين، ربما نستطيع أن نتصور وجود صدفين اثنين، من الاستحالة بمكان أن يلتقيا، فيبقيا في حالة تنافر، بالضبط كحالة القطبين المغناطسيين متساويي الشحنة:

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

دعنا نتخيل – بناء على هذا الفهم المفترى من عند نفسي- ما فعله ذو القرنين باستخدام زبر الحديد.

أما بعد،

يطلب القوم من ذي القرنين أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدا:

- ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ٩٤﴾ [الكهف: 94]

يرد عليهم بالرفض، مقترحا ما هو أكثر فاعليه من السد، ألا وهو الردم:

- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥﴾ [الكهف: 95]

يطلب منهم أن يعونه بقوة، فيأتوه (بطلب منه) "زبر الحديد:"

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ ... ٩٦﴾ [الكهف: 96]

يساوي بين الصدفين، فيطلب منهم أن ينفخوا، حتى يجعله نارا:

- ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا ... ٩٦﴾ [الكهف: 96]

يطلب منهم أن يفرغ عليه القطر (اي الوقود المشغل له):

- ﴿... قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

تكون نتيجة ذلك كله على نحو احكام ذلك الردم الذي جعله ذي القرنين، فما عاد يأجوج ومأجوج قادرين أن يظهروا ذلك الردم، وما عادوا يستطيعون له نقبا:

- ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]

ويكون ذو القرنين – حسب ما نتخيله – قد أغلق بذلك الفعل التقني المتطور جدا السبب (الطريق السماوية) التي كانت تنسل منها تلك الكائنات (الديناصورات) إلى الأرض، وذلك - برأينا- بسبب إحداثه مجالا مغناطيسيا بسبب المساواة بين الصدفين:

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 96-97]

افتراء من عند نفسي: ما أن يبدأ وقود ذلك "العمل التقني المتطور جدا" بالنفاذ شيئا فشيئا، حتى تبدأ تلك النار تخمد شيئا فشيئا، مما سيسبب (نحن نرى) تفتح يأجوج ومأجوج، الذين سيعودون غازين للأرض، يتناسلون من كل حدب مع اقتراب الوعد الحق:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٩٧﴾ [الأنبياء: 96-97]

(دعاء: أعوذ بك ربي أن أكون ممن يقولون ياويلنا قد كنا في غفلة، وأعوذ بك ربي أن أكون من الظالمين)

ولو رجعنا - بعد هذا النقاش في قصة ذي القرنين بما تحصل لنا من افتراءات من عند أنفسنا عنها - إلى الحقبة الزمنية التي كان يتواجد فيها آل داوود، لوجدناها هي حضارة العصر الحديدي، الذي برع أهله باستخدام الامكانات الكامنة في الحديد، وليس أدل على ظننا هذا من فهمنا المفترى للآيات الكريمة التي جاءت على لسان قوم المرأة التي اكتشف خبرها الهدهد في زمن سليمان. فهم من كانت ردة فعلهم على استشارة المرأة التي كانت تملكهم لهم على النحو التالي:

- ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: 32-34]

لذا،نحن نتجرأ على الظن بأن الناس في ذلك الزمان (زمن آل داوود) قد برعوا باستخدام الطاقات الكامنة في الحديد، خاصة ما فيه من بأس شديد. وهذا الظن يعيدنا على الفور إلى السؤال الذي طرحناه في بداية هذه المقالة عن الصنعة اللبوس التي عُلِّمها داوود، وهو من أُلين له الحديد. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآيتين الكريمتين الخاصتين بداوود معا:

- ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 79-80]
- ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: 10-11]

لنخرج من هذا النقاش بالافتراء البسيط التالي: لقد كان داوود قادرا على الاستفادة القصوى من الطاقة الكامنة في الحديد الذي كان بالنسبة له صنعة لبوس تحصن (الناس) من البأس. فاللباس الذي كان يستخدمه داوود كان مصنعا بطريقة تمكنه من التحصين من بأس الحديد الذي هو زبره.

لذا، عندما ظن قوم المرأة التي في سبأ بأنهم أولوا قوة وأولوا بأس شديد، جاء ردها عليهم على النحو التالي:

- ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: 34]

ويكأنها (نحن نتخيل) تقول لهم بأن استخدامكم لبأس الحديد الذي تملكونه لن يجدي نفعا مع هؤلاء الملوك، وذلك لأن لديهم أساس صنعة لبوس تقيهم من بأسكم. وهنا نضطر أن نجلب الآية قيد البحث إلى هذا النقاش مرة أخرى، لنربطها مع آية أخرى جاءت تبين لنا بعض جوانب قصة داوود الأخرى. ولنحاول أن نربط الآيتين معا:

- ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 79-80]
- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

فالمدقق في الآية الثانية، سيجد بأن ما آتاه الله لداوود يتمثل بأشياء ثلاثة هي على الترتيب:

⇐ الملك
⇐ الحكمة
⇐ علمه مما يشاء

ولو دققنا في ثالث هذه الأشياء (وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)، لوجب علينا أن نظن بأن واحدة من تلك الأشياء التي تم تعليمها داوود كانت هي الصنعة اللبوس:

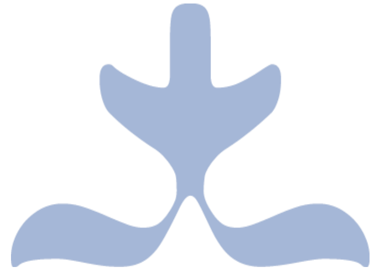
- ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80]

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل صنعة اللبوس التي كان داوود قد تعلمها كخليفة؟

رأينا المفترى: لما كان داوود خليفة في الأرض (كما كان آدم في الأرض خليفة)، وجد التقاطع في اللباس بينهما. ففي حين أن لباس آدم في الجنة كان بمثابة الوقاية له من عمل الشيطان الذي هو أساس عدو لآدم ولزوجه، فكان كما الدرع الواقي الذي يحد من وصول الشياطين له ولزوجه لاحداث الضرر فيهما، كان الدرع الواقي لداوود يحصنه من بأس الحديد الذي يستخدمه الناس لإيقاع الأذى بعضهم ببعض. لذا أنا أتجرأ على أن أتخيل بأنه لو حاول أحد من الناس أن يستخدم الحديد لمقارعة داوود عسكريا، لكان الدرع الذي يلبسه داوود بمثابة الحصن الحصين الذي يدفع الضرر عنه. وبمثل هذا الخيال المفترى من عند أنفسنا، يمكننا الآن أن نعيد مشهد المواجهة بين داوود من جهة وجالوت من جهة أخرى في تلك المواجهة الشرسة بين الطرفين، وهي المواجهة التي استطاع داوود (الشاب اليافع) فيها أن يطيح بجالوت الكافر الذي نظنه كان بارعا في استخدام بأس الحديد في المواجهة العسكرية ضد خصمه:

- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن
لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ
هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ
أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ
﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 249-252]

السؤال: من هو داوود؟ من يدري؟!!



قصة داوود

الجزء التاسع



قصة داوود - الجزء التاسع

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة إبراز بعض التقاطعات بين قصة داوود من جهة وقصة ذي القرنين من جهة أخرى. وافترينا الظن من عند أنفسنا بأن واحدة من تلك التقاطعات تكمن في استخدام كلاهما لعنصر الحديد. فزعمنا القول (ربما مخطئين) بأن كلاهما قد استفاد مما في الحديد من بأس شديد. وظننا بأن بأس الحديد يكمن في زبره الذي هو (حسب زعمنا) القوة المغناطيسية الشديدة التي يمكن أن يتشكل بواسطتها الدرع الواقي الذي يقي مستخدمه بأس الطرف الآخر عندما يتم مهاجمته أو الاعتداء عليه. فظننا (ربما مخطئين) بأن ذا القرنين قد استخدم زبر الحديد للمساواة بين الصدفين (وهما القطبان المغناطيسيان) لصدّ خطر يأجوج ومأجوج، فما عادا قادرين على إحداث الفساد في الأرض، وذلك لأنّ وصولهما إلى الأرض أصبح غير ممكن بعد أن ساوى ذو القرنين بين الطرفين.

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأنّ فساد يأجوج ومأجوج في الأرض قد أوقفه ذو القرنين باستخدام زبر الحديد (القوة بالمغناطيسية) التي أُحكم بها ذلك الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزًا بين من طلبوا منه المساندة من جهة ويأجوج ومأجوج (الغازين للأرض) من جهة أخرى .

وباستخدام المنطق ذاته، حاولنا الترويج لفكرة إلانة الحديد لداوود. فقد كان داوود قادرًا على تلك الصنعة التي ترد في كتاب الله بمسى "صنعة لبوس"، فكان داوود يستخدم البأس الشديد المتوافر في الحديد، وذلك من أجل التحصن من بأس الناس:

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: 80]

أمّا ما يتعلق بآلية تلك الصناعة، فنظن بأنه كان عند داوود من الأدوات ما مكّنته من اتقان تلك الصنعة. فالاستفادة من الحديد باستخراج زبره تتطلب وجود قوة (طاقة) لتشغل القوة المغناطيسية الكامنة في الحديد، وبكلمات أخرى نقول: لابد من وجود طاقة تشحن القوة الكامنة في الحديد، حتى تتفعل.

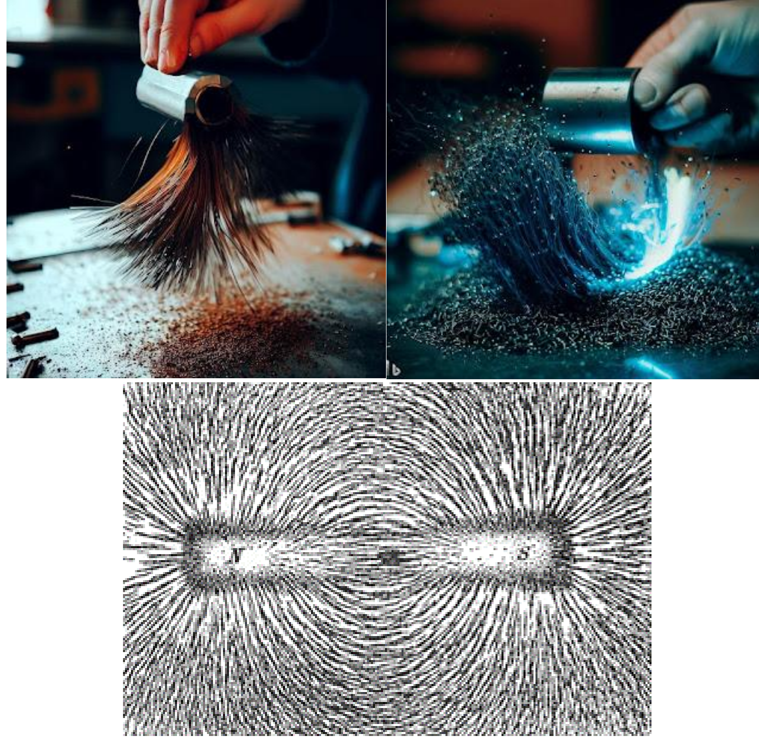
الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: 23]

لوجدنا بأنّه حتى تتم إلانة الجلود ثم القلوب لذكر الله (ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ)، فلابد من وجود قوة خارجية تؤثر عليهما. وربما يحقّ لنا أن نقول بأن الحديث الذي أُنزل "كتابا متشابها مثاني" هو ما يجعل الجلود تقشعرّ أولا، ثم تلين بعد ذلك. ولا يتوقف الأمر عند ذلك، بل تتعدى إلى إلانة القلوب بعد أن تلين الجلود جراء تلك القشعريرة التي تصيبه. فالآلية تتمثل بوجود قوة خارجية تؤثر على الجلد (القشرة

الخارجية)، فتؤدي إلى حدوث قشعريرة لذلك الجلد. (لتقريب الصورة إلى الأذهان، انظر الشكل التالي المقتبس من موسوعة الوكيبيديا كيف يخلق المجال المغناطيسي(Magnetic field) ، وحاول أن تتخيل كيف تقشعر الجلود).



Source: https://en.wikipedia.org/wiki/Magnetism#/media/File:Magnet0873.png

ثم تتسبب تلك القشعريرة في إلانة الجلد ذاته، ثم ينتقل التأثر من القشرة الخارجية (الجلود) إلى الجزء الداخلي (القلب)، فيؤدي إلى إلانته. فوجود قوة خارجية ضرورة لحصول إلانة شيء ما. وانظر عزيزي القارئ - إن شئت - كيف كانت رحمة الله هي السبب المحفّز لـ إلانة النبي نفسه لمن حوله:

- ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ [آل عمران: 159]

وبالمنطق ذاته، فإننا نستطيع أن نتصوّر إلانة الحديد لداوود. وذلك بوجود قوة خارجية تؤثر على السطح الخارجي للحديد، فتُحدِث فيه ما يشبه قشعريرة الجلد، فتؤدي مباشرة إلى إلانه ذلك الجزء من الحديد، ثم ينتقل التأثر إلى القوة الداخلية الكامنة في الحديد، فيصبح لينًا، فتتفعل القوة الراكدة بداخله (زبره). والتي نظن أنها القوة المغناطيسية الكامنة في الحديد. وهنا يبرز (إن صحّ منطقنا المفترى هنا) التساؤل التالي: ما هي القوة الخارجية التي كانت تؤثر على الحديد حتى أصبح لينًا بيد داوود؟

رأينا المفترى (لا تصدقوه): ربما يستطيع من يحاول الإجابة على مثل هذا التساؤل تقديم عدة سيناريوهات محتملة. لكن السيناريو الذي سنتبناه حتى الساعة (وما زلنا لا نملك الدليل عليه) هو التالي: إنها القوة (الطاقة) التي كانت متوافرة في التابوت .

الدليل

لو بحثنا عن مفردة "التابوت" على مساحة النص القرآني، سنجدها تظهر صراحة في السياقات التالية:

- **عند الحديث عن طفولة موسى:** ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ۝٣٧ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 36-39]
- **عند الحديد عن قصة جالوت التي جاء فيها ذكر لداوود:** ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

ليكون السؤال المحوري هنا هو: لِمَ يرد ذكر التابوت صراحة في هاتين القصتين على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: لو دققنا في قصة موسى جيدا، سنجد الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: 39]

لنثير - بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة- سؤالًا ربما يصعب الإجابة عليه بشكل نهائي، ألا وهو: كيف كان موسى يُصنع على عين الله في بلاط آل فرعون؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا مفهوم الصناعة "كحرفة"، لوجدناها تختلف من شخص لآخر، ومن أمة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر. لكن ما يميّزها عند الجميع هو درجة الاتقان. فقد أصنع أنا أداة معينة، وقد تصنع أنت مثل تلك الأداة، لكن كفاءة كل واحدة من الأداتين قد تتفاوت. فربما تكون الأداة التي صنعتها أنا أكثر كفاءة وفاعلية من الأداة التي صنعتها أنت، والعكس صحيح. وقد تنتج بلد ما آلة معينة، وتنتج بلد آخرى مثل تلك الأداة، لكن ربما تتفاوت كفاءة الآلة المصنوعة في الحالتين. ولعل أهم عنصر يجعل الأداة ذات كفاءة عالية هي "التقنية (Technology) المستخدمة في تلك الصناعة. فالصناعة الألمانية تستخدم تقنية ذات كفاءة معينة في انتاج سياراتها وطائراتها وسفنها، الخ. وكذلك هناك ما يميّز الصناعة اليابانية من حيث التقنية المستخدمة، وهكذا. لكن يبقى هناك شيء مشترك لا يمكن أن يغيب في الحالتين، ألا وهو استخدام عنصر الطاقة .(power) فالتفوق في كفاءة السيارة الحديثة - مثلا- يعتمد على نوع الطاقة المستخدمة في تشغيلها. ولعلنا لا نبالغ إن قلنا بأنه كلما تطور شكل الطاقة المستخدمة (كالطاقة الناتجة من الخشب أو الفحم أو البترول أو اليورانيوم، الخ)، كلّما تطورت كفاءة المنتج في تحقيق الغاية من انتاجه، وفي تعدد استخدامته .

ولو دققنا في السياق القرآني عن صناعة عاد - مثلا – كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء: 123-129]

لوجدنا بأن الغاية من مصانع عاد هو الخلود (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ). لذا، لابد أن يجنح بنا الخيال لنتصور تلك المصانع التي شيّدتها حضارة عاد (التي لم يخلق مثلها في البلاد) لغايات الخلود. وأول ما يمكن أن نفكر به هو الطاقة التي كانت تملكها عاد لتشييد تلك المصانع العظيمة. فيكون أول مستلزمات هذا الخيال هو الذهاب بعيدا عن الفكر الشعبي التقليدي الذي قد يتصور ذلك بخيال بدائي، ويصفها بمفردات شعبية. لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين افتراءها (ربما مخطئين) هي على النحو التالي: كانت عاد على درجة من الرقي التقني (cutting edge technology) الذي مكّنها من تشييد مصانع الخلد .

ولا شك أيضا بأن رقيّ الصناعة (أي صناعة) يعتمد على العلم المتوافر للصانع نفسه. ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: 88]

لوجدنا بأن الجبال - التي نحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب – هي كينونة عظيمة، متقنة في صناعتها، وذلك لأنها من صنع الله الذي أتقن كل شيء. الأمر الذي يدعونا أن نخرج من هنا بالافتراء الخطير التالي: مادام أن الجبال بهذه الوظيفة التي انيطت بها هي من صنع الله، فلابد أن التقنية المستخدمة في ذاتها يصعب مجاراتها .

ولو جلبنا السياقات القرآنية التالية التي تبيّن لنا كيفية صناعة سفينة نوح:

- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 27]
- ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 37-38]

لوجدنا بأنها قد صنعت بمراقبة من الله وبوحي منه، فكانت صناعتها تحت مراقبة غير منقطعة من جنوده (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا) .

السؤال النهائي حول مفهوم الصناعة: ما الذي يجمع هذه الأمور (موسى، الجبال، سفينة نوح) على وجه التحديد ليأتي وصفها في النص القرآني على أنها صناعة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن العامل المشترك في كل الصناعات هو وجود الطاقة المشغلة لها .

الدليل

لو بدأنا بصناعة سفينة نوح، لوجدنا أن وصفها في النص القرآني قد جاء على نوح أنها فلك:

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 64]
- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 73]
- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 38-37]
- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ۙ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [المؤمنون: 27-28]

لكن المدقّق في النص أكثر، سيجد أن ذلك الفلك قد وُصِف في سياق قرآني آخر بأنه فلك مشحون:

- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ [الشعراء: 119]

ليكون السؤال الآن هو: كيف يكون الفلك مشحونًا؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الفلك كان "مشحونا" لوجود طاقة في داخله تجعله قابلًا للعمل بكفاءة عالية جدا، وبكلمات أكثر وضوحا نقول بأن الشحن هو ما نستخدمه اليوم تحت مسمى .(charge) فنحن نظن أن الفلك يجري في البحر (أي ما يشبه الغواصة بمفرداتنا الحالية) بقوة الطاقة التي تشغله. فمحرك ذلك الفلك يحتاج إلى طاقة تجعله قادرًا على العمل حتى يجعل الفلك كله يتحرك بكفاءة عالية في داخل الماء .

ولو دققنا في السياق القرآني السابق الذي يتحدث عن الفلك المشحون، لوجدنا بأن هناك في كتاب الله مقابلة عجيبة بينه من جهة وما خلق الله لنا من الأنعام التي نركبها من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: 41-42]

الأمر الذي يجعلنا نتجرأ على الظن بأن الطاقة التي يشتغّل بها الفلك المشحون في داخل الماء يشبه ما يشغّل الانعام التي نركبها. فالأنعام لا تندفع بطاقة خارجية لتتحرك حتى تحمل أثقالنا وتنقلنا من مكان إلى آخر، ولكنها تتحرك بما لديها من طاقة كامنة في داخلها أكتسبتها من مصدر خارجي (منفصل عنها). وبمثل هذا الخيال، علينا أن نتصور تلك الفلك المشحون: أي توافر طاقة في داخلها يجعلها قادرة على الحركة، وتحمل أثقالنا إلى بلد لم نكن لنبلغه إلا بشق الأنفس:

- ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾ [النحل: 5-7]

فالأنعام – نحن نفتري الظن - تستطيع أن تنتقل من مكان إلى آخر بفعل تلك الطاقة الكامة فيها، والتي أكتسبتها من مصدر منفصل عنها بعد أن تمت معالجته في داخلها، وهي ما نسميها بالمفردات العلمية الدقيقة: الطاقة (POWER) أو الوقود (FUEL) المنتج للطاقة. فما تأكل الأنعام هو الوقود، وما ينتج عن معالجة ذلك الوقود داخل بدن الأنعام هو الطاقة المشغلة لها .

نتيجة مفتراة: قد لا نختلف كثيرا إن قلنا بأن الأنعام تتحصل على الطاقة التي تمكّنها من القيام بمهتها مما تأكل من الأرض. فتقوم معدتها بهظم ما تأكل (الوقود)، وبالتالي معالجته حتى يصبح طاقة، وتقوم أعضاء بدنها كلها بالاستفادة من تلك الطاقة المنتجة داخل أبدانها، وتتخلص من فضلات الطعام (الوقود) بالاخراج. ولو حصل أن مَنعت الطعام عن تلك الكائنات فترة طويلة من الزمن، فسيؤدي ذلك إلى ضعف أبدانها، وقد تصبح غير قادرة على القيام بمهامها بكفاءة عالية، ربما تصل في نهاية المطاف إلى موتها إن طالت فترة منعها عن الطعام أكثر مما يجب .

فالسيناريو البسيط الذي نحاول أن نرسمه عن الأنعام هو على النحو التالي:

⇐ حصول الأنعام على الطعام (أو لنقل الوقود) من البيئة المحيطة،
⇐ دخول الطعام في جوف الأنعام
⇐ تحويل ذلك الطعام من حالة إلى حالة داخل بدن الأنعام
⇐ الاستفادة من الطاقة المتحصلة من ذلك الوقود في تشغيل البدن كله

تصبح العملية كلها بمثابة شحن متكرر (Recharging) لتلك الكائنات حتى تبقى تدب الحياة فيها، وبالتالي الاستمرار بالعمل بكفاءة

والآن لننقل السيناريو إلى ما شُبهت به تلك الأنعام وهو الفلك المشحون:

⇐ الحصول على الوقود من مصدر آخر
⇐ ادخال ذلك الوقود إلى جوف الفلك
⇐ تحويل ذلك الوقود داخل جوف الفلك إلى طاقة

⇐ الاستفادة من تلك الطاقة في تشغيل أجزاء الفلك كله

يكون ذلك كله بمثابة الشحن الدائم لتلك الآلة حتى تستطيع العمل بكفاءة، السؤال: ما هو وقود تلك الفلك حتى أصبحت فلكًا مشحونة؟

رأينا المفترى (لا تصدقوه): إنّه التابوت .

الدليل

نحن نظن أنه من أجل جلب الدليل على مثل هذا الافتراء الغريب العجيب، يلزمنا أن نتتبع سيرة ذلك التابوت من أولها، الأمر الذي يجعلنا نتجرأ على طرح عشرات (وربما مئات) الأسئلة الأولية حوله. وأول تلك التساؤلات هي:

- لماذا استقر التابوت في آل داوود؟
- لِم لَم يستقر في آل موسى أو في آل هارون؟
- لماذا ظهرت مفردة التابووت صراحة في قصة أم موسى؟
- لماذا ظهر التابوت عيانًا في قصة طالوت وجالوت؟
- لماذا كان داوود متواجدًا في قصة طالوت وجالوت حيث يظهر التابوت دون سابق إنذار؟
- الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن بأن محاولة الإجابة على مثل هذا التساؤلات الكثيرة والكبير جدا تتطلب منّا تدبر السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الصافات: 75-81]
- ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾ [الصافات: 104-111]
- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات: 114-122]

- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾
اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: 123-132]

فالمدقق في هذه السياقات التي وردت جميعها في سورة الصافات، يجد التقاطعات بين هؤلاء المخلصين من عباد الله المؤمنين، وهم:

⇐ نوح
⇐ إبراهيم
⇐ موسى وهارون
⇐ إلياس

السؤال: ما الذي يجمع هؤلاء المخلصين من عباد الله كما تبينها هه السياقات القرآنية على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: لو دققنا أكثر فيما هو مشترك بين هؤلاء على وجه التحديد، سنجد شيئا واحدا لا يشاركهم به غيرهم من المخلصين من عباد الله، ألا هو التالي: هؤلاء هم من ترك الله عليهم في الآخرين (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ).

نتيجة مفتراة: كان نوح، إبراهيم، موسى وهارون، وإلياس، هم من ترك الله عليهم في الآخرين .

السؤال: ما معنى أن هؤلاء على وجه التحديد هم من ترك الله عليهم في الآخرين؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن مفهوم التركة تتحقق بوجود "إرث ما" عند شخص ما (أو عند مجموعة من الأشخاص)، فيتم تناقله في ذريتهم من بعدهم. وربما الأهم من ذلك أن الإرث الذي تمت تركته كان في الآخرين (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ). ونحن نفهم ذلك (ربما مخطئين) على نحو أن ذلك الإرث تمت مناقلته لأجيال عديدة حتى وصل إلى الآخرين (أي وصوله إلى آخر تلك الذرية). لذا، نحن نتجرأ على تقديم الافتراءات الخطيرة التالية التي ستكون بمثابة حجر الأساس في النقاش التالي، وهي:

⇐ هناك إرث تُرك في ذرية نوح وتم تناقله حتى نهاية ذرية نوح (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)
⇐ هناك إرث إبراهيم في ذريته حتى نهايتها (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)
⇐ هناك إرث في ذرية موسى وهارون حتى نهايتهما (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ)
⇐ هناك إرث في ذرية إلياس حتى نهايتها (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ)

ولو دققنا في السياق الذي جاء خاصا بإبراهيم، لوجدنا فيه شيء من الغرابة (إن نحن قرأناه في سياقه الأوسع)، قال تعالى:

- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ۝١٠٧ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ۝١١٣﴾ [الصافات: 104-113]

فالمدقق في هذا السياق سيجد بأن سياق التركة عند إبراهيم قد جاء فيه مباركة على إبراهيم نفسه وعلى إسحاق على وجه التحديد :

- **جاءت إحداهما له خاصة:** ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الصافات: 108]
- **وجاءت مرة أخرى له وإسحاق معه:** ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ۝١١٣﴾ [الصافات: 113]

ليكون السؤال المفاجئ هو: لماذا؟ أي لماذا كانت البركة عليه وعلى إسحاق على وجه التحديد؟ فأين الولد الآخر لإبراهيم (وهو إسماعيل) في هذا السياق؟

رأينا المفترى: لما كان من البديهي أن يتم تناقل التركة من الأب لابنه، ما دعت الحاجة أن يذكر الابن في ذلك السياق، وذلك لأنه الوريث الشرعي والوحيد لتلك التركة. لكن الغريب أنه في حالة إبراهيم جاء ذكر لابنه اسحاق على وجه التحديد، بالرغم من أننا نعلم يقينا بأنه كان لإبراهيم اثنين من الأبناء، وهما إسماعيل وإسحاق. لذا، كان من المفترض أن تكون "التركة" (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ) مناصفة بين الاثنين، أليس كذلك؟ لكن المثير للانتباه أن النص هنا يبرز اسحاق، ولا يذكر اسماعيل في سياق الحديث عما ترك على إبراهيم في الآخرين. لسكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن تركة إبراهيم كانت خاصة في إسحاق، وذريته من بعدة.

الدليل

نحن نظن أن فهم هذا الأمر يتطلب منا - ابتداء- محاولة التمييز بين التركة من جهة والوراثة من جهة أخرى. فالتركة شيء والوراثة شيء آخر، ولا يجب الخلط بينهما. قال تعالى:

- ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: 16]
- ﴿۞وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الشعراء: 52-59]

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [الدخان: 23-28]

فالمدقق في هذه الآيات الكريمة يجد بأن الوراثة يمكن أن تنتقل من شخص لآخر أو من أمة لأخرى قد تربطه (وقد لا تربطه) به صلة دم. لكن التركة - بالمقابل - تكون في ذرية الشخص نفسه. والأهم من ذلك أن صاحب التركة قد يختص أحد أبناءه بشيء من تركته لا تكون لغيره من الأبناء. فتخيل عزيزي القارئ – إن شئت- أن لديك شيئا واحدا ذا قيمة عظيمة، ولديك في نفس الوقت أكثر من ولد واحد، ألا تأخذك الحيرة عند من من أبنائك تود أن تودع ذلك الشيء الثمين؟ ألن تجتهد بأن يكون قرارك سليمًا، حتى لا تضيع تلك التركة في يوم من الأيام؟ ألن يكن لديك مبررا قويا في سبب أنك جعلته في هذا الإبن (دون الآخرين)؟

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن التركة تتعلق بالمقتنيات الخاصة للشخص، وأن قرار وضعها عند أحد من الأبناء (دون غيره) هو قرار شخصي، يتحمل الوالد تباعاته. فيجتهد في أن يضعه في مكانه الذي يظن أنه الأنسب. ولعل أهم العوامل التي يأخذها الأب في الحسبان في هذا الصدد هو أنه يحاول أن يتعين من بين أبنائه من يستطيع أن يستفيد منها بالشكل الأمثل.
نتيجة مفتراة: إذا كانت التركة تتعلق بالمقتنيات الخاصة التي يحق لصاحبها التصرف فيها حسب رؤيته الشخصية، فماذا عن الوراثة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الوراثة تتعلق بالمتلكات العامة والخاصة التي تتوزع بين جميع الوارثين (ومن لهم حق فيها) بعدالة (بنسب مقدرة):

- ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: 11]

وقد ترث شيئًا لم يكن لك أصلا:

- ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 26-27]

ولا تتوقف الوراثة على الأشياء المادية البحتة، فقد تصل إلى وراثة الكتاب:

- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169]
- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]

وكذلك يمكن وراثة الجنة ذاتها:

- ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: 63]

نتيجة مفتراة: إن ما يهمنا قوله هنا هو أن الوراثة تقع على أشياء عامة يمكن للكثيرين الاستفادة منها، لكن التركة تقع على الممتلكات الخاصة التي يتخير صاحبها عند من يريد أن يتركها من ذريته .

السؤال: لماذا كانت التركة في ذرية إبراهيم خاصة (نحن نظن) في إسحاق وذريته من بعده؟

رأينا المفترى: مادام أن التركة هي ممتلكات خاصة كانت عند إبراهيم. فنحن نتخيل بأن تلك الممتلكات التي تركت عليه في الآخرين قد انتهت عند إسحاق فقط، فما كان لإسماعيل نصيب منها. لكن ما كان لإسماعيل هو جزء مما ورث عن إبراهيم (كالكتاب)، وليس جزء من التركة الخاصة.

السؤال: ما هي تلك المقتنيات الخاصة التي تركت في ذرية إبراهيم التي جعلها في إسحاق وذرية إسحاق من بعده؟

رأينا المفترى: إن المدقق فيما حصل في خط بيت النبوة في إسحاق فيعقوب فيوسف، سيجد أن "القميص" كان "الكنز" الأكثر حظورًا في رسم أحداث قصة ذلك البيت الكريم .

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن ما ترك على إبراهيم في الآخرين هو "القميص"، الذي كان – حسب افتراتنا القديمة - الأداة التي وقت (أي كوقاية) إبراهيم من نار قومه التي ألقوه فيها في يوم من الأيام. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- كيف يأتي ذكر إسحاق ويعقوب على وجه التحديد (وليس اسماعيل) عند تبيان ما حصل لإبراهيم في نار قومه:

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ٧٠ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 68-72]

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان قصة لوط).

نتيجة مفتراة: كانت تركة إبراهيم في ذريته (إسحاق وذريته) هي القميص.

ولو دققنا بالطريقة المفتراة من عندنا ذاتها في قصة موسى وهارون، سنجد أنه قد ترك عليهما في الآخرين:

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝١١٥ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝١١٦ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ۝١١٧ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١١٨ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝١١٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢١ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٢٢﴾ [الصافات: 114-122]

ليكون السؤال: ما هي التركة التي كانت في آل موسى وآل هارون؟

رأينا المفترى: لو دققنا في قصة موسى وهارون من أولها إلى آخرها، لن نجد صعوبة في أن نروج لفكرة أن "العصا" كانت سيدة المشهد كله. وانظر كيف يصر موسى على أن العصا ملكية خاصة له:

- ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨﴾ [طه: 17-18]

نتيجة مفتراة: كانت تركة موسى وهارون في ذريتهما هي العصا.

ولو رجعنا إلى قصة نوح، سنطرح السؤال ذاته: ما الذي ترك على نوح في الآخرين؟

- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٨٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨١﴾ [الصافات: 75-81]

رأينا المفترى: ربما لن نتجادل كثيرا بأن السفينة التي كانت تصنع بوحي إلهي هي حاضرة المشهد في قصة نوح، وهي التي جُعلت آية للعالمين:

- ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥﴾ [القمر: 13-15]
- ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: 15]

نتيجة مفتراة: كانت تركة نوح في ذريته حتى الآخرين هي السفينة .

لكن يبرز هنا في السياق الخاص بنوح سؤال محير جدا، ألا وهو: ما دام أن السفينة قد جعلت آية للعالمين، فمن كان مالكها الحقيقي من ذرية نوح؟

جواب مفترى: مادام أن السفينة قد كانت تركة، فلا بد (حسب منطقنا المفترى هذا) أن يكون مالكها الحقيقي شخص من ذرية نوح. ليس بالضرورة أن يكون ابنه المباشر، لكن يكفي أن يكون من ذريته حتى الآخرين، ليستطع ادعاء ملكيتها. ليكون السؤال الآن هو: من هو مالك تلك السفينة الحقيقي الذي هو – نحن نفتري الظن - من ذرية نوح؟

رأينا المفترى (لا تصدقوه): إنه يونس – ذا النون – صاحب الحوت

الدليل

لو تدبرنا قصة يونس، لوجدنا بأنها تبدأ بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

وقد تعرضنا في سلسلة مقالات سابقة لنا تحت عنوان "قصة يونس" لهذا الآيات الكريمة، فطرحنا حولها عشرات (بل مئات) الإسئلة في أكثر من أربعين جزءا. لكن ما يهمنا هنا من تلك التساؤلات التالية هي:

- لماذا ذهب ذو النون مغاضبا؟
- لماذا ظن أننا لن نقدر عليه؟
- أين ذهب عندما كان مغاضبا؟
- الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أن جواب السؤال الأخير (أين توجه ذو النون عندما ذهب مغاضا؟) هو مفتاح الإجابة على كل التساؤلات السابقة (كما نفهمها طبعا). فعلينا إذاً أن نبحث عن المكان الذي ذهب إليه ذو النون عندما كان مغاصبًا، فاجابتنا المفتراة على هذا السؤال ستحل – برأينا- اشكالية السبب الذي دفعه للذهاب إلى ذلك المكان على وجه التحديد مغاضبا.

السؤال المبدئي: أين ذهب ذو النون عندما كان مغاضبا؟

جواب مفترى: إلى البحر، وليس أدل على ذلك من أن نهاية رحلته كانت إلى بطن الحوت حيث اطلق صرخته الشهيرة:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

السؤال: لماذا ذهب إلى البحر؟

رأينا المفترى: ليطلب تركة أبيه القديم (نوح).

السؤال: ما هي تركة أبيه القديم نوح؟

جواب مفترى: إنها الفلك

الدليل

دعنا ندقق بما فعله ذو النون في البحر، لنجد بأنه قد أبق إلى الفلك المشحون عندما كان مغاضبا:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: 139-147]

تخيلات مفتراة: لما كان الله قد ترك على نوح في الآخرين، كان هناك مقتنايات خاصة لنوح، فكان لزاما – حسب منطقنا الغريب هنا- أن يكون وريثها الشرعي واحدا من أبنائه (من ذريته) حتى ولو بعد حين. لكن حصل أن وقعت تلك الفلك في يد شخص آخر، فكان ذلك سببا في غضب يونس الذي كان يظن بأنه هو الأحق بها. فذهب مغاضبا (نحن نرى) لاسترداد تلك المقتنيات من يد من كانت عنده حينئذ. وهناك حصلت المواجهة الشرسة بين يونس ومن معه من جهة ضد من كانت بيده تلك الفلك ومن معه حينئذ من جهة أخرى، وكانت نتيجة تلك المواجهة أن كان يونس من المدحضين (أي خسر المواجهة). فقد تمكن من كانت الفلك في حوزته حينئذ من دحض (دحر) يونس ومن ومن معه، حتى كانت نهاية يونس نفيه في تلك المواجهة أن التقمه الحوت، وهناك في بطن الحوت كانت صرخة الالتجاء إلى الله من يونس مدوية :

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87-88]

الدليل

لو دققنا في نداء يونس ربه جيدا، لوجدنا أن الرجل يعترف بملء فيه بأنه كان من الظالمين، أليس كذلك؟

السؤال: كيف نفهم قول ذي النون في بطن الحوت أنه كان من الظالمين (لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الظالم هو المعتدي، مصداقا لقول تعالى:

- ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٧﴾ [المائدة: 107]

فالمعتدي هو إذًا ظالم، وهذا ما حصل - مثلا- مع آدم وزوجه عندما اقتربا من الشجرة، التي كان من المفترض أن لا يقتربا منها:

- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

ولا شك - عندنا- بأن الذي لا يلتزم بالحق هو من الظالمين، خاصة بعد أن جاءه العلم بذلك:

- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]

وبناء على هذه المقدمات، نحن نفهم قول ذي النون أنه كان من الظالمين (لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)، لأنه حاول أن يعتدي فيأخذ شيئاً هو في الأساس ليس له، وأنه قد جاءه العلم بذلك من ذي قبل .

السؤال: ما الذي جعل ذا النون من الظالمين قبل أن يلتقمه الحوت؟ وما الذي أقر به ذو النون بعد أن التقمه الحوت؟

رأينا المفترى: لمّا وصل ذو النون إلى بطن الحوت، علم يقينا بأنه كان من الظالمين، وأدرك (نحن نتخيل) بأنه حاول أن ينتزع شيئا هو ليس من حقه ابتداء، وإنما كان من حق غيره، فما كان منه إلا أن يقر بأحقية غيره بامتلاك ذلك الشيء. فما كان منه ليدعي ملكية شيء هو من حق غيره .

السؤال: ما هو ذلك الشيء الذي لم يكن من حق يونس؟

جواب مفترى (لا تصدقوه): إنه أداة شحن تلك الفلك. إنه التابوت.

السؤال: من هو مالك ذلك التابوت الذي كان يشحن تلك الفلك؟

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠﴾ [الصافات: 139-140]

نتيجة مفتراة 1: كانت تركت نوح التي هي من حق ذريته (يونس) هي الفلك
نتيجة مفتراة 2: لم يكن من حق يونس الفلك المشحون .

السؤال: من كان صاحب الحق في الفلك المشحون؟

رأينا المفترى الخطير جدا (لا تصدقوه): إنه من تُرِك عليه في الآخرين من بين المجموعات السابقة التي جاءت لتبين لنا من هم فقط من ترك الله عليهم في الآخرين. إنه إلياس:

- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: 123-132]

السؤال: من هو إلياس؟

جواب مفترى: إنه صاحب الفلك المشحون الذي أبق إليه يونس

- ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات: 140]

الدليل

لو دققنا في قصة أم موسى، لربما وجب علينا أن نحضر السياق القرآني التالي لنتدبره من هذا الجانب:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: 7]

ليكون السؤال هو: كيف تم الوحي لأم موسى بأن تقذف وليدها في التابوت؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني الذي يبين لنا ما حصل مع أم موسى في هذا الجانب، لوجدنا فيه شيء من الغرابة وجب الوقوف عنده مطولا:

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 38-39]

ليكون السؤال: كيف نفهم قوله تعالى (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ(20:38))؟ فما هو "الذي يوحى فكان من الوحي الذي جاء أم موسى لتقذف وليدها في التابوت؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياق القرآني التالي:

- ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝٤٨ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ۝٥٠﴾ [سبأ: 48-50]

سنجد بأن حصول الوحي "بما يوحى" يؤدي إلى الهداية. فالهداية الحقيقية هي ما جاء وحيا كما حصل مع أم موسى، وأن ذلك الوحي هو من الحق الذي يقذف به ربنا، وما دام أنه حق قذفه ربنا، فإن نتيجته ستكون على الفور إزهاق الباطل:

- ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [الأنبياء: 18]

ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نتصور ما حصل مع أم موسى حتى جاءها الوحي بـ "ما يوحى"؟

رأينا المفترى: لما كانت أم موسى حائرة ما تفعل برضيعها خوفا من فرعون وملئه، جاءها الوحي بطريقة عجيبة (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ)، فكان على نحو أن تقذف وليدها في التابوت، ثم تقذف بذلك التابوت في اليم (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ)، وهي على يقين بأن الأمر سينتهي برضيعها في يد عدو الله وعدوه بعد أن يلقه اليم بالساحل (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ). لكنها كانت على يقين بأن الله – لا محالة – راده إليها، وسيكون من المرسلين:

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: 7]

السؤال: كيف علمت أم موسى كل ذلك؟

⇐ أن تقذف وليدها في التابوت
⇐ أن تقذف التابوت في اليم
⇐ أن اليم سيلقي بالتابوت الذي يحمل رضيعها بالساحل
⇐ أن آل فرعون سيلتقطونه
⇐ أن لا تخاف ولا تحزن
⇐ أن الله راده إليها
⇐ أن الله جاعل وليدها من المرسلين
⇐ الخ

رأينا المفترى: لو تدبرنا جميع السياقات القرآنية الخاصة بأم موسى، سنجد أن مفردة الوحي قد جاءت بصيغة الجمع (أَوْحَيْنَا)، ليكون السؤال هو: لماذا؟

رأينا المفترى: مادام أن فعل "الوحي" قد جاء بصيغة الجمع، فالوحي لم يكن (نحن نظن) مباشرة من الله نفسه إلى أم موسى، كما جاء – مثلا في سياق الحديث عن الحواريين:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: 111]

ولكن كان هناك في حالة أم موسى وسيط في هذا الوحي. فلابد (نحن نتخيل) من وجود طرف خفي تدخل في تحقيق الوحي عند أم موسى لتفعل كل ما فعلت، ولتعلم كل ما علمت.

السؤال: ما هو ذلك الطرف الخفي الذي كان متواجدا في الوحي لأم موسى بـ "ما يوحى"؟

رأينا المفترى: سنحاول تسطير افتراء خيالي (لا نملك الدليل عليه حتى الساعة)، نضعه على طاولة النقاش كواحد من السيناريوهات المحتملة التي يمكن أن نفهم من خلالها (حسب تصورنا المفترى) ما حصل فعلا على أرض الواقع. لذا، فإنني سأكرر دعوتي لمن لا يثق بافتراءاتنا أن لا تتجاوز عينه هذه السطور، لأن كل ما سنقوله ليس أكثر من ضرب من الخيال المجنون غير المنضبط بعقلانية الناس الطبيعين.

أما بعد،

تخيلات مفتراة: عندما كانت أم موسى حائرة، لا تعرف ما يمكن أن تفعله لتنقذ رضيعها من يد عدو الله، جاءها الوحي بقدوم التابوت الذي كانت تحمله الملائكة، فكان الوحي (الإشارة الأولى لها) بأن هذا التابوت هو سفينة نجاة الطفل(Ark) ، ولم يكن ليخذلها الحدس (والفهم) بأن تتنبه بأن هذا التابوت هو كانت تعرف الكثير عنه من خلال زوجها الذي توفاه الله من فترة وجيزة (فوالد موسى غائب الآن عن المشهد بالوفاة). وهي تعلم (مما جاءها من العلم من ذي قبل) أن من يوضع في هذا التابوت لن يمسه سوء من قبل الآخرين (حتى مع أعتى الطواغيت كعدو الله فرعون) مهما حاولوا، فلا داع أن تخاف أو أن تحزن، وأنه سيكون له شأن عظيم في قادم الايام (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) .

السؤال: من الذي جلب التابوت إلى أم موسى؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن هناك – على الأقل- احتمالين اثنين في هذا الصدد:

- ⇐ أن يكون التابوت أصلا موجود من ذي قبل في بيت أم موسى
- ⇐ أن يكون التابوت قد جاءها فقط في تلك اللحظة

رأينا المفترى: نحن سنتبنى الخيار الأخير، وذلك للأسباب كثيرة، نذكر منها:

- ⇐ لو كان التابوت موجودا من ذي قبل في بيتها، لما كان ما فعلت يقع في باب الوحي (قارن هذا الظن مع ما افتريناه من قبل حول ما فعلت امرأة لقمان لاحقا). فما فعلته امرأة لقمان لاحقا لم يكن يقع في باب الوحي لأن التابوت كان أصلا متوافرا في بيتها من ذي قبل.
- ⇐ لو كان التابوت موجودا من ذي قبل في بيتها، لما ساورها الخوف والقلق حيال ما يجب عليها أن تفعل

⇐ لو كان التابوت موجودا في بيتها من ذي قبل، لربما فعلت ذلك منذ اليوم الأول لولادة موسى.
⇐ لو كان التابوت موجودا من ذي قبل، لكان تواجد موسى فيه دائما حتى قبل أن تقذفه فيه الآن، ناشدة نجاته من يد عدو الله
⇐ الخ

لذا، نحن نتبني (ربما مخطئين) السيناريو بأن أم موسى كانت حائرة لا تدري ما تفعل، وما هي إلا لحظة غير متوقعه حتى رأت التابوت معلقا في الفضاء أما ناظريها دون سابق إنذار، وما أن رأت ذلك التابوت (نحن ما زلنا نتخيل) حتى تأكد لها ما كانت تعلمه من خلال زوجها في سابق الأيام عن قصة التابوت، وعن الطفل الذي سيوضع فيه، ويكون من المرسلين ليقارع عدو الله فرعون لاحقا.

(هناك كثير من التفاصيل التى سنتعرض لها لاحقا بإذن الله، فالله أدعو أن يعلمنى ما لم أكن أعلم، وأن يزدنى علما، وأن يهدينى لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم) .

السؤال: من الذي أحضر لأم موسى التابوت في تلك اللحظة؟

جواب مفترى: إنه من كان مشاركا في الوحي الذي جاء أم موسى، مادام أن فعل الوحي - كما أسلفنا - قد جاء بصيغة الجمع (أَوْحَيْنَا) .

السؤال: من هو الذي شارك في ذلك الوحي؟

خيالنا المفترى: انه العبد الصالح الذي سيكون صاحب موسى في قادم الأيام. انتهى.

الدليل

نحن نملك على الأقل دليلين منطقيين نفتريهما من عند أنفسنا (لا يسندهما الدليل القاطع) للترويج لافترائنا بأن العبد الصالح هو من جاء بالتابوت إلى أم موسى يوم أن خافت عليه من بطش فرعون:

- ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: 7]

الدليل الأول: الوحي الذي جاء يوسف عندما أراد اخوته أن يجعلوه في غيابت الجب

الدليل الثاني: ذهاب موسى إلى مجمع البحرين في نهاية رحلته مع بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة بعد أن رفضوا دخولها

دعنا نحاول أن نفصل ذلك لاثبات افتراءنا بأنه كان هناك طرف خفي شارك في تحقيق الوحي لأم موسى، حتى نفذت الأمر كما يجب على أرض الواقع، أي حتى جاء الحق الذي قذف به الباطل ليزهقه .

تفصيل الدليل الأول: لقد افترينا القول سابقا بأن إخوة يوسف قد كادوا به كيدا، فأجمعوا أمرهم أن يجعلوه في غيابت الجب. وهناك بالضبط جاء الوحي الأول ليوسف، وحصل كل ذلك دون أن يشعر به إخوته المتآمرون عليه:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]

وكانت واحدة من الافتراءات التي قدمناها سابقا في هذا السياق هو أن واحدا من إخوته العشرة لم يكن راضيًا عما يفعله الإخوة الآخرون بأخيهم يوسف، ألا وهو كبيرهم الذي نأى بنفسه عن المشاركة بخطتهم للتخلص من يوسف، واقترح بأن يجعلوه في غيابت الجب (بدل أن يقتلوه) ليلتقطه بعض السيارة، فقال:

- ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: 10]

وهذا الشخص هو نفسه الذي رفض العودة من مصر عندما أخذ عزيز مصر أخاهم الآخر بتهمة سرقة صواع الملك، وذلك لأنه قد كان ملتزما بالموثق الذي أخذه منهم أبوهم قبل أن يرسله معهم:

- ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف: 80]

وقد افترينا الظن في تلك القصة (الجزء 27 من قصة يوسف) بأن ذلك الأخ قد شارك خفية في الخطة التي رسمها والده يعقوب لانقاذ يوسف من بين يدي إخوته، مقابل أن تكون له وراثة الأرض المقدسة. فكان هو إسرائيل. وظننا بأن مشاركته كانت تتمثل بأن يمرر قميص النبوة إلى أخيه يوسف عندما يجعل الإخوة أخاهم في غيابت الجب. فهو الذي – بظننا- نقل قميص النبوة سرا (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) من عند الأب يعقوب إلى أخيه يوسف المطروح أرضا. فكانت خطة وصول القميص إلى يوسف عن طريق أخيه هو جزء من الوحي الذي جاء يوسف في تلك اللحظة.

نتيجة مفتراة: مادام أن الوحي الذي جاء ليوسف قد وصف في كتاب الله بصيغة الجمع، فهناك – حسب منطقنا المفترى- طرف خفي على الناظرين شارك في تحقيق ذلك الوحي على أرض الواقع:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]

تفصيل الدليل الثاني: لو عدنا إلى قصة موسى في نهاية رحلته مع بني إسرائيل عند باب الأرض المقدسة، سنجد بأن موسى قد ترك القوم الفاسقين يتيهون في الأرض أربعين سنة مادام أن الله قد حرم عليهم دخولها طوال تلك الفترة، فكان أو ما فعل هو أن يذهب وفتاه إلى مجمع البحرين:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: 60]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا انطلق موسى قاصدا مجمع البحرين؟

رأينا المفترى: لما رفض بنو إسرائيل دخول الأرض المقدسة على القوم الجبارين من بابها، ولما كان موسى يعلم يقينا بأن دخول باب الأرض المقدسة ممكن فقط بواسطة مفتاحها (التابوت)، كان يعلم أيضا بأن هذا التابوت ليس من حق بني إسرائيل ليتركه في أيديهم، وإنما هو أداة يمكن لبني إسرائيل الاستفادة منها لدخول الأرض المقدسة فقط. لذا، كان لزاما عليه أن يعيد هذا التابوت إلى أصحابه الحقيقين، ويطلب منهم معاونة بني إسرائيل بعد انقضاء فترة التيه في دخول الأرض المقدسة. لذا انطلق موسى – نحن نتخيل – باحثا عن ذلك الرجل الذي سيرشده إلى أصحاب التابوت الحقيقين. فكانت رحلته الثانية مع العبد الصالح إلى سبأ، حيث قتل صاحب موسى ذلك الغلام الذي قال لوالديه أف لكما، وكاد أن يرهقهما طغايانا وكفرا. فعلم موسى بأن الإرادة الإلهي لا محالة نافذة بأن يبدل الأبوين المومنين خيرًا من ولدهما المقتول زكاة وأقرب رحما:

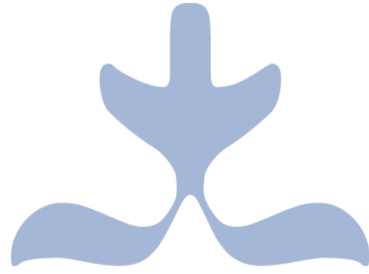
- ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف: 80-81]

فحصل العلم يقينا عند موسى بأن التابوت يجب أن يكون في هذا البيت الذي ينتظر مولودًا جديدًا، سيكون رسولًا في قومه، ونبيا لبني إسرائيل يعينهم في العودة الشرعية إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم. فكان لقمان (رسول سبأ)، ووالد نبي الله داوود الذي قتل جالوت في تلك المواجهة العظيمة بين الطرفين، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً

لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن
شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ
جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم
بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ [البقرة: 246-252]

السؤال: من هو داوود؟ من يدري!!



قصة داوود

الجزء العاشر



قصة داوود - الجزء العاشر

تحدثنا في الجزء التاسع السابق عن "ما ترك الله" على بعض عباده المحسنين، وقد افترينا الظن بأنه على الرغم من وجود الكثير من عباد الله المحسنين المؤمنين، إلا أن "ما تركه الله" كان على خمسة منهم، جاء ذكرهم في سياقات قرآنية أربعة، وهم:

⇐ نوح ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝٧٨﴾ [الصافات: 78]
⇐ إبراهيم ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الصافات: 108]
⇐ موسى وهارون ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ۝١١٩﴾ [الصافات: 119]
⇐ إلياس ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩﴾ [الصافات: 129]

فزعما القول (ربما مخطئين) بأن التركة تقع على الممتلكات الخاصة التي تكون في ذرية الشخص حتى آخرها، ويستطيع ذلك الشخص أن يختصّ بها واحدًا من ذريته دون الباقين. كما افترينا الظن بأنّ هذه المقتنيات تتناقل بين عباد الله المحسنين، فيستفيدون منها، فكما استفاد بنو إسرائيل من تالبوت آل عمران الذي كان بحيازة داوود حتى عادوا إلى الأرض المقدسة على يد طالوت، استفاد آل داوود من بقية ما ترك آل موسى وآل هارون في ذلك التابوت (المنسأة). لكنها تبقى ملكيّة خاصة في ذريتهم جيلًا بعد جيل حتى تصل إلى نهاية ذرية ذلك الشخص، صاحب تلك التركة.

وبناءً عليه، كانت الافتراءات الرئيسية في هذا الصدد هي على النحو التالي:

⇐ كانت تركة نوح هي الفلك، فكانت من نصيب واحد من أبنائه بعد أجيال من الزمن، ألا وهو يونس
⇐ كانت تركة إبراهيم هي القميص، وكانت في واحد من أبنائه وذريته من بعده، وهو إسحاق (فيعقوب فيوسف)
⇐ كانت تركة موسى وهارون هي العصا
⇐ كانت تركة إلياس تتمثل في التابوت

السؤال: أين انتهت تلك التركة؟ من كان آخر من وصلته تلك التركة من ذرية هؤلاء المحسنين من عباد الله المؤمنين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا - ابتداء- أن تلك المقتنيات قد تمّت مناقلتها جيلًا بعد جيل، على النحو التالي:

⇐ أما سفينة نوح فكانت عند من كان من ذرية نوح، لكن الله جعلها آية للعالمين ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: 15] – وسنكمل الحديث عنها في قصة نوح إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها لاحقا إن شاء الله.

⇐ وأما قميص إبراهيم فكان عند يوسف (وسنكمل الحديث فيه عندما متابعتنا لتفاصيل قصة يوسف إن شاء الله)

⇐ أما عصا موسى فكانت منسأة بيد سليمان، فأكلتها دابة الأرض – فانتهت هناك

⇐ وأما التابوت، فكان في ذرية إلياس، فكان في آل عمران حتى مريم (وهذا ما سنتابع بحثه هنا في قصة داوود – فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأن يزدني علما، فلا أفتري عليه اكذب، ولا أقول عليه ما ليس لي بحق، إنه هو العليم العظيم).

أما بعد،

كانت واحدة من الافتراءات الأساسية التي قدمناها في الجزء السابق من هذه المقالة حول التابوت تتمثل في ظننا بأن التابوت الذي كان في حيازة داوود كان سببًا مباشرًا في إلانة الحديد لداوود، الذي تعلّم صنعة لبوس، تقي من بأس الناس. وكان أبرز ما افتريناه حينئذ هو أن تلك الصنعة كانت عبارة عن ما يشبه الدرع الواقي الذي يحفظ لابسه من بأس الحديد. ويتمثل ذلك باستحداث مجال مغناطيسي يجعل من يحاول الاقتراب منه يصدف عنه، أي يتنافر معه، فلا يتمكن المعتدي (كجالوت مثلا) من النيل من صاحب ذلك الدرع الواقي (كداوود مثلا). وحاولنا الترويج لهذه الفكرة من خلال ما فعل ذو القرنين عندما ساوى بين الصدفين اللذين ظننا (حسب فهمنا طبعا) بأنهما القطبان المغناطيسيان. فكان منطقنا على نحو أن الذي يُحدِث الصدف، هو كمن يحاول أن يخلق وقاية من التأثيرات الخارجية. وما زلنا حتى اليوم ننعت بعض الكائنات الحيّة (خاصة البحرية) بالصدفيات. ولو حاولنا دراسة هذه الكائنات، لوجدنا أنّ أهم ما يميّزها هي أنها تطوّر ما يشبه الدرع الذي يحفظها من الأخطار الخارجية. وربما لا أحتاج لجلب صورة لهذه الكائنات، لأن الجميع ربما يعرفها. فالذي يريد المزيد من المعلومات عن هذه الكائنات، فيستطيع البحث عن ذلك في كتب أهل الاختصاص.

ولعل أهم ما يمكن أن نجلب انتباه القارئ الكريم له هنا هو أن ذلك التابوت هو بمثابة أداة الشحن لمن يستطيع الاستفادة منه. وبهذا المنطق المفترى، سنتجرأ على البوح بأن من يستفيد من الطاقة الكامنة في ذلك التابوت، لا يحتاج إلى مصدر طاقة خارجي، فهو يستفيد من الطاقة الكامنة في ذلك التابوت بدلًا من الطاقة التي يمكن أن يستمدها من مصدر خارجي. وبناء عليه، يمكن لنا أن نعيد تصورنا للسيناريوهات التالية:

⇐ لو أن آدم وزوجه لم ينزلا عند نصيحة الشيطان، ولو أن الشيطان لم يتمكن من أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما، ولو أن الذرية تحصلت لهما في الجنة، لوضع مولودهما في ذلك التابوت، وعندها لن يكون ذلك المولود بحاجة أن يرضع من ثدي أمه.

⇐ لما وضعت أم موسى رضيعها في التابوت، ما عاد يحتاج إلى من ترضعه. ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]

⇐ عندما قبض السامري قبضة من أثر الرسول، فأخذ جزء من تلك العصا التي فعّلت في النار في الواد المقدس، تم وضع بقية العصا في ذلك التابوت حتى أُعيد شحن ما تبقى منها، فوصلت منسأة إلى آل دوود كبقية مما ترك آل موسى وآل هارون.

⇐ عندما وضعت امرأة لقمان وليدها (داوود) في التابوت الذي تقاذفته الأمواج حتى حطت به في تلك الغابة بعيدا عن أعين الناظرين، ما كان بحاجة إلى من ترضعه.

⇐ عندما وضعت مريم ابنها المسيح في ذلك التابوت، جاءها الأمر الإلهي بأن تهزّ إليها بجذع النخلة، فتأكل وتشرب هي بنفسها، لكن لم تكن لترضع ذلك المولود أو تطعمه مادام أنه قد وضع في ذلك التابوت الذي أمده بالطاقة اللازمة ليبقى حيا، لا يعتمد على ثدي أمه كمواليد الناس العاديين.

⇐ وسنتحدث لاحقا - بإذن الله - عما حلّ بذلك التابوت بعد أن توفى الله عيسى بن مريم، ورفعه إليه ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: 55]

⇐ ولعل أغرب ما يمكن أن نفتريه في هذا الصدد (ونترك لخيال القارئ أن ينشغل به فترة من الزمن) هو ظننا بأن من يوضع في ذلك التابوت سيكون عنده (لنقل تجاوزا) مشكلة في اللسان. وبكلمات أكثر دقة نقول: أن لسان من وضع في ذلك التابوت سيكون مختلفا عن لسان العالمين. فدعنا نجلب الملاحظات التالية في هذا النقاش الغريب العجيب:

⇐ لو حصلت الذرية لآدم وزوجه في الجنة، ولو وضع مولودهما في ذلك التابوت، لما تحدث ذلك المولود بلسان الناس الذي نعرفه اليوم، ولظل ذلك المولود يتحدث بالأسماء التي علمها الله لآدم:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

⇐ عندما أرضعت أم موسى وليدها فترة من الزمن، ثم عمدت إلى وضعه في التابوت، تأثر لسان موسى من ذلك، فأصبح عنده عقدة في اللسان، فاصبح من الصعب أن يفقه الناس قوله:

- ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: 27-28]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الشعراء: 12-13]
- ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: 34]

⇐ عندما وضعت امرأة لقمان وليدها (داوود) في ذلك التابوت، أصبح عنده مشكلة في الكلام، فجاءت موعظة والده لقمان له بأن يصبر على ما أصابه:

- ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: 17]

لذا، عندما عاد داوود للعيش بين الناس، كان عليه أن يبدأ رحلة تعلم لسان الناس من حوله في سن متأخرة، فكان ذلك من عزم الأمور.

⇐ عندما وُضِع المسيح في التابوت منذ اليوم الأول لوالدته، لم يحتاج إلى من ترضعه، فكان لسانه مختلفا، فما تحدث بلسان الناس من حوله اطلاقا، فكان بحاجة إلى من ينقل كلامه إلى الناس من حوله، فكان له حواريون، أوحى الله إليهم، فكانوا هم رسل المسيح إلى الناس:

- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: 111-112]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا: إن السبب الرئيسي الذي يمكّن الناس من اكتساب اللسان (أي القدرة على الكلام) بالطريقة البشرية التي نعرفها هي الرضاعة. فالرضاعة هي - برأينا ربما المغلوط - التمرين الأول لعضلات اللسان حتى تصبح قادرة على العمل بالطريقة المعتادة التي نعرفها عن اللسان، الذي هو - لا شك - العضو الأهم في النطق. ولهذا، لمّا كان عيسى وداوود – من دون العالمين- هما الصبيان الوحيدان من البشر اللذان لم يلتقما ثدي والدتهما، كان لهما لسان خاص بهما يختلف عن لسان العالمين أجمعين:

- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: 78]

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل كيفية عمل لسان عيسى ولسان داوود؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن اللسان واحدا من أهم الأسباب التي تجعل الشخص قادرا على الكذب:

- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 78]
- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل: 62]
- ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: 116]

واللسان أداة أساسية في تحريف الكلم عن مواضعه:

- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: 46]

كما هو أداة تمكن صاحبه من ابطان شيء في قلبه غير ما ينطلق على لسانه:

- ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾ [الفتح: 11]

كما هو أداة للبسط بالسوء

- ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: 2]

ولعل المشاهدة البشرية البسيطة تتمثل في أن الذي يستخدم لسانه أكثر مما يجب يقع كثيرا في المغالطات. بينما الحافظ للسانه، هو من يمكن أن يتقي كثيرا من الشرور، فكانت واحدة من نعم الله على بعض عباده أن جعل لهم لسان صدق عليا:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾﴾ [مريم: 50]

وكانت هذه واحدة مما دعا به إبراهيم ربه:

- ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: 84]

ولعل كثير من لغات الأرض تستخدم الجذر "لغو" لتصف اللسان، كما في الانجليزية مثلا. فمفردة (LANGUAGE) مشتقة من مادة (LANG, LANGE, LANGUE, LINGUA) ، أي لغو بعد أن تم تحريف بعض أصواتها في اللغات الأوروبية المتعددة، وحتى كلمة TONGUE، فهي – كما يعرف أهل اللغة- مشتقة أساسا من الجذر ZUNGA و LINGUA

السؤال: كيف يمكن أن نتصور لسان عيسى بن مريم ولسان داوود؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: كيف كان يستخدم عيسى بن مريم لسانه؟ وكيف كان داوود يستخدم لسانه؟

رأينا المفترى: لا شك بأن هذا موضوع هائل، له تبعات جمّة، ربما لم يحن الوقت بعد لطرحها على مسامع الناس، خاصة الذين يظنون أننا نهرف بما لا نعرف. أما نحن، فإننا نعتقد جازمين بأننا بحاجة إلى كثير من المقدمات للوصول إلى مبتغانا في هذا الجانب، فالله وحده نسأل أن ياذن لنا بشيء من علمه فيه لا يكون لأحد من العالمين غيرنا، إنه هو السميع البصير.

لكن دعنا نعود الآن إلى قصة داوود، لنذكّر القارئ الكريم – إن أراد طبعا- بأهم التقاطعات (التي تعرضنا لها) بين قصة هذا النبي الكريم (أي داوود) وغيرها من القصص القرآني. فحتى الآن حاولنا ايجاد التقاطعات بين داوود من جهة وآدم من جهة أخرى في قضيتين رئيسيتين:

⇐ الخلافة
⇐ اللباس

وقد قادنا النقاش في قضية اللباس إلى البحث في التقاطع بين داوود من جهة وذي القرنين من جهة أخرى، وظننا أن واحد من العوامل المشتركة بين الشخصيتين هو استخدامها لزبر الحديد، الذي هو بمثابة الدرع الواقعي لصد خطر خارجي. ففي حالة داوود كان الهدف من ذلك هو الوقاية من بأس الناس، أما في حالة ذي القرنين فكانت الغاية هي صدّ خطر يأجوج ومأجوج عن الأرض حتى لا يفسدوا فيها كما كانوا يفعلون من ذي قبل.

وسنتابع في هذا الجزء - بإذن الله - البحث عن تقاطعات قصة داوود مع غيرها من قصص القرآن، والهدف من ذلك هو محاولة تجلية بعض جوانب قصة هذا النبي الكريم التي تحقّها كثيرٌ من الألغاز المحيّرة التي ربما ما زالت عصية على الأفهام. سائلين الله وحده أن يهدينا رشدنا، فلا نفتري عليه الكذب ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

1. داوود وعيسى بن مريم

عند محاولتنا تدبّر الآيات الكريمة التي جاء فيها ذكرٌ لنبي الله داوود صراحة، وجدنا أنه لزاما علينا التعرض لبعض خيوط الترابط بين داوود من جهة وعيسى بن مريم من جهة أخرى، وذلك لأن الآية الكريمة التالية تجمع الشخصيتين معا بطريقة ملفتة للانتباه. قال تعالى:

- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: 78]

ليكون السؤال (الذي نريد من القارئ الكريم أن يبقى دائم التفكر فيه) هو: لماذا كان هناك لسان خاص بداوود كما كان هناك لسان خاص بعيسى بن مريم على وجه التحديد؟

إن مجرد طرح هذا السؤال سيجلب معه عشرات الأسئلة التفصيلية ذات العلاقة، نذكر منها:

- ما هو لسان داوود؟
- ما هو لسان عيسى بن مريم؟
- ما وجه الشبه بين لسان داوود ولسان عيسى بن مريم؟
- ما هو وجه الاختلاف بين لسان داوود ولسان عيسى بن مريم؟

- ما الذي يميّز لسان هذين النبيين الكريمين عن سائر خلق الله أجمعين؟
- ما أهمية أن يكون لهذين الرسولين الكريمين لسان خاص بكل واحد منهما؟
- ما علاقة هذين الرسولين ببني إسرائيل حتى جاءت لعنة الكافرين منهم على لسانهما فقط؟
- لماذا لُعِن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان هذين النبيين الكريمين؟
- ماذا كانت عاقبة لعنة الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان هذين النبيين الكريمين؟
- الخ

باستخدام استراتيجية المقابلة بين الشخصيات الواردة في كتاب الله، يمكننا الاستفادة من تفاصيل بعض جوانب حياة أحدهما المفصّلة في كتاب الله في فهم جوانب شخصية الآخر التي عُمِيت علينا. فمهمة فهم الكتاب تكمن في القدرة على الخروج باستنباطات يدعمها الدليل. فإذا صحّ الاستنباط من عند أحدهما، استطعنا إلقاء الضوء على جانب من جوانب شخصية الطرف الآخر، وهكذا.

لذا، سنبدأ النقاش هنا باستعراض بعض الافتراءات السابقة التي توصلنا إليها (ربما مخطئين) حول قصة نبي الله عيسى بن مريم. وسنقدم تاليًا من جوانب قصة عيسى أهم ما نظن أنه قد يسعفنا في الطرح هنا حول قصة نبي الله داوود، نذكر منها:

⇐ لم يكن عيسى رسولًا من بني إسرائيل، ولكنه رسولًا لهم
⇐ لا ينتمي عيسى بن مريم بيولوجيًا إلى قوم بعينهم
⇐ لم تخلو ولادة عيسى بن مريم من الغرابة في تفاصيلها
⇐ لم تكن حياة عيسى بعد ولادته واضحة المعالم لمن كان متواجدًا حينئذ في بني إسرائيل
⇐ لم يظهر عيسى بن مريم على الساحة ليكلم الناس إلا مرتين: في المهد وفي كهولته
⇐ غابت الفئة العمرية الوسطى بتفاصيلها عن مسرح الأحداث
⇐ تكلم عيسى بن مريم من اليوم الأول من ولادته، فكان له لسان خاص به، غير لسان القوم من حوله
⇐ أُحيطت حياة عيسى بن مريم بما يسميه العامة من الناس "بالمعجزات" العصيّة على الفهم العادي
⇐ ارتبطت قدرة عيسى بخلق الطير من الطين
⇐ كان لعيسى بن مريم حواريون، وهم من كانوا قادرين على فهم لسانه، وبالتالي محاورته، ونقل رسالته إلى الناس بلسان القوم من حوله
⇐ وجد عيسى الصدّ من قبل الذين كفروا من بني إسرائيل، وذلك لأن عيسى لم يكن رسولًا منهم (وإن كان رسولًا إليهم)
⇐ الخ.

وبناءً على ذلك، سنتجرأ على الظن بأن:

⇐ عيسى بن مريم قد ولد في مكان ما – فكانت ولادته (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا في القدس (الأقصى)

- ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥﴾ [مريم: 22-25]

⇐ نشأ عيسى بن مريم حياته الأولى في مكان آخر – فكان في بيت لحم (ما يعرف اليوم بكنيسة المهد)، بعيدا عن أعين الناس

- ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾ [آل عمران: 46]

⇐ كانت نهاية مهمة عيسى بن مريم في مكان ثالث – فكان في الناصرة

- ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٥٢﴾ [آل عمران: 52]

⇐ كان لعيسى بن مريم لسان خاص به، لم يكتسبه من الناس

⇐ لم يكن عيسى بن مريم رسولًا من بني إسرائيل (ولكن كان رسولًا لبني إسرائيل)

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: 6]

⇐ الخ

ولو حاولنا - ابتداءً - الربط بين شخصية عيسى من هذه الجوانب مع شخصية داوود، لوجدنا تقاطعات كثيرة، وجب (نحن نظن) التنبه لها، نذكّر القارئ الكريم ببعضها كما افترينا ذلك في الأجزاء السابقة من هذه المقالة:

⇐ كانت طفولة داوود غاية في الغرابة، ويحيطها الغموض، فولد في مكان نحن نفتري الظن بأنه سبأ.

⇐ كانت نشأته في صباه يميزها عنصر الانعزال عن العالمين، فعاش في مكان منعزل عن الناس (في الغابة)

⇐ انتقل داوود بعد ذلك إلى مكان آخر بين الناس

⇐ كان لداوود لسان خاص به، يميزه عن لسان من حوله من الناس

⇐ لم يكن داوود رسولًا من بني إسرائيل (وإن كان رسولا لهم)

⇐ أُحيطت حياة داوود بما يسميه العامة من الناس "بالمعجزات" العصيّة على الفهم العادي (والتي سنحاول التعرض لها لاحقًا إن أذن الله لنا بشيء من العلم فيها)

⇐ تعلم داوود منطق الطير

⇐ وجد داوود الصدّ من قبل الذين كفروا من بني إسرائيل، فكانت اللعنة لهم على لسانه كما كانت على لسان عيسى من بعده.

السؤال: ما هو لسان داوود؟ وما هو لسان عيسى؟

رأينا المفترى: بعيدا عن تفصيلات الموضوع، فإن النتيجة التي نحاول جاهدين الوصول لها تتلخص بما يلي: لم يكن عيسى يتكلم لسان القوم من حوله، وذلك على الأقل للأسباب التالية:

⇐ لم يكن عيسى بن مريم من الناس
⇐ لم يرضع عيسى بن مريم من أمه
⇐ لم يتعلم عيسى بن مريم الكلام من الناس مادام أنه تكلم منذ اليوم الأول لولادته
⇐ لم يتعلم عيسى بن مريم لسان الناس في لاحق الأيام وذلك لأنه كلمة الله

نتيجة مفتراة: كان لعيسى بن مريم لسان خاص به، وكذلك كان لداوود لسان خاص به، يميّزه عن لسان القوم الذين كانوا من حوله.

السؤال: من أين تعلم عيسى ذلك اللسان؟

رأينا المفترى: لما كان عيسى ابن مريم يتكلم منذ ولادته، فقد جاء لسانه معه، فهو من كانت كلماته الأولى على النحو التالي:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝٣٤﴾ [مريم: 30-34]

الأمر الذي دعنا منذ زمن بعيد أن نتجرأ على افتراء الظن بأن لسان عيسى هو لسان من أيده الله به، إنه روح القدس:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [البقرة: 253]

2. استراحة قصيرة (1)

عندما نقرأ في كتاب الله قصة عيسى بن مريم، نجد في بعض تفصيلاتها (نحن نظن) ما نظن أنه يسعفنا في فهم ماهية لسان عيسى بن مريم. ونحن ندعو القارئ إلى أن يتدبر معنا الآية الكريم التالية التي تتحدث عن ما قاله المسيح عيسى بن مريم عندما أشارت أمه إليه. فالله هو - ابتداءً - من أمر مريم أن تنذر للرحمن صومًا، فلا تكلم إنسيا في ذلك اليوم:

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

وها هي تحمله وتعود به إلى قومها، فيتفاجأ القوم (مستغربين من، مستفسرين عن) ما كانت تحمل عندما أتت به قومها:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]

فالسؤال الذي سيبرز هنا على الفور هو: هل حصل خطاب (نحن نسأل) بين مريم من جهة وقومها من جهة أخرى في ذلك الموقف؟ ألم تكن مريم مأمورة أن لا تكلم اليوم إنسيا؟ فكيف نفهم إذًا قوله تعالى:

- ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 29]

إن ما نحاول جاهدين أن نصل إليه هنا هو الافتراء الغريب التالي: لم تكن مريم مخاطبة قومها عندما أشارت، وذلك لأن إشارتّها كانت (نحن نظن) موجهةً لابنها فقط بدليل اللفظ ذاته (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ). فغالبا ما ظن القارئ للنص القرآني أن تلك الإشارة من مريم قد كانت عبارة عن مخاطبة غير كلامية للقوم من حولها، وهذا ما ننفيه جملة وتفصيلا، وذلك لأن مريم كانت مأمورة أن تنذر للرحمن صوما، فلا تكلم اليوم إنسيا.

- ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

فالأمر إذًا قد جاءها بعدم تكليمها القوم بأي طريقة كانت قبل أن تأتي قومها، فحتى المخاطبة غير اللفظية لكل من كان إنسيا حولها كانت (نحن نرى) ممنوعة على مريم. لذا، فالإشارة التي قامت بها مريم لم تكن (نحن نرى) جزءا من حوار لها مع قومها، ولكنها كانت (نحن نظن) طريقة تخاطب بينها من جهة وابنها المسيح من جهة أخرى. فمريم تستطيع اليوم أن تكلم عيسى لأنه (نحن نظن) ليس إنسيا، ولكنها لا تستطيع أن تكلم من كان إنسيا (أي القوم من حولها). إن لب القول هو لربما فهم القوم من إشارة مريم لإبنها بأن يخاطبوه هم بأنفسهم، لكن مريم كانت في الحقيقة تخاطب وليدها الذي انطلق لسانه مباشرة بعد إشارة أمه:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: 30-34]

ولو دققنا في السياق القرآني ذاتها، لما وجدنا أن القوم قد وجهوا أي نوع من الخطاب لذلك الصبي الذي كان متواجدا أمام ناظريهم في المهد. فقد انطلق لسان الصبي مباشرة دون أن يعطي للقوم الفرصة أن يسألوه بأنفسهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نعتقد (ربما مخطئين) بأن المسيح الذي كان في المهد لم ينتظر أن يخاطبه القوم حتى يتكلم، فما وجدنا القوم يسألونه أو يوجهون له كلاما من أي نوع (لفظيا أو غير لفظي)، ولكنه تكلم – نحن نظن- مباشرة ردا على إشارة أمه له (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ).

خيال مفترى عجيب غريب: تأتي مريم قومها تحمل شيئا مختلف، يحاول القوم الاستفسار عمّا كانت تحمل، توجه مريم الخطاب لابنها لأنه كان محظورا عليها أن تكلم اليوم إنسيا، يفهم المسيح ما أشارت به أمه إليه، ينطلق لسانه على الفور، مبينا هويته الحقيقة.

نتيجة مفتراة: كانت فحوى الإشارة التي وجهتها مريم لابنها المسيح (نحن نتخيل) على نحو: قل لهم من أنت.

السؤال: ما هي تلك الإشارة التي وجهتها مريم لإبنها حتى كان رده على تلك الشاكلة؟

نتيجة مفتراة: مادام أن مريم قد نذرت للرحمن صوما ألا تكلم اليوم إنسيا، فهي إذا لن تجري أي نوع من الاتصال مع القوم بأي شكل، لفظيا كان أو غير لفظي. لذا، نحن نكرر افتراءنا بأن الإشارة التي قامت بها مريم لم تكن جزءا من حوار لها مع قومها، ولكنها كانت جزءا من حوارها مع ابنها.

لكن كان ما أشار به زكريا – بالمقابل- جزءا من حوار له مع القوم، فما كان حوارا لفظيا، وإنما حوار غير لفظي، نفذه بالرمز.

السؤال الآن مرة أخرى: ماذا كانت تلك الإشارة التي وجهتها مريم لإبنها المسيح الذي كان في تلك اللحظة موجودا في المهد؟

رأينا المفترى: إن معرفة تلك الإشارة تتطلب النظر إلى الرد الذي قاله المسيح، فالإشارة كانت (نحن نظن) طلبا من مريم ليفصح هذا الصبي الذي كان في المهد عن هويته. لذا جاء رده عبارة عن تعريف بنفسه. وبناء عليه، فإننا نفتري الظن بأن إشارة مريم كانت تفيد التالي: قل لهم من أنت.

السؤال: كيف قالت مريم ذلك للمسيح؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن إشارة مريم لابنها المسيح كان من نوع الخطاب المفهوم لعيسى. فذلك إذا (نحن نظن) من لسان عيسى.

الدليل

لو دققنا فيما فعل زكريا الذي كان مطلوب منه ألا يكلّم الناس ثلاث ليال سويًا، سنجد بأن زكريا قد أوحى للقوم، وذلك بمخاطبتهم بالرمز:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: 41]

السؤال: ما الفرق بين حالة مريم وحالة زكريا؟

جواب مفترى: لو دققنا في النصين في سياقهما القرآني، سنجد أن هناك فرقًا واضحًا يتمثل بوجود مفردة الصوم في حالة مريم، وغيابها في حالة زكريا، فمريم قد نذرت للرحمن صوما ألا تكلم اليوم إنسيا:

- ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: 26]

بينما لم ينذر زكريا للرحمن صومًا (كما فعلت مريم)، ولكنه أُمر ألا يكلّم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: 41]

ولو دققنا أكثر في حالة زكريا، لوجدنا فرقا بين ما كان زكريا مأمورا به في الليل مقابل ما كان مأمورا به في اليوم. فالأمر لزكريا جاء مرتين، جاء الفرق بينهما جليا في كتاب الله. قال تعالى:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: 41]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: 10]

فالمدقق في هذين السياقين، سيجد أن زكريا مأمور بأن لا يكلم الناس اطلاقا ثلاث ليال سويا (آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا)، لكنه يستطيع أن يكلمهم في اليوم رمزا (آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا). فكان هناك استثناء لزكريا بأن يكلم الناس بالرمز فقط في اليوم. فعلينا أن نتخيل فرقا في حالة زكريا في اليوم (أي من الفجر إلى المغرب) مقابل حالته في الليل (من المغرب حتى الفجر).

ولو عدنا لحالة مريم، لوجدنا بأن مريم كانت ممنوعة أن تكلم إنسيا في ذلك اليوم الذي أتت به قومها. ليكون السؤال المطروح هو: لم جاء منع مريم فقط في اليوم (من الفجر إلى المغرب) بينما جاء المنع لزكريا في اليوم والليل؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك ربما يعود إلى أن مريم (نحن نظن) قد غادرت قومها إلى مكان آخر في نهاية ذلك اليوم، فما عادت على اتصال معهم بعد ذلك، وإلا لربما عاد القوم في اليوم التالي ليتبينوا حقيقة ذلك الصبي مرة أخرى.

السؤال: أين ذهبت مريم في نهاية ذلك اليوم الذي أتت به قومها تحمله؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن مريم قد عمدت إلى الذهاب بذلك الصبي بعيدًا عن أعين الناظرين، فما أعطت لأحدهم الفرصة أن يحتك بذلك الصبي حتى أصبح كهلا.

الدليل

دعنا نقرأ اولا قوله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: 45-46]

فالمدقق في هذا السياق، سيجد بأن العلم قد جاء لمريم منذ أن بُشرت بذلك الصبي بأنه سيكلم الناس في المهد فقط وسيكلمهم كهلا، فكان عليها (نحن ما زلنا نتخيل) أن تبتعد به عن أعين الناس بعد أن يكلمهم في المهد، ليعود فيكلمهم من جديد عندما يصبح كهلا.

ولو دققنا في السياق التالي، سنجد بأن الله قد كفّ بني إسرائيل عن عيسى (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ):

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

ونحن نفهم (ربما مخطئين) بأن الكف لا يتوقف على عدم قدرتهم ايقاع الأذى به (كما ربما يفهم القارئ للنص للوهلة الأولى)، ولكنه يتعدى إلى منع وصولهم إليه طوال فترة من الزمن حتى عادهم مبلغا برسالته:

- ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: 6]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن ظن بأن الله قد كف بني إسرائيل عن عيسى بن مريم بعد أن كلمهم في المهد

فالدقة القرآنية تلزمنا التفريق بين الكف بشكل عام وكف الأيدي بشكل خاص كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ [الفتح: 24]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١﴾ [المائدة: 11]
- ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ [الفتح: 20]

لنخرج من هنا بالحاجة إلى التفريق بين كف الأيدي (الذي نظن أنه يحمل معه معنى الاعتداء المادي) من جهة، والكف بشكل عام من جهة أخرى. ونظن (ربما مخطئين) بأن الكف يتمثل بعدم التواصل اطلاقا. لذا، سنتجرأ على القول بانه عندما كف الله بني إسرائيل عن عيسى، فهو قد قطع اتصال بني إسرائيل مع عيسى بعد أن كلمهم في المهد حتى عاد إليهم بنفسه ليكلمهم عندما أصبح كهلا. ليكون السؤال الآن هو: لماذا كف الله بني إسرائيل عن عيسى بن مريم فترة طويلة من الزمن؟

رأينا المفترى: لو جلبنا السياق القرآني ذاته، لوجدنا السبب في ذلك. فدعنا نجلب الآية الكريمة ذاتها مرة أخرى، لنحاول تدبرها من هذا الجانب:

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾ [المائدة: 110]

فالمتدبر لمفردات الآية ذاتها سيجد (إن صح افتراؤنا) بأن السبب هو أن يجيئهم عيسى بالبينات (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ). فعندما جاء عيسى بن مريم بني إسرائيل بالبينات، كانت

ردة فعل من كفر منهم على نحو (فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ). ليكون السؤال الآن: ما هي البينات التي جاء بها عيسى بن مريم (كما جاء بها رسل كثيرون من قبله)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن واحدة من أهم خصائص البينات التي تميزها عن غيرها (كالآيات والذكر والزبور والفرقان والكتاب، الخ) هو أن البينات تطبيقات عملية على أرض الواقع (demonstrations) أمام أعين الناظرين. وربما يدل على ذلك ما قاله السحرة في خطابهم مع فرعون بعد المواجهة التي احتدمت بينهم من جهة وموسى وهارون من جهة أخرى في تلك الواقعة الشهيرة. فهذا فرعون يتوعدهم بالعذاب:

- ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ [طه: 71]

فيأتي ردهم على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢﴾ [طه: 72]

فالذي كان في يد موسى (العصا) هي آية، لكن ما فعلت عصا موسى بعصا السحرة وحبالهم كانت بينات كما وصفها السحرة في خطابهم مع فرعون (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ)، وذلك لأنهم شاهدوا بأم أعينهم ما فعلت تلك العصا الحقيقية بعصيهم وحبالهم الوهمية التي عجزت عن مقارعة عصا موسى.

ولو طبقنا المنطق ذاته في حالة المسيح، لربما حق لنا أن نظن (ربما مخطئين) بأن ما كان يقوم به المسيح من تطبيقات عملية أمام أعين الناظرين (Demos) هي بينات تثبت لهم بما لا يدع مجالا للشك حقيقة ما كان يملك المسيح من الآيات. فالآيات البينات هي إذا تلك التي يمكن أن تطبق على أرض الواقع، فقد نلمسها بأيدينا ونشاهدها بأعيننا، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]
- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝١٠١﴾ [الإسراء: 101]

وبمثل هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا، نحن نظن بأن ما أنزل الله لنا ربنا من الآيات البينات يمكن أن تطبق عمليا على أرض الواقع:

- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٩٩﴾ [البقرة: 99]

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [الحج: 16]
- ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 48-49]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٩﴾ [الحديد: 9]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥﴾ [المجادلة: 5]

3. استراحة قصيرة (2)

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية التي وردت في بداية سورة النور،

- ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [النور: 1]

سنجد بأن هذه السورة العظيمة قد جاء فيها فيها آيات بينات. ليكون السؤال المحير هو: مادام أن الله قد أنزل الكتاب آيات بينات، فلم يذكرنا بأن هذه السورة العظيمة على وجه التحديد فيها آيات بينات (سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ)؟ أليست آيات الكتاب كلها آيات بينات؟

رأينا المفترى: لو دققنا في هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أن بدايتها تتحدث عن بعض "الأحكام" التي وجب علينا تطبيقها على أرض الواقع. فأول ما تحدثت عنه هو ما يجب علينا تطبيقه من "حد" (أو لنقل مجازا عقوبة) بحق الزاني والزانية:

- ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [النور: 1-3]

ثم تتحدث بعد ذلك مباشرة عن الحد الذي يجب أن نوقعه بحق الذين يرمون المحصنات:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [النور: 4-5]

ثم عن الذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ

بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠﴾ [النور: 6-10]

ثم عن الذين جاءوا بالإفك:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ١٢ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾ [النور: 11-18]

ثم تخبرنا عن عذاب الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: 19-22]

ثم عن عذاب الذين يرمون المحصنات الغافلات:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: 23-25]

ثم عن مآل الخبيثين والخبيثات:

- ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٢٦﴾ [النور: 26]

ثم عن ما يجب علينا فعله لدخول البيوت الآخرين أو البيوت غير المسكونة:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور: 27-29]

ثم عن ما نحن مطالبين به من غض البصر كسلوك للمؤمنين والمؤمنات:

- ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 30-31]

ثم تأتينا بالتوجيه الصحيح في النكاح:

- ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٣﴾ [النور: 32-33]

وتختم كل هذه الآيات المتتالية السابقة جميعا بقوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ٣٤﴾ [النور: 34]

فتنتهي هنا الآيات البينات التي جاءت في هذه السورة العظيمة، تلك الآيات التي أخبرنا عنه في الأية الأولى منها:

- ﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١﴾ [النور: 1]

لأن الحديث بعد ذلك ينتقل مباشرة إلى آيات ربما يصبح من المستحيل علينا تطبيقها على أرض الواقع، وهي قوله تعالى:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: 35]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هناك فرقا واضحا بين الآيات من جهة والآيات البينات من جهة أخرى. لنفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الآية تصبح بينة إذا تم تطبيقها (كعرض) على أرض الواقع أمام أعين الناظرين.

ولو دققنا في بعض ما جاء به المسيح عيسى بن مريم، لوجدنا بأن البينات كانت مصاحبة له على الدوام:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

ليكون السؤال هو: لماذا جاء ذكر البينات صراحة في السياقات التي جاء بها عيسى بن مريم أكثر من أي رسول آخر؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن عيسى هو الرسول الذي طبق على أرض الواقع أمام أعين الناظرين كثيرا مما جاء به. فهو من طبق أمام الناظرين خلق الطير من الطين والنفخ فيه، وهو من كان يبرئ الأكمه والأبرص، وهو من كان يخرج الموتى، وهو من كان ينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [آل عمران: 49]

- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: 110]

ولو دققنا بالسياق أكثر، لوجدنا بأن هناك ملاحظة مهمة وجب التنبه لها، ألا وهي أن عيسى يقول لهم بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، لكنه يبين لهم بأن التطبيق العملي كان بينات كثيرة. وبكلمات أخرى نحن نقول: بالرغم أن عيسى قد جاءهم بآية واحدة (أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ)، كان تطبيق تلك الآية على أرض الواقع نحو بينات كثيرة:

- ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: 49]

السؤال: لماذا كان ما جاء به عيسى بن مريم آية واحدة ولكنها بينات متعددة؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن أن السبب في ذلك كله هو طبيعة لسان عيسى بن مريم

السؤال: ما هو لسان عيسى؟

جواب مفترى: إنه لسان روح القدس الذي أيد الله به المسيح. إنه لسان الروح الذي خاطب مريم في الحجاب:

- ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: 17-21]

السؤال: كيف يمكن أن نتصور الحوار الذي دار بين رسول الله (روح القدس) من جهة ومريم من جهة أخرى في ذلك الحجاب؟ فهل جرى بينهما الحوار بطريقة الحوار العادي الذي يعرفه الناس ويستخدمونه في حياتهم اليومية؟ لو كان الحوار كذلك، كيف لمريم أن تقتنع بأن هذا هو رسول ربها؟ ولماذا استعاذت مريم منه بالرحمن إن كان تقيا؟

رأينا المفترى: إن هذه التساؤلات تدعونا إلى البحث أكثر في طريقة كلام الوحي (كروح القدس الذي جاء مريم)، طارحين السؤالي المبدئي التالي: ما هو لسان روح القدس؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن روح القدس لا يتكلم اللسان البشري العادي الذي نعرفه، ظانين أن له لسانه الخاص الذي يجعله مختلفا عن غيره، ليكون السؤال مرة أخرى: ما هو لسان روح القدس الذي خاطب به مريم في الحجاب:

جواب مفترى: لو دققنا في قوله تعالى:

- ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ٥١﴾ [الشورى: 51]

سنجد أن كلام الله يصل للبشر بطرق ثلاث، ألا وهي:

⇐ وحيا (إِلَّا وَحْيًا)
⇐ أو من وراء حجاب (أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)
⇐ أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه (أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ)

ولما كان روح القدس قد كان رسول من رب مريم كما جاء في قوله:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾ [مريم: 19]

ربما يصح لنا أن نفتري القول (ربما مخطئين) بأن ما حصل مع مريم هي الطريقة الثالثة، التي تتمثل في أن أرسل الله رسولا (روح القدس) فأوحى بإذنه، لنخرج بالاستنباط المهم جدا التالي: كان روح القدس يخاطب مريم وحيا، أي لم يخاطبها بالطريقة البشرية العادية.

السؤال: ما هو ذلك الوحي الذي خاطب به روح القدس مريم في الحجاب؟

رأينا: نحن نظن بأن ذلك هو ما نجده في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٣﴾ [الشورى: 1-3]

فالمدقق في هذه الآيات الكريمة، سيجد بأن الوحي يتم باستخدام هذه الرموز اللفظية مثل حم عسق، الخ

السؤال: ما هي هذه الطريقة التي نسميها وحيا؟

رأينا المفترى: إنه اللسان المحكم الذي لا يدخله اللغو.

الدليل

لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

الأمر الذي يدعونا إلى التفريق بين الاسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان من جهة والاسماء التي نزلت بالحق من ربك:

- ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 105-106]

فما نزل به الروح الأمين على قلب محمد كان وحيا:

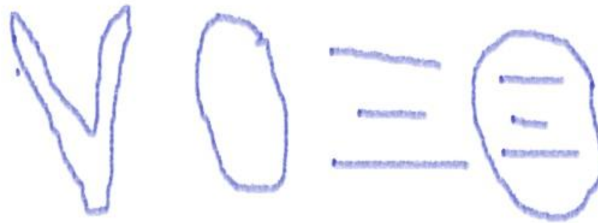
- ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١﴾ [فاطر: 31]
- ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52]

نتيجة مفتراة: ما جاء وحيا من عند الله هو الحق، الذي لا يمكن أن تطاله شائبة، فلا يكون ظنا، ولا يكون هوى.

السؤال: وكيف نستطيع أن نتعرف عليه؟

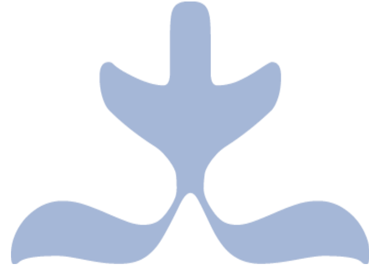
السؤال: وما هي طبيعة لسان الوحي؟

رأينا المفترى (لا تصدقوه): إنه ما يشبه هذا:



السؤال: ما هذا؟

جواب: شو دخلني؟! من يدري! خلص بكفي اليوم



قصة داوود

الجزء الحادي عشر



قصة داوود - الجزء الحادي عشر

انتهينا في الجزء السابق من هذه المقالة عند حديثنا عن ماهية لسان عيسى بن مريم الذي جاء يكلّم الناس منذ أن كان صبيًا في المهد في يومه الأول، فكان أول ما نطق به هو قوله:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم: 30-33]

وزعمنا الظن بأن لسان عيسى بن مريم يختلف عن لسان العالمين جميعًا، مفترين الظن بأن لسانه هو لسان من أيده الله به، ألا وهو روح القدس:

- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ۝٨٧﴾ [البقرة: 87]
- ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [البقرة: 253]
- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١١٠﴾ [المائدة: 110]

كما ظننا بأن لسان داوود كان مختلفًا عن لسان البشر أيضا، فجاءت اللعنة للذين كفروا من بني إسرائيل على لسان هذين النبيين الكريمين:

- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨﴾ [المائدة: 78]

وظننا من ذي قبل بأن سبب اختلاف لسان داوود كان متعلقا بأنه قد قضى طفولته بعيدا عن الناس بين كائنات الغابة البعيدة. فأصبح له طريقة مختلفة في الخطاب، وما تكلّم بلسان الناس إلا بعد أن عاد

ليعيش بينهم لاحقًا عندما تمكّن طالوت (حسب ظننا طبعا) من إعادته إلى والده لقمان، الذي بدأ تلقين ابنه سلوكات اجتماعية تتناسب مع حياة الناس الذين أصبح داوود متواجدًا بينهم بعد أن أصبح فتى على مشارف سن البلوغ. فكانت موعظة لقمان لابنه على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: 13-19]

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها على النحو التالي:

⇐ كان لعيسى بن مريم لسان خاص به
⇐ كان لداوود لسان خاص به
⇐ اختلف لسان عيسى ولسان داوود عن ألسنة الناس أجمعين
⇐ كان هناك اختلاف بين طبيعة لسان عيسى ولسان داوود، وذلك بسبب مصدر اكتساب اللسان عند كل واحد منهما
⇐ اكتسب عيسى لسانه ممن أيده الله به، ألا وهو روح القدس
⇐ اكتسب داوود لسانه من الغابة التي عاش بها
⇐ الخ

كما ظننا بأن كلا من عيسى وداوود قد تنقلا بين ثلاثة أماكن مختلفة على النحو التالي:

⇐ كان مولد عيسى في القدس
⇐ قضى فترة صباه في بيت لحم
⇐ كانت نهاية مهمته كرسول لبني إسرائيل (كهلا) في الناصرة

وتنقل داوود - بالمقابل - بين الأماكن التالية:

⇐ كان مولده في سبأ
⇐ قضى صباه في الغابة
⇐ كانت نهاية مهمة رسالته في بلاد ما وراء النهرين (دجلة والفرات)

نتيجة مفتراة 1: كان عيسى بن مريم مؤيدًا بروح القدس، فكان له لسانه الخاص
نتيجة مفتراة 2: كان عند داوود الزبور، فكان له لسان خاص به

- ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: 163]
- ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: 55]

ولو دققنا في حياة هذين النبيين الكريمين، سنجد لزاما علينا محاولة النبش في تفاصيلها منذ بدايتها. لذا ستكون التساؤلات التي تتعلق بعيسى بن مريم التي هي قيد التفكر الآن والدراسة لاحقا على النحو التالي:

⇐ مادام أن مريم قد وضعت المسيح في مكان بعيد عن قومها، فمن أين جاءت بذلك المهد الذي كان يتواجد فيه المسيح عندما أشارت إليه في حضور من قومها؟

- ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: 29]

⇐ من أين جاءت باللباس الذي كان يلبسه المسيح حينئذ؟ فهل يعقل أنّ المسيح كان في ذلك المهد بلا لباس يغطي جسمه؟

⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المهد الذي كان يتواجد به المسيح وأن ما كان يلبس في ذلك المهد هي من موروثات النبوة التي كانت في بيت عمران (والد مريم) والتي جاءته من ذرية عمران الأول الذي أصطفاه الله كما أصطفى آل إبراهيم.

الدليل

لو دققنا في قصة مريم بنت عمران منذ يومها الأول، سنجد الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 33-37]

فالمدقّق في هذه الآيات سيجد أن الاصطفاء الإلهي قد جاء لشخصين اثنين هما آدم ونوح (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا)، وكان كذلك لآلين، هما آل إبراهيم وآل عمران (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ) على العالمين.

وانظر عزيزي القارئ - إن أردت - كيف يتابع هذا السياق القرآني ذاته الحديث عن مريم ابنت عمران، ليكون السؤال الأساسي هو: لمن كانت مريم ابنت عمران تنتمي عرقيا؟ هل كانت من آل إبراهيم أم من آل عمران؟

رأينا المفترى: نحن نتبنى الرأي بأن مريم كانت من آل عمران الأول الذين اصطفاهم الله في موازنة متكافئة مع آل إبراهيم (وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ). ونحن نعتقد بأن والدها عمران هو عمران الثاني، الذي لم يكن له آل لأن ذريته كانت متوقفه عند مريم. لكن عمران الأول هو من كان له آل. وهو والد لقمان الذي جاء منه داوود الذي جاء منه سليمان. فأصبحت ذرية آل عمران موازية لذرية آل إبراهيم على النحو التالي:



وقد افترينا الظن بأن آل عمران هم ورثة تابوت العهد القديم الذي كان تركة من إلياس:

- ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾
اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: 123-132]

لذا، نحن نتبنى الرأي أن يبقى ذلك التابوت في ذرية إلياس (آل عمران) حتى آخرهم (مريم وذريتها).
ولكن تبقى هنا حلقة مفقودة في هذا النقاش هي الفجوة بين سليمان من جهة وعمران (والد مريم) من جهة أخرى. لنطرح بناء على ذلك السؤال التالي: كيف انتقل إرث النبوة من آل داوود (داوود وسليمان) إلى عمران (والد مريم)؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا وجود شخصية مهمة جدا في آل عمران تتوسط الطرفين (داوود وسليمان من جهة وعمران – والد مريم- من جهة أخرى).

السؤال: من هو هذا الشخص الذي يتوسط الطرفين؟

رأينا المفترى: ربما يستطيع الشخص أن يضع أكثر من احتمال في هذا النقاس، لكننا سنتجرأ على الظن هنا (ربما مخطئين) بأن الشخص الذي يتوسط الطرفين هو نبي الله اليسع. انتهى.

الدليل

نحن نعلم بأن التابوت قد جاء آية على ملك طالوت الذي بعثه الله ملكا، كما جاء ذلك على لسان ذلك النبي لبني إسرائيل من بعد موسى (لقمان) ليعيد بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة بعد انتهاء فترة التيه، كما كان في ذلك التابوت بقية مما ترك آل موسى وآل هارون:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: 248]

وقد حصل لهم ما أرادوا بعد هزيمة جالوت على يد طالوت وجنوده. وقد ظننا بأن ذلك التابوت قد كان في حيازة داوود الذي كان حتى الساعة جنديًا شابًا في جيش طالوت. فتكون النتيجة التي نحاول جاهدين أن نتبناها هنا تتمثل في أن التابوت ذاته كان في حيازة داوود الذي هو من آل عمران. لكن كان متوافر فيه مقتنيات هي بقية مما ترك آل موسى وآل هارون (أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ).

إنّ هذا المنطق يجبرنا على الظن بأن تركة آل عمران (التابوت) قد استمرت في آل عمران حتى وصلت إلى مريم وذريتها (عيسى). وهذا الأمر ربما يسعفنا في الاجابة على سؤالين اثنين هما:

⇐ لماذا نذرت امرأت عمران ما فيه بطنها؟
⇐ كيف جاءت مريم تحمل وليدها في المهد بعد غياب قصير عن أهلها؟

رأينا المفترى: لو حاولنا الإجابة على السؤال الأول، سنضطر أن نطرح سؤالا آخر ، ألا وهو: كيف تقبّل الله ما وضعت امرأت عمران؟

- ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: 33-37]

فالمدقق في هذا السياق الأوسع، سيجد ما يلي:

⇐ الاصطفاء الإلهي كان لآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

⇐ كانت ذرية هؤلاء جميعا هي ذرية بعضها من بعض (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ)- وهذا ما سنتناوله بإذن الله لاحقا في المقالات القادمة إن اذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

⇐ كان عمران (والد مريم وزوج أمها) من آل عمران (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ)

⇐ تنذر امرأت عمران لله ما في بطنها، وتطلب منه أن يتقبل ذلك محررا (رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا)

⇐ تضع امرأت عمران ما في بطنها، فتتفاجىء بأن ذلك كان أنثى (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ)

⇐ تطلق امرأت عمران على المولدة اسم مريم وتعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم (وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

⇐ يتقبل الله ما وضعت امرأت عمران بقبول حسن، وينبتها نباتا حسنا ويكفلها زكريا (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

⇐ تتواجد مريم على الدوام في المحراب، فيأتيها رزها من عند الله (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا)

⇐ الخ

التساؤلات

- لماذا نذرت امرأت عمران ما في بطنها محررا؟
- كيف نذرته؟
- لماذا وضعتها انثى؟
- كيف تقبل الله ما نذرت امرأت عمران له؟
- لماذا تقبل الله ما نذرت امرأت عمران؟
- متى تقبل الله ما نذرت امرأت عمران؟
- كيف أعاذتها بالله من الشيطان الرجيم؟
- كيف أنبتها نباتا حسنا؟
- لماذا كفلها زكريا؟
- لماذا ظلت مريم متواجدة في المحراب؟
- الخ

رأينا المفترى: لقد تعرضنا في سلسلة مقالاتنا السابقة حول الموضوع لكثير من هذه التساؤلات، لكن سنركز هنا ابتداء على سؤال واحد من بينها جميعا، ألا وهو: متى تقبل الله ما نذرت امرأت عمران؟

جواب مفترى: ربما لن يجد المدقق في هذا السياق القرآني صعوبة بأن يرى بأن الله لم يتقبل ما نذرت امرأت عمران عندما كانت مريم في بطنها، ولكنه تقبلها بعد أن وضعتها. فنحن نطلب من القارئ الكريم – إن شاء- أن يدقق جيدا في تسلسل الأحداث كما تبينها الآيات الكريمة في هذا السياق القرآني ذاته:

- ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 35-37]

السؤال الآن: لماذا جاء التقبل الإلهي لما نذرت امرأت عمران بعد أن وضعتها (وليس قبل أن تضعها)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك هو ما فعلت امرأت عمران بعد أن وضعت ما في بطنها؟

السؤال: وما الذي فعلته امرأت عمران بعد أن وضعت مريم؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القبول الإلهي لمريم كان بسبب أن امرأت عمران قد وُضعت مريم في شيء من إرث النبوة: إنه اللباس

تخيلات مفتراة: عندما مات عمران، كانت امرأته تحمل مريم في بطنها، فعمدت إلى أن تنذر لله ما في بطنها محررًا (وسنتعرض إن شاء الله لاحقا لمعنى إن يكون ما نذرت امرأة عمران محررا). لكن الملفت للانتباه - حسب ظننا- هو أن التقبل الإلهي لمريم لم يحصل عندما كانت في بطن أمها (امرأت عمران)، لكن ما أن وضعت امرأت عمران طفلتها مريم حتى جاء التقبل الإلهي لها، ليكون السؤال الذي نكررة هنا هو: لماذا جاء التقبل الإلهي لمريم بعد أن وضعتها أمها وليس قبل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن امرأت عمران قد ألبست طفلتها ما كان في ذلك التابوت من إرث النبوة، ألا وهو القميص، فأصبح الموضوع في ذلك اللباس محررا.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن سبب التقبل الإلهي لمريم كان بسبب وضع مريم في شيء من إرث بيت النبوة، ألا وهو القميص. وهذا الظن يجبرنا على أن نبوح بالعقيدة التي مفادها لو أن كل امرأة في الكون نذرت ما في بطنها لله محررا، لما تُقبّل منها مادامت لا تملك ذلك اللباس الذي تضع فيه مولودها. فاللباس هو – برأينا- كان السبب المباشر للتقبل الإلهي لما نذرت امرأت عمران. وهو لا شك عندنا من إرث النبوة الذي وصل إلى بيت عمران (والد مريم)، فاستخدمته امرأت عمران ليكون ما وضعت محررا.

السؤال القديم مرة أخرى: كيف وصل ذلك الإرث النبوي إلى بيت عمران (والد مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد (ربما مخطئين) بأن وصول إرث النبوة (التابوت والقميص) إلى بيت عمران (والد مريم) كان عن طريق أحد الأشخاص الذي يربط سلسلة النبوة في آل عمران، فيكون بمثابة حلقة وصل بين طرفين في آل عمران. فنحن نعتقد بأن التابوت (وما فيه من إرث النبوة من آل موسى وآل هارون) كان متوافرا في آل داوود (داوود وسليمان) كما يبرز ذلك في الحادثة الشهيرة التي تخص طالوت وجالوت عندما جاء التابوت (الذي كان ما يزال فيه بقية من آل موسى وآل هارون) كآية على ملك طالوت حيث يظهر هناك داوود الذي استطاع أن يقتل جالوت. فيكون السيناريو (الذي نحاول أن نرسمه الآن) على نحو أن يبقى ذلك التابوت في آل داوود بعد أن آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: 251]

حتى يظهر على شكل مهد يوضع به المسيح عيسى بن مريم منذ اليوم الأول الذي جاءت به أمه تحمله إلى قومها:

- ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: 27-29]

السؤال: لماذا جاء وصف – لنقل تجاوزا - "ذلك الصندوق" على نحو أنه تابوت في السياقات القرآنية الأخرى بينما جاء وصفه على نحو أنه "مهد" في سياق الحديث عن قصة المسيح عيسى بن مريم؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: لماذا كان مهدا عند عيسى بينما كان تابوتا عند غيره (كما في حالة أم موسى وحالة طالوت)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب في ذلك يعود إلى أن المسيح هو من جاءت ولادته بطريقة النفخ. فلو عدنا إلى ما سطرناه من افتراءات سابقة بهذا الصدد، لأصبح لزاما علينا تذكير القارئ الكريم بأن ذلك المهد قد تم تجهيزه من قبل الملائكة لتضع فيه زوج آدم مولودها في الجنة لو أن التكاثر تم هناك طريقة النفخ (الخلافة). وبكلمات أكثر وضوحا نحن نقول: لو تحصلت الذرية لآدم وزوجه في الجنة بطريقة الخلافة، ولو حصل التكاثر هناك بآلية النفخ، لظل ذلك مهدا لمن ولد بتلك الطريقة. لكن لما حصل أن نزل آدم عند نصيحة الشيطان، ولما استطاع الشيطان أن ينزع عن آدم وزوجه لباسهما، ولما أصبح التكاثر بالنفخ غير ممكن بعد أن نزع الشيطان عن آدم وزوجه لباسهما وبدت لهما سوءاتهما، ولما أصبح التكاثر حينئذ غير ممكن إلا بالطريقة الجنسية، لم يعد ذلك "الصندوق أو السرير" - بالكلمات الأردنية الدارجة- " مهدا لكل ذرية آدم الذين جاءوا بالطريقة الجنسية، فأصبح بالنسبة لهم تابوتا وليس مهدا. وما زلنا حتى اليوم نستخدم لفظ المهد للطفل المولود حديثا، بينما نستخدم مفردة التابوت للصندوق الذي يكفّن به الموتى. وسنتعرض بالتفصيل للسبب في ذلك لاحقا إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك في الأجزاء القادمة من هذه المقالات. ولكن يكفينا هنا أن نجلب انتباه القارئ الكريم – إن أراد- لقوله تعالى:

- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: لما كانت ولادة المسيح قد تحصلت بالنفخ، كان من حقه أن يكون له ذلك "الصندوق" مهدا، وليس تابوتا.
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: لما كانت ولادة ذرية آدم بالطريقة الجنسية، كان ذلك "الصندوق" بالنسبة لهم تابوتا وليس مهدا.

دعنا نعود بهذا الفهم المفترى لنطرح السؤال القديم الذي نحن بصدد محاولة الإجابة عليه الآن على النحو التالي: كيف وصل إرث النبوة (التابوت ومقتنايته) من آل داوود (داوود وسليمان) إلى بيت عمران (والد مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) لزوم وجود حلقة وصل بين آل داوود من جهة وعمران (والد مريم) من جهة أخرى، فقد كان ذلك الإرث النبوي – برأينا- في حيازة شخص من آل عمران الأول حتى تم نقله بعد ذلك من آل داوود إلى عمران الآخر (والد مريم). ليكون السؤال بشكل أكثر دقة الآن هو: من كان حلقة الوصل بين آل داوود (داوود وسليمان) وعمران ألآخر (والد مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن واحدا من السيناريوهات المحتملة (والذي نطلب من القارئ الكريم أن لا يصدقة) هو على النحو التالي: إنه نبي الله إليسع.

الدليل

لو حاولنا البحث في السياقات القرآنية التي جاء فيها ذكر لنبي الله إليسع، سنجد أن ذكر هذا النبي الكريم كان مصاحبا على الدوام للرسل الذين لم ترد قصصهم بشكل مستفيض في كتاب الله. فجاء ذكره بشكل مقتضب فقط في سياقيين قرآنيين هما:

- ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: 86]
- ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص: 48]

لو دققنا في السياق القرآني الأول، لربما حقّ لنا أن نقول بأن الرسل الوارد ذكرهم في هذه الآية قد تواجدوا في زمن كان يتواجد فيه رسل آخرين في نفس الفترة الزمنية، وهم – برأينا- على النحو التالي:

⇐ كان إسماعيل متواجدًا في الفترة الزمنية التي كان متواجدا فيها والده إبراهيم وأخوه إسحاق.
⇐ كان يونس متواجدًا في الفترة الزمنية التي تواجد فيها إلياس
⇐ كان لوط متواجدًا في الفترة الزمنية التي تواجد فيها إبراهيم

السؤال: هل كان إليسع متواجدا في فترة زمنية تواجد فيها غيره من الرسل؟! من يدري؟!

ولو دققنا في السياق القرآني الثاني لوجدنا بأن ثلاثة من الرسل هم الأخيار، ألا وهم إسماعيل واليسع وذو الكفل (وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ). ليكون السؤال الآن هو: ما معنى أن هؤلاء - على وجه التحديد- هم الأخيار؟

رأينا المفترى: لو بحثنا عن الأخيار في النص القرآني على مساحته، لوجدنا (بالإضافة للسابقين) من جاء ذكرهم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 45-47]

لذا، بناء على ما جاء في هذا السياق القرآني، وجب علينا التفريق بين الرسل الأخيار من جهة والرسل المصطفين الأخيار من جهة أخرى. فالرسل الأخيار هم إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ بينما المصطفين الأخيار هم إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. قارن عزيزي القارئ - إن شئت - السياقين القرآنيين مرة أخرى من هذا الجانب:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: 48]
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 45-47]

السؤال مرة أخرى: ما الفرق بين من كان من الأخيار من جهة ومن كان من المصطفين الأخيار من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: لو دققنا في سياق المصطفين الأخيار، لوجدنا بأنهم إبراهيم نفسه وذريته من إسحاق:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 45-47]

ولن يجد المدقق في السياق ذاته صعوبة بأن يرى أنه يخلو من إسماعيل الذي هو من ذرية إبراهيم.

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن إسماعيل من الأخيار لكنه لم يكن من المصطفين الأخيار، بينما كان اسحاق ويعقوب من المصطفين الأخيار، كما كان هؤلاء (المصطفين الأخيار) هم أولي الأيدي والأبصار. لذلك علينا أن نتنبه إلى الفرق بين طرفي آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق على نحو أن الطرف الأول (إسماعيل) قد كان من الأخيار بينما كان الطرف الآخر (اسحاق ويعقوب) من المصطفين الأخيار. ولا ننسى بأن إبراهيم نفسه كان من المصطفين الأخيار الذين هم أيضا أولي الأيدي والأبصار.

ليكون السؤال الآن هو: لماذا كان إسماعيل من الأخيار فقط وليس من المصطفين الأخيار (كأخيه إسحاق مثلا)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري نظن (ربما مخطئين) بأن من كان من المصطفين الأخيار هم من كان عندهم شيئا من إرث النبوة، بينما لم يكن هناك شيء من إرث النبوة عند من كانوا من الأخيار. وهذا الافتراء يدعونا إلى النظر إلى من جاء ذكرهم في الآية الكريمة على نحو أنهم من الأخيار من هذا الباب، أي على أساس أنهم لم يستفيدوا من إرث النبوة، وبالتالي لم تناط بهم - بظننا ربما المغلوط- أكثر من واحدة من مهمتين: إما أن يكونوا واسطة في انتقال ذلك الإرث أو ربما أن يكونوا مراقبين من بعيد لذلك الإرث حتى يصل إلى أصحابه الحقيقين.

- ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: 48]

وبهذا المنطق المفترى الغريب العجيب، دعنا نسطر الافتراءات التالية:

⇐ كان اسماعيل مراقبا عن بعد لإرث النبوة الذي انتقل إلى المصطفين من آل إبراهيم، وهم أخوه إسحاق وابن أخيه يعقوب
⇐ كان ذو الكفل مراقبا عن بعد لإرث النبوة الذي انتقل إلى آل موسى
⇐ كان اليسع مراقبا لإرث النبوة الذي انتقل إلى عمران (ومن ثم إلى مريم ابنت عمران).

والافتراء الأخير منها يعيدنا إلى قصة مريم حيث نجد الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ [آل عمران: 42]

لنطرح بناء على ما جاء فيها التساؤل التالي: ما معنى أن الله قد اصطفى مريم؟

رأينا المفترى: مادام أن مريم كانت مصطفاه، فلابد أنه (نحن نظن) كان عندها شيئا من إرث النبوة.

السؤال: ما هو الشيء الذي كان عند مريم حتى تم لها الاصطفاء الإلهي؟

للإجابة على هذا التساؤل، نحن نرى لزوم طرح سؤال آخر بهذا الصدد، ألا وهو: لماذا جاء لفظ الاصطفاء لمريم مرتين (يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الاصطفاء الأول لمريم كانت نتيجته الطهارة (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ). ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن سبب الاصطفاء الإلهي الأول كانت نتيجته طهارة مريم، وذلك (نحن نرى) بسبب أنها قد ألبست شيئا من إرث النبوة، ألا وهو القميص، الأمر الذي يضطرنا إلى الظن (ربما مخطئين) بأن مريم لم تكن بحاجة أن تأكل من أكل الناس العاديين، وبالتالي لم يصيبها المحيض، ولم تكن بحاجة إلى استخدام الحمام بالتبول أو التغوط، فكانت على الدوام متواجدة في المحراب:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

أما الاصطفاء الثاني فكان لمريم على نساء العالمين (وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)، وذلك (نحن نرى) لأنها الوحيدة من بين نساء العالمين أجمعين من تأهلت لحمل كلمة الله في بطنها.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن وضعت امرأة عمران ما في بطنها، حتى ألبستها ذلك القميص الذي هو من إرث النبوة، فجاءها القبول الإلهي "محررا"، وظلت مريم تلبس ذلك اللباس حتى يوم أن وضعت المسيح. وهناك بالضبط أصبحت مريم مؤهلة أن تأكل مما يأكل منه الناس العاديين ويشربون:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 23-26]

السؤال: لماذا جاء المخاض لمريم هناك؟ ولماذا جاءها الأمر الإلهي أن تهز إليها بجذع النخلة لتأكل وتشرب كبقية نساء العالمين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن مهمة مريم كمصطفاة بالطهارة أولا وكمصطفاة على نساء العالمين بحمل كلمة الله ثانيا قد انتهت عند هذا الحد. فالمهمة التي انيطت بمريم قد انتهت عند تلك اللحظة، فعادت لتكون كبقية نساء العالمين، تأكل وتشرب، وتحيض. وهنا بالضبط تأففت مريم من ذلك، وتمنت لو أنها كانت نسيا منسيا من قبل ذلك، أي من قبل أن يصيبها المحيض:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 23-25]

السؤال: ما الذي حصل على أرض الواقع لمريم حينئذ؟

رأينا المفترى: ما أن وضعت مريم المسيح حتى أصبح لزاما عليها أن تضع عنها ذلك القميص لتضربه على ابنها المسيح عيسى. فأصبح القميص هو ما يجلب الطهارة للمسيح، فما كان بحاجة لأن يأكل من أكل أهل الأرض، وما كان بحاجة أن يرضع من ثدي أمه.

لكن كان هناك ميزة أخرى للمسيح تتمثل باستخدامه للمهد الذي وضع فيه منذ اليوم الأول لولادته، فيصبح الفرق بين مريم من جهة وابنها المسيح من جهة أخرى - برأينا- على النحو التالي:

⇐ مريم : تلبس القميص فترة من الزمن، فيسبب لها الطهارة طوال تلك الفترة
⇐ المسيح: يلبس القميص طوال حياته فيسبب له الطهارة، ويوضع في المهد فيكون مصدر طاقته طوال حياته

السؤال: ماذا حلّ بالقميص الذي كان يلبسه المسيح؟ وماذا حلّ بالمهد الذي كان يتواجد به المسيح؟

رأينا المفترى: ظل عيسى يلبس القميص ويتواجد في التابوت الذي كانت تحمله الملائكة حتى أقدم نفر من الكافرين من بني إسرائيل على الحاق الأذى بالمسيح، وذلك بإراقة الدم في ذلك المهد. فلم يكن المسيح يستطيع التواجد في التابوت بعد الآن، فكانوا هم الماكرين. ولكن لما كان الله خير الماكرين، جاء في هذا اللحظة القرار الإلهي بأن يرفع المسيح إليه ويطهره من الذين كفروا. قال تعالى:

- ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦﴾ [آل عمران: 54-56]

السؤال: ماذا حلّ بالقميص والتابوت بعد أن رفع الله إليه المسيح؟

رأينا المفترى: هذا ما سنتناوله لاحقا عندما ياذن الله لنا بشيء من علمه فيه. فلا استطيع أن أبوح بما في جعبتي الآن بما يتعلق بهذا الموضوع، وذلك لخطورة الأمر من جهة، ولدقة المعلومة التي تتطلب النبش أكثر في تفاصيل الأمر لاحقا من جهة أخرى. لكن ما استطيع أن أقوله حتى الساعة هو أن لا يقلق المؤمنون من عباد الله على ذلك، فالأمر أعظم من يقع شيء من إرث النبوة في يد من لا يستحقه. فالله هو من أحكم آياته، وهو من تعهد بأن يصرف عن آياته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق:

- ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ۝١٤٦﴾ [الأعراف: 146]

فحتى لو رأى المكابرون الماكرون آيات الله فلن يؤمنوا بها، وذلك لأنهم لم يكونوا مكذبين بها فقط ولكن لأنهم غافلين عنها أيضا (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ).

ويأتي التطمين الإلهي لعباده بأنه سيريهم آياته، فلا داع لأن يستعجلوها:

- ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖۚ سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٣٧﴾ [الأنبياء: 37]

فالله وحده أدعوه أن لا أكون ممن يصرفهم عن آياته، وأعوذ به أن أكون من المتكبرين فى الأرض بغير الحق. وادعوه وحده أن يعلمنى ما لم أكن أعلم، وأن يزدنى علما، وأن يهدينى لأقرب من هذا رشدا. وادعوه وحده أن يختصنى برحمة منه وعلما من لدنه لا يكون لأحد غيري، إنه هو السميع البصير.

دعنا نعود إلى لب النقاش هنا، بطرح السؤال القديم مرة أخرى: كيف وصل اللباس والتابوت إلى بيت عمران (والد مريم)؟

رأينا المفترى: نحن نعيد افتراءنا بأن إرث النبوة الذي وصل بيت عمران كان عن طريق من كان من الأخيار وليس عن طريق المصطفين الأخيار. فناقلوا الإرث (والمراقبون له) هم الأخيار، لكن من تتناقل التركة في ريتهم هم المصطفين الأخيار. ليكون السؤال الآن من هو الرسول الذي من الأخيار من آل عمران؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن ذلك النبي (الرسول) الذي كان أداة نقل إرث النبوة في آل عمران هو نبي الله إليسع:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٨﴾ [ص: 48]

فتصبح سلالة تلك الذرية (آل عمران) على النحو التالي:



السؤال: من كان ناقل إرث النبوة من آل إبراهيم وهو الذي من المفترض أن يواز إليسع في آل عمران؟

رأينا المفترى: إنه زكريا. فتصبح سلالة النبوة في آل إبراهيم على النحو التالي:



فذرية آل إبراهيم قد انتهت عند يحيى الذي كان سيدا وحصورا:

- ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

وانتهت ذرية آل عمران عند عمران الثاني والد مريم، وكانت مريم ابنت عمران هي الأنثى الوحيدة من بين جميع نساء العالمين من كان لها ذرية:

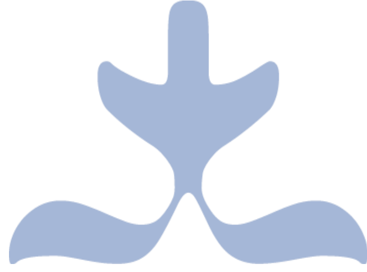
- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: 36]

فالمسيح ليس من ذرية آل إبراهيم وهو ليس من ذرية آل عمران، ولكنه كان ذرية لمريم نفسها.

السؤال: كيف استفادت تلك الذرية من إرث النبوة فيهم؟

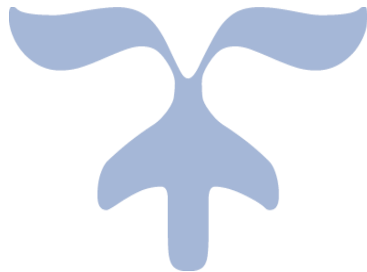
للإجابة على هذا التساؤل، نجد لزاما علينا طرح سؤال مقابل له، ربما تكون تبعاته جمة على النقاش هنا في قصة نبي الله داوود، ألا وهو: ماذا كان للأنبياء والرسل الذين لم يكن في أيديهم شيء من إرث النبوة المادي، كالتابوت والعصا والسفينة واللباس؟

رأينا المفترى: إن هذا السؤال يدعونا إلى محاولة ربط قصة داوود مع غيرها من قصص الأنبياء الآخرين. وهذا ما سنتجرأ عليه في الأجزاء القادمة من هذه السلسلة إن شاء الله. فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الحكيم.



قصة داوود

الجزء الثاني عشر



قصة داوود - الجزء الثاني عشر

تعرضنا في الجزء السابق من هذه المقالة لبعض جوانب حياة تبي الله داوود، وذلك بمحاولة ربطها ببعض جوانب حياة نبي الله عيسى بن مريم، وكانت أهم التقاطعات بين القصتين هو (ما وجدناه) في موضوعي اللسان واللباس. وكان الظن عندنا يتمثل بأن لسان داوود ولسان عيسى بن مريم يختلفان عن لسان العالمين أجمعين، وذلك بسبب مصدر اكتساب اللسان عند كل واحد منهما. ففي حين كان مصدر لسان عيسى بن مريم هو روح القدس، كان مصدر لسان داوود هو الغابة. أما اللباس، فقد ظننا أنه في حين كان لباس عيسى بن مريم هو القميص الذي جاءه من إرث النبوة، كان لباس داوود هو صنعة لبوس (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة).

وقد كان افتراؤنا الأكثر خطورة يتمثل في أن كلا من داوود وعيسى بن مريم قد استفادا من ذلك الصندوق (الذي جاء وصفه في كتاب الله بمسمى التابوت أو المهد)، فما كانا بحاجة أن يرضعا من ثدي أمهما. لأن التابوت ذاته كان هو - في ظننا ربما المغلوط- المصدر الذي يمدّهما بالطاقة اللازمة، كما افترينا الظن من عند أنفسنا بأنه كان لعدم رضاعة داوود وعيسى من ثدي أمهما تأثيرا مباشرا على لسانهما الذي لم يتم تنشيط أنسجته (كعضلة) بالرضاعة الطبيعية، فكان لسان كل واحد منهما مختلفا عن لسان العالمين أجمعين. لكن كان الظن عندنا أيضا أميل إلى أن ذلك الصندوق كان "مهدا" بالنسبة لعيسى بن مريم وذلك لأن خلق عيسى في بطن أمه كان بطريقة لاجنسية (بالنفخ)، بينما كان تابوتا بالنسبة لداوود وذلك لأن خلق داوود في بطن أمه كان بطريقة جنسية (للتفصيل انظر الجزء السابق).

ولمّا ما يزال هناك كثير من التفاصيل الأخرى في حياة داوود، نجد من الضرورة بمكان أن نحاول إلقاء الضوء عليها بطريقة أوسع وذلك بربط قصة نبي الله داوود مع غيرها من قصص الأنبياء الآخرين. وبكلمات أخرى، نحن نظن بأنه حتى تصبح الصورة أكثر وضوحا بمجملها وتفاصيلها، فلابد من محاولة تبيان الجوانب المشتركة (والمختلفة) في حياة أنبياء الله ورسله جميعا. لذا، سنحاول متابعة تسليط الضوء على بعض التفاصيل التي نعرفها عن حياة هؤلاء الرسل، محاولين الاستفادة منها للخروج باستنباطات مفتراة ربما يدعمها الدليل عند اسقاطها على حياة أنبياء آخرين كداودد الذي هو محور حديثنا في هذه السلسة من المقالات. فلبّ القول هو أنه على الرغم من ظننا بأنه كان لكل رسول منهم حياته الخاصة التي تميّزه عن غيره، إلا أن هناك - برأينا- الكثير من التقاطعات التي يشترك بها الكثيرون منهم. فخيوط العنكبوت الرئيسية في قصص حياة الأنبياء تتشابك بطريقة مكثفة جدا ومنظمة جدا. فما ينطبق على أحدهم في بعض جوانب حياته، ربما ينسحب على بعضهم الآخر في الموضوع ذاته، وما قد لا نجده مفصّلًا عند بعضهم، يمكن استعارته من عند الآخرين، وهكذا.

أما بعد،

لعل واحدة من الخيوط الرئيسية في حياة رسل الله جميعا تتمثل في طبيعة مرحلة حياتهم الأولى، وخاصة ما يتعلق بالعائلة التي نشأوا فيها، وبالمجتمع الذي وجدوه سائدًا من حولهم في تلك الفترة من حياتهم، وانعكاس ذلك كله على شخصيتهم الاستثنائية كرسل مبشرين ومنذرين، تأهلوا لأن يكون حاملين لرسالة ربهم إلى الناس من حولهم. لذا، سنحاول النبش في تفاصيل حياة بعض رسل الله في مرحلة الطفولة الأولى ومرحلة الصبا.

1. باب الطفولة والصبا (مؤهلات الاصطفاء الإلهي لهم بالرسالة)

عند الحديث عن أنبياء الله ورسله (كداوود مثلا)، يصبح لزاما أن نعود إلى مرحلة ما قبل الاصطفاء، أي المرحلة التي بدأت فيها تكوّن شخصيات هؤلاء العظماء من عباد الله المؤمنين منذ يومهم الأول في الحياة، وهم الذين كانت عليهم المنّة الإلهية سابغة من قبل أن يتم اصطفاؤهم بالرسالة. ليكون السؤال هو: ما الذي جعل هؤلاء – من بين جميع عباد الله- مؤهلين للاصطفاء الإلهي بالرسالة؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن بأن واحدة من الأسباب الرئيسية التي جعلت هؤلاء النفر من عباد الله مؤهلين للاصطفاء الإلهي بالرسالة يعود إلى الدور الذي لعبه الوالدان أو أحدهما. فنحن سنحاول في السطور التالية الدفاع عن الافتراء الذي مفاده أن صلاح الوالدين (أو أحدهما) كان سببًا مباشرًا في تأهيل أولئك "الأشخاص" للرسالة. وينبع هذا الظن من العقيدة التي مفادها بأن صلاح الوالد ينفع الولد، وليس العكس، فلا ينفع صلاح الإبن والده إلا أن كان ذلك الوالد أساسًا صالحًا من ذي قبل.

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف: 82]

سنجد بأن الغلامين اليتمين قد استفادا عمليًا من صلاح أبوهما (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا). فصلاح ذلك الأب كان سببا في تحقق الإرادة الإلهية لهما أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما.

نتيجة مفتراة: إن اقامة صاحب موسى للجدار قد حفظت للغلامين اليتمين كنزهما، وكان السبب في ذلك كله هو صلاح أبوهما.

وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يجبرنا – بالمقابل - أن نتجرأ على الظن بأنه لو لم يكن الأب لهذين الغلامين صالحا في سابق الأيام، لما أقدم صاحب موسى على إقامة الجدار (الذي كان يريد أن ينقض) لهما. ولو دققنا أكثر في السياق ذاته لوجدنا بأن كل ذلك يقع في باب الرحمة الإلهية (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ). ولو تتبعنا عبارة "رحمة من ربك" على مساحة النص القرآني، لوجدنا ما يثير الدهشة، ألا وهو أنها قد جاءت مصاحبة على الدوام لحصول الوحي:

- ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ٨٦ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ٨٧﴾ [الإسراء: 86-87]

- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦﴾ [القصص: 46]
- ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلۡكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [القصص: 86]
- ﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان: 1-6]

ولو عدنا إلى قصة صاحب موسى، سنجد بأن أهم ما تميز به ذلك الشخص الذي جاء موسى طالبا صحبته هو رحمة ربه التي آتاه الله إياها:

- ﴿فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: 65]

الأمر الذي يدعونا إلى الظن بأن ذلك الشخص (صاحب موسى) الذي أوتي رحمة من ربه كان من الذين يتلقون الوحي (للتفصيل أنظر سلسلة مقالات قصة يونس)

ولو تابعنا بحثنا عن الرحمة الإلهية على بعض عباده، سنجد بأنها تتحقق - كذلك - بحصول الذرية الطيبة كما حصل - مثلا - مع أيوب:

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء: 83-84]

السؤال: كيف تتحق الرحمة الإلهية بالذرية؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الرحمة الإلهية إن تحققت في الذرية للشخص، فإن النتيجة ستكون الاستخلاف في الأرض

الدليل

لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنًاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [النور: 55]

لوجدنا بأنه من الوعد الإلهي أن يكون الاستخلاف في الأرض للذين آمنوا وعملوا الصالحات. ليكون السؤال الآن هو: ما هي آلية استخلاف الذين آمنوا وعملوا الصالحات؟ وبكلمات أخرى، نحن نسأل: كيف يستخلف الله من آمنوا وعملوا الصالحات؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

لوجدنا بأن الإنسان يدعو بأن يعمل صالحا، فيكون ذلك سببا في اتمام النعمة الإلهية على ذريته. فيكون ذلك بتوفية الأجر للصالحين من عباده، وزيادتهم من فضل الله:

- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: 173]

ويكون ذلك من باب ما يجعل لهم الرحمن ودا:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم: 96]

ويكون ذلك في باب ادخالهم في الصالحين:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: 7-9]

السؤال: ما معنى أن يدخل الله بعض عباده في الصالحين؟

رأينا المفترى: علينا التمييز بين من كان صالحا من عباد الله، مقابل من كان من الصالحين منهم. فوالد الغلاميين اليتميين اللذين أقام لهما صاحب موسى الجدار كان صالحا:

- ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: 82]

لكن هل كان ذلك الرجل "من الصالحين؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا عبارة " من الصالحين" على مساحة النص القرآني، سنجد بأنهم رسل الله وأنبياؤه

⇐ إبراهيم: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: 130]

⇐ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢﴾ [النحل: 122]

⇐ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

⇐ ذرية إبراهيم: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصافات: 99-100]

⇐ ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢﴾ [الصافات: 112]

⇐ يحيى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (3:39)

⇐ ﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 39]

⇐ عيسى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٤٦﴾ [آل عمران: 46]

⇐ زكريا: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٥﴾ [الأنعام: 85]

⇐ لوط: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: 74-75]

⇐ اسماعيل وإدريس وذو الكفل: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٨٥ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٨٦﴾ [الأنبياء: 85-86]

⇐ شعيب: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

⇐ يونس (صاحب الحوت): ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم: 48-50]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هناك فرقا بين أن تكون صالحا أو أن تكون من الصالحين، فكثير من الناس قد يكون صالحا، لكن قلة منهم من يدخلهم الله في الصالحين، فيكونوا بذلك من الصالحين. فمن كانوا من الصالحين هم رسل الله الذين أوكل الله لهم مهمة الرسالة.

نتيجة مفتراة: من كان من الصالحين، فهو من الذين اصطفاهم الله برسالاته

نتيجة مفتراة: من كان صالحا، هو من أسبغ الله عليه من نعمه وزاده من فضله، وكانت واحدة من تلك النعمة هي سابغة على ذريته، ويكون ذلك (نحن نظن) في باب جزاء الضعف:

- ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ: 37]

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الأموال والأولاد لا تقرب الإنسان إلى الله زلفى إلا لمن كان قد آمن وعمل صالحا. ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن للأولاد أن تقرب الإنسان إلى الله زلفا إن كان ذلك الشخص مؤمنا وممن عمل صالحا؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى ما افتريناه سابقا حول قصة قتل صاحب موسى لذلك الغلام، لوجدنا أن صاحب موسى يبرر حادثة قتل الغلام على يده على نحو أن ما فعله كان سببه إيمان الأبوين للولد المقتول، ومدفوعا – بالتالي- بالإرادة الإلهية أن يبدلهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف: 80-81]

فتحققت الرحمة الإلهية على الأبوين – نحن نرى- بأن تواجد الآن في ذريتهما من تأهل لأن يكون رسولًا، فكان لقمان هو من أبدل الله به الأبوين المؤمنين خيرًا زكاة وأقرب رحمًا من ابنهما المقتول على يد صاحب موسى (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة).

نتيجة مفتراة مهمة جدا: دعنا نجلب انتباه القارئ الكريم الآن – إن أراد- بأن الهدف من جلّ النقاش السابق هو الوصول إلى نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مفادها بأن للوالدين الصالحين (أو أحدهما) دور في حصول الرحمة الإلهية بالوحي على بعض ذريتهم. انتهى

السؤال المحوري: كيف يمكن تطبيق هذا المنطق المفترى حول دور صلاح الوالدين (أو أحدهما) على الأنبياء والرسل كما جاءت قصصهم مفصلة في كتاب الله؟

رأينا المفترى: علينا أن نميز بين نوعين من الرسل:

⇐ الرسل الذين كانوا من ذرية الذين هم أصلا "من الصالحين"، أي رسل سابقين، أي أن يكون والده رسول من قبله، فإسماعيل واسحق هم من الصالحين من ذرية من كان أيضا من الصالحين (أي إبراهيم)، ويعقوب هو "من الصالحين" الذين جاءوا من ذرية من كان "من الصالحين" (أي إسحاق)، وكذلك كان سليمان ابن داوود وكذلك كان يحيى بن زكريا، الخ.

⇐ الرسل الذين أصبحوا "من الصالحين"، ولكنهم لم يكونوا من ذرية رسل آخرين مباشرة (من الصالحين)، ولكن كان أبوهم صالحا (أي ليس رسولا، ولكنه ممن كان من المتقين الذين يقولون قولا سديدا).

فنقاشنا التالي سينصب على الرسل الذين أصبحوا "من الصالحين"، ولا يظهر صراحة أنهم من ذرية مباشرة من رسل سابقين. لنطرح هنا السؤال التالي: كيف كانت المنّة الإلهية حاضرة على هؤلاء منذ طفولتهم بالرغم أن والديهم ليسوا رسلا "من الصالحين"؟

رأينا المفترى: لقد كانت المنّة الإلهية حاضرة على موسى منذ ولادته، فألقى الله عليه محبّة منه منذ أنْ كان طفلًا صغيرًا، وتمت صناعته على عين الله نفسه:

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: 37-41]

السؤال: لِم كانت المنّة الإلهية على موسى منذ يوم ولادته؟ ما الذي جعله مؤهلًا لأن يُصنع على عين الله طفلا صغيرا في بلاط عدو الله فرعون؟ وما الذي جعل المحبة الإلهية ملقاةً عليه منذ نعومة أظفاره؟

رأينا المفترى: إنه صلاح والديه. انتهى

التفصيل: نحن نتذكر طفولة موسى، وكيف تربى في كنف عدو الله وعدوه. وكيف ألقى الله عليه محبة منه، وكيف صنعه الله على عينه. لا بل كان الله يصنع موسى لنفسه:

- ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: 41]

السؤال: لماذا حظي موسى بكل تلك العناية الإلهية؟ وكيف تمت على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نتجرأ على افتراء الظن أن السبب في ذلك كله يعود إلى صلاح والدي موسى. لكن ما يجدر التنبّه له هنا هو أن موسى كان يتربى في كنف من كفله، وذلك لغياب الأب البيولوجي له بالموت، فوالد موسى (نحن نظن جازمين) كان قد توفاه الله قبل ولادة موسى (أو ربما بعد والدة موسى بوقت قصير) وذلك على الأقل لسببين اثنين:

⇐ لو كان والد موسى على قيد الحياة، لمّا كان التركيز في قصة موسى (نحن نظن) على ما تفعل أم موسى بوليدها إن هي خافت عليه من بطش فرعون وملئه. فالمنطق البسيط يتمثل بأنه لو كان والد موسى على قيد الحياة، لربما كان له رأي في ذلك، ولربما ما كانت أم موسى هي صاحبة القرار كله في أن تقذف بوليدها في التابوت فتقذفه في اليم، فيلتقطه عدو الله وعدوه:

- ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 38-39]

⇐ لو كان والد موسى على قيد الحياة، لربما ما احتاج موسى إلى من يكفُله:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

لكن موت الأب لا يعني أن تتوقف الرحمة الإلهية على ذريته، مادام أنه كان في سابق الأيام "صالحا" ممن يتقون الله ويقولون قولًا سديدًا:

- ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: 9]

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن والد موسى الذي غيبه الموت وما تزال ذريته ضعفاء قد كان صالحا ممن يتقون الله وممن يقولون قولا سديدا. ليكون السؤال الآن هو: كيف تجسدت المنة الإلهية على ذرية هذا الرجل على أرض الواقع بالرغم من وفاته بالموت؟

رأينا المفترى: لقد افترينا الظن منذ أمد بعيد بأن موسى قد تربى في كنف نبي الله ذي الكفل، الذي هو – برأينا- والد نبي الله هارون. فظننا بأن أم موسى قد تزوجت بني الله ذي الكفل بعد وفاة والد موسى، فأنجبت منه ولدها الآخر هارون، فأصبح موسى وهارون أخوة غير أشقاء يشتركان في الأم ويختلفان في الأب. فكان خطاب هارون لموسى دائما على نحو "يا ابْن أم":

- ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٤﴾ [طه: 94]

وقد كان خطاب موسى مع هارون في لحظة ما على نحو أن يخلفه في قومه:

- ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

ولمّا عاد موسى إلى قومه، وجد أن القوم قد استضعفوا هارون وكادوا يقتلوه. فخاطبه هارون مرة أخرى بصيغة يا ابْن أم:

- ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥٠﴾ [الأعراف: 150]

وقد زعمنا الظن حينئذ بأنه لو كان هارون من قوم موسى، لما تردد فرعون أن يأخذ ثأره القديم من موسى الذي قتل نفسا من آل فرعون في سالف الأيام. ففرعون لم يقدم على محاسبة هارون بما فعل أخوه موسى وذلك لأنّ هارون – نحن نظن- لم يكن من قوم موسى وإن كان يشاركه الأم.

(للتفصل انظر مقالاتنا عن موسى وكيف تربى في كنف نبي الله ذي الكفل – والد هارون).

نتيجة مفتراة: كان لموسى أم على قيد الحياة، لكن كان والده ميتا عندما ولد، وكان والد موسى "صالحا" من المتقين الذين يقولون قولًا سديدًا.
نتيجة مفتراة: كانت واحدة من جوانب المنّة الإلهية على موسى عندما كان صغيرا أن أعاده الله من البلاط الفرعوني، ليتربى في كنف أمه فترة طفولته:

- ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: 7]
- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 37-40]

ولا ننسى كذلك بأنه كان لموسى أخت هي من بصُرت به عن جنب في البلاط الفرعون بتوجيه من أمها:

- ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾ [القصص: 11]

وهي من دلّت آل فرعون على أهل البيت الذين سيكفلونه لهم:

- ﴿۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ فَقَالَتۡ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12]
- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 40]

إن هذا الفهم المفترى لأحداث قصة حياة موسى في طفولته تدعونا إلى طرح تساؤلات كثيرة جدا، نذكر منها:

⇐ كم الفترة الزمنية التي عاشها موسى مع أمه؟

- ⇐ كيف عاد إلى أمه؟
- ⇐ هل عاد بالتابوت ذاته الذي قذفته به من ذي قبل؟
- ⇐ ماذا كان تأثير أمه عليه في فترة الطفولة؟
- ⇐ هل عادت أم موسى لترضع طفلها من جديد بعد أن عاد إليها؟
- ⇐ كيف كانت علاقة موسى بأخيه غير الشقيق (هارون) في فترة طفولتهما وصباهما؟
- ⇐ كيف كانت علاقة موسى بزوج أمه ذي الكفل خلال فترة كفالته في بيته؟
- ⇐ من هي أخت موسى التي بصُرت به عن جنب والتي دلّت آل فرعون على من يكفُله لهم؟
- ⇐ كم كان عمر أخت موسى عندما دلّت آل فرعون على من يكفلونه لهم؟
- ⇐ كيف كانت علاقة موسى باخته هذه خلال مراحل حياته المختلفة؟
- ⇐ لماذا لا نجد ذكر لاخت موسى بعد ذلك؟
- ⇐ ماذا كان أسم أخت موسى التي بصُرت به عن جنب في البلاط الفرعوني ودلّت آل فرعون على من يكفله لهم؟
- ⇐ كيف استطاعت الوصول للبلاط الفرعوني حينئذ؟
- ⇐ لماذا أخذ آل فرعون بمشورتها؟
- ⇐ ماذا استفاد موسى من علاقته بكل هؤلاء الأشخاص الذين كانوا من حوله خلال تلك الفترة الزمنية من عمره؟
- ⇐ الخ

دعوة للجميع: نحن ندعو من أراد أن يتابع معنا النقاش في هذه القضايا أن يبقى دائم التفكير بهذه التساؤلات (وغيرها) التي تتعلق بقصة طفولة موسى ونشأته منذ ولادته حتى تبدأ أحداث قصته تتسطر شيئا فشيئا مع توالي الأيام والسنون. فربما لا نستطيع الاجابة على معظم هذه التساؤلات في الوقت الحاضر بالاستناد على تفاصيل قصة موسى فقط. لذا، علينا أن نبحث في تفاصيل حياة أنبياء آخرين، فلربما وجدنا في قصصهم آثارة من علم ترشدنا إلى محاولة تقديم افتراءات تتعلق بالاجابة على مثل هذه التساؤلات التي قلّما وجدناها تُطرح على مسامع الناس من قبل أهل الاختصاص.

فلو عدنا – مثلا- إلى قصة المسيح عيسى بن مريم، لوجدنا سيناريو مشابها وإن لم يكن متطابقا. فأم عيسى موجودة في مسرح الأحداث منذ البداية، لكن لم يكن (نحن نعلم يقينا) لعيسى أب بيولوجي. فكان مؤيدا بروح القدس، وكان لسانه هو لسان روح القدس نفسه. لكن نجد - بالمقابل- بأن والدة المسيح (مريم) قد كان لها أم وأب بيولوجيين، والملفت للانتباه هنا هو أن أمّ مريم (امرأت عمران) كانت حاضرة في المشهد بينما كان والد مريم (عمران) غائبا عن مسرح الأحداث. فكان القرار النهائي لأم مريم أن تنذر لله ما في بطنها محررا:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 35-37]

كما كان القرار لأم موسى أن تقذف بوليدها في التابوت:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ۝٣٩﴾ [طه: 39]

ولو دققنا أكثر في قصة مريم، لوجدنا بأنه كان لها أخ يسمى هارون كما جاء على لسان القوم الذين وجهوا الخطاب لمريم يوم أن أتت قومها تحمل ذلك الصبي في المهد:

- ﴿فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ۝٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ۝٢٨﴾ [مريم: 27-28]

كما كان لموسى أخ غير شقيق هو هارون:

- ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝٤٢﴾ [طه: 42]

ولا يفوتنا أن نذكّر كذلك بأنّ مريم قد تربت منذ نعومة أظفارها في كنف من كفلها وهو نبي الله زكريا:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

كما تربى موسى في كنف من يكفله، ألا وهو – برأينا- نبي الله ذو الكفل:

- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طه: 40]

نتيجة مفتراة: نحن نظن أن هذا الطرح يدعونا إلى افتراء القول من عند أنفسنا بأن مريم هي الصورة الأنثوية المقابلة لموسى كما في الشكل التالي:

موسى (أبن ------)	مريم (مريم ابنت عمران)
والد موسى متوفى بالموت أم موسى (امرأت ....) أخ موسى (هارون) كافل موسى (ذو الكفل)	والد مريم متوفى بالموت أم مريم (امرأت عمران) أخ مريم (هارون) كافل مريم (زكريا)

ولو دققنا في قصة أم مريم (امرأت عمران) أكثر، لوجدنا بأنها قد تفاجأت بأن ما وضعته كان أنثى، ربما لأنها – نحن نرى- كانت تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرا. كما نجد بأنها قد عمدت إلى تسمية مولودتها مريم:

- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]

لنطرح من خلال ذلك عدة اسئلة، نذكر منها:

⇐ لماذا تفاجأت امرأت عمران بأن ما وضعته كانت أنثى؟
⇐ لِم لَم يكن ما وضعت ذكرا؟
⇐ ماذا كان يمكن أن تكون العواقب لو أنّ ما وضعت كان ذكرا؟
⇐ ماذا كان من الممكن أن تسميه؟
⇐ لماذا سمّت امرأت عمران المولودة لها مريم؟
⇐ هل جاء هذا الاسم من أم مريم مصادفة أم كان فعلا مقصودا بذاته؟
⇐ ما معنى أن يكون اسم المولودة لها مريم؟
⇐ هل كان من الممكن أن تطلق عليها أسما آخر غير مريم؟
⇐ ماذا لو قسمنا اسم مريم إلى مقطعين (مر ... يم)؟ ما الذي يمكن أن نفهمه؟
⇐ الخ

جواب مفترى من عند أنفسنا: كانت أم مريم (امرأت عمران) تتوقع أن يكون ما في بطنها ذكرا، وكانت مهيئة نفسها (نحن نظن) بأن تسمي ذلك المولود (إن كان ذكرا) موسى. لكن لمّا كان ما وضعت امرأت عمران أنثى عمدت إلى تسميتها مريم. الأمر الذي يدعونا إلى افتراء الظن (ربما مخطئين) بأن ذلك هو اسم أخت موسى التي بصرت به عن جنب، والتي دلّت آلَ فرعون على من يكفله:

- ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 40]

إن هذا المنطق الغريب العجيب ((المبني على مبدأ المقابلة في قصص القرآن الكريم) يدعونا إلى طرح تساؤلات جديدة ربما تكون أكثر إثارة من سابقتها ، نذكر منها:

⇐ هل كانت أم موسى امرأت شخص يسمى "عمران" كما كانت أم مريم امرأت عمران؟ أي هل كان موسى ابن عمران كما كانت مريم ابنت عمران؟
⇐ هل كان أخ مريم (هارون) هو أخ غير شقيق لمريم كما كان هارون السابق أخ غير شقيق لموسى؟
⇐ إذا كان هارون "أخ شقيق" لمريم، لم لم تنذره امرأة عمران (أم مريم) لله كما نذرت مريم؟
⇐ إذا كان هارون أخ غير شقيق لمريم كما كان هارون القديم "أخ غير شقيق" لموسى، فمن يكون والده؟
⇐ هل كان هارون "أخ غير شقيق" لمريم من أمها أم من أبيها؟ أي هل كانت مريم تشترك معه في الأم أم في الأب؟
⇐ الخ

ربما لا نستطيع الآن الإجابة على هذه التساؤلات الآن بناء على فهمنا غير الدقيق لتفاصيل قصة المسيح وأمه مريم، لذا، علينا البحث في تفاصيل قصص غيرهم من الأنبياء والمرسلين، فربما وجدنا في قصصهم آثارة من علم ترشدنا إلى محاولة تقديم افتراءات بهذا الصدد.

لو حاولنا أن نتذكر قصة إبراهيم - مثلا- لوجدنا أن ابراهيم قد تربى في كنف أبيه صغيرا، وذلك لأن والديه البيولوجيين المباشرين كانا متوفين بالموت من قبل. فهذا إبراهيم يعِد أباه الذي كان يتربى في كنفه بالاستغفار:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 46-47]

ولكنه يتبرأ منه عندما تبيّن له أن أباه ذاك عدوا لله:

- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113-114]

نتيجة مفتراة: أب إبراهيم (كان عدوا لله، لذلك ليس هو والده المباشر).

وفي الوقت ذاته نجد إبراهيم يستغفر لوالديه:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: 39-41]

فهناك – كما افترينا القول في أكثر من مقالة سابقة - فرق بين الأبوين من جهة والوالدين من جهة أخرى. وملخص القول أن الأب ليس بالضرورة أن يكون مباشرا، وليس بالضرورة أن يكون ذكرا أو أنثى، فآدم وزوجه هما أبوان للناس أجمعين، لكنهما ليسا والدان للناس، قال تعالى:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧﴾ [الأعراف: 27]

ولهذا كان ليعقوب أكثر من أب واحد:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

كما كان ليوسف أكثر من أب واحد:

- ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٣٨﴾ [يوسف: 37-38]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالات يوسف مثلا).

لكن للإنسان والدين اثنين فقط هما من ولداه مباشرة:

- ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: 8]
- ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣﴾ [البلد: 3]
- ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ

﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: 233]

وهذا الأمر الذي يدعونا إلى تقديم بعض الافتراءات بهذا الصدد، نذكر منها:

⇐ كان أب إبراهيم عدو لله، فتبرأ إبراهيم منه
⇐ كان والدا إبراهيم البيولوجيان المباشران مؤمنين، فاستغفر لهما إبراهيم

ولو ذهبنا بهذا المنطق المفترى إلى قصة نوح - أيضا- سنجده يدعو لوالديه (كما دعا إبراهيم) بالمغفرة لهما:

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: 26-28]

وربما يحق لنا - لو دققنا في الدعاء بالمغفرة للغير- أن نفتري بأن الدعاء للغير خاص بمن سبق، وما عاد على قيد الحياة:

- ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: 10]

فالاستغفار للآخرين إذاً يجب أن يكون مشروطا بأنهم من الذين سبقوا بالإيمان، فما عاد هناك احتمال لنكوصهم بعد إيمانهم.

نتيجة مفتراة: إن ما يهمنا طرحه هنا هو - نحن نظن- أن هؤلاء المصطفين من عباد الله كانت لهم حياة خاصة في طفولتهم تتميز بعدم وجود الوالدين (كنوح وإبراهيم) أو أحدهما (كموسى ومريم). انتهى.

⇐ موسى له أم على قيد الحياة بينما والده متوفا بالموت
⇐ عيسى له أم على قيد الحياة، وليس له أب بيولوجي
⇐ إبراهيم له والدان متوفيان بالموت
⇐ نوح له والدان متوفيان بالموت

ولو دققنا في الربط بين الطلب الإلهي من محمد بأن لا يستغفر للمشركين ولو كانوا ذوي قربى إن تبين له أنهم من أصحاب النار (كأب إبراهيم مثلا):

- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: 113-114]

سنضطر عندئذ أن ننتقل مباشرة للحديث عن قصة حياة نبيا الكريم الأولى في قومه. وأول ما يمكن أن نفتريه هنا هو أن محمدا مطالب (كما كان إبراهيم مطالبا) أن لا يستغفر للمشركين ولو كانوا ذوي قربى. ليكون السؤال هو: من كان من أولى القربى للنبي الكريم الذين كانوا مشركين حتى جاءه التوجيه الإلهي بأن لا يستغفر لهم؟

رأينا المفترى: إن أي محاولة لنا للإجابة على هذا التساؤل، ستدعونا أن نبدأ البحث في قصة حياة نبينا الكريم في سنوات عمره الأولى. لكن يجب تنبيه كل قارئ لهذه السطور وكل مستمع لتسجيلاتنا لها أن ما سنطرحه في الصفحات التالية لا يعدو أكثر من تساؤلات، الغاية منها إثارة الاهتمام وجلب الانتباه للنظر في الموضوع من زاوية جديدة، وهي لا ترقى بأي حال أن تكون مسلّمات قد قطع الدليل بها. لذا، يجب الحذر في تناولها، ولا يجب – تحت أي ظرف من الظروف أو لأي سبب كان- أن تقتص خارج هذا السياق، لأنها ستكون حينئذ مادة دسمة للجرح والهجوم غير المبرر على عقائد الناس. فنحن ندعو القارئ الكريم لأن ينظر للأمور من زاوية أخرى لأن كل ما سيتحصل منها سيندرج في باب النقاش الفكري الظني، الذي ربما يصدق بعضه، وقد يثبت بطلان أكثره. لذا، نحن نحمل كل من اقتص شيئا منها خارج سياقها الأكاديمي البحثي مسئولية الدفاع عن ما يظن أنه صحيح منها، وذلك بجلب الدليل الذي يثبت صحة ما يتبنى منها، ونحذره من أن يأخذ بها كحجة للهجوم على عقائد الآخرين.

أما بعد،

نحن نعرف مما وصلنا على ألسنة أهل الرواية فيما خطته أيدي أهل الدراية بأن طفولة النبي الكريم كانت مميزة بأحداث تستدعي التدبر والتفكر، نذكر منها:

- ⇐ زواج والده بأمه
- ⇐ عائلة والده
- ⇐ عائلة أمه
- ⇐ طريقة رضاعته
- ⇐ طريقة حياته بين الناس في شبابه
- ⇐ عمله في قومه
- ⇐ زواجه من خديجة
- ⇐ وجوده في الغار
- ⇐ تنزل الرسالة في بداية الوحي
- ⇐ هجرته من مكة
- ⇐ مكوثه في المدينة
- ⇐ صراعه مع الأعراب من حوله





⇐ نهاية رسالته
⇐ الخ.

وسنحاول في الصفحات التالية أن نقحم أنفسنا (كطلاب علم أغرار) في هذه القضايا، محاولين الدفاع عن موقفنا المتمثل بالافتراء الذي مفاده بأن رحلة التأهيل الإلهي لمحمد بالرسالة قد بدأت من عند والديه الكريمين. فنحن نعتقد جازمين بأن والد النبي الكريم ووالده المباشرين كان صالحين، فاستفاد ابنهما من صلاح والديه حتى كان محل الرعاية الإلهية التي جاءت صريحة في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور: 48]

ولو حاولنا أن نربط هذا بما جاء بحق موسى في قوله تعالى:

- ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: 39]

لوجدنا بأن واحدة من أهم ما يجمع نبينا الكريم مع موسى هي تلك المراقبة الإلهي لهما. لكن في حين كان موسى يصنع على عين الله نفسه (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)، كان محمد تحت الرعاية الإلهي غير المباشرة من جنود ربه، بدليل أن صناعته قد جاءت بصيغة الجمع على نحو " بِأَعْيُنِنَا ". ولو عدنا إلى قصة صناعة سفينة نوح، لوجدنا أنها تمت بالطريقة ذاتها، أي بأعيننا:

- ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود: 37]

فكما كانت المراقبة الإلهية غير مباشرة في حالة صناعة سفينة نوح، كان محمد تحت المراقبة الإلهية المستمرة من جند الله.

وهنا يبرز (إن صح منطقنا طبعا) سؤال مثير جدا، ألا وهو: لماذا كان موسى يصنع تحت عين الله مباشرة (عَلَىٰ عَيْنِي)، بينما كان محمد تحت العناية الإلهية غير المباشرة من جند الله (بِأَعْيُنِنَا)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك أنه في حين كان والدا موسى ووالدا محمد صالحين، فقد استحقا الرعاية الإلهية بسبب ذلك، لكن لمّا كان موسى موضوعا في مكان فيه شيء من إرث النبوة: العصا والقميص والتابوت، كان تحت العين الإلهية ذاتها. وبالمقابل، لما كان محمد لا يملك تلك الآيات المادية لم يكن تحت العين الإلهية المباشرة، وذلك لسبب بسيط، ألا وهو ظننا بأن عين الله المباشرة حاضرة على الدوام على آياته.

وحتى نجلب الدليل على هذا الافتراء العجيب الغريب، دعنا نثير بعض المعضلات التي نظن أننا بحاجة إلى تدبرها بطريقة ربما تكون غير مألوفة على أذن القارئ الكريم من ذي قبل.

أما بعد،

المعضلة الأولى: زواج والد النبي بأم النبي.

ولنطرح جملة من التساؤلات حول هذه القضية، نذكر منها:

- ⇐ كيف تزوج والد النبي (عبدالله) بأم النبي (آمنه)؟
- ⇐ متى تزوجها؟
- ⇐ أين تزوجها؟
- ⇐ هل كانت والدته من قومه الذي تربى فيهم؟
- ⇐ لماذا قبلت أمه أن تتركه بين أيدي مرضعة له بالرغم أنه طفلها الوحيد؟
- ⇐ لماذا لم ترضعه هي بنفسها؟
- ⇐ لماذا عادت (كما تقول بعض روايات أهل العلم) إلى قومها بعد ولادته تاركة رضيعها عند أخرى؟
- ⇐ لماذا عادت إليه مرة أخرى بعد فترة من الزمن؟
- ⇐ كم كانت الفترة الزمنية التي قضتها مع ولدها قبل أن تتركه وبعد أن عادت إليه مرة أخرى في لاحق الأيام؟
- ⇐ متى توفيت؟
- ⇐ أين دفنت؟
- ⇐ متى توفي والده؟
- ⇐ أين دفن؟
- ⇐ الخ.

المعضلة الثانية: دور أولى القربى للنبي في مرحلة طفولته،

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا لم يتدخل أهله ليثنوا أمه عن العودة إلى أهلها تاركة رضيعها بأيدي أخرى؟
- ⇐ لماذا كانت رضاعته من نصيب من كانت تسمى (كما تقول بعض الروايات) حليمة السعدية؟
- ⇐ لماذا أشفقت عليه – كما تقول الروايات- حليمة، فأخذته دون أجر مدفوع لها من قبل أهل الطفل؟
- ⇐ ألم يكن جده – كما تقول الروايات- سيد مكة وزعيمها؟
- ⇐ لماذا لم يدفع أجر رضاعة حفيده؟
- ⇐ ألم يكن قد نحر مئة من الإبل فداء لوالده من ذي قبل (وسألوا أهل العلم عن ذلك إن لم كونوا مصدقين)؟
- ⇐ فهل أعجزه أن يدفع لمرضعة حفيده؟
- ⇐ ألم يكن أعمامه من أشراف مكة وسادتها؟
- ⇐ ألم يكونوا – كما تقول الروايات- من أهل الثراء والمال في مكة؟
- ⇐ كيف يوافقون على أن تأخذ حليمة ابنهم دون أجر يُدفع لها من أحدهم؟
- ⇐ الخ.

المعضلة الثالثة: أباء النبي الأولين،

لنطرح حول هذا التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا كان اسم الآباء الأولين للنبي الكريم على نحو عبد المطلب وعبد مناف وعبد شمس؟
- ⇐ فهل كانت تلك آلهة في ذلك الوقت، فنسبوا لها؟
- ⇐ هل يمكن أن يدلّنا هذا على الطبقة الاجتماعية التي كانوا ينحدرون منها؟
- ⇐ لماذا كان أبوه (جده بكلماتنا الدارجة) اسمه عبد المطلب؟
- ⇐ ولماذا كان أبوه الأقدم عبد مناف؟
- ⇐ ولماذا كان أحد آبائه الأقدمين اسمه عبد شمس؟
- ⇐ هل يمكن أن نربط كل هذا باحتجاج القوم على رسالة النبي الكريم أن ذلك القرآن قد أنزل على رجل – هو في نظرهم- ليس عظيما؟

- ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: 31-32]

المعضلة الرابعة: تنقل محمد في أكثر من بيت واحد خلال طفولته،

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا صوّرت لنا الروايات بأن محمدا كان ينتقل من بيت إلى بيت في طفولته؟
- ⇐ لماذا لا نجد أنه قد عاش حياة طبيعية في قومه؟
- ⇐ لماذا كان حمل رعايته صغيرا يقع على أشخاص محددين بعينهم دون الآخرين؟
- ⇐ لماذا كان أبو طالب هو من انبرى – كما تقول الروايات- ليتحمل مسئولية تربيته بالرغم من وجود أكثر من عم للنبي؟
- ⇐ لم لا نجد حمزة أو العباس أو أبا لهب حاضرين في قصة طفولة النبي الكريم؟
- ⇐ أين عماته؟
- ⇐ أين خالاته؟
- ⇐ لِم لَم نسمع أنّ إحداهن قد انبرت لتعتني بالطفل صغيرا؟
- ⇐ هل يمكن أن نربط كل هذا بما جاء في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ

فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ [الأحزاب: 50]

⇐ فكيف يصوّر لنا القرآن بأنّ له عمٌ واحد وخالٌ واحد بينما له عمات كثيرات وخالات كثيرات؟

⇐ الخ.

المعضلة الخامسة: عمل النبي الكريم شابا في مكة،

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

⇐ لماذا أضطر ذلك الشاب – كما تقول بعض الروايات- أن يشتغل عند أناس من مكة بالرغم أنه – كما تقول روايات أخرى- ابنُ سيد مكة وزعيمُها؟

⇐ فهل يقبل سيدُ القوم أن يشتغل أحدُ أبنائه أجيرًا عند الآخرين؟

⇐ لماذا رعى ذلك الشاب الغنم لغير أهله؟

⇐ ألم يكن أحد من أهله قادرا أن يجعله يشتغل عنده؟

⇐ ألم يكن أعمام النبي – كما تقول روايات كثيرة- من أثرياء مكة وتجارِها؟ فما حاجة من كان من تلك العائلة الثرية (نحن نسأل) أن يجد عملا له في غير أهله؟

⇐ الخ

المعضلة السادسة: زواج النبي الأول،

لنطرح حول ذلك التساؤلات التالية:

⇐ لماذا تزوج ذلك الشاب وهو في ريعان الشباب بسيدة تكبره بالعمر، ولها من الذرية من زوجها السابق؟

⇐ ألم يجد في مكة من النساء من تكافئه في العمر والجاه؟

⇐ لماذا تسطّر لنا الروايات ما يصعب قوله في هذا المقام عن قصة زواج محمد بخديجة (ومن لا يصدقنا فلينبش في مؤلفات أهل العلم ليرى بأم عينه ما سطرته أقلامهم عن تلك الحادثة)؟

⇐ ما سبب اعتراض والد خديجة على مصاهرة محمد في بادئ الأمر؟

⇐ لماذا وافق والد خديجة على ذلك الزواج بعد ذلك؟

⇐ ماذا كان والد خديجه (والناس من حوله) ينعتون محمدا حينئذ؟

⇐ الخ

المعضلة السابعة: عزلة محمد عن الناس،

لنطرح حولها التساؤلات التالي:

⇐ لماذا نجد هذا الشاب – كما تقول الروايات- يقضى أكثر وقته بعيدا عن الناس، في ذلك الغار الذي يقع في جبال مكة الشاهقة الجرداء؟

- ⇐ ما الذي يدفع شابا في بداية حياته ليبتعد فترة طويلة عمن حوله من الناس؟
- ⇐ كيف كانت علاقاته مع أهل مكة في تلك الفترة العمرية؟
- ⇐ من كان من أهل مكة الأكثر صحبة له في ذلك الوقت؟
- ⇐ الخ.

المعضلة الثامنة: المواجهة المحتدمة بين محمد من جهة وسادات مكة من جهة أخرى في بداية دعوته،

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

- ⇐ ألم يجد ذلك الرسول الكريم صدا من قبل سادة مكة وكبرائها؟
- ⇐ لماذا لم نجد صوتا لآل هاشم يعارض إخراج النبي من مكة أو يعارض شن الغزوات عليه بعد أن خرج منها؟
- ⇐ ألم تكن مكة وما حولها منطقة قبلية، يدفع الناس بعضهم بعضا بحجة القبلية التي لا تتنازل عن مناصرة أفرادها بغض النظر عن كل المسوغات الأخرى؟
- ⇐ كيف تصور لنا الروايات الهجوم المباشر والأذى الجسدي واللفظي من قبل أهل مكة على النبي الكريم، ولا نسمع صوتا إلا لحمزة (كما صورها لنا العقاد في فلمه الشهير)؟
- ⇐ أليس من المتوقع أن يدفع أهل النبي وعشيرته عنه ذلك الأذى حتى بدافع المناصرة العشائرية التي كانت في أوجها في تلك القرية (مكة) حينئذ؟
- ⇐ الخ

المعضلة التاسعة: الخلاف العرقي على الخلافة بعد وفاة النبي الكريم،

لنطرح حول التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا نشبت الخلافات المناطقية والعرقية على الخلافة مباشرة بعد وفاة النبي الكريم؟
- ⇐ لماذا كانت الخلافة فيمن كان قرشيا ثم انتهت إلى من كان أمويا أو عباسيا؟
- ⇐ أين دور من ناصروه في بداية دعوته؟
- ⇐ لم لا نسمع صوت الذين كانوا مستضعفين فيهم في بداية الدعوة؟
- ⇐ لماذا دبّ الخلاف بين البارزين من الصحابة، خاصة من عرفنا من خلال الروايات أنهم جميعا من كبار الصحابة المبشرين بالجنة كالخلاف بين طلحة والزبير من جهة وعثمان من جهة أخرى؟
- ⇐ ما سر الخلاف بين عائشة وعلي مثلا؟
- ⇐ أين صوت بلال وعمار وأمثالهم من المهاجرين الذين اتبعوه ساعة العسرة؟
- ⇐ هل يمكن ربط كل هذا بما جاء في كتاب الله في قوله تعالى:

- ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التوبة: 117]

- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: 100]
- ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: 8]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: 72]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: 74]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: 20]
- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحديد: 10]

المعضلة العاشرة: الاقتتال على الخلافة،

لنطرح حولها التساؤلات التالية:

⇐ لماذا أصرّ عليٌ – كما تقول الروايات- على حقّه في الخلافة منذ وفاة النبي الكريم؟
⇐ لماذا لم يستطع الوصول للسلطة إلا بعد حين؟
⇐ لماذا لم يتنازل عن ذلك الحق بالرغم من كثرة الدماء التي سالت تحت ذريعة الخلاف بين علي من جهة وبني أمية من جهة أخرى؟
⇐ لماذا كانت الغلبة في نهاية المطاف لبني أمية؟
⇐ كيف استطاع الأمويون أن ينقلبوا على الجميع، فيصبح ملكًا وراثيًا فيهم؟
⇐ لماذا لم تخمد ثورة العباسيين إلا بالانتصار على الأمويين لاحقًا؟

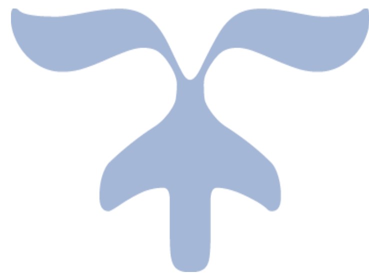
لقد أثارت مثل هذه التساؤلات – ربما غير المبررة- حفيظتنا في محاولة البحث عن بعض تفاصيل حياة النبي الكريم من قبل ولادته وحتى بعد وفاته. وسنتجرأ على بعض الافتراءات التي ربما تساعد (وإن لم تكن دقيقة أو حتى صحيحة) على النظر إلى الأمور من زاوية أخرى، وبطريقة مختلفة عما ألفناه عند آبائنا الأولين.

السؤال: ما علاقة كل هذا بقصة داوود؟ فمن هو داوود؟



قصة داوود

الجزء الثالث عشر



قصة داوود - الجزء الثالث عشر

حاولنا في الجزء السابق من هذه المقالة تمرير افتراء من عند أنفسنا مفاده أن صلاح الوالد ينفع الولد، خاصة إذا نشأ ذلك الولد يتيما. ولكي نثبت زعمنا هذا وجدنا من الضرورة بمكان التمييز بين نوعين من عباد الله الذين كانت منّة الله عليهم حاضرة منذ نعومة أظفارهم، وهما:

⇐ من كان أبوهم "من الصالحين"
⇐ من كان أبوهم صالحا

وقد افترينا القول بأن هناك كثير من الناس من هم ضمن الفئة الثانية "أي من كان أبوهم صالحا"، لكن هناك قلّة من عباد الله من الفئة الأولى، أي من كان أبوهم "من الصالحين". والسبب في ذلك – حسب ظننا – هو أن من كان "من الصالحين" فهو رسول من رسل الله أو نبي من أنبيائه (انظر الجزء السابق حول هذه الجزئية في البحث)، وكانت المنة الإلهية على هؤلاء سابغة بأن تكون النبوة مستمرة في ذريتهم من بعدهم. ولتوضيح الفكرة أكثر نقول: لمّا كان إبراهيم نبيا "من الصالحين"، كانت ذريته (إسماعيل وإسحاق) من الصالحين، ولما كان إسحاق "من الصالحين"، كان ولده يعقوب "من الصالحين"، ولما كان يعقوب "من الصالحين"، كان ولده يوسف "من الصالحين". لكن لمّا كان يوسف قد هلك:

- ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: 34]

أي لم يكن (نحن نظن) له ذرية من بعده:

- ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾ [النساء: 176]

توقف خط النبوة هذا عند ذلك الحد. فقد استمر من عند إبراهيم وانتهى عند يوسف. فكانوا جميعا أنبياء من الصالحين.

والمنطق نفسه ينطبق على سليمان ابن داوود ويحيى ابن زكريا، فهؤلاء رسل "من الصالحين" لأن أبآءهم المباشرين (أي والديهم) هم أصلا "من الصالحين" (أي رسل مصطفين). وبهذا المنطق ربما يحق لنا أن نجلب قوله تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 33-34]

لكن يبرز هنا سؤال آخر أكثر إثارة من سابقه، ألا وهو: كيف يتجدد خط النبوة بعد انقطاع طويل؟ وكيف ينتقل من بيت إلى آخر؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأنه إذا توقف خط النبوة في ذرية عباد الله الذين كانوا من الصالحين (أي رسل سابقين)، فإنها تتجد في ذرية من كان من عباد الله صالحا. انتهى.

الدليل

دعنا نجلب الدليل على ذلك بطرح السؤال التالي: إذا كان إسماعيل وإسحق – مثلا- قد تحصلا على خط النبوة من والدهم المباشر إبراهيم الذي كان رسولا من قبل، فكيف تحصل لإبراهيم نفسه الاصطفاء الإلهي؟ فهل كان والد إبراهيم مثلا من الصالحين (أي رسولا) من قبل؟ وماذا عن نوح نفسه؟ كيف حصل الاصطفاء الإلهي له؟ ولماذا كان الاصطفاء الإلهي له؟ فهل كان والده "من الصالحين" (أي رسولا من قبله)؟ وماذا عن موسى؟ هل كان والد موسى رسولا من الصالحين؟ وماذا عن محمد؟ هل كان والد محمد رسولا؟

السؤال المحوري: هل كان والد كل واحد من هؤلاء رسولا "من الصالحين" (من ذي قبل)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الوالد المباشر لكل واحد من هؤلاء الرسل المصطفين (نوح وإبراهيم وموسى ومحمد – ويضاف إليهم مريم) لم يكن "من الصالحين" (أي لم يكن رسولا من قبل) ولكنه كان رجلًا صالحا، وكفى.

وقد ظننا بأن من كان صالحًا من عباد الله هم من الذين يتقون الله، ويقولون قولًا سديدًا. وأن واحدة من نعمة الله على هؤلاء تتمثل في رعاية ذريته من بعده، خاصة عندما يتركوا من خلفهم ذرية ضعفاء خافوا عليهم، فيتوكل الله بالذرية من الأيتام بسبب صلاح والديهم:

- ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: 9]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا (لا تصدقوها): نحن نفتري الظن بأن والد كل من نوح وإبراهيم وموسى ومحمد – على وجه التحديد – كان رجلا صالحا، ممن كانوا يخشون الله ويقولون قولا سديد، توفاهم الله بالموت تاركين ذرية ضعفاء من خلفهم، لكن ما كانت نعمة الله عليهم لتتوقف بموتهم، فأتمها الله عليهم برعاية ذريتهم الضعفاء (أيتاما) من بعدهم حتى كبروا، وأصبحوا قادرين على رعاية أنفسهم بأنفسهم.

ولا شك عندنا أن اليتيم يخرج من الحالة بوصوله مرحلة البلوغ، وأن تدفع إليهم أموالهم متى أُنس منهم الرشد:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]

لنصل من خلال هذا الطرح إلى جملة من الافتراءات الأولية التي ستكون مثابة أحجار رئيسية في البناء الذي نحاول تشيده في هذا المقام:

نتيجة مفتراة 1: كان والد كل من نوح وإبراهيم وموسى ومحمد (يضاف إليهم مريم) رجلا صالحا
نتيجة مفتراة 2: توفى الله بالموت والد كل من نوح وإبراهيم وموسى ومحمد (يضاف إليهم مريم)
نتيجة مفتراة 3: ترك كل والد منهم ذرية له ضعفاء، فكانوا أيتاما
نتيجة مفتراة 4: نشأ كل من نوح وإبراهيم وموسى ومحمد (يضاف إليهم مريم) يتيما في قومه
نتيجة مفتراة 5: تكفل الله برعاية نوح وإبراهيم وموسى ومحمد (يضاف إليهم مريم) في المرحلة الأولى من حياتهم

تنبيه: وهنا يجب التنبيه إلى قضية مهمة جدا في هذا الصدد: إن هذا الطرح لا يعني أن تستمر الرعاية الإلهية لهذا اليتيم متى بلغ مبلغ الرجال ووصل سن التكليف والرشد. وذلك لأنه يصبح حينها قادرا على أن يتخذ قراره بالإيمان أو الكفر بنفسه. فالله قد تكفل برعاية اليتامى من أبناء من كان صالحا من عباده ماداموا دون سن الرشد والتكليف، لكن ما أن يبلغ ذلك اليتيم سن التكليف والرشد، يصبح هو نفسه من يتخذ قراره فيما يتعلق بالهداية أو الضلال. وهذا ما سنحاول تبيانه عند تعرضنا لقصص هؤلاء الرسل المصطفين كذرية من عباد الله الذين كان كل واحد منهم صالحا، توفاه الله بالموت، وتعهد الله برعاية ذريته الضعفاء من بعده، حتى وصلوا سن التكليف. لكن حصول هؤلاء على شرف التكليف بالرسالة كان نتيجة لاستمرار صلاح كل واحد منهم بعد صلاح والده من ذي قبل.

نتيجة مفتراة 1: الله هو من يتكفل بالعناية بذرية من كان من عباده صالحا ماداموا يتامى (قبل سن البلوغ)
نتيجة مفتراة 2: الشخص نفسه هو يتخذ قراره بالهداية أو الضلال بعد وصول سن التكليف (البلوغ)

الدليل

مادام أن افتراءنا على نحو بأن الله يتولى رعاية الأيتام من ذرية من كان من عباده صالحا حتى يصلوا مرحلة البلوغ والتكليف فقط، فسيكون السؤال المطروح على الفور هو: كيف تتم (تتحقق) هذه الرعاية على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن ذلك يتم – على الأقل- بواحدة من طريقين:

⇐ وجود من يكفل الأيتام كما في حالة موسى ومريم ابنت عمران
⇐ تسخير الآخرين (كافرين ومؤمنين) لخدمة هؤلاء الأيتام مقابل أجر مدفوع لهم

---

1. الطريقة الأولى: باب الكفالة

لقد افترينا الظن منذ أمد بعيد في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن كفالة اليتيم لا تتم إلا بالزواج بأمه. فبعد مولد موسى، تزوجت أم موسى برجل من آل فرعون، فكان موسى في كفالته، فكان هو – كما افترينا حينئذ- ذو الكفل الذي تربى موسى في كنفه. وكذلك نشأت مريم في كفالة زكريا الذي تزوج بأمها (امرأت عمران) بعد وفاة عمران (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا السابقة). فتتطابق قصة موسى (كرسول) اصطفاه الله برسالاته وبكلامه على الناس أجمعين:

- ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [الأعراف: 144]

مع قصة مريم (مصطفاه) على نساء العالمين أجمعين:

- ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران: 42]

وبهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا الذي يبين التطابق العجيب بين موسى من جهة (إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي) ومريم من جهة أخرى (وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ)، لا استبعد بأن يكون والد موسى كان اسمه عمران كما كانت مريم ابنت عمران، كما لا استبعد أن يكون اسم نبي الله ذو الكفل (كافل موسى) هو زكريا، كما كان اسم كافل مريم (زكريا). ليصبح التقابل الذي صورناه في الجزء السابق بين قصة موسى وقصة مريم على النحو التالي:

موسى (أبن عمران)	مريم (مريم ابنت عمران)
والد موسى متوفى بالموت أم موسى (امرأت عمران) أخ موسى (هارون) كافل موسى (ذو الكفل - زكريا)	والد مريم متوفى بالموت أم مريم (امرأت عمران) أخ مريم (هارون) كافل مريم (زكريا)

ولا يظنن أحد أننا نقصد أنها نفس الشخصيات، أو هي الشخصيات ذاتها، بل هي شخصيات متباعدة في الزمان والمكان، فكانت أسماء جديدة (في قصة مريم) سميت على أسماء قديمة (في قصة موسى)، لتكون القصتان في خطوطهما العريضة هي ذات القصة وإن تعددت الشخصيات فيها، وتنوعت الأحداث خلالها. فهؤلاء – لا شك عندنا- من أهل العلم الذين يعلمون قصص بعضهم البعض، فيستفيدون من تفاصيلها على أكمل وجه. فأعيد حبك القصة ذاتها بشخصيات وأحداث جديدة في مكان آخر وزمان آخر.

خلاصة: إن أكثر ما يهمنا هنا هو أن موسى ومريم كانا يتيمين، بسبب عدم وجود الأب البيولوجي (أي الوالد عمران) في مرحلة الحياة الأولى لذريتهما (أي موسى ومريم). فكانت العناية الإلهية بهما قد تمت في بعض جوانبها بالكفالة: زواج الأم برجل آخر يتولى رعاية اليتيم.

2. الطريقة الثانية: باب الإجارة

أما إذا لم تتزوج الأم برجل آخر بعد موت زوجها الصالح من ذي قبل، فإن اليتيم لا تقع عليه كفالة من أحد. وهنا يهيئ الله لهذا اليتيم الظروف التي تكفل له رعاية إلهية بطريقة أخرى، تتجسد على أرض الواقع (نحن نظن) بقيام الناس من حول اليتيم بتقديم خدماتهم له مقابل أجر مدفوع لهم من مال اليتيم نفسه. وسنقدم المثال على ذلك من قصة موسى مع العبد الصالح في انطلاقتهم الثالثة:

- ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧﴾ [الكهف: 77]

فكان تبرير العبد الصالح لموسى عمله في إقامة الجدار على النحو التالي:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ۝٨٢﴾ [الكهف: 82]

وقد حاولنا في مقالة سابقة لنا تحت عنوان "قصة موسى – الجزء السادس" مع العبد الصالح أن نتدبر السبب في أن يعمد صاحب موسى إلى إقامة الجدار بالرغم أن أهل القرية قد أبوا أن يضيفوهما (اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا). وقد كانت أول الملاحظات التي حاولنا جلب انتباه القارئ لها في هذه القصة تتمثل في أن الغلامين اليتيمين كان في المدينة بينما كان الجدار الذي أقامه صاحب موسى في القرية.

الحدث	التأويل
﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ۝٧٧﴾ [الكهف: 77]	﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ۝٨٢﴾ [الكهف: 82]

وقد حاولنا حينها أن ندحض الفهم الشعبي للقصة والذي مفاده بأن أهل القرية كانوا بخلاء لأنهم أبوا أن يضيفوا موسى وصاحبه. وافترينا الظن – بالمقابل- أن أهل القرية لم يرفضوا أن يضيفوا موسى وصاحبه لأنهم بخلاء، ولكن لأنهم مؤتمنون على أموال اليتامى. فأهل القرية الذين استطعمهم موسى وصاحبه هم أناس يقومون على رعاية أموال اليتمين التي لا حق لهم في أن يضيفوا أحداً منها، فأهل القرية التي أتى عليهم موسى وصاحبه كانوا أصحاب ضمائر حيّة وعقائد سليمة، فكانوا من الذين يحافظوا على أموال الأيتام ولا يتصرفوا بشي منها بغير وجه حق، متمثلين الهدي الإلهي الخاص برعاية أموال اليتامى في كل وقت وحين:

- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾ [الأنعام: 152]
- ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]

لذا، كان ظننا على نحو أنه لمّا وجد ذلك العبد الصالح (صاحب موسى) أن أهل تلك القرية الذين أتوا عليهم يحافظون على أموال الأيتام كما يجب، ما كان منه إلا أن يشمّر عن ساعديه ليساعدهم في المحافظة على أموال أولئك الأيتام بإقامة الجدار الذي كان يريد أن ينقض (للتفصيل انظر قصة موسى الجزء السادس على المدونة).

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأنه هذين اليتيمين كانا من ذرية رجل صالح مادام أن الله قد هيأ لهم من خلقه من يحافظ على أموالهم حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما. ولو عدنا نبحث في قصة موسى من أولها عن رجل كان يتق الله ويقول قولا سديدا، لوجدنا ذلك الشخص الذي غامر بحياته لينقذ موسى من تآمر ملأ فرعون به:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص: 20]

نتيجة مفتراة: مادام أن ذلك الرجل كان صالحا، ومادام أنه كان له ذرية ضعفاء (أيتام)، هيأ الله الظروف لأن يقوم على رعاية أموالهم من يراعي حق الله فيهم، فيحافظ عليها حتى يبلغ الأيتام أشدهما، فيستخرجا كنزهما، وكان ذلك من الرحمة الإلهية:

- ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف: 82]

وسنرى لاحقًا انعكاس مثل هذا الظن على حياة نبينا الكريم في طفولته، خاصة ما يتعلق بمرحلة رضاعته من غير أمه. فنحن سنحاول أن ندحض الاتهام عنه بأن ما تسمى حليمة السعدية قد أشفقت عليه لترضعه صدقة منها، وذلك لظننا باستحالة أن ينبت الله نبيه الكريم من صدقات الآخرين. لذا، سنتبنى الرأي بأن أحدا من أهله لم يدفع لقاء رضاعة محمد وذلك لأن والدة النبي الكريم قد رفضت بأن يدفع لرضاعة ولدها من مال غير مال والده الذي تركه له (وسنرى تفصيل ذلك لاحقا إن شاء الله).

إن هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يدعونا عند النظر إلى قصص الأنبياء المصطفين إلى الظن بأن هناك خطوطا رئيسية تتشابك بطرق متماثلة منذ أيام حياتهم الأولى (الطفولة والصبا)، فتصبح حياة هؤلاء مميزة بطريقة عجيبة، تجعل منهم أناسا قادرين على تحمل المسئولية الثقيلة التي ستلقى عليهم في قادم الأيام. ولبّ القول أن حياة هؤلاء النفر من الصالحين من عباد الله قد امتازت بالقسوة والشدة، فلم تكن فترة طفولتهم وصباهم فترة تنعّم، وعيشا رغدا في كنف والديهم، فلم يكونوا أطفالا مدللين، ولا شبابا متنعمين برغد العيش وملذات الحياة. ولكنها حياة تتمثل بقساوة الظروف وشدّة الأحداث التي كان عليهم أن يتجاوزوها بكل عزم وثبات. لذا، عندما نحاول التفكر بهذه الشخصيات الاستثنائية منذ يومهم الأول في الحياة، يجب أن تكون هناك ثوابت رئيسية تكون ناظمة للتفكير عند محاولة تدبر سيرهم منذ البداية وحتى النهاية، نذكر منها:

⇐ أن الاصطفاء الإلهي هو منّة من الله نفسه على المستضعفين في الأرض:

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: 5-6]

فبالرغم من مكانة فرعون وملئة في قومهم، إلا أن المنّة الإلهية والاصطفاء الإلهي كان من نصيب المستضعفين في الارض حينئذ.

⇐ أن الاصطفاء لم يكن للسادة من الأقوام. فمعظم رسل الله قد جاءوا من المستضعفين في الأرض:

- **شعيب:** ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ۝٩١﴾ [هود: 91]
- **لوط:** ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود: 80]
- **موسى:** ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ۝١٢٩﴾ [الأعراف: 129]
- **محمد:** ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: 31-32]

فليس من عيب القول ولا من عواره، ولا من تنزيل قدر الرسول (أي رسول) أن يكون من المستضعفين في الأرض. فالمكانة الاجتماعية الرفيعة لعائلته لا تزيده قدرا، والمكانة الاجتماعية المتدنية لعائلته لا تقلل له شأنا ولا تنزل له قدرا.

⇐ كانت المعارضة ومن ثم المواجهة لهؤلاء المستضعفين قوية من قبل الذين استكبروا:

- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: 75-76]

⇐ لم يتوقف الأمر عند المعارضة، بل تجاوز إلى السخرية والاستهزاء:

- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 38]
- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: 10]
- ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنبياء: 41]

⇐ أن الاصفاء الإلهي قابل للتحول من طائفة إلى طائفة أخرى. فهذا زكريا نفسه يجد بأن الاصطفاء الإلهي قد انتقل من آل يعقوب إلى الموالي (آل عمران)، فطلب ذرية من الذكور تكون بمثابة امتداد لآل يعقوب من بعده:

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 5-6]

فكان له يحيى نبيا من الصالحين، لأن والده زكريا كان أيضا من الصالحين:

- **فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (3:39)**
- ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: 39]
- ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: 85]

⇐ وجود الخلافات العائلية بين المستضعفين من الناس أنفسهم، فلا يناصر بعضهم بعضا، لا بل ربما يبغي بعضهم على بعض. فهذا قارون يبغي على المؤمنين من بني إسرائيل بالرغم أنه منهم، انحيازا إلى جانب الطاغية فرعون وملئه:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: 76]

وهذا أب إبراهيم ينحاز لدين قومه حتى وإن كلفه الأمر أن يرجم ابنه:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]

⇐ الخ

إن أول ما نريد أن نسطره كافتراء ربما يساعدنا في إعادة حبكة قصص الأنبياء من جديد هو التالي: ليس من جميل الكلام أن يُنسب الرسول (أي رسول) إلى عِلية القوم في المكانة الاجتماعية. وليس من عيب القول ولا من عواره أن ينسب الرسول (أي رسول) إلى طائفة المستضعفين من القوم. فالمنّة الإلهية حاضرة على المستضعفين إن كانوا من الصالحين. انتهى.

وليس من جميل الكلام أن يتم تصوير عائلة الرسول الممتدة (أي رسول) على أنها عائلة متماسكة الكيان والبنيان، وليس من عيب القول ولا من عواره أن تبرز الخلافات بين أفراد العائلة الضيقة التي خرج منها ذلك الرسول.

وليس من جميل الكلام أن ينظر الناس إلى المبعوث فيهم نظرة ايجابية، وليس من عيب القول ولا من عواره أن تكون نظرتهم إليه نظرة استعلائية.

وليس من جميل الكلام أن نصور أتباع ذلك الرسول ينحدرون من طبقة اجتماعية "راقية"، وليس من عيب القول ولا من عواره أن يكون جلّ اتباع الرسول من الذي تزدريهم أعين الناس في زمنهم وفي منطقتهم الجغرافية.

وليس من جميل الكلام أن نصور طفولة الرسل بأنها حياة الطفل المدلّل الذي يعيش حياة الرفاهية، ولا من عيب القول ولا من عواره أن نجدها طفولة محاطة بالصعاب والمخاطر.

الخ.

السؤال: في ضوء هذه الافتراءات، كيف يمكن أن نتخيل حياة الرسل؟

رأينا المفترى: دعنا نبدأ بسيرة نبينا الكريم. ولكن قبل تقديم افتراءاتنا في هذا الصدد، وجب التنبيه مرة أخرى إلى أن ما سنقوله تاليًا ليست عقائد مسلم بها، ولا حقائق قطع الدليل بها، ولكنها تصورات مبينة على افتراءات مسبقة، نحاول من خلالها النظر إلى الأمور من زوايا جديدة، ربما تتقاطع مع بعض ما جاءنا من عند أهل التراث، وربما تتضارب معه، وربما تسد فجوة أو تحدث شرخا فيه. لكن يبقى الأمر في باب الظن والشك الذي يتطلب المزيد من البحث والتمحيص.

وبناء عليه، ستكون الافتراءات على نحو سيناريوهات تخيليه، ربما لم تكن يوما تمت للواقع بصلة؛ فمن أراد أن يستخدم خياله، ويمضي قدما معنا في النقاش، فله ذلك شريطة أن يتحمل هو بنفسه مسئولية نتائج فعلته هذه. ومن أراد أن يطوي هذا الملف ويبقي في عالم الواقع والحقيقة، فله ذلك مشكورا منا سلفا على تركه عناء الرحلة الشاقة معنا. فكُتب أهل الدراية والرواية ومؤلفاتهم الجليلة واصداراتهم المحسنة على مواقف التواصل الاجتماعي الحديثة حبلى بالعلم النافع الذي يستثمر فيه وقته وجهده.

سيناريو تخيلي 1: دعنا نتخيل ابتداء السيناريو الذي يصور لنا أن الرسول الكريم لم يكن مولودا لعائلة تنتمي إلى طبقة الأسياد في مكة، وإنما ولد لعائلة من المستضعفين فيهم، وهم الذين لم يكن ينظر إليهم بأنهم من أهل الحلّ والربط في مكة، ولا من طبقة الأثرياء فيها. لا بل ونزيد على ذلك بالخيال الجامح

بأنه كان ممن تزدريهم أعين القوم، الذين يظنون أنهم أصحاب الأحقية في الرسالة. وربما يدعم مثل هذا الافتراء ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]

فالقوم - إذا- يظنون أن الرجل الذي بعث فيهم ليس رجلا عظيما من القريتين، ولا يأتي الرد الإلهي ليكذّب ادعائهم بأنه رجل عظيم على غير ما يدّعون، ولكن جاء الرد الإلهي ليؤكد بأن ذلك من رحمة الله التي قسمها بين العباد في الحياة الدنيا. فرحمة الله تقتضي العدل المطلق، فحتى لو لم يكن الرسول مبعوثا من طبقة اجتماعية "مرموقة" كما يريدون، فإنه من العدل الإلهي أن يتم تعويض المستضعفين في الأرض عمّا لحق بهم من اتخاذهم سخريا من قبل من هم أعلى مكانة اجتماعية أو أكبر نفوذا سياسيًا واقتصاديًا. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- كيف تأتي تتمة السياق القرآني السابق:

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٣٢﴾ [الزخرف: 31-32]

فالقصة ذاتها تكررت في أكثر من وقت وفي غير مكان. فها هم الملأ من بني إسرائيل يحتجون على أن يكون طالوت ملكًا مبعوثا فيهم، لظنهم أنه ليس من الملأ فيهم ولا من ذوي النفوذ الاقتصادي:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٤٧﴾ [البقرة: 246-247]

فحجة الملأ في كل الأقوام واحدة: إنها الاستكبار في الأرض. فها هم ملأ فرعون يصبّون جام غضبهم على المستضعفين في الأرض حينئذ، ألا وهم بنو إسرائيل:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فلا تكون ردة فعل موسى على ذلك إلا على هذا النحو:

- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]

فيأتي رد قوم موسى على نحو ما يصور لنا ما لحق بهم من الأذى على يد فرعون وملئه:

- ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

وهنا تأتي المنّة الإلهية بالانتقام من فرعون وملئه لاستكبارهم في الأرض بغير الحق و باستخلاف بني إسرائيل بما كانوا يؤمنون:

- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: 136-137]

لكن المفارقة العجيبة هنا تتمثل في أنه ما أن يصبح في بني إسرائيل أنفسهم ملأ بعد نجاتهم من الاستعباد حتى يكون تصرفهم على نحو ما كان يفعل ملأ فرعون فيهم، أي الاستكبار على من لم يكن جزءا منهم، وظنهم بأنهم أصحاب الأحقية في الملك كما فعل ملأ ذلك النبي من بعد موسى، عندما احتجوا على الاصفاء الإلهي لطالوت عليهم:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 246-247]

إن النتيجة التي نحاول جاهين الوصول إليها تتمثل في أن الملأ من أي قوم (أي عِلية القوم) يتصرفون باستعلاء على من هم دونهم في المكانة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فتزدري أعينهم من هو ليس منهم. فيكون هناك – على الأقل- طبقتان اجتماعيتان متنافرتان: طبقة من سادة القوم وكبرائهم مقابل طبقة من المستضعفين الذين تزدريهم أعين الطبقة الأولى. وهنا تأتي المنّة الإلهية على المستضعفين في

الأرض ليكونوا هم الوارثين. فقد كانت واحدة من الحجج التي استخدمها الملأ من قوم نوح على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۝٢٦ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ۝٢٧﴾ [هود: 25-27]

نتيجة مفتراة: إن صح افتراؤنا بأن الاصطفاء الإلهي يكون بمنّة منه على المستضعفين في الأرض، وأن هذه سنة من سنن الله التي لا تتبدل، فإننا سنضطر أن نعتقد جازمين (ربما مخطئين) بأن تلك المنّة الإلهية كانت حاضرة في حالة اصطفاء النبي الكريم على القوم المتكبرين من أهل مكة. فبالرغم أن محمدا لم يكن في أعينهم عظيما لأنه (نحن نظن ربما مخطئين) لم يكن من عِلية القوم، إلا أنه كان من المستضعفين في الأرض حينئذ، فشملته المنّة الإلهية بالاصطفاء عليهم. وبهذا الفهم المفترى (ربما غير الدقيق)، نطلب من القارئ الكريم – إن أراد- أن يقرأ الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٣٢﴾ [الزخرف: 31-32]

وقد كانت النتيجة الحتمية على النحو التالي:

- ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٠٥ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾ [المؤمنون: 105-111]
- ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣﴾ [ص: 62-63]

سيناريو تخيلي 2: دعنا نتخيل سيناريو آخر لا يصوّر لنا أن الرسول الكريم كان مولودا في طبقة المستضعفين في الأرض فقط، وإنما في عائلة بسيطة غير متماسكة إجتماعيا، لا يساند أفرادها بعضهم بعضا. فقصة زواج والد النبي الكريم بامرأة لم يصلنا الكثير من الأخبار عن أهلها، وتضارب الروايات حول نسبها العائلي، وقصة موت والده التي لا نعرف الكثير عنها، وترك زوجته وحيدة خلفة تحمل في بطنها جنينا، تصارع الحياة وحيدة في بلاد لا يوجد فيها من أهلها من يساندها ويشد من أزرها، وقصة رضاعة النبي الكريم عند امرأة من الأعراب تحن عليه لأنها لم تجد من يدفع لها مقابل رضاعته، وقصة انتقاله إلى

مربية تسمى أم بركة لا نعرف الداع بأن ينتهي هذا الطفل بين يديها، وغياب الأخبار عن خالاته وعماته عن مشهد الأحداث، ثم قصة انتقاله إلى بيت جده أبو طالب – كما تقول الروايات – الذي كان شيخا طاعنا في السن، فلا ندري من الأولى بالرعاية الطفل الصغير أم الشيخ الطاعن في السن. وقصة انتقاله إلى بيت أبي طالب – كما جاءنا في الروايات- الذي كان رجلا معيلا، وعدم ورود أي إشارات لدور أعمامه الآخرين في رعاية هذا الطفل في صغره، تثير كلها تساؤلات حول ترابط تلك الأسرة اجتماعيا. فنحن نفتري القول (ربما مخطئين) بأنه لو كانت الأسرة التي وُلد فيها محمد أسرة متماسكة اجتماعيا، لما وجدناهم يتركون أم ذلك الطفل تضعه بين أيدي من ترضعه غيرها، ولما وجدنا تلك المرضعة المسماة حليمة السعدية تحنّ على ذلك اليتيم، فتأخذه لترضعه دون أجر يدفعه لها أهل ذلك الطفل، ولما وجدنا أنّ شيخا طاعنا في السن يحتاج أن يرعى هذا الطفل وهو نفسه الأحق بالرعاية، ولما وجدنا واحدا من أعمامه فقط يأتي ذكره في قصة نشأة هذا الطفل اليتيم في مكة، ولما وجدنا أن ذلك الطفل يكبر ليجد نفسه يرعي الغنم عند قوم آخرين، ولما وجدنا ذلك الشاب يقضي جلّ وقته بين الجبال بعيدا عن الناس من حوله. فوفاة والد النبي قبل ولادة طفله، وابتعاد أمه عنه في طفولته المبكرة، وانتقاله إلى يد امرأة اخرى لترضعة، وثالثة لتعنى بتربيته، وشيخ كبير يضطر أن يحتضنه في بيته، وغياب دور معظم أقاربه من حوله، هي كلها عوامل جعلت طفولة النبي طفولة شاقة، تكبّد خلالها عناء التعامل مع ظروف الحياة القاسية صغيرا. ولو دققنا في سيرة حياة الرسل المصطفين جميعا، لوجدنا بأن الابتعاد عن حضن الوالدين الدافئ كان من أبرز سمات طفولتهم القاسية. فحتى يوسف عانى مما نسميه حنان الوالدين، فنشأ بعيدا عنهم، وكذلك كانت طفولة موسى، ونشأ عيسى مع أمه بعيدا عن أعين الناظرين، وكبُر اسماعيل بواد غير ذي زرع بعيدا عن بقية أفراد أسرته، وصارع والده إبراهيم جفاء أبيه وقومه له، وهكذا. وعاش داوود في تلك الغابة البعيدة عن أعين الناظرين معظم أيام سنوات حياته الأولى. ونحن نتجرأ على افتراء الظن من عند أنفسنا بأن طفولة محمد لم تكن استثناءا. فأين عاش ذلك الطفل؟ ومن الذي تكفل برعايته؟

جواب مفترى: نحن لا نريد أن نكذب الروايات التي وصلتنا من عند أهل العلم ولا نريد الدخول في جدال مع المؤمنين بها. لكننا نريد فقط أن نقدم رؤية مفتراة من عند أنفسنا عن طفولة ذلك النبي الكريم، ظانين أنها ربما تحل بعض الاشكالات والتناقضات التي في أذهاننا (نحن على وجه التحديد) عمّا ألفناه من عند آبائنا الأولين.

إن الخطوط العريضة لهذه الرؤية مبنية على الافتراءات المتخيّلة التالية:

⇐ أن عائلة النبي الكريم الممتدة لم تكن من طبقة الملأ، وإنما من طبقة المستضعفين في الأرض

⇐ أن عائلة النبي المصغرة لم تكن عائلة متماسكة يشد بعضها إزر بعض

⇐ أن طفولة الرسول المصطفى تميزت بالمشقة وتحمل الصعاب بعيدا عن أعين الناس من حوله

⇐ أن العناية الألهية كانت حاضرة على النبي الكريم منذ أيام حياته الأولى بسبب صلاح والده المباشر "عبدالله" وإيمان أمه (آمنة).

الدليل

لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا (حسب فهمنا طبعا) ما قد يرشدنا إلى تصور حياة النبي في طفولته، قال تعالى:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: 1-11]

نحن نظن جازمين بأن هذه السورة الكريمة ترشدنا إلى أن نقف عند ثلاث مراحل في حياة النبي الكريم، ألا وهي:

⇐ حالة النبي الكريم في وقت تنزيلها عليه، أي في حاضره حينئذ،
⇐ ما سيكون له في قادم الأيام،
⇐ تذكيره بما كان له في ماضيها.

وتنتهي السورة العظيمة بمجموعة من التوجيهات للنبي بناء على ذلك كله.

أما ما يخص حاضره حينئذ، فنحن نقرأ:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: 1-3]

وأما ما سيكون له في المستقبل منها، فنقرأ:

- ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى: 4-5]

وأما ما كان له في الماضي منها، فنقرأ:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: 6-8]

وأما التوجيهات له، فهي:

- ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: 9-11]

إن ما يهمنا في الدرجة الأولى في هذا المقام من البحث، فهو ما كان للرسول الكريم في ماضي الزمان قبل بعثته، وهي تتلخص بأمور ثلاثة على وجه التحديد، وهي:

- **عندما كان يتيما:** ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: 6]

- **عندما كان ضالا:** ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]
- **عندما كان عائلا:** ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8]

إن أول ما يمكن الحديث عنه هو أن هذه الآيات الكريمة تقطع الشك باليقين بأن النبي الكريم قد عاش فترة من الزمن يتيما (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ). لذا، وجب التعرض لمفردة اليتيم كما ترد في النص القرآني، علّنا نخرج بعد ذلك ببعض الافتراءات التي ربما تساعدنا على فهم حالة النبي الكريم عندما كان يتيما.

لو تدبرنا الآيات الكريمة التالية، سنجد أن اليتيم هو الذي لم يبلغ سن النكاح:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾ [النساء: 6]
- ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾ [النساء: 2]

فاليتيم هو من كان هناك من يتولى كفالته، برعاية أمواله حتى يبلغ سن الحلم، فيدفع لهم أموالهم متى تم إيناس الرشد منهم، وذلك لأن والد اليتيم قد توفي بالموت.

نتيجة مفتراة: كان محمد يتيمًا، لذا نحن نصدق الرواية التاريخية بأن والده لم يكن على قيد الحياة عندما كان هذا الصبي صغيرًا. فجاء النص القرآني ليوضح لنا هذه الحقيقة عن طفولة النبي الكريم. ولكن الأهم من هذا هو أن الله هو من وجده يتيما، فآواه:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضحى: 6]

فتكون أول موجبات هذا الطرح هو الكفّ عن البحث عمن تكفّل رعاية النبي الكريم يتيمًا، لأن النص القرآني يبينها صراحة بأن الله هو نفسه من آوى محمدا يتيمًا.

نتيجة مفتراة 1: نشأ محمد يتيما (وهذا ما نعرفه جميعا مما وصلنا في الروايات)
نتيجة مفتراة 2: كان الله هو من آوى محمدا، فلا حق لأحد من الناس أن يدعي الفضل على محمد طفلا يتيما (وهذا ما لا نجده في الروايات، ونفتريه الآن من عند آنفسنا)

السؤال: ما معنى أن الله هو من آوى محمدا يتيمًا؟ وما الذي نستفيده من ذلك؟

تخيلات من عند أنفسنا: نحن نتخيل ذلك الطفل اليتيم وحيدا، يصارع الحياة، فلا يجد من يتكفل رعايته من الناس بما في ذلك أفراد أسرته الضيقة، فلا جدّه - كما تقول الروايات- رعاه، ولا عمه حماه. فالله

وحده هو من تكفّل برعايته، فما ودعه الله وما قلاه، وهذا مما تثبته بداية سورة الضحى التي تتحدث عن حياة النبي الكريم نفسه:

- ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: 3]

لكن السؤال المطروح من هذا النقاش هو: كيف آواه الله؟

رأينا المفترى: لو حاولنا البحث عن مفردة "آوى" على مساحة النص القرآني، سنجد (كما زعمنا في أكثر من مكان سابق) بأن المفردة تتعلق بالذهاب إلى مكان مرتفع كالجبل أو الركن أو إلى مكان أعلى من المكان المتواجد فيه الآخرون فترة من الوقت، فتكون العزلة عن الآخرين هي من أهم ميزات من أوى إلى مكان ما. قال تعالى:

- ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود: 43]
- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود: 80]
- ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩﴾ [يوسف: 69]
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف: 99]
- ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

إن هذا الطرح يدعونا إلى تصديق الرواية التاريخية بأن النبي الكريم كان يأوى إلى جبل حيث يمكث في الغار فيه فترة طويلة من الزمن.

السؤال: ما تبعات هذا الفهم؟

رأينا: نحن نظن أن لهذا الطرح تبعات جمة، نذكر منها:

- ⇐ عدم الصاق منّة بشرية على ذلك الصبي "اليتيم" من أحد من العالمين، فالله هو من تكفل برعايته طوال الفترة التي كان فيها يتيمًا (أي قبل سن البلوغ)،
- ⇐ لم يكن لأفراد أسرة النبي الكريم فضل في تربيته ونشأته،
- ⇐ انعزال النبي عن القوم الذي ولد فيهم طفلًا صغيرًا. فكان له عالمه الخاص الذي طوّره بعيدا عن التأثيرات المجتمعية في ذلك الزمان.

وسنحاول فتح هذه الملفات الثلاثة تباعا، لنرى ما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك.

3. باب المنة الإلهية

السؤال: لماذا قضت الحكمة الإلهية بأن لا يكون للناس منّة على من اصطفى من عباده ليكونوا رسله؟

- ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: 11]

فكيف تكون المنّة الإلهية على عبد من عباده؟

جواب مفترى: سنعود بهذا السؤال إلى قصة الوالدين كما تجليها الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف: 15]

والتي جاءت في سياق من كان قد قال لوالديه أف لكما من ذي قبل. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت – هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع:

- ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: 15-17]

وقد افترينا سابقا أن هذا ما كان من أمر لقمان الذي ما أن بلغ أشده حتى لهج لسانه بالشكر لله ولوالديه، وبذكر النعم الإلهاية عليه وعلى والديه اللذين أبدلهما الله غلامًا خيرًا من سابقه زكاة وأقرب رحمًا. كما حاولنا تبيان أنّ هذا السلوك كان مميزا لآل داوود كما جاء على لسان سليمان لاحقا:

- ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: 19]

ولو تفقدنا سورة الضحى التي جاءت بتفاصيل حياة النبي الكريم، سنجدها تختم ذلك كله بالآية الكريمة التي تطالب النبي بأن يحدث بنعمة ربه:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ [الضحى: 1-11]

وهنا يتوجب علينا – نحن نرى- أن نتعرض لمفهوم النعمة الإلهية على عبد من عباده. طارحين السؤال التالي: ما هي النعمة التي كانت خاصة بمحمد على وجه التحديد فجاءه التوجيه الإلهي بأن يحدث بها (وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ)؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بالنعمة الإلهية، لوجدنا على الفور الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٨﴾ [النحل: 18]

فنعمة الله على عبادة يمكن أن تعدّ ولكنها - بالتأكيد- لا تحصى. وهذا أمر لا يحتاج إلى كثير عناء لإثباته، لكن يبقى السؤال قائما عن نعمة الله على بعض عباده، الذين اسبغ الله عليهم نعمة منها لم تكن لغيرهم. فلو قرأنا في سورة الفاتحة، سنجد أننا دائمي الدعاء بأن يهدنا الله صراط الذين أنعم عليهم، قال تعالى:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6-7]

فنحن إذا ندعو الله أن يهدينا صراط فئة من المؤمنين هم الذين أنعم الله عليهم، فهؤلاء ليسوا من عامة الناس الذين يتمتعون بنعمة الله التي قد تعد ولكن لا تحصى، ولكنهم مجموعة خاصة، أسبغ الله عليهم نعمة خاصة لم تكن لغيرهم، ونحن نظن أن هؤلاء هم من جاء وصفهم في قوله تعالى:

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا۩ ۝٥٨﴾ [مريم: 58]

فهناك إذا نعمة خاصة من الله للنبيين من ذرية آدم وممن حمل مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدى الله واجتبى. إنهم إذا من كان لهم الاصطفاء من الخلق ليكونوا رسل الله للناس. ونحن الناس العاديين يمكن أن نحظى بصحبة هؤلاء تحت شرط واحد، ألا وهو ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩﴾ [النساء: 69]

ليكون السؤال الآن هو: ما طبيعة النعمة التي اسبغها الله على عباده من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ وبكلمات أكثر وضوحا نحن نسأل: ما هي النعمة التي اسبغها الله على محمد وحثه بأن يحدّث بها كما في قوله تعالى:

- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11]

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه يمكن لنا تحديد تلك النعمة بعد دراسة الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: 37]

لقد حاولنا تقديم تصور مفترى من عند أنفسنا عن قصة زيد في هذه الآية الكريمة، ومن أراد التفصيل في هذا الموضوع فليرجع إلى تلك المقالات. لكن ما يهمنا هنا هو التركيز على نقطة واحدة تخص النعمة التي كانت من الله على زيد وتلك التي كانت من النبي على زيد. لذا، نحن نطرح التساؤل المثير التالي: ما هي النعمة التي كانت من الله ومن النبي على زيد على وجه التحديد؟ ولماذا جاء ذكر زيد باسمه على وجه التحديد في سياق الحديث عن نعمة أنعمها الله عليه وعن نعمة أنعمها النبي عليه (أى على زيد)؟

جواب مفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يبقى الطرح في إطار العموميات التي ربما لا تسعفنا في فهم حقيقة الأمر، فنعمة الله التي قد تعد ولا تحصى تشمل جميع عباده، مؤمنهم وكافرهم، لكن هناك نعمة خاصة أصابت "زيد" على وجه التحديد أبرزها القرآن الكريم في آية من آياته. لذا، سنعاود طرح التساؤل ذاته بهذه الطريقة: إذا كانت نعمة الله تصيب عباده جميعهم، فما هي نعمة الله الخاصة التي أصابت زيد دون بقية المؤمنين من حول النبي الكريم؟ وعلينا أن لا ننسى كذلك بأن هناك نعمة من النبي كذلك على زيد على وجه التحديد دون بقية المؤمنين من حوله حينئذ (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ)، فما هي؟

رأينا المفترى: لو حاولنا تفقد السياقات القرآنية الخاصة بالنعمة، لوجدنا بأن نعمة الله قد أصابت مجموعة من الناس على وجه التحديد، ولو حاولنا البحث عن هذه المجموعة، لوجدناهم بني إسرائيل. قال تعالى:

- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة: 40]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: 47]
- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [البقرة: 122]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: 20]

- ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾ [البقرة: 211]

ليكون السؤال الآن على النحو التالي: بماذا تميّز بنو إسرائيل عن غيرهم عندما كانت نعمة الله عليهم أكثر من تلك التي كانت على غيرهم؟ وبكلمات أخرى – نحن نسأل- ما سر التميز لبني إسرائيل حتى كانت نعمة الله عليهم بهذا الوضوح في النص القرآني؟ فهل كان لبني إسرائيل في وقت من الأوقات نعمة خاصة ما كانت لغيرهم؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن النعمة الإلهية الخاصة على عبد من عباده (دون الآخرين كزيد) أو على مجموعة معينة (دون المجموعات الأخرى كبني إسرائيل) تكمن في حصولهم على شيء مميز لم يكن لغيرهم. فما هو هذا الشيء المميز الذي حظي به من جاءته نعمة الله الخاصة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الآية الكريمة التالية ترشدنا إلى مبتغانا، قال تعالى:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

فنعمة الله الخاصة على عيسى بن مريم (إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ) قد فصلت في هذه الآية الكريمة على نحو:

⇐ التأييد بروح القدس ليكلم الناس في المهد وكهلا (إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا)

⇐ تعليم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل (وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ)

⇐ أن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا (وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ)

⇐ يبرئ الأكمه والأبرص (وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ)

⇐ يخرج الموتى (وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ)

⇐ كف بني إسرائيل عنه إذ جاءهم بالبينات (وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ)

السؤال: ما الذي يجمع كل هذا معا؟

جواب مفترى مهم جدا جدا: إنه العلم الذي لم يكن لغيره.

السؤال: ما الذي نفهمه من ذلك كله؟

رأينا المفترى: لا شك أن نعمة الله على عباده قد تعد ولكنها لا تحصى، وهذه تقع في باب النعمة العامة التي تشمل الجميع، لكن هناك نعمة خاصة يختص الله بها بعضا من عباده (أفرادا أو مجموعات)، وهذه النعمة الخاصة تتمثل (نحن نرى) بشيء واحد، ألا وهو الحصول على العلم الذي لم يكن إلا للخاصة من عباد الله.

(دعاء: اللهم أدعوك وحدك أن تسبغ على نعمة منك لا تكون لأحد غيري، إنك أنت السميع العليم).

والآن دعنا نعد بهذا الفهم المفترى من عند أنفسنا لمعنى النعمة الخاصة إلى قصة زيد في الآية الكريمة التي نعيدها هنا لأغراض النقاش:

- ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: 37]

لنطرح الآن تساؤلنا السابق مرة أخرى: ما هي النعمة التي حظي بها زيد من الله ومن النبي الكريم (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ)؟

رأينا المفترى: لقد جاءنا من عند أهل الدراية من أهل العلم كما نقل لنا ذلك أهل الرواية منهم الكثير عن علاقة زيد على وجه التحديد بالرسول الكريم حتى ذهب الكثير منهم إلى محاولة اثبات أن النبي قد اتخذ زيدًا إبنا له، ثم حاولوا بعد ذلك فك تلك العلاقة عندما نزلت الآية الكريمة التالية التي تثبت عكس ما ظنوا وروجوا له في مؤلفاتهم:

- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: 40]

ثم وقعنا في جدل (نحن نظن بأنه لا طائلة منه) بجواز أو بعدم جواز التبني من المنظور العقائدي. ونحن هنا لا نريد أن ندخل في هذه الجدلية بالاثبات أو بالنفي أو حتى بمحاولة الالتفات على الأمر بأي

وسيلة كانت، لكن الذي نريد أن نركز عليه هو شيء واحد: ما سرّ العلاقة الوطية بين النبي الكريم من جهة وزيد من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: نحن نتجرأ على اثبات وجود علاقة فريدة بين النبي وزيد (دون بقية المؤمنين من حول النبي) أولًا، ونثبت كذلك بأن الله قد منّ على زيد بنعمة خاصة، ونثبت أيضا بأن النبي قد منّ على زيد بنعمة خاصة لم تكن لغيره من المؤمنين من حول النبي حينئذ. ونفتري القول من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن تلك النعمة كانت تتعلق بالعلم، ولا شيء غير العلم. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن نعمة الله على زيد كانت خاصة بالعلم، فقد كان زيد (نحن نرى) من أكثر الاشخاص الضالين في حينه، أي أولئك الباحثين عن الهداية، الراغبين في الحصول على العلم. فكانت نعمة الله عليه بأن هداه إلى مصدر المعلومات التي يبحث عنها، فما وجد نفسه إلا تلميذًا نجيبًا عند محمد، فما بخل عليه النبي الكريم بالعلم، فكان دائم الالتصاق بالنبي، ليتعلم منه، وينهل من الكوثر الذي بين يديه، فأصبح زيد بمثابة الحواري (طالب العلم) عند محمد (المعلم). لذا، عندما أراد محمد أن ينفذ زواجه بزينب بنت جحش بطريقة مختلفة تماما، ولغاية عظيمة في نفسه، ما وجد بين أصحابه من يستطيع أن يفهم الرسالة بالشكل الصحيح، وأن ينفذها على أفضل وجه غير زيد (طالبه النجيب). (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان حديث الإفك).

إن هذا الطرح يعيدنا إلى أن المنّة الإلهية بالنعمة على عباد له مميزين تكون على نحو أن يختصهم بالعلم الذي لم يكن لغيرهم. ولم يكن مؤهلا لمثل هذه النعمة أكثر ممن اصطفاهم الله من رسله. فهؤلاء المصطفين من العباد هم من كانت نعمة الله عليهم ظاهرة وباطنة:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]

لذا، علينا أن نميز الآن بين نوعين من النعمة الإلهية على عباده: نعمة الله الظاهرة مقابل نعمة الله الباطنة. ونحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن نعمة الله الظاهرة هي التي تكون للخلق عامة، مؤمنهم وكافرهم، ولكن نعمة الله الباطنة – بالمقابل- فهي التي تكون للخاصة من عباده (أفرادا أو جماعات). لذا، عندما نقرأ قوله تعالى:

- ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: 6-7]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: هناك نعمة ظاهرة تصيب جميع عباد الله، وهناك نعمة باطنة تصيب بعضا من عباده أفرادا أو مجموعات. انتهى. (فالله وحده أسأل أن يهديني صراطه المستقيم، فيمن علي بنعمة باطنة منه لا تكون للأحد غيري، إنه هو البصير العليم).

لذا، نحن نطلب هداية الصراط المستقيم الذي كان لمن أسبغ الله عليهم نعمه الباطنة، وهؤلاء هم الذين نطلب معيتهم، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: 69]

السؤال: ما هي النعمة التي أنعمها الله على نبيه محمد وطلب منه أن يحدث بها كما جاء في نهاية سورة الضحى:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 1-11]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه تلك النعمة هي ما آتاه الله لمحمد من العلم، فما كان لأحد من الناس فضل في العلم الذي حصل عليه النبي الكريم لأنه نعمة باطنة من الله، اختص بها نبيه الكريم، ومصداق ذلك قوله تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النحل: 103]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نرى أنه من الحكمة الإلهية أن ينشأ المصطفى من العباد بالرسالة بعيدا عن الناس حتى لا يتأثر بما عندهم من المعرفة، فيكون العلم الذي يحصل عليه هذا العبد المصطفى علما خالصا نقيا، لا تطاله شائبة مما عند الناس من المعارف التي ربما يصدق بعضها ويخطئ أكثرها.

السؤال: ما سبب تأهيل محمد ليحظى بهذه النعمة الخاصة (العلم) من ربه؟

جواب مفترى: إنه صلاح والده (عبدالله) وإيمان أمه (آمنة)

السؤال: كيف تم له ذلك؟

جواب مفترى: إيواء الله له يتيما بعيدا عن الناس

خلاصة: إن هذا الطرح – على ركاكته- ينقلنا مباشرة إل الحديث في باب انعزال النبي عن الناس في مكان بعيد بين تضاريس الطبيعة القاسية ومخلوقاتها الموحشة.

السؤال: ما فائدة العزلة لمن أسبغ عليه الله نعمة باطنة بالعلم الذي لا يكون لغيره؟

جواب مفترى: ليصبح من أسبغ عليه الله تلك النعمة الخاصة (الباطنة) مؤهلا لأن يختصه الله برحمة منه:

- ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [آل عمران: 74]

نتيجة مفتراة 1: اسباغ النعمة الباطنة تكون بالعلم
نتيجة مفتراة 2: اختصاص الرحمة يكون بالوحي

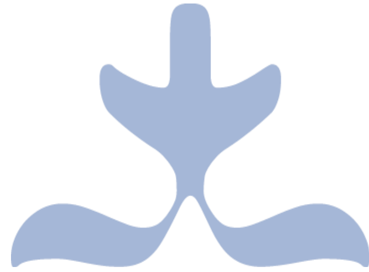
قال تعالى:

- ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ۝٦٥﴾ [الكهف: 65]

السؤال: ما الفرق بين أن يؤتي الله أحدا من عباده رحمة من عنده من جهة وأن يعلمه من لدنه علما من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: هذا ما سنتناوله في الأجزاء القادمة من هذه المقالة إن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

لكن السؤال الآن هو: هل يذكّرك هذا الطرح بقصة داوود التي حاولنا رسمها في الأجزاء الأولى من هذه المقالة؟ فمن هو داوود إذًا؟



قصة داوود

الجزء الرابع عشر



قصة داوود - الجزء الرابع عشر

خلصنا في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة إلى محاولة التمييز بين نوعين من المنّة الإلهية بالنعمة على عباد له: نعمة ظاهرة كثيرة (عامة) ونعمة باطنة محددة (خاصة):

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]

وقد افترينا الظن (ربما مخطئين) بأن نعمة الله الظاهرة هي التي تكون للخلق عامة، مؤمنهم وكافرهم:

- ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: 18]

ولكن نعمة الله الباطنة – بالمقابل- لا تكون إلا للخاصة من عباده (أفرادا أو جماعات). وبناء عليه، ظننا بأن النعمة التي طالب الله نبيه الكريم بأن يحدّث بها كما جاء في نهاية سورة الضحى:

- ﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 1-11]

كانت خاصة بالعلم الذي آتاه الله نبيه الكريم، فما كان لأحد من الناس فضل في العلم الذي حصل عليه النبي الكريم لأنه نعمة باطنة من الله، اختص بها نبيه الكريم. فالله هو من وعد نبيه الكريم أن يعطيه حتى يرضى:

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]

وبالفعل كان عطاء الله لمحمد هو الكوثر، نبع العلم:

- ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾﴾ [الكوثر: 1]

فكان خيالنا على نحو أن ينشأ النبي المصطفى بالرسالة بعيدا عن الناس حتى لا يتأثر بما عندهم من المعارف البشرية، فيبقى العلم الذي يحصل عليه هذا العبد المصطفى علما خالصا نقيا، لا تطاله شائبة مما عند الناس من المعارف التي ربما يصدق بعضها ويخطئ كثيرها.

وحاولنا الترويج – ابتداء- بأن واحدة من الأسباب الرئيسية التي جعلت ذلك الشخص محل العناية الإلهية (غير المباشرة) يعود إلى صلاح والده (عبدالله) وإيمان أمه (آمنة). فنشأ ذلك اليتيم في مكان كان الله هو من أواه إليه (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ). وبالفعل، مكث في ذلك المأوى بعيدا عن الناس بين تضاريس

الطبيعة القاسية ومخلوقاتها الموحشة، يتعلم ويتدرب بطريقة لا يشاركه مثلها أقرانه من أبناء العالمين في ذلك الزمان والمكان.

أما بعد،

سنتابع في هذا الجزء من المقالة نسج خيوط القصة ذاتها من خيالنا حول سبب انعزال النبي المصطفى (في ذلك المأوى) عن الناس فترة من الزمن، طارحين السؤال الأولي التالي: ماذا كان يفعل النبي الكريم في ذلك المكان المنعزل عن الناس؟ وما الذي استفاده من تلك العزلة الطويلة منذ أيام طفولته وصباه؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من مسلتزمات الإجابة على هذا التساؤل اثبات الظن أولا بأن هذه العزلة كانت نهجا لرسل الله وأنبيائه، والخاصة من عباده المؤمنين، فهذا إبراهيم يعتزل من هم حوله:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: 48-50]

وها هم فتية الكهف يعتزلوا قومهم، ويأوون إلى الكهف:

- ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ [الكهف: 16]

وهذا موسى يفر من آل فرعون ويعيش فترة من الزمن بعيدا عنهم:

- ﴿فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١﴾ [الشعراء: 21]

وهذا يوسف يلبث في السجن بضع سنين:

- ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾ [يوسف: 42]

ليكون السؤال الآن هو: ما أهمية تلك العزلة بعيدا عن الناس؟

رأينا المفترى: علينا أن نميّز بين نوعين من العزلة: العزلة في الطفولة والصبا مقابل العزلة في الشباب والكهولة. فالمتدبر لسير حياة الرسل والأنبياء وقصصهم، سيجد أن بعضهم قد انعزل عن الناس في مكان ما فترة من الزمن منذ طفولته كمريم مثلا وابنها المسيح عيسى. ومنهم من أعتزل قومه بعد أن بلغ سن الرشد كإبراهيم وموسى مثلا أو كفتية الكهف. لذا، يمكن أن ننظر إلى الأمر على نحو أن هناك اعتزال – لنقل-

مفروضا على الشخص مقابل اعتزال اختياري طوعي من الشخص نفسه. ليكون السؤال الآن: من أين نوع كانت عزلة نبينا الكريم عن قومه؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن عزلته كانت إلى حد ما عزلة مفروضة، فهو لم يختارها طواعية، وإنما فرضت عليه مادام أنها قد حصلت في الفترة الزمنية التي كان فيها يتيما (أي قبل سن البلوغ).

- ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: 6]

ليكون السؤال الآن: ماذا كانت فائدة تلك العزلة؟ أو لنسأل بطريقة أخرى: ما عواقب العزلة على الشخص نفسه إن كانت في سن مبكرة؟

جواب مفترى خطير جدا (لا تصدقوه): اختلاف اللسان.

مقدمات بسيطة: عندما ينشأ الطفل سنوات عمره الأولى في مجتمع بشري، يكون أول ما يكتسبه ذلك الطفل من الناس من حوله هو لسانهم الذي يتحدثون به، وتعزز قدرته في اكتساب ذلك اللسان بمقدار انخراطه فيهم وتفاعله معهم. لذا، إن نشأ ذلك الطفل في مكان منعزل عن الناس، فسيتأثر لسانه بمقدار ذلك الإنعزال، وكلما كان الإنعزال أطول في المدة، وأبكر في العمر، كلما كان التأثير العكسي أكبر. فإذا ما كانت العزلة تامة منذ نعومة أظفار الطفل، كان انعقاد اللسان أكبر وأشد.

السؤال: هل هذا شيء إيجابي أم شيء سلبي؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن هذا شيء إيجابي في حالة وجود البديل. فقد كان لسان عيسى بن مريم يختلف عن لسان العالمين أجمعين، فما تحدث عيسى بلسان الناس من حوله لأنه جاء منذ اليوم الأول يتكلم، فكان مؤيدا بروح القدس الذي كان عيسى يتكلم بلسانه. لكن مريم (أم المسيح عيسى) نشأت في خلوتها في المحراب، فكانت تعرف لسان الناس من حولها، ولكن تلك العزلة أكسبتها شيئا آخر، ألا وهو القدرة على محادثة الروح الذي جاءها في الحجاب:

- ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا
إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَا أَنَا
رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠
قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١﴾
[مريم: 16-21]

وهو الذي ناداها من تحتها بعد أن وضعت المسيح عند تلك النخلة:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ۝٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ۝٢٦﴾ [مريم: 24-26]

لذا، كانت مريم تتقن الخطابين، خطاب الناس من حولها، وخطاب الروح الذي أرسله إليها ربها:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٢١﴾ [مريم: 19-21]

ولو عدنا إلى قصة داوود كما افتريناها في الأجزاء السابقة من هذه المقالة، لوجدنا بأنه قد عاش طفولته كلها بعيدا عن الناس بين مخلوقات الغابة، فاستطاع أن يتعلم طريقة التواصل معها، لكن لسانه انعقد عن مخاطبة الناس حتى استطاع والده لقمان أن "يلقّمه" الكلام بعد أن عاد إليه على مشارف سن البلوغ.

ولو عدنا إلى سيرة نبينا الكريم، لوجدنا أن العزلة كانت طاغية عليه في الطفولة، لكن هذا لم يمنعه من اكتساب لسان الناس من حوله، ولكن بطريقة – نحن نتخيل- محدودة بسبب قلة اتصاله معهم. فنحن نتخيل ذلك الصبي في الفترة التي كان يتيما يقضي جلّ وقته في ذلك المأوى بعيدا عن الناس من حوله، لكنه يتصل بهم في بعض الأوقات لغايات سنتعرض لها لاحقا بإذن الله.

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن العزلة المبكرة وطول مدتها تؤثر على لسان الشخص، لكن يبقى السؤال قائما: ما الذي يستفيده ذلك الشخص من اعتزل الناس فترة من الزمن حتى وإن كان على حساب لسانه؟

جواب مفترى خطير جدا: cogitating، أي قضاء الوقت الطويل يفكّر مليّا بالقضايا الوجودية التي كانت تقلقه. فلا شك أن العزلة تجبر الشخص على أن ينظر من حوله ليتفكر في كل ما يرى ويسمع. لكن الذي يجب أن نجلب له الانتباه هنا هو: ما هي آلية التفكير (والتأمل) عند الإنسان ابتداء؟ أي كيف يحدث ذلك التفكير والتأمل؟

رأينا المفترى والخطير جدا (لا تصدقوه): نحن نظن باستحالة أن يحدث التفكير (والتأمل) بمعزل عن اللسان. فالإنسان محكوم بتفكيره بما لديه من المفردات المخزنة في "ذهنه" ويمكن أن ينطق بها لسانه. فإذا كانت تلك المفردات حقيقية، كان التفكير حقيقيا، وسليما. وإذا كانت المفردات مزيفة كاذبة، كان التفكير كذلك. فالشخص يصف بما يتوافر على لسانه ما يدور في "خلده". فهو إذا محكوم بذلك المخزون من المفردات التي في ذهنه وتنطلق على لسانه. لهذا. نحن نظن بأن عيسى بن مريم كان الشخص الوحيد الذي لا يخطئ في التفكير مادام أن ما هو متوافر على لسانه مصدره روح القدس.

لذا، لما كان كثير مما على لسان الناس العاديين من الأسماء ليست أكثر من أسماء ما أنزل الله بها من سلطان:

- ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾ [الأعراف: 71]

كان تأثير ذلك عليهم سلبيًا. فالأسماء التي سمّاها الناس هم وآباؤهم هي من التي ما أنزل الله بها من سلطان. وذلك لأن فيها اتباع للظن وما تهوى الأنفس:

- ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

السؤال: إذا كانت هذه أسماء ما أنزل الله بها من سلطان، فهل هناك أسماء أنزل الله بها من سلطان؟

جواب: نعم. هي الأسماء التي علمها الله لآدم منذ بدء الخليقة:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: 31-33]

السؤال: أين ذهبت تلك الأسماء؟

رأينا المفترى: نسيها آدم بسبب المعصية:

- ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]

السؤال: متى حصل ذلك؟

جواب مفترى: عندما وسوس له الشيطان، وتقبل نصيحته، ونزل عندها:

- ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 21-22]

السؤال: ماذا حصل لآدم وزوجه حينئذ؟

جواب مفترى: أهبطا من الجنة (إلى واد غير ذي زرع):

- ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: 124-123]

السؤال: كيف أصبح لسان آدم وزوجه بعد الهبوط؟

رأينا المفترى: أصبح هناك كلمات (وليس أسماء) تلقاها آدم من ربه:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة: 36-37]

نتيجة مفتراة 1: ما قبل المعصية كانت أسماء عند آدم (في الجنة)
نتيجة مفتراة 2: ما بعد المعصية أصبحت كلمات عند آدم (خارج الجنة)

السؤال: ما الذي يجري على لسان الناس أجمعين؟

⇐ كلمات من عند ربهم (جاءتهم بعد هبوط آدم وزوجه من الجنة)، و
⇐ أسماء ما أنزل الله بها من سلطان (من عند أنفسهم ومن عند آبائهم)

فأصبح لسان الناس في رحلتهم بعد خلقهم على النحو التالي:

أسماء يعلمها الله لآدم – كلمات يتلقاها آدم من ربه – أسماء يسميها الناس ما أنزل الله بها من سلطان

السؤال: ما فائدة هذا الطرح؟

رأينا المفترى: ربما يساعدنا مثل هذا الطرح في فهم آلية التحريف التي كان يقوم بها بعض الناس، ليكون السؤال على نحو: ما سبب تحريف الكلم عن مواضعه؟

- ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ [البقرة: 75]
- ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٤٦﴾ [النساء: 46]

- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]
- ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة: 41]

نتيجة مفتراة: نحن نظن بأن قدرة بعض الناس على تحريف الكلم عن مواضعه هو توافر الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان. فهؤلاء يستخدمون تلك الأسماء لتحريف الكلمات التي تلقاها آدم من ربه بعد أن تاب عليه. فتكون الآلية على نحو استبدال الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان بالكلمات التي تلقاها آدم من ربه. فيستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير (وهذه هي صنعة أهل العلم الذين ما انفكوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه. وسنقدم لاحقا أمثلة عديدة على هذا التحريف). لكن هناك مفارقات عجيبة وجب التنبيه إليها قبل المضي قدما في هذا النقاش.

أولا، هذا إبراهيم يكون من نصيبه اتمام تلك الكلمات:

- ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: 124]

ثانيا، هذه مريم تصدق بكلمات ربها:

- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

ثالثا، هذا محمد يؤمن بكلمات ربه:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]

تساؤلات

- ⇐ ما هي الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم ثم أتمهن؟
- ⇐ ما هي الكلمات التي صدقت بهن مريم؟
- ⇐ ما هي الكلمات التي كان يؤمن بها النبي الأمي؟

رأينا المفترى: لن أدخل أكثر في هذا الموضوع لأنه موضوع غاية في التعقيد من الناحية النظرية ربما يحتاج من يلقى عليه أن يكون حاضرا في ذهنه كثير من المقدمات الأولية. لكني سانتهي هنا بالافتراء البسيط جدا التالي: كلما قلت في ذهنك الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان، زاد مخزونك من الكلمات التي تلقاها آدم من ربه وأتمها إبراهيم وصدقت بها مريم وآمن بها محمد.

نتيجة مفتراة: لقد كان لعزلة محمد (وأي رسول آخر أو عبد من عباد الله) عن الناس نوعين من التأثيرات الايجابية:

- ⇐ تقليل كمية الأسماء التي ما أنزل الله بها من سلطان
- ⇐ زيادة عدد الكلمات التي هي من عند ربه:

- ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: 158]

فمحمد رسول الله، وهو نبي أمي يؤمن بالله وبكلماته. ليكون السؤال على الفور هو: ما معنى أن محمدا نبي أمي يؤمن بكلمات الله؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن مفردة أميّ، كما افترينا في سابق الأيام، تعني العودة إلى الأصل (المنبع الأول). فالأم هي التي تجمع. لذا، كان إبراهيم أمة، لأن كل العقائد (وإن اختلفت فيما بينهما) تجمعت عند إبراهيم. وكانت مكة هي أم القرى، لأن كل القرى انبثقت منها. فهي القرية الوحيدة التي لها بطن:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: 24]

(للتفصيل في هذه القضية، انظر المقالات السابقة)

وكانت واحدة من الافتراءات الرئيسية التي قدمناها سابقا أن محمدا نبي أمي، لأن بُعث من تلك القرية، فكان رسولا للناس كافة:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: 28]

وبالتالي، كما هو وحدة الرسول المبعوث رحمة للعالمين:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: 107]

وها نحن اليوم نضيف افتراء جديدا كسبب آخر في أن يكون محمد نبيا أميا، ويتمثل هذا الافتراء الجديد بأن العلم الذي كان يأخذ منه محمد هو أم الكتاب:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧﴾ [آل عمران: 7]

فالكتاب الذي أنزل على محمد كان فيه الآيات المحكمات اللاتي هن أم الكتاب. فكانت مهمة ذلك النبي أن يفصل تلك الآيات قرآنا عربيا بلسان قومه:

- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود: 1]

فكان تفصيلها قرآنا عربيا:

- ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت: 3]

فأم الكتاب موجود عند الله نفسه:

- ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: 39]

وكان القرآن مأخوذا مباشرة من أم الكتاب:

- ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: 1-4]

نتيجة مفتراة: كان مصدر العلم الذي ينهل منه محمد هو الكوثر (أي نبع العلم)، أي أم الكتاب.

السؤال: كيف استطاع النبي الكريم الحصول على ذلك العلم الذي مكّنه من تفصيل الكتاب المحكم قرآنا عربيا؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن أن ذلك كان بسبب ضلالته فترة من الزمن.

الدليل





قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦﴾ [الضحى: 6]
- ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧﴾ [الضحى: 7]

افتراء: بعد أن وجد الله محمدًا يتيما، آواه. وبعد أن وجده ضالا، هداه.

السؤال: ما معنى أن محمدًا كان حينئذ ضالًا؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الضال هو من كان باحثًا عن المعلومة (العلم).

فعندما يضلّ شخص الطريق، فهو إذا سائر في تلك الطريق باحثًا عن مقصده، لكن عندما تتشعب الطريق أمامه في أكثر من اتجاه، يصبح ضالًا ما لم يجد الاتجاه الصحيح الذي يقوده إلى مقصده، ويبقى في حالة ضلال مازال باحثا عنها لم يصل إليها بعد، وينتهي ضلاله عندما يسلك الاتجاه الصحيح الذي يقوده إلى مقصده، فيهتدي، وينتهي ضلاله.

السؤال: ما الذي كان محمد باحثًا عنه في تلك الفترة من حياته؟

جواب: إنه العلم، ولنقرأ الآن ما حصل عندما وجده الله ضالا، فهداه. إنه (نحن نرى) ما جاء في أول ما أُنزل عليه من ربه: إنها سورة العلق:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤
عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨
أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ
١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 1-19]

رأينا المفترى: دعنا نحاول مناقشة بعض ما جاء في هذه السورة العظيمة بعيدًا عمّا وصلنا في التراث من عند أهل الدراية على ألسنة أهل الرواية. ظانين أنه بإمكاننا خلق تصور جديد، يختلف عن كل ما يمكن للعقل المتدين أن يصل إليه أو ربما أن يتحمل سماعه لأول مرة. وسنبدأ بتقديم الافتراءات الأبسط التي نظن أن الآيات الكريمة ترشدنا إليها:

⇐ كان محمد يتفكر بالرب الذي خلق (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ)

⇐ كان محمد يتفكر بكيفية خلق الإنسان (١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ)

⇐ كان محمد يتفكر بالرب الذي هو أكرم (ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ)

⇐ كان محمد يتفكر بالرب الذي علم، وبكيفية التعليم (ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ)

⇐ كان محمد يتفكر بما علم الله الإنسان (عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ)

⇐ كان محمد يتفكر بكيفية طغيان الإنسان (كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ)

⇐ كان محمد يتفكر بما يمكّن الإنسان أن يطغى (أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ)

تخيلات مفتراة: لما وجد محمد نفسه في ذلك المأوى، ولما بلغ سن الرشد، كانت القضايا المشغلة لتفكيره تتمثل بالسؤال الأكبر المتعلق بالرب الذي خلق، وكيفية خلق الإنسان، وكيفية تعليم الإنسان، وما هو العلم الذي يستطيع الإنسان الحصول عليه، ومصدر ذلك العلم، وسبب طغيان الإنسان، الخ.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من هذا النوع من التفكير؟

رأينا المفترى: إن أول ما يمكننا افتراؤه هنا هو أن النبي الكريم كان (على عكس ما ألفناه من عند آبائنا الأولين) يستطيع القراءة، ولكن التوجيه الإلهي جاءه هنا ليقرأ بسم ربه الذي خلق. ليكون السؤال الآن: لماذا طلب الله منه أن يقرأ بسم ربه الذي خلق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)؟

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): عندما كان محمد ضالًا يبحث عن الهداية، كان يقرأ، ولكنه لم يكن يقرأ بسم الرب الذي خلق، لذا جاءه الأمر الإلهي باعادة توجيه البوصلة، وأن يبدأ منذ هذه اللحظة القراءة بسم الرب الذي خلق.

السؤال: إن صح ما تقول – يسأل صاحبنا- بسم من كان محمد يقرأ قبل هذه اللحظة التي جاءه الأمر الإلهي فيها أن يبدأ القراءة بسم الرب الذي خلق؟

جواب مفترى: للاجابة على مثل هذا التساؤل الخطير، وربما غير المألوف في ذهن المسلم المتدين، يتوجب علينا أن نجلب الكثير من الآيات الكريمة التي وُجهت لمحمد نفسه في بداية دعوته، نذكر منها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا
سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧
وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: 1-11]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ
فَٱصۡبِرۡ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا
١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ
لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١
ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ [المدثر:
25-1]

- ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾ [الشرح: 1-8]

لو دققنا في هذه السياقات القرآنية، لربما خرجنا ببعض الافتراءات التي قد تساعدنا على إعادة رسم المشهد كله من أوله إلى آخره على غير تلك الصورة العالقة في أذهاننا، نذكر منها:

- ⇐ دعوة النبي بتحمل المسئولية بأن يلقى عليه قولًا ثقيلًا (إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا)
- ⇐ ذكر اسم ربه، وأن لا إله إلا هو، وأن يتخذه وكيلًا (وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا)
- ⇐ الصبر على ما يقوله الآخرون وهجران المكذبين أولى النعمة، وأن يذر أمرهم إلى الله الذي سيتعامل معهم بطريقته (وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا)
- ⇐ تطهير ثيابه (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ)
- ⇐ هجر الرجز (وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ)
- ⇐ عدم الاكثار من الاستمناء (وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ)
- ⇐ الصبر على ذلك كله (وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ)
- ⇐ انشراح صدر النبي (أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ)
- ⇐ وضع الوزر عنه (وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ)
- ⇐ انقاض ظهره (ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ)
- ⇐ رفع ذكره (وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ)
- ⇐ أن يكون راغبًا إلى ربه (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب)
- ⇐ الخ

السؤال: كيف يمكن ربط كل هذه الأمور معا للخروج بتصور ربما يكون أكثر دقة عما ألفناه من ذي قبل؟

رأينا المفترى: نحن نطلب من الذي يقدسون تراثهم القديم أن لا تتجاوز أعينهم هذا السطر من الكتابة، لأننا سنتجرأ على البوح بما لا يمكن للعقل المتبع المقلّد أن يتحمله. وفي الوقت ذاته، ندعو أصحاب العقول الناقدة أنّ ينظروا لما سنقدمه عل أساس أنها آراء بشرية ربما يصيب بعضها ويخطئ بعضها الآخر. لذا وجب الحذر والتريث قبل المضي قدمًا بعد كل افتراء يقرأه في السطور التالية، ليمحصه، فيبحث عن الدليل الذي قد يثبته وربما ينفيه جملة وتفصيلًا. ويكون ذلك بالجرأة على طرح كل التساؤلات التي قد ترد إلى الأذهان حول هذه الآيات الكريمة، علّنا نستطيع أن نهتدي صراط الله المستقيم بعد هذا الضلال

المبين الذي نحن فيه. فالله وحده أسأل أن يسبغ عليّ من نعمه الباطنة التي لا تكون لأحد غيري، وأعوذ به وحده أن أفتري عليه الكذب، أو أن أقول عليه ما ليس لي بعلم، إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

إن صحّ افتراؤنا بأن محمدًا كان ضالًا يبحث عن الحقيقة بعيدًا عن المعارف التي كانت بين أيدي الناس، وأنه كان يقرأ، ولكن لم يكن حتى الساعة يقرأ بسم الرب الذي خلق، فعلينا أن نطرح التساؤل الجريء التالي: بسم مَنْ كان محمد يقرأ قبل أن يجده الله ضالا، فهداه؟ أي بسم من كان محمد يقرأ في الفترة التي كان ضالًا فيها؟

جواب مفترى خطير جدا: لقد كان يقرأ بسم الذي كان يراه. انتهى.
السؤال: من هو الذي كان محمد يراه؟
جواب: إنه الذي إن رايته، استغنيت.
السؤال: ومن هو ذلك الذي إن رأيته استغنيت؟
جواب مفترى: إنه ... . (لن استطيع أن أصرح بكنيته هنا حتى لا يقتص هذا النص خارج سياقه قبل تقديم الدليل الذي نظن أنه يثبت هويته، فذلك سيكون صيدا ثمينا لمن في قلبه مرض لا يشغله شيء أكثر من اثبات فسقنا على رؤوس الأشهاد)

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟ يسأل صاحبنا الذي ما يزال يظن بأن في كلامنا شيئا من المنطق الذي يستحق المتابعة لدقائق معدودة.

رأينا المفترى: دعنا نضع بين يدي القارئ الكريم – إن أراد- السورة التي اتفق غالبية المسلمين أنها كانت أول ما نزل على قلب النبي من القول الثقيل، إنها سورة العلق:

- ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ① خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ② ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ③ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ④ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ⑥ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ⑧ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ⑩ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ⑫ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ⑰ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ⑲﴾ [العلق: 1-19]

لنثير حولها بعض التساؤلات التي نطلب من القارئ الكريم – إن أراد- أن يتدبرها قبل أن يكمل القراءة ليرى ما عندنا من افتراءات حولها. ونجمل معظم التساؤلات التفصيلية اللاحقة بالملاحظة التالية: ألا تجد - عزيزي القارئ- أن الآيات الكريمة بمجملها تشير باستخدام ضمير الغائب إلى كينونة "غائبة لم يصرح بها"؟

التساؤلات

⇐ على من يعود الضمير في الآيات التالية؟

- ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾

⇐ على من يشير اسم الإشارة "الذي" في الآيات التالية؟

- ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآيات التالية؟

- ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآية التالية؟

- ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآية التالية؟

- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآيات التالية؟

- ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآية التالية؟

- ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧﴾

⇐ على من يعود الضمير في الآية التالية؟

- ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: نحن نظن بأن الآيات الكريمة السابقة تبين وجود كينونة لم تذكر صراحة، ولكن تمت الإشارة إليها باستخدام ضمير الغائب المستتر والمتصل (كما يحب أهل اللغة أن يصفوه). ليكون السؤال الآن: من هي تلك الكينونة التي يشير إليها ضمير الغائب في هذه الآيات الكريمة؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السورة بمجملها، لوجدنا أنها تتحدث عن ثلاثة أشياء رئيسية:

⇐ دعوة للنبي بأن يقرأ بسم ربه الذي خلق ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: 1-5]

⇐ تحذيره من ذلك الذي ينهى عبدا إذا صلى ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾ [العلق: 9-10]

⇐ دعوة النبي بأن لا يطعه، فيسجد ويقرب من ربه الذي خلق ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق: 19]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: منذ أن كان محمد يتيمًا، قضت الحكمة الإلهية بأن يؤويه، فكان المكان الذي وجد ذاك اليتيم نفسه فيه هو ذلك المأوى المنعزل في بعض جبال مكة بعيدا عن الناس، ومادام أنه كان ذرية لرجل صالح وأم مؤمنة، فقد كان محل العناية الإلهية. لكن ما أن بلغ ذلك اليتيم سن

الرشد، حتى أصبح ضالا، أي باحثا عن الحقيقة بنفسه. لذا، نحن نجزم القول بأن نتيجة الضلالة للشخص (الإيمان أو الكفر) مرتبطة بمشيئة الشخص نفسه، ولا علاقة لأي شخص آخر (سواء كان ولدا أو والدا) بذلك:

- ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾ [المدثر: 31]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كانت الرعاية الإلهية لمحمد يتيما مدفوعة بصلاح والده وإيمان أمه، لكن كانت هدايته نابعة من محمد نفسه. وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا يدعونا إلى تقديم الإفتراء التالي: أن الهداية والضلالة لا تتأتى من الشخص نفسه ما لم يصل سن الرشد، وذلك لأن مشيئة الشخص لن تتبلور إلا بهذا السن. فالطفل الصغير لا يستطيع أن يهتدي أو أن يضل مادام أن مشيئته لم تتبلور بالصورة المطلوبة بعد. لذا، نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأن محمدا قد نشأ يتيما ترعاه الأعين حتى وصل إلى سن الرشد، وهناك كان مطلوب منه أن يتخذ القرار إما بالضلالة أو في الهداية بنفسه. فماذا فعل محمد الشاب بعد أن بلغ سن الرشد في ذلك المأوى البعيد عن أعين الناظرين؟

رأينا المفترى: ما أن وصل محمد سن البلوغ (الرشد) حتى بدأ رحلة الضلالة، أي مرحلة البحث عن الحقيقة، فوقف في لحظة من حياته على مفترق الطريق، إما أن يذهب يمينا تجاه الهداية أو شمالا تجاه الاستمرا في الضلالة. فكيف وصل إلى مفترق الطريق تلك؟ وماذا فعل حينها؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا (لا تصدقوها): في بداية رحلة الضلال، وجد محمد نفسه (نحن نتخيل) أمام مجموعة من الخيارات التي يستطيع الاستفادة منها. فكان مؤهلا لتلقي المعلومات من عدة مصادر توافرت له حينئذ، وكانت واحدة من تلك المصادر هي الجن. فتعامل محمد (نحن ما زلنا نتخيل) مع بعضها، وكان قادرا (نحن نفتري الظن) على الحصول منهم على كثير مما يريد، فكان يستطيع أن يحدث الرِجز، وتحصل جراء ذلك على الوزر. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: 1-7]
- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾ [الشرح: 1-3]

ولو دققنا في معنى الرِجز كما يرد في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة: 59]





- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت: 33-35]
- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ١٣٥﴾ [الأعراف: 134-135]
- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾ [الأعراف: 162]

لوجدنا بأن الرِجز (بكسر الراء) هو عذاب من نوع معين قد ينزل من السماء.

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الرِجز يمكن أن يحدثه الشيطان:

- ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11]

ولو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا بأن الرِجز قد يصيب المعاجزين في آيات الله الذين يكفرون بها:

- ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ: 5]
- ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ١١﴾ [الجاثية: 11]

سؤال: بناء على هذا الفهم الأوّلي (ربما المغلوط) لمعنى الرجز، فلماذا طُلب من محمد أن يهجر الرُجز (بضم الراء) منذ بداية الدعوة؟

جواب مفترى خطير جدا: مادام أن الرجز (بكسر الراء) هو عذاب قد يقع على بعض الناس، وقد يكون مصدره السماء أو الشيطان أو أي مصدر آخر، فإن عملية إحداث الرِجز (بكسر الراء) هي الرُجز (بالضم). فقد كان محمد (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) قادرا على إحداث الرجز (بكسر الراء) بما لديه من العلم من قبل أن يأتيه الوحي الإلهي. ليكون السؤال الآن هو: ما هو الرِجز (بالكسر) الذي كان محمد قادرا على أن يحدثه وأمر أن يهجر إحداثه منذ بداية الدعوة؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن أنه ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ٩١ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ٩٣﴾ [الإسراء: 90-93]

لا شك أن هذه الآيات تصوّر لنا منطق المعاجزين في آيات الله المكذبين بها. لكن تبرز الحاجة لإثارة التساؤلات هنا حول واحدة منها وهي قولهم:

- أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا..

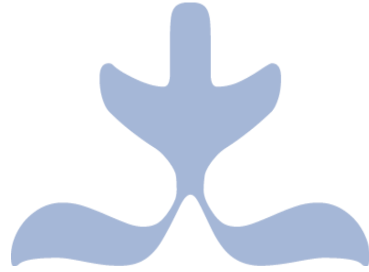
تساؤلات:

⇐ هل فعلا هدد محمد القوم من ذي قبل بأن يسقط عليهم السماء كسفا؟
⇐ هل كان محمد قادرا على ذلك؟
⇐ من أين جاءته القدرة على إسقاط السماء عليهم كسفا؟
⇐ ماذا يسمى إسقاط السماء عليهم كسفا (لو حصل طبعا)؟ فهل يقع ذلك في باب الرجز؟
⇐ إن كان فعلا هددهم بذلك قولا، فلِم لَم ينفذه فعلا على أرض الواقع؟
⇐ الخ

لو عدنا إلى فكرة إسقاط السماء كسفا، لما وجدناه تبرز إلاّ في هذه الآية التي تتحدث عن المعاجزين في آيات الله من قوم النبي محمد، وفي آية أخرى تتحدث عن المعاجزين من قوم شعيب (أصحاب الأيكة):

- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء: 176-187]

ليكون السؤال المطروح عن سبب ارتباط إسقاط السماء كسفا بهذين النبيين الكريمين: محمد وشعيب؟



قصة داوود

الجزء الخامس عشر



قصة داوود - الجزء الخامس عشر

افترينا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأن هناك فرق بين الكلمات التي تلقاها آدم من ربه بعد هبوطه من الجنة من جهة والأسماء التي سميناها نحن وآباؤنا وما أن أنزل الله به من سلطان من جهة أخرى:

- ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: 71]

فافترينا الظن بأن الله هو من علم آدم الأسماء قل الهبوط:

- ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]

ولكن ذلك العهد قد نسيه آدم:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 115]

وما أن أُهبط آدم من الجنة حتى تلقى من ربه كلمات:

- ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37]

وكان إبراهيم هو من أتم تلك الكلمات:

- ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: 124]

وكانت مريم هي من صدقت بتلك الكلمات:

- ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: 12]

وكان محمد هو من آمن بتلك الكلمات:

- ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: 158]

فكانت التساؤلات حينئذ تتعلق بماهية تلك الكلمات، وبكيفية وصولها إلى هؤلاء المصطفين من عباد الله المؤمنين المخلصين. ولكي نصل إلى مبتغانا في هذه الجزئية، كان حديثنا في ذلك الجزء السابق من هذه المقالة منصبا على محاولة إعادة تدبر بعض الآيات الكريمة التي نظن أنها كانت من أول ما نزل على قلب النبي الكريم من الوحي، وخاصة ما جاء في سورة العلق:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 1-19]

وحاولنا جلب الانتباه إلى قضية محورية تتعلق بظننا بوجود شخصية مشار إليها في النص باستخدام ضمير الغائب (انظر الجزء السابق). وقد حاولنا افتراء الظن من عند أنفسنا بأن تلك الشخصية (المشار إليها دون التصريح باسمها) قد كانت حاضرة عند النبي الكريم قبيل البدء باستقبال الوحي الذي طلب منه أن يبدأ منذ تلك اللحظة القراءة بسم الرب الذي خلق:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: 1]

وأن لا يطع تلك الشخصية، فيسجد لربه ويقترب:

- ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡۤ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 19]

وقد حاولنا أيضا الترويج لفترائنا بأن محمدا كان قادرا قبل ذلك على أن يسقط السماء على الكافرين كسفا:

- ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92]

وقد ربطنا ذلك بما كان من أمر شعيب الذي طلب منه أيضا اسقاط السماء كسفا:

- ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشعراء: 187]

وانتهينا بطرح التساؤل حول أن يكون اسقاط السماء كسفا قد جاء في سياق الحديث عن هذين النبيين الكريميين: محمد وشعيب.

فكان ظننا على نحو أن سبب اسقاط السماء كسفا كان مرتبطا بهذين النبيين الكريمين لأنهما الرسولان اللذان كانا يسكنان مكة حيث البيت العتيق.

السؤال: ما علاقة البيت العتيق باسقاط السماء كسفا؟

رأينا المفترى: لقد تحدثنا في سلسلة مقالات الحج سابقًا عن أصحاب الأيكة (قوم شعيب)، وقدمنا حينها جملة من الافتراءات من عند أنفسنا نذكر منها:

- أن الإيكة هو البيت العتيق الذي رُفع سقفه،
- أن قوم شعيب كانوا يسكنون تلك الأرض،
- أن شعيبا حذرهم من التلاعب بقواعد البيت العتيق لأنه هو ميزان السماء والأرض،
- أن قواعد البيت هي التي تحدث التوازن في الكون،
- أن التلاعب بها سيؤدي إلى أن تسقط السماء كسفا،
- أن العذاب الذي لحق بقوم شعيب هو بسبب محاولتهم التلاعب بقواعد البيت العتيق،
- أنهم استخدموا الفيل للتلاعب بميزان السماء والأرض عندما حاولوا خلخلة قواعد البيت العتيق،
- أن الله قد أرسل عليهم طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، للحفاظ على بيته العتيق، وحفظ الميزان،
- أنّ شعيبا كان يعلم ذلك السر، وعنده العلم الذي يمكنه من ذلك.
- وأن محمدا كان يعلم كذلك سر البيت العتيق، وسر ذلك الميزان.
- وأن خلخلة قواعد البيت العتيق سيؤدي إلى اسقاط السماء كسفا.
- الخ

الدليل

لو حاولنا تدبر الآيات الكريمة التالية التي تصور لنا ما كان يجري بين الذين كفروا أنفسهم في حديثهم عن ذلك المبعوث فيهم:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٩﴾ [سبأ: 7-9]

سنجد بأنها تصور لنا ماهية النقاش الذي كان دائرا حينئذ فيما بينهم حول شخصية هذا الرجل المبعوث فيهم. فهم حائرون في أمره، لا يعرفون كيف يصفونه، فكان ظنهم على نحو أنه رجل إما أنه يفتري على الله الكذب (أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا) أو أنه رجل به جنة (أَم بِهِۦ جِنَّةٌۗ). ولو حاولنا أن ربط هذا بما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: 1-6]

ويكأنهم يحاولون القول (نحن نظن ربما مخطئين) بأن ما كان يقوله لهم يقع – حسب ظنهم طبعا- في باب ما توسوس به الجِنّة، أي - بمفردات فضفاضة حتى الساعة- عالم الجن. وهو ما سنحاول التفصيل فيه لاحقا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك. (فالله وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم، إنه هو العلي العظيم).

لكن ما يهمنا أكثر هنا هو أن الآيات السابقة ذاتها تبين لنا أيضا قضية اسقاط السماء كسفا مرة أخرى. فالعذاب الذي توعد الله به القوم الكافرين كان (على نحو) واحدا من اثنين:

⇐ خسف الأرض بهم (إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ)
⇐ اسقاط السماء عليهم كسفا (أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ)

ولو دققنا في قضية اسقاط السماء كسفا، لوجدناها مشابهة تماما للسحاب المركوم الذي يخرج من خلاله الودق:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨﴾ [الروم: 48]
- ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: 44]

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن محمدا وشعيبا كانا يستطيعان اسقاط السماء كسفا وذلك لعلمهم بسر قواعد البيت الذي هو ميزان السماء والأرض. فخلخلة قواعد البيت تؤدي إلى اسقاط السماء كسفا.

ولربما يفسر لنا مثل هذا الطرح (على ركاكته) قضية محيّرة في قصة موسى سنعرج عليها في الحال لأهميتها في هذا النقاش، وإن كان البعض سيراها خروجا عن موضوع النقاش هنا.

1. استراحة قصيرة في قصة موسى

نحن نعلم بأنّ موسى قد قتل رجلًا من عدوه عندما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

وفي اليوم التالي كاد موسى أن يبطش برجل آخر من عدوه، ولكن الرجل حذر موسى من مغبة ما يفعل:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

وفي خضم ذلك الصراع المحتدم بين الطرفين، جاء رجل يسعى من أقصى المدينة ليحذر موسى من تآمر الملأ به، فنصحه بالخروج من مصر:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

وبالفعل يقبل موسى نصيحة هذا الرجل، فيتوجه تلقاء مدين:

- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: 21-25]

إن ما يهمنا طرحه هنا هو سؤال استفزازي للعقل الذي يحاول أن يفهم ما حدث حينئذ، ألا وهو: لماذا كان خروج موسى من أرض مصر نحو مدين؟ أي لماذا لم يتوجه موسى إلى مكان آخر غير مدين؟ والسؤال الأكثر إثارة للتفكير (نحن نظن) هو: لماذا لم يحاول فرعون أن يجلب موسى من أرض مدين؟ هل كان ذلك ليعجز فرعون بالرغم بأن يده (نحن نتخيل) كانت تطال كل المدائن؟ ألا نعلم بأن فرعون قد أرسل إلى السحرة في كل المدائن حاشرين؟

- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١﴾ [الأعراف: 111]
- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦﴾ [الشعراء: 36]
- ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ [الشعراء: 53]

وهناك سؤال أكثر إثارة من سابقيه لمن أراد أن يتدبر السياق القرآني ذاته، ألا وهو: كيف يقول ذلك الشيخ الكبير في مدين (وهو الذي يرسل بناته لرعاية الماشية ربما بسبب ضعف بنيته الجسدية) لموسى بعد أن قصّ عليه القصص: لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ؟

السيناريو المبدئي: هناك فرعون في مصر، وسلطته تطال كل المدائن حينئذ. وهذا موسى يخرج من مصر خائفا يترقب، فيصل إلى مدين. ليجد الشيخ الكبير فيها. فيستأجره ذلك الشيخ بعد أن يقص عليه القصص لقاء أن ينكحه أحد ابنتيه.

المعضلة 1: لا فرعون يبعث في مدين ليجلب موسى للعدالة،

المعضلة 2: لا الشيخ الكبير في مدين يقلق على موسى من بطش فرعون به (أو بهما)، لا بل يطمئنه بالنجاة من القوم الظالمين.

السؤال: شو اللي قاعد بصير (باللهجة الأردنية العامية)؟

بداية، لا بد من تسطير افتراءاتنا فبما يتعلق بحكم البلاد في زمن فرعون. فنحن نتخيل تلك البلاد تتكون من مجموعة من المدائن (جمع مدين)، وهي عبارة عن ما يشبه الولايات في عصرنا الحاضر (ولتقريب الصورة للأذهان يمكنك أن تتخيل الولايات المتحدة الامريكية اليوم). فقد كان حكم فرعون يمتد على المدائن (الولايات) كلها، بدليل أن فرعون كان قادرا على أن يرسل في المدائن حاشرين، ليأتوه بكل سحّار عليم، فما تخلف عن دعوة فرعون أحد من السحرة من جميع المدائن:

- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ۝١١٢ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾ [الأعراف: 111-114]
- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ۝٣٨﴾ [الشعراء: 36-38]
- ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ [الشعراء: 53]

إن هذا الأمر يدعونا إلى افتراء القول (ربما مخطئين) بأن يد فرعون كانت تطال كل المدائن حينئذ، لكن الأمر الذي يقلقنا الآن هو عدم إقدام فرعون على ملاحقة موسى في مدين بالرغم من أن سلطته (نحن نظن) ربما كانت نافذة فيها حينئذ.

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل ربما يلزمنا الآن التعرض إلى طريقة إرسال فرعون للسحرة في المدائن: فكيف أرسل (أو بعث) فرعون في المدائن ليحشر السحرة؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التي تبين إرسال فرعون في المدائن ليحشر السحرة:

- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣﴾ [الشعراء: 53]

فسنخرج (حسب فهمنا لمنطوق الآيات الكريمة طبعا) بالافتراء الغريب العجيب التالي: أن الذي أرسل في المدائن هو فرعون نفسه.

السؤال: ما فائدة هذا الافتراء؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن عملية الإرسال في المدائن كانت من شخص فرعون نفسه، فلم يكلّف فرعون (نحن نفتري الظن) أحدا ليقوم بمهمة الإرسال للسحرة، بل هو من قام بفعل الإرسال بنفسه. ولو قام فرعون بتكليف أحد بالمهمة لربما جاء النص على نحو ما فعلت تلك المرأة في سبأ عندما أرسلت الهدية لسليمان:

- ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل: 35]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: كان فرعون هو من قام بفعل الإرسال إلى السحرة بنفسه ولم يكلف بها مرسلين كما فعلت المرأة في سبأ.

السؤال: لماذا تكفّل فرعون بالإرسال للسحرة بنفسه؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن فرعون هو وحده من كان قادرا على الإرسال للسحرة.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يتمثل في أنّ فرعون وحده هو من كان يملك القدرة على التواصل مع السحرة بطريقة (ربما سرية) سريعة جدا.

السؤال: كيف أرسل فرعون للسحرة، فحشرهم بالسرعة العجيبة؟

رأينا المفترى: من ركنه.

السؤال: كيف نتخيل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأن فرعون كان لديه القدرة على التواصل – لنقل- اللاسلكي السريع جدا مع السحرة في كل المدائن. لذا، ما أن أرسل فرعون (نحن نتخيل) من ركنه رسالة – لنقل الآن- لاسلكية إلى السحرة أصحاب العلم بفنون السحر حتى حضروا جميعهم في الحال، فعقدوا اجتماعا سريا ليتناجوا بينهم:

- ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: 59-64]

تخيلات مفتراة لإعادة رسم المشهد: كانت سلطة فرعون تطال جميع المدائن ظاهريا، لكن كانت واحدة من المدائن خارجة عن سلطة فرعون فعليا، ألا وهي مدين التي توجه إليها موسى عندما خرج من المدينة خائفا يترقب، وربما يفسر هذا سبب اختيار موسى لمدين عندما خرج من المدينة بعد أن حذره الذي جاء يسعى من أقصى المدينة من مغبّة تآمر الملأ به:

- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 20-22]

فما كان موسى (نحن نتخيل) سيتوجه إلى مكان تطاله فيه يد فرعون. والسبب في خروج مدين تلك عن طائلة يد فرعون هو (نحن نظن) وجود ذلك الشيخ الكبير فيها. ففرعون يعلم يقينا بأن مدين التي يقطنها ذلك الشيخ الكبير خارجة عن سلطته الفعلية، وذلك لوجود ذلك الشيخ الكبير فيها. لكن فرعون لم يكن ليفعل شيئا يكشف هذه الحقيقة للعامة من قومه وملئه. فكان فرعون (نحن نظن) في هدنة غير معلنة مع مدين تلك، لأنه لا يريد (نحن نتخيل) أن يجلب لنفسه مشاكل حينئذ تشغله عما هو فيه، وربما تربك خططه المستقبلية. ونحن نعتقد جازمين بأن موسى كان يعلم حقيقة العلاقة بين مصر التي خرج منها حينئذ من جهة ومدين التي توجه لها حينئذ من جهة أخرى، لذا عندما خرج من مصر خائفا، توجه إلى مدين:

- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 21-22]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأن موسى كان يعلم بأن يد فرعون لن تطاله هناك في مدين حيث يتواجد ذلك الشيخ الكبير. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن موسى ذهب إلى مدين قاصدا أن يصل إلى ذلك الشيخ الكبير الذي كان في مدين.

وبالفعل وصل موسى أرض مدين، وكان أول ما فعل هناك هو أنه سقى للمرأتين اللتين كانتا تذودان، ثم تولى إلى الظل، داعيا الله أن ينزل إليه من الخير الذي بيده:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: 24]

وما هي إلا فترة وجيزة حتى تأتيه دعوة الشيخ الكبير على لسان إحدى ابنتيه اللتين سقا لهما موسى. وما أن وصل موسى إلى شيخ مدين حتى قصّ عليه القصص:

- ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]

ونحن نظن جازمين (ربما مخطئين) بأن تلك القصص كانت خاصة بذلك الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 175-176]

وربما لا نشك الآن بأن معرفة شيخ مدين بتلك القصص كانت مسبقة. لذا، كان أول ما قاله ذلك الشيخ الكبير لموسى هو طمأنة موسى بأن لا يخاف، وأنه قد نجا فعلا من القوم الظالمين:

- ﴿... فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القصص: 25]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن شيخ مدين كان على يقين بنجاة موسى من القوم الظالمين، ليكون السؤال الآن هو: لماذا كان ذلك الشيخ الكبير متيقنًا من نجاة موسى من القوم الظالمين؟ وبكلمات أكثر بساطة نحن نسأل: ما الذي كان يعلمه ذلك الشيخ الكبير حتى طمأن موسى بأن يد القوم الظالمين لن تطاله في مدين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن ذلك الشيخ كان قادرا على صدّ القوم الظالمين حتى لو حاولوا اللحاق بموسى.

السؤال: ما الذي يملكه ذلك الشيخ الكبير فيمكّنه من صدّ القوم الظالمين، وبالتالي التأكد من نجاة موسى منهم.

جواب مفترى خطير جدا جدا (لا تصدقوه): لأنه كان يعلم سر الميزان واسقاط السماء كسفا. انتهى

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: لقد افترينا سابقًا بأن مدين التي كان يقطنها ذلك الشيخ الكبير تقع إلى الطرف الشرقي من البحر الأحمر، أي المنطقة التي يقع فيها البيت العتيق. وأن تلك الأرض هي البلاد التي كان يقطنها أصحاب الأيكة (قوم شعيب):

- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩﴾ [الحجر: 78-79]
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣﴾ [الشعراء: 176-183]

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن الشيخ الكبير الذي وجد موسى نفسه عنده، وقص عليه القصص هو نبي الله شعيب، وهو الرسول الذي نجا (ومن آمن معه) من العذاب الذي حق على أصحاب الأيكة اللذين حاولوا التلاعب بالميزان. وقد افترينا في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن قواعد البيت هي ميزان السماء والأرض، وأن قوم شعيب حاولوا التلاعب به، فأخذهم عذاب يوم الظلة:

- ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩﴾ [الشعراء: 185-189]

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن شعيبا هو ذلك الرجل الذي حاول أن يصدّهم عما أرادوا أن يفعلون. ونتجرأ على البوح بأنه كان يعلم كيف يمكن أن تُسقط السماء كسفا، وذلك لعلمه بطبيعة قواعد البيت، واستطاعته تحريكها، وبالتالي خلخلة ميزان السموات والأرض. انتهى.

السؤال: ما علاقة كل ذلك بمحمد؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنّ محمدا كان أيضا يعلم سر قواعد البيت، وأنه كان يستطيع هو كذلك أن يسقط السماء كسفا وذلك بخلخلة قواعد البيت (الميزان). السؤال: أين الدليل على ما تزعم؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى: لو تدبّرنا ما يتعلق بعلاقة محمد بمن حوله كما تجليها بعض الآيات الكريمة، لوجدنا على الفور بأن محمدا قد هدد قومه في سابق الزمان بأن يُسقط السماء عليهم كسفا، حتى أصبح ذلك حديثا متداولا بينهم عن ذلك الرسول المبعوث فيهم عندما جاءته الرسالة:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ: 7-9]

وما كان القوم لينسوا ذلك التهديد، فجاءوه معاجزين في آيات الله، يطلبون تنفيذ وعيده السابق لهم:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92]

ولو دققنا في طلباتهم في هذه الآية الكريمة، لوجدناها طلبين اثنين:

⇐ اسقاط السماء عليهم كسفا (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا)
⇐ أن يأتي بالله والملائكة قبيلا (أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا)

لكن المتدبر في الفرق بين الطلبين سيجد على الفور بأن الطلب الأول (وهو اسقاط السماء كسفا) كان متبوعا بقولهم (كَمَا زَعَمْتَ)، لكن طلبهم الثاني (بأن يأتي بالله والملائكة قبيلا) لم يكن متبوعا بمثل تلك العبارة. وهذا يدل (حسب فهمنا طبعا) بأن الطلب الأول كان قد هددهم محمد به فعلا، لذا قالوا (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا)، لكن الطلب الثاني لم يكن قد صدر من محمد لهم، وإنما هو طلب تشديدي من عند أنفسهم لأنهم أصلا من المعاجزين في آيات الله، المتحدّين لرسله باستعجال العذاب:

- ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: 32-33]

ولا ننسى أن امطارهم بالحجارة هي ما كان فعلا قد حصل من ذي قبل مع أصحاب الفيل:

- ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل: 3-4]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان محمد وشعيب هما فقط من جاء طلب اسقاط السماء كسفا منهم من قبل أقوامهم، وذلك لأنهما النبيان الكريمان اللذان كان يسكن قومهما في مدين التي فيها البيت العتيق. فاسقاط السماء كسفا لا يتأتى (نحن نفتري الظن) إلا من ذلك المكان الذي فيه ميزان السماء والأرض (ألا وهي قواعد البيت العتيق). لذا، نحن نطلب من القارئ الكريم – إن أراد- أن يقرأ سورة الفيل التي جاءت لتصور لنا ما حلّ بمن حاول الاعتداء على قواعد البيت العتيق على أنها تتحدث عن عذاب يوم الظلة الذي وقع على قوم شعيب الذين حاولوا أن يخسروا الميزان:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: 1-5]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: عندما رأى محمد ما حلّ بأصحاب الفيل، اكتسب ذلك العلم، فكان مما هدّد محمد به قومه من ذي قبل:

- ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92]

السؤال: كيف رأى محمد ما حلّ بأصحاب الفيل؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التي تبين لنا ما كان عند محمد من العلم، لوجدنا بأن الرؤية كانت واحدة من أهم مصادر العلم عنده. لذا، وجب علينا أن نتفقد الآيات الكريمة الموجة لمحمد بصيغة (ألم تر) لنصل من خلال ذلك إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأنّ محمدا قد اكتسب علم الذين سبقه من المرسلين، وكانت الرؤية واحدة من تلك المصادر. فلنستعرض أولا الآيات الكريمة الموجة لمحمد بهذه الصيغة:

- ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾ [البقرة: 258]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ٤٤﴾ [النساء: 44]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: 49]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١﴾ [النساء: 51]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾ [النساء: 60]

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: 77]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٩﴾ [إبراهيم: 19]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ٢٤﴾ [إبراهيم: 24]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ٨٣﴾ [مريم: 83]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾ [الحج: 18]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ٦٣﴾ [الحج: 63]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٦٥﴾ [الحج: 65]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ٤٣﴾ [النور: 43]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ٤٥﴾ [الفرقان: 45]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ [الشعراء: 225]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٩﴾ [لقمان: 29]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣١﴾ [لقمان: 31]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٢٧﴾ [فاطر: 27]

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: 21]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: 69]
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: 7]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: 8]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: 14]
- ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر: 11]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: 6]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: 1]

السؤال: كيف نفهم أن محمدا قد رأى ما جاء تفصيله في الآيات الكريمة السابقة جميعها؟

رأينا المفترى: بعيدا عن تفصيل معنى الرؤية هنا والتي تحدثنا عنها في مقالات سابقة لنا، يمكن أن نتفق – حسب ما جاء في هذه الآيات الكريمة وفي غيرها من الآيات التي يرد فيها الفعل رأى ومشتقاته - بأن الرؤية تتم بطريقتين اثنتين، ألا وهما:

⇐ **الرؤية بالعين**: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: 13]

⇐ **الرؤيا بالفؤاد**: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: 10-14]

وأن تلك الرؤية قد تكون في وضح النهار أو في المنام. وأن الفرق بين النوعين من الرؤية ظاهر في طريقة رسم المفردة في المصحف المتوافر بين أيدينا. فالمفردة قد رسمت في المصحف بطريقتين اثنتين:

⇐ رءا: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ۝٨٥﴾ [النحل: 85]

⇐ رأى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]

(**ملاحظة**: هناك فرق بين رسم المفردة بالمصحف الورقي مقابل رسمها في المصحف الالكتروني. فمن أراد التأكد من الاختلاف في رسم المفردة، فلينظر في المصحف الورقي وليس المصحف الالكتروني، لأن هناك فروقات في الرسم لا تظهر في المصحف الالكتروني).

بناء على الرسم في المصحف الورقي، نجد المفردة الخاصة برؤية العين هي (رءا) بينما المفردة الخاصة برؤيا الفؤاد فهي (رأى). فرءا بالألف الممدودة هي رؤيا العين المتاحة للجميع. فنحن نستطيع أن نرءا بأم أعيننا كثيرا من الأحداث الظاهرة، لكن رأى بالألف المقصورة هي رؤيا فؤاد مقصورة على الخاصة من الناس. ونحن نتجرأ على الظن بأن محمدا قد رءا (بأم عينه) ورأى (بفؤاده). فالآيات السابقة التي خاطبت محمد بصيغة (ألم تر) ربما تكون رؤية بصر أو رؤيا فؤاد. لكنها – بلا شك- رؤيا فؤاد عندما يتعلق الأمر بآيات ربه، خاصة ما جاء منها ليصور الأحداث التي حصلت في الأقوام السابقة وما حلّ بتلك الأمم السابقة وطريقة إيقاع العذاب بهم، من مثل قوله تعالى:

- ﴿۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٢٤٣﴾ [البقرة: 243]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٤٦﴾ [البقرة: 246]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة: 258]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر: 6-13]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ۝٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ۝٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ۝٥﴾ [الفيل: 1-5]

نتيجة مفتراة: نحن نكاد نجزم الظن بأن محمدا كان قادرا أن يرى (بفؤاده) ما حصل في تلك الأمم السابقة. لكن تبرز هنا تساؤلات كثيرة حول هذا الموضوع، نذكر منها:

⇐ كيف رأى محمد تلك الأحداث (الآيات)؟
⇐ متى رأها؟
⇐ أين رأها؟
⇐ لماذا رأها؟
⇐ الخ

للاجابة على مثل هذه التساؤلات، نجد لزاما أن نجلب انتباه القارئ الكريم – إن أراد – لما جاء في قوله تعالى:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

لنخرج منها باستنباط بسيط جدا يتمثل في أن الهدف الحقيقي للإسراء بمحمد من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى هو أن يرى محمد من آيات ربه الكبرى. انتهى.
وهنا يبرز سؤال مهم جدا، ألا وهو: كيف استطاع محمد أن يصل إلى مرحلة أن يسري به الله بنفسه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليريه من آياته الكبرى؟
جواب مفترى: إن هذا السؤال يعيدنا على الفور إلى بداية حديثنا في هذا الموضوع، ألا وهو موضوع هداية محمد بعد أن كان ضالا كما فصلته لنا سورة الضحى التي نعيدها هنا لنتدبر بعض آياتها من هذا المنظور. قال تعالى:

- ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 1-11]

2. باب هداية محمد بعد الضلال

أما بعد،

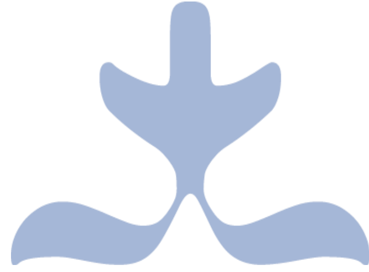
تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 1: ما أنْ كان محمد تحت الرعاية الإلهية طفلا يتيما (بسبب ما كان من الخير الذي صنعه والده الصالح وأمه المؤمنة) حتى نشأ بعيدا عن بيوت العالمين في ذلك المأوى في الجبل، فاكتسب مهارات التواصل مع الكائنات الأخرى في الطبيعة، وكان عليه أن يتعامل مع الطبيعة بكل ما فيها، فتدرب على التعامل مع الكينونات التي كانت تقطن ذلك المكان. ونحن نفتري القول من عند أنفسنا بأنّه لم يكن لمحمد (اليتيم) في مأواه ذاك خيارا إلا أن يتعامل مع المجموعات التالية على التوالي:

- ⇐ الدواب والطيور
- ⇐ الجن
- ⇐ الروح

ومنذ تلك اللحظة بدأ ذاك الصبي اليتيم في ذلك المكان المنعزل به عن الناس يكتسب بنفسه نظام تواصل أولا مع هذه الكائنات المتوافرة هناك من الدواب والطيور، فأصبح قادرًا على التواصل معها بالطريقة الطبيعية التي مكنته من التعامل معها بسهولة ويسر بعد أن مر بتجارب مضنية معها في بادئ الأمر. ولكن حسب مبدأ المحاولة والخطأ، نجح ذلك الصبي اليتيم في السيطرة على كل العوائق التي كانت تواجهه، وذهب عنه عامل الخوف الذي قد يسيطر في بادئ الأمر على أي شخص يمر بمثل تلك التجربة. وبذلك تطورت شخصية هذا الصبي بناء على تجربته القاسية في التعامل مع عناصر الطبيعة. فما عاد شخصا عاديا كأقرانه من بني جيله.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 2: ما أن نجح ذلك الصبي في اكتساب طريقة التواصل الفعّالة مع الدواب والطيور في البرية حتى انتقل إلى مرحلة التعامل مع قوى الطبيعية غير المرئية مما نسميه نحن – بالمفردات القرآنية - بعالم الجن. ونحن نفتري الظن بأن وادي مكة الذي كان يطلّ عليه المأوى (الغار) في ذلك الجبل مليئ بالجن. ليكون السؤال الآن هو: ما سر تواجد الجن بكثافة في ذلك المكان؟

السؤال: ما علاقة كل هذا بداوود؟



قصة داوود

الجزء السادس عشر



قصة داوود - الجزء السادس عشر

تشابكت خيوط قصة داوود مع غيرها من القصص القرانية. وكان الهدف من ربط خيوط تلك القصص بعضها ببعض هو محاولة تجلية طبيعة الشخصيات المذكورة في النص القرآني حتى تبين لنا الجوانب الاستثنائية في تلك الشخصيات، التي امتلكت من المقومات ما جعلها محلّ الاصطفاء الإلهي. ونحن على يقين بأن المستمع لهذه القصص (كما نحاول تجليتها في هذه المقالات) هو واحد من اثنين:

- ⇐ مكذّب لا يستطيع أن ينكر ما نقول، أو
- ⇐ مصدّق لا يستطيع أن يثبت ما نفتري

فالصمت المحيّر هو الصبغة الغالبة عند الطرفين، وذلك لأنهما على حافة خطرة بين تراث متجذر في عقول العامة وأهل العلم من حولهم على الطرف الأول وانفلات عن ذلك التراث لا يدرون أين سينتهي بهم على الطرف الآخر. فالمستمع لافتراءاتنا حائر (نحن نرى) بين قديم مشكوك فيه من جهة وجديد لا يدري درجة صحته من جهة أخرى.

لكن مهما كانت دقّة توصيف الحالة الراهنة، فالخط العريض الذي لا يمكن انكاره هو أن الشخصيات القرآنية هي شخصيات استثنائية تملك من المقومات ما يجعلها مختلفة ومتميزة في آن واحد. ولعل الفكرة التي حاولنا في الأجزاء الأخيرة تبيانها تتمثل في محاولتنا رسم صورة جديدة لشخص النبي الكريم ليست بالضرورة كالصورة التقليدية التي عهدناها من ذي قبل. فحاولنا أن نختط طريقا آخر يتمثل بأن الاصطفاء الإلهي لمحمد (كما لغيره من أنبياء الله ورسله) لم يكن مدفوعا فقط بمكارم الأخلاق التي كان يتمتع به ذلك الشخص، وإنما بامتلاكه قدرات استثنائية هائلة أكتسبها بجهده، جعلته مؤهلا لأن يُلقى عليه القول الثقيل، فكان جديرا بتحمل شرف الرسالة الإلهية التي تأتيه وحيًا من ربه، بعد أن مرّ بتجارب مضنية منذ طفولته، ساهمت في صقل شخصيته بدنيا ونفسيا وروحانيا، حتى أصبح شخصا – لنقل- استثنائيا من المنظور البشري الذي نعرف.

فمن الناحية البدنية، كانت قدراته هائلة، لأنه بدأ اكتسابها منذ نعومة أظفاره من مقارعته للطبيعة القاسية وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة عليه. فما دام أن الله قد آواه إلى ذلك الجبل بعيدا عن بيوت العالمين، كان عليه أن يتعلم المهارات اللازمة للبقاء حيّا في تلك الطبيعة القاسية.

أما من الناحية النفسية، فكان عليه أن يمرّ بتجارب مضنية مع قوى غير مرئية في الطبيعة، فكان عليه أن يتحمل أعباء ذلك، فيتجاوز كل العقبات حتى يصل إلى السمو الروحي الذي يؤهّله أن يتواصل مع قوى غيبية، تسمو فوق مستوى البشر العاديين.

وقد زعمنا الظن في الجزء الأخير من هذه المقالة بأن محمدا قد قارع القوى التالية:

- ⇐ قوى الطبيعة من الطيور والدواب ونحوها،
- ⇐ قوى عالم الجن وتأثراتها على النفس البشرية وشهواتها
- ⇐ عالم الروح والسمو البشري

وكان أول موجبات تخطي عقبات هذه القوى هو نجاحه في اكتشاف طريقة التواصل معها، وبالتالي الاستفادة منها. فطوّر بنفسه طرق تواصل من قوى الطبيعة المادية ومع عالم الجن وعالم الروح حتى أصبح قادرا أن يستفيد منها بالطريقة المُثلى. فكان وصوله إلى مراتب عالية في السمو البشري نتاج جهد مضني، وليس محض صدفة عابرة.

وبعد أن حاولنا تسطير الافتراءات الخاصة بمقارعة اليتيم قوى الطبيعة المرئية في البرية من الطيور والدواب ونحوها بسبب وجوده في ذلك المأوى منذ نعومة أظفاره (أي عندما كان صغيرا يقطن ذلك المأوى في جبال مكة الجرداء)، سنحاول في هذا الجزء الجديد من المقالة التعريج على مسألة التأهيل النفسي لشخص النبي الكريم في مقارعته القوى غير المرئية، وخاصة شهوات النفس البشرية التي تتطور في مرحلة عمرية معينة من حياة الإنسان وما يزيّن تلك الشهوات للنفس البشرية.

أما بعد،

لعل أول الافتراءات التي سنسطرها في هذا المقام هو ظننا بأن النفس البشرية لا تكتمل ولا تبدأ العمل لتكون محط تكليف إلا مع وصول صاحبها سنّ البلوغ. فالنفس هي المكلّفة وهي المسئولة:

- ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: 38]

وتكون الهداية (أو الضلال) واقعة على النفس:

- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١٣﴾ [السجدة: 13]

ويكون الجزاء (خيرا أو شرا) للنفس بما كسبت:

- ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٥١﴾ [إبراهيم: 51]

وفي اللحظة التي يقع فيها التكليف على النفس، يصبح عليها حافظ، ويجعل الله معها شهيدا:

- ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾ [الطارق: 4]
- ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝٢١﴾ [ق: 21]

ويكون هداية الشخص أو ضلاله بمقدار ما استقامت نفسه بالتزكية أو خابت بالتدسية:

- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 7-10]

فالنفس لها شهوات:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

قد تؤدي بصاحبها إلى التهلكة إن هو لم يكبح جماحها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

فالنفس بطبيعتها أمّارة بالسوء:

- ﴿۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

لكن هناك - لا شك عندنا - قوة أخرى قد تؤثر على النفس، فتحرك شهواتها فقط، ألا وهي قوة الشيطان، فيكون فعل الشيطان لا يتعدى أن يزين تلك الشهوات لنفس الإنسان، ثم ما يلبث أن يتبرأ من ذلك، ملقيا اللائمة في ذلك على النفس:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

لذا، تصبح مهمة الإنسان الذي يريد أن يهتدي تتمثل في أن يكبح جماح شهواته التي تحثه عليها نفسه، كما عليه أن يكبح جماح من يوسوس له ويحثّه على اتباع شهوات نفسه من الجنَّة والناس:

- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 1-6]

نتيجة مفتراة: لا تكتمل النفس وتصبح مؤهلة لأن تكسب (وبالتالي أن تحاسب على) ما اكتسبت إلا عندما يبلغ الإنسان سن الرشد، فيكون تحت تأثيرين اثنين:

⇐ نفس تحثه على تلبية الشهوات

⇐ وشيطان (من الجنة والناس) يوسوس له في صدره لاتباع تلك الشهوات:

- ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 1-6]

ولعل أول شهوات النفس التي تبدأ بقوة عند الإنسان مع سنّ البلوغ هي شهوة النساء (الجنس). فكيف يحدث ذلك؟

جواب مفترى: سأحاول الآن تقديم افتراء من عند نفسي خطير جدا يتعلق بهذه القضية. وأطلب من الجميع ألا يصدقوه لأنّه ربما لا يعدو أكثر من ضرب من الجنون. لكن إن صح هذا الافتراء، فالعواقب - لا شك - هائلة في فهم كيفية عمل النفس البشرية.

الافتراء 1: يكون عند الذكر قلبان قبل سن البلوغ، وما أن يبلغ سن البلوغ حتى يضمر أحدهما، ويبقى أحدهما.

الافتراء 2: يكون عند الأنثى قلبان قبل سن المحيض وبعده. فيظلا يعملان معا.

الدليل

دعنا نجلب من الموسوعة العلمية (الويكيبيدا) المعلومة التالية عن غدة في جسم الإنسان تسمى الغدة الزعترية (Thymus):

الغدة الزعترية أو **الغدة السعترية** أو **غدة التوتة** أو **الغدة التيموسية** بالإنجليزية(Thymus : هي غدة صماء تقع على القصبة الهوائية أعلى القلب خلف عظمة القص، تكون كبيرة لدى الأطفال وتستمر في الضمور طوال سن المراهقة لان حجمها يتناقص عندما تبدأ الغدد التناسلية بالنضج والإفراز، تفرز هذه الغدة هرمون ثيموسين Thymosin الذي ينظم بناء المناعة في الجسم ويساعد على إنتاج الخلايا اللمفاوية ويشرف على تنظيم المناعة في الجسم. ويتم فيها تمايز خلايا . المصدر

إن ما يهمنا طرحه هنا هو أن هذه الغدة الواقعة أعلى القلب تضمر ويتناقض حجمها مع نضوج الغدد التناسلية. ونحن نفتري الظن بأن تناقص حجم هذه الغدة يكون لصالح اكتمال النفس. فمادامت هذه الغدة فعالة عند الأطفال، فأنفسهم لم تكتمل بعد، وبالتالي لن تكون شهوة النساء عندهم حاضرة. وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) كيف يكون لتلك الغدة علاقة مباشرة باكتساب اللسان عند الإنسان. لكن الأهم من ذلك هو ظننا بأن هذا سببا في أنه لا ضير من اطلاع الاطفال على عورات النساء حتى يبلغوا الحلم حيث يصبحوا مأمورين بالاستذان كما استذن الذين من قبلهم:

- ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور: 59]

ولعلي أجزم الظن بأن سبب ذلك يعود إلى أن القلب الثاني للذكر يضمر مع سن البلوغ، فيبقى له قلب واحد يتخذ القرار على عكس الأطفال والنساء اللذان يكون لهما قلبان:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ [الأحزاب: 4]

فرحلة الرجولة تبدأ (نحن نظن ربما مخطئين) بضمور هذه الغدة التي تعتبر القلب الثاني. وفي هذه المرحلة، تصبح نفس الذكر البالغ (الرجل) مكتملة، فتميل إلى الشهوات، وفي هذه المرحلة يبدأ الشيطان يوسوس للناس (الذكور البالغين المكلّفين)، فتصبح النفس ذاتها توسوس لصاحبها:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]

ولعل وسوسة النفس لا تكون إلا لتلبية الشهوات التي جاء ذكرها في قوله تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

ولو راقبنا الفعل "زُيِّن" في هذه الآية الكريمة، لوجدنا بأنه قد جاء على صيغة – ما يسميه أهل اللغة - بالمبني للمجهول، ليكون السؤال هو: من الذي يزين للناس حب هذه الشهوات؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا بأن أحد القوى العاملة في تزين السوء للإنسان هو الشيطان:

- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 43]
- ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النحل: 63]
- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]

نتيجة مفتراة: ما أن يبلغ الإنسان سن التكليف (البلوغ) حتى تبدأ نفسه توسوس له بحب الشهوات، وحينها يبدأ الشيطان بتزين العمل السيء للإنسان، ليصده عن السبيل:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]

1. عودة على بدء

ما أن خرج محمد من مرحلة أن يكون يتيما عندما بلغ الحلم، حتى أصبحت نفسه مكتملة تشتهي ما تشتهي نفس أي إنسان من جيله، فكانت الشهوات التي تميل لها نفسه هو ما جاء ذكرها في قوله تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

ولكن السؤال الذي يجب أن يطرح الآن هو: أين سيجد محمد تلك الشهوات وهو قابع بين جبال مكة بعيدا عن العالمين؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في هذه المرحلة بدأ محمد (نحن نتخيل) يشعر بالحاجة للانخراط مع المجتمع القريب منه، ألا وهو مجتمع مكة، باحثا عن تلك التي تحثه عليه نفسه. فبدأ رحلاته المتكررة إلى مكة حيث سيجد فيها ما تشتهي نفسه.

وفي هذا المقام، علينا ألا ننسى أن سكان مكة كانوا "قريش". ولو دققنا في الآية الكريمة التالية:

- ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ٤﴾ [قريش: 1-4]

سنجد أن هذه الآيات الكريمة تبيّن لنا بأن "قريش" هم عبارة عن إيلاف، أي بمعنى قوم متألفون، يتفقون على المكان ويختلفون في الأصول. فهم عبارة عن تجمع من الناس، ألفوا المكان الذي أتوه من شتى أصقاع المعمورة، وكان هذا منذ اليوم الأول لبدء التجمع في مكة بعد أن أسكن إبراهيم فيه من ذريته عند البيت المحرم، وأطلق دعوته الشهيرة بأن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إليهم:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 35-37]

فأصبح ذلك التجمع البشري متعدد الأصول والمنابت، فكان عبارة عن إيلاف. فمكة ليست حكرا لعشيرة معينة، ولا تسكنها قومية واحدة كالأعراب مثلا، ولكنها عبارة عن خليط متجانس من القوميات المتعددة. تجمعوا كلهم عند البيت العتيق، وذلك لهدف ديني، ألا وهو عبادة رب هذا البيت وإقامة الصلاة، ونشطت فيه التجارة، فكانت رحلة الشتاء والصيف. وكانوا جميعا على يقين بأن هذا المكان بلد آمن، لأن الله قد تكفل بحماية بيته العتيق من أي خطر قد يتهدده. فالله سيرسل طيره الأبابيل التي سترمي المعتد على البيت بحجارة من سجيل حتى يجعلهم كعصف مأكول كما فعل مع أصحاب الفيل:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 1-5]

وما أن وجد محمد نفسه في مكة حتى كان يعلم:

⇐ أن البيت آمن
⇐ أن قريشا إيلاف
⇐ أن التجارة في مكة رائجة
⇐ أن رحلة الشتاء والصيف غير منقطعة
⇐ أن قدوم الناس إلى مكة دائم (تنقل أخبارا من أماكن مختلفة)
⇐ أن كل ما تشتهيه النفس متوافر ويمكن الحصول عليه
⇐ الخ

السؤال: كيف تصرّف محمد ليلبي شهوات نفسه مما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤﴾ [آل عمران: 14]

تخيلات مفتراة: كانت التجارة واقتناء الأنعام ونحوها من الأمور التي اشتغل بها محمد في بادئ الأمر. لكن حبّه لهذه الشهوات لم يكن ليثنيه عن التفكر بالأمر العقائدي، ألا وهو: "ما هو خير من كل ذلك"، فحصوله على النساء أو البنين أو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، لا يلبي طموحه، فهو لا شك يسمو إلى ما هو أكثر من ذلك. فكان دائم الانشغال بالرب الذي خلق وأعطى. وسنرى لاحقا إن شاء الله كيف استطاع محمد أن يتحكم بشهوات نفسه، ويكبح جماحها، وبالتالي حصوله على الوعد الإلهي أن يعطيه ربه حتى رضى:

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: 5]

وكان من أهم ما فعل في خضم صراعه مع شهوات نفسه هو زواجه بامرأة تكبره في السن. (فالله أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يأذن لي فيها بعلم في ذلك لا ينبغي لأحد غيري، إنه هو العليم الحكيم)

السؤال: كيف سيحصل على كل ما تشتهي نفسه؟ (سؤال جميل لمن أراد أن يقتصه من سياقه، أليس كذلك؟)

رأينا المفترى: لما كانت امكانيات هذا الشاب عظيمة في الحصول على ما يريد، كان الشيطان يرقب ذلك عن كثب. فكان يريد أن يصد هذا الشاب عن السبيل، فحاول أن يزين له، وبالفعل نجح الشيطان بادئ الأمر أن يحدث عند محمد الرجز، فيكسبه الوزر، وذلك بأن زين له ومده بالوسيلة التي تحقق له ما عظم من هذه الشهوات. فكان له ما أراد.

السؤال: كيف تواصل الشيطان مع محمد في تلك الفترة من حياته؟

رأينا المفترى: لمّا كان محمد يقطن المأوى (الغار) في جبال مكة، كان عليه أن يقطع الوادي الفاصل بين تلك الجبال من جهة ومكة من جهة أخرى. وخلال تلك الرحلات (نحن نتخيل) بين الجبال ومكة، حصلت مع ذلك الشاب تجارب تشيب لها الرؤوس وذلك لكثرة وجود الجن في ذلك الواد.

السؤال: لماذا تتواجد الجن بكثرة في ذلك الواد القريب من مكة (واد منى)؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن كثافة تواجد الجن في هذا المكان يعود إلى قصة الخلق الأول عندما قضت الإرادة الإلهية باهباط الجميع (الجن والإنس) من الجنة بعد معصية آدم لربه. فالمدقق في النص القرآني الخاص بتلك الحادثة، سيجد أن الهبوط قد شمل الجميع. قال تعالى:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 36-38]

وقد افترينا القول في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن ذلك الهبوط من الجنة (جنة المأوى وليس جنة الخلد) كان إلى الواد غير ذي الزرع حيث وضع أول بيت للناس في بكة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

فكان هناك (نحن نرى) موطن الإنسان (ابني آدم) الأول بعد الخروج من الجنة. وهناك استوطن الجن، فأنشأ الشيطان الذي أخرج آدم وزوجه من الجنة مملكته الأرضية. وتكاثر وجودهم هناك قريبا من البيت العتيق، وهناك أسكن إبراهيم من ذريته (ولده إسماعيل) في ذلك الواد حيث البيت العتيق. قال تعالى:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وكان تطهير البيت (كما افترينا القول في أكثر من مكان من مقالاتنا السابقة) يكون بإراقة الدم (الذبح). وذلك لأنّ الدم هو الذي يطهر المكان من الجن المتواجدين فيه. لذا، أصبح تطهير البيت منهم بالذبح واحدة من شعائر حج ذلك البيت:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

(للتفصيل في ها الموضوع، انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: فقه الحج).

نتيجة مفتراة: كان ذلك الواد ببطن مكة يعجّ بالجن، فكان على محمد الصبي ومحمد الشاب أن يتعامل معهم بطريقته. فكيف فعل محمد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل محمد الشاب الذي يعيش في ذلك الغار في جبال مكة يريد أن يصل إلى مكة، فكان لابد أن يمر في ذلك الواد الذي يفصل مكة (حيث البيت العتيق) عن جبالها. لذا، حصلت خلال رحالاته تلك معه (نحن نتخيل) أحداث تشيب لها الولدان، وذلك لأن عنصري الخوف والمفاجئة كانا حاضرين في كل رحلة من الغار وإليه. ولكن طبيعة هذا الغلام وشخصيته التي طوّرها في الجبال (في الغار) مع الكائنات الحيّة من الدواب والطيور مكّنته من الاصرار على قبول الصراع (التحدي)، فانتهى الأمر (نحن نفتري القول) بتسخيره تلك القوى لصالحه، فكانت أول النتائج المباشرة لهذا الصراع هو أن أصبح قلب هذا الغلام (والشاب) قادرًا على أن يتحمل ما لا يمكن للجبل أن يتحمله، فبدأت رحلته في تحمل القول الثقيل:

- ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: 5]

ونحن نتوقف هنا لنطلب من القارئ الكريم – إن أراد- أن يقارن بين ما جاء في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: 21]
- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: 193-194]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن التجارب التي مر بها محمد طفلا (ثم شابا) قد طوّرت من شخصيته حتى أصبح قلبه أقوى من الجبل. ففي حين أن الجبل سيتصدع من ذلك القول الثقيل إلا أن قلب محمد استطاع أن يتحمله.

السؤال: كيف استطاع محمد في فترة من حياته (قبل البعثة) أن يتواصل معه الجن في ذلك الواد الذي يعج بهم؟





جواب مفترى: لو حاولنا تدبر الآيات الكريمة التالية، لوجدنا ما كان يتوجّب على محمد فعله في ذلك المكان الذي وجد فيه نفسه بعيدا عن الناس، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل: 1-10]

فالآيات الكريمة تخاطب محمد (كـ مزمل) بمجموعة من التوجيهات، نذكر منها:

⇐ أن يقوم الليل من منتصفه (أو حول منتصفه)
⇐ ترتيل القرآن
⇐ القاء القول الثقيل
⇐ الحديث عن ناشئة الليل، وما يتوجب عليه فعله في الليل
⇐ الحديث عن النهار، وما يتوجب علي فعله في النهار
⇐ ذكر اسم الرب والتبتل إليه تبتيلا
⇐ اتخاذ رب المشرق والمغرب إلها واحدا وكيلا
⇐ الصبر على ما يقولون، وهجرانهم هجرا جميلا
⇐ الخ

السؤال: كيف نفهم هذه التوجيهات الربانية لمحمد كما جاءت في بداية هذه السورة الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول ابتداء بأن مفردة المزمل هي حالة وصفية لما كان عليه محمد في مرحلة معينة من حياته، وليس أدل على ذلك من أن هناك سورة أخرى لاحقة مباشرة للسورة السابقة تخاطب محمدا بصفة المدثر، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: 1-7]

فيصبح الترتيب على النحو التالي:

⇐ محمد مزمل (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)
⇐ محمد مدثر (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ)

والفكرة البسيطة التي نحاول أن نجلب انتباه القارئ الكريم لها هنا هي أن المطلوب من محمد المزمل هو أن يهجرهم هجرا جميلا ولينشغل بأمور تعبدية فردية بعيدا عنهم، في حين أن المطلوب من

محمد المدثر هو أن يقوم لينذر. لذا، نحن نفتري القول بأن محمدا كان مزملا عندما كان في مرحلة الاعداد الذاتي لأن يكون لاحقا رسولا فينذر.

نتيجة مفتراة: محمد كان "مزمل" قبل أن يصبح "مدثر"، فيصبح الترتيب على النحو التالي:

⇐ محمد مزمل في مرحلة الإعداد لتلقي الرسالة
⇐ محمد مدثر في مرحلة الرسالة، فيقوم فينذر

ولو حاولنا أن نستكشف المرحلة التي سبقت هاتين المرحلتين، سنجد على الفور أن السورة التي تسبق هاتين السورتين الكريمتين (المزمل والمدثر) هي سورة الجن. قال تعالى:

- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ
بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا
٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ
رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا
شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا
نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا
١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن
يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا
١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا
١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي
لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ
رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن: 28-1]

فيصبح الترتيب على النحو التالي:

⇐ مرحلة تواصل مع الجن
⇐ مرحلة التحضير الذاتي للرسالة
⇐ مرحلة تبليغ الرسالة

فالمشهد (كما نفهمه) هو الآن على النحو التالي:

⇐ يصرف الله نفرا من الجن لمحمد يستمعون القرآن
⇐ يطالب الله محمدا (كمزمل) بمجموعة من التوجيهات الشخصية الفردية
⇐ يطالب الله محمد (كمدثر) بمجموعة أخرى من التوجيهات الدعوية

السؤال: ما الذي نفهمه بشكل أولي من هذا الطرح؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن هذه كانت مراحل ثلاثة في حياة محمد الشاب الذي يجري إعداده ليكون رسولا للعالمين، وهذه المراحل هي:

⇐ مرحلة تواصل الجن به (سورة الجن 71)
⇐ مرحلة القاء القول الثقيل عليه (المزمل 72)
⇐ مرحلة أن يصبح نذيرا للناس (المدثر 73)

ليكون السؤال الآن هو: لماذا جاء نفر من الجن يستمعون القرآن؟ أو بكلمات أخرى – نحن نسأل: ما الذي دفع بنفر من الجن (محددين بذاتهم) أن يحضروا قراءة محمد القرآن في مأواه؟

رأينا المفترى: إن أبسط ابجديات التفكير هو أن ننطلق من الملاحظة الأولية التالية: أن الجن هم من جاءوا يستمعون القرآن:

- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١﴾ [الجن: 1]

ليكون السؤال الآن هو: ما الذي دفع بذلك النفر من الجن أن يستمعوا القرآن؟

جواب مفترى خطير جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الذي دفع بنفر من الجن لأن يستمعوا القرآن هو حدوث "تغيّر كوني" ما عهدوه من ذي قبل.

السؤال: ما هو ذلك التغيّر الكوني الذي وجده الجن، فاضطرهم لأن يحضروا استماع القرآن؟

جواب مفترى: أنه منعهم من استراق السمع من السماء. انتهى

الدليل

لو دققنا في الآيات الكريمة في هذه السورة العظيمة، لوجدناها (حسب فهمنا طبعا) تبيّن لنا السبب الذي دفع بنفر من الجن أن يأتوا بأنفسهم إلى محمد ليستمعوا قراءته القرآن في ذلك المأوى، ألا وهو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: 8-10]

السؤال: ما الذي نفهمه من ذلك؟ كيف يكون هذا هو السبب الذي دفع بالجن ليستمعوا للقرآن؟ يسأل صاحبنا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا الحقيقة التي لا جدال فيها بأن الجن كانوا يستطيعون لمس السماء، ولكن في لحظة ما وجد الجن (خاصة المتواجدون بكثرة في واد مكة) بأن السماء التي كان يستطيعون لمسها قد ملئت حرسا شديدا وشهبا:

- ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن: 8]

وأن الجن كانوا – قبل هذه اللحظة - يقعدون مقاعد للسمع، فيسترقونه، لكنهم الآن يجدون بأن من يقعد منهم منها مقاعد للسمع سيجد له شهابا رصدا:

- ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: 9]

وفي تلك اللحظة (نحن نفتري الظن) حصل ارتباك للجن بسبب ما يحصل الآن من أمر القعود من السماء مقاعد للسمع، فما استطاعوا أن يدركوا (نحن نتخيل) سبب هذا التغيير المفاجئ في السماء، فها هم يقولونها بأنفسهم بأنهم ما كانوا يدركون إن كان ذلك التغيير هو شر أريد بمن في الارض أم أرد بهم ربهم رشدا:

- ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: 10]

لذا، نحن نعيد رسم المشهد (كما هو في مخيلتنا) على النحو التالي: يجد الله محمدا يتيما فيؤويه، فينشأ ذلك الطفل في مكان منعزل عن الناس، فلم يكن له من بدّ إلا أن يتعامل مع عناصر الطبيعة القاسية بعيدا عن أعين الناظرين من الناس، فيطوّر بنفسه مهارات تواصل مع الكائنات الحيّة من الدواب والطير المتواجدة في تلك البيئة. وعلى الرغم من قساوة التجربة، إلا أنه (نحن نتخيل) نجح في تخطي مرحلة الخوف من خطر تلك الكائنات، ويكبر ذلك اليتيم هناك، فيجد نفسه يقارع أيضا قوى الطبيعة غير المرئية من عالم الجن من حوله في بطن مكة، فيستطيع أن يتخطى تلك العقبات، ويستطيع بعد جهد مضني أن

يسخرها لخدمته، فيصبح قلبه أقوى من الجبال، فيكون مؤهلا لتلقي القول الثقيل الذي سيُلقى عليه. وهناك تبدأ مرحلة تنزيل القرآن عليه، فيكون أول ما أنزل عليه قولُه تعالى:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 1-19]

فيطلب الله منه أن يبدأ من هذه اللحظة القراءة بسم ربه الذي خلق، وأن يترك (نحن نظن) القراءة السابقة التي ربما كانت بسم كينونة غير ربه الذي خلق. فيرشده إلى ترك تلك الكينونة، ويحذره من مغبة الاستمرار في التعامل معها. ليكون السؤال الآن هو: ما هي تلك الكينونة التي أُمر محمد في هذه السورة الكريمة أن يتوقف عن التعامل معها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا (لا تصدقوه): إنه هامان (الشيطان).

الدليل

لو دققنا في الآيات الكريمة في هذه السورة، لوجدنا (كما افترينا سابقا) أن هناك كينونة يُشار إليها بضمير الغائب في أكثر من آية كريمة في هذه السورة. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- مرة أخرى في قوله تعالى:

- ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 7-19]

ليكون السؤال الآن هو: من هي تلك الكينونة التي يطلب الله من نبيه الكريم ألا يطعه؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن تلك الكينونة هو هامان (الشيطان).

السؤال: ما الدليل على أن تلك الكينونة هو فعلا هامان (الشيطان)؟

رأينا المفترى: لو حاولنا أن نستعرض السياقات القرآنية التي نظن بأن هامان (الشيطان) كان حاضرا فيها بقوة سنجدها التالية:

⇐ هو الذي أخرج آدم من الجنة

⇐ هو الذي كان يعبده أب إبراهيم
⇐ هو الذي كان يؤيد فرعون

ليكون السؤال الآن: لماذا برز الشيطان (هامان) في هذه المواقف على وجه التحديد؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل لابد من جلب انتباه القارئ للملاحظة التالية: بالرغم أن الشيطان هو سبب الفتنة للناس أجمعين، وهو حاضر في كل حالة يكون فيها انحراف عن الحق، إلا أن التصريح بسم هامان (الشيطان) لم يرد إلا في حالة فرعون، بينما جاء في جميع الحالات الأخرى (كحالة آدم وحالة أب إبراهيم) بلفظ الشيطان. ففي حالة آدم، جاء قوله تعالى:

- ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: 36]
- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 22]
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

وفي حالة أب إبراهيم، جاء قوله تعالى:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 42-44]

وأما في حالة فرعون:

- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 6]
- ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾ [القصص: 8]
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]

- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت: 39]
- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤﴾ [غافر: 24]
- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦﴾ [غافر: 36]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا جاء اسم الشيطان (هامان) صراحة في قصة فرعون بينما لم يُصرّح به في جميع الحالات الأخرى؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن السبب في ذلك هو أن الشيطان كان يتعامل مع كل شخص بطريقة سرية، فما كان يعرف ذلك إلا الشخص نفسه، لذا أُحيط بالسرية التامة، فما يحتاج الشخص الذي يتعامل معه الشيطان أن يفصح عن هوية تلك الكينونة الحقيقة التي يتعامل معها. فأب إبراهيم يتعامل مع الشيطان بعيدا عن أعين الناس، فلِم سيصرح باسمه مادام أن الأمر برمته أمر سري لا يعلم به الآخرون؟

أما في حالة فرعون. فقد تم التصريح بسم الشيطان هامان. وذلك لأن تعامل فرعون مع الشيطان لم يكن أمرا خاصا بفرعون بمفرده، ولكنّه أصبح معروفا لآخرين في ذات الوقت، ولو تدبرنا الآيات التي تتحدث عن هامان (الشيطان) في سياقات الحديث عن فرعون، لوجدناه مصاحبا لقارون بالإضافة إلى فرعون. ففي زمن فرعون، كان الشيطان يتعامل مع فرعون وقارون معا، فهو إذا شخصية ليست محتكرة فقط على فرعون حينئذ. وقد افترينا القول في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن الآية الكريمة التالية تصوّر لنا ما حصل بين فرعون من جهة والشيطان من جهة أخرى:

- ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾ [الأعراف: 175-176]

فالمتدبر لهذه الآيات الكريمة من هذا المنظور (ربما الخاطئ)، سيجد على الفور بأنّ الله هو من آتى ذلك الشخص المتحدث عنه آياته كلها، ولكن كان القرار الذي اتخذه ذلك الشخص هو أن ينسلخ من آيات الله. وما دام أنه قد انسلخ من آيات الله بعد أن جاءته، وضع الشيطان (هامان) قدراته الهائلة تحت تصرف هذا الشخص. لذا، نجد فرعون يطلب من هامان أن يبني له صرحا لعله يبلغ الأسباب:

- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾ [القصص: 38]
- ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 36-37]

وبذلك يكون الشيطان قد كان سببا في أن يصد فرعون عن السبيل، فحرف البوصلة عن مسارها الصحيح، لأن في ذلك مصلحة له، لأنه هو من توعد البشرية بالضلال:

- ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 117-120]

وهو لا شك من يزين للناس أعمالهم، ولكنه هو نفسه من ينكص على عقبيه عندما يتأكد من إنفاذ المهمة كما يريدها:

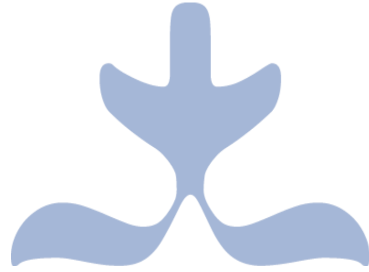
- ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحشر: 16]

وهو لا شك من يريد أن ينتهي غالبية الناس معه في العذاب الأليم:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: 22]

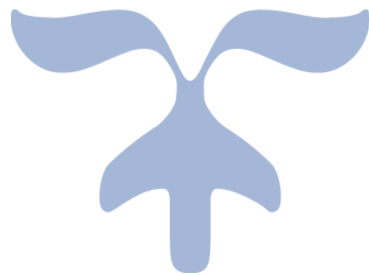
إن ما يهمنا طرحه هنا هو السؤال التالي: لماذا يقدّم الشيطان (هامان) خدماته الكبيرة لأشخاص محددين؟ وبكلمات أخرى: متى يظهر الشيطان (هامان) لأي إنسان ظهورا علنيا وليس مجرد وسوسة (غير معلنة)؟

السؤال: ما علاقة هذا بقصة داوود؟ من يدري؟!



قصة داوود

الجزء السابع عشر



قصة داوود - الجزء السابع عشر

قدّمنا في الجزء السابق من هذه المقالة مجموعة من الافتراءات حول مراحل تجهيز شخص النبي الكريم ليكون للعالمين نذيرا، وليكون في ذات الوقت رحمة للعالمين. فظننا بأن النبي الكريم قد قارع الطبيعة القاسية منذ نعومة أظفاره، فكانت له تدريبا بدنيا على تحمل المشقة وتخطي الصعاب، ثم ما لبث أن بدأ بمقارعة بعض القوى الغيبية حتى كانت بمثابة تأهيل نفسي له ليتحمل شرف التكليف الإلهي له بالرسالة.

وكانت الافتراءات الأخيرة خاصة بالتأهيل النفسي له حتى استطاع أن يكبح جماح النفس الأمارة بالسوء، وأن يكبح كذلك جماح ما يزيّن للنفس البشرية شهواتها. فزعمنا الظن من عند أنفسنا بأنه ما أن خرج محمد من أن يكون يتيما بوصوله مرحلة البلوغ حتى أصبحت نفسه تشتهي ما تشتهيه نفس أي شاب من جيله، كما زعمنا الظن بأن محمدا كان يملك من المقومات ما يجعله قادرا على تلبية جميع شهوات النفس التي جاء ذكرها في قوله تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

لكن لمّا كان محمد يطمح إلى ما هو خير من ذلك كله، اجتهد (ما استطاع إلى ذلك سبيلا) أن يكبح جماع نفسه التي تحثّه على هذه الشهوات، كما استطاع أن يكبح جماح من يزيّن تلك الشهوات للنفس، ألا وهو الشيطان.

وظننا بوجود ثلاث مراحل أولية في حياة النبي في هذا المجال، ألا وهي:

⇐ مرحلة مقارعة عالم الجن (التي تجليها سورة الجن التي جاء ترتيبها السورة 72 في المصحف الشريف)
⇐ مرحلة الإعداد الشخصي للنبي الكريم (التي تجليها سورة المزمل التي جاء ترتيبها السورة 73)
⇐ مرحلة التبليغ بالرسالة (التي تجليها سورة المدثر التي جاء ترتيبها السورة 74)

وقد انتهينا في ذلك الجزء إلى تقديم افتراء هو من عند أنفسنا بأن الشيطان (هامان) قد ظهر ظهورا علنيا لمحمد في مرحلة ما من حياته. لتكون التساؤلات الأولية في هذا الصدد على النحو التالي:

⇐ هل فعلا ظهر هامان لمحمد ظهورا علنيا؟
⇐ لماذا أصلا ظهر هامان لمحمد ظهورا علنيا؟
⇐ كيف ظهر هامان علانية لمحمد؟
⇐ متى كان ذلك؟
⇐ أين كان ذلك؟
⇐ هل تعامل محمد مع هامان؟
⇐ لماذا تعامل معه؟

⇐ هل استمر محمد في التعامل مع هامان؟
⇐ هل توقف محمد عن التعامل مع هامان؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل تقديم بعض الإجابات المفتراة من عند أنفسنا على مثل هذه التساؤلات، فلابد أن ننطلق من مقدمات بسيطة يمكن الاتفاق عليها حتى تكون لبنات أساسية في النقاش القادم. لذا، سنعود مرة أخرى إلى بعض الافتراءات القديمة التي ناقشناها في مقالات متفرقة سابقة لنا، لنستذكر منها هنا الافتراءات التالية:

⇐ أن محمدا ليس استثناء عن الرسل الآخرين، فما هو إلا رسول قد خلت من قبله الرسل:

- ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144]
- ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف: 9]

⇐ هناك فرق بين الشيطان الرجيم (إبليس) من جهة والشيطان (هامان) من جهة أخرى
⇐ أن الشيطان الرجيم هو إبليس وهو من رفض السجود لآدم، وأنه مرجوم في السماء

- ﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: 32-34]

⇐ أن الشيطان (وليس الشيطان الرجيم) المذكور في القرآن هو هامان، وهو الذي وسوس لآدم وزوجه في الجنة ليأكلا من الشجرة:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

⇐ أن الشيطان (هامان) هو الذي أخرج آدم وزوجه من الجنة

- ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]

⇐ أن الشيطان (هامان) أُخرج من الجنة وأهبط مع آدم وزوجه:

- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: 38]

⇐ أن الجنة التي أهبط منها آدم وزوجه ومعهم الجن وشياطينهم هي جنة المأوى في بيت المقدس
⇐ أن هبوطهم جميعا كان إلى الواد غير ذي الزرع الذي بمكة
⇐ أن رحلة البشرية بعد الهبوط من الجنة قد بدأت من مكة

⇐ أن مكة أصبحت ذات بطن لأن كل القرى قد جاءت من هناك، فكانت مكة هي أم القرى:

- ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفتح: 24]

⇐ أن آدم قد تلقى (بعد هبوطه من الجنة) كلمات من ربه، وكان ذلك (نحن نتخيل) عند عرفات:

- ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37]

⇐ أن الله قد أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم عند المشعر الحرام الذي يقع بين عرفات ومنى.

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: 172]
- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: 198]

⇐ أن تكاثر آدم مع زوجه بالعملية الجنسية الأولى كانت في واد منى (فسميت "منى" نسبة إلى المني الذي خرج هناك لأول مرة)

⇐ أن الشيطان (هامان) قد أقام "عرشه" الأرضي هناك، وكانت مهمته هو أن يحدث الرجز

- ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: 11]

⇐ أن تطهير البيت من رجز الشيطان وزمرته أصبحت فعلا متكررا من شعائر حج البيت

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

⇐ أن تطهير البيت من رجز الشيطان يكون بالذبح.

⇐ الخ

وبعد استعراض جملة الافتراءات هذه التي هي لا شك من عند أنفسنا، نجد أن ما يهمنا طرحه هنا هو السؤال التالي: لماذا يقدّم الشيطان (هامان) خدماته الكبيرة لأشخاص محددين؟ وبكلمات أخرى: متى يظهر الشيطان (هامان) لأي إنسان ظهورا علنيا وليس مجرد وسوسة (غير معلنة)؟

جواب مفترى خطير جدا **جدا (لا تصدقوه)**: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الشيطان يظهر علانية "لشخص ما" إذا كان هذا الشخص عنده الآيات. انتهى.

نحن نعتقد بأن مهمة الشيطان التي أوكلها لنفسه هي ايقاع الفتنة، والصد عن سبيل الله، فهو يخوّف الناس، وهو الذي يزين لهم سوء أعمالهم، وهو الذي يعدهم ويمنيهم، وهو الذي ينزغ بينهم، الخ:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: 24]
- ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 117-120]
- ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43]
- ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: 27]
- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الأعراف: 200]
- ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: 36]
- ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: 53]

لكن الشيطان (نحن نرى) يقوم بهذه المهمات دون الحاجة للظهور العلني للشخص، أي أنه يوسوس لهم بطريقة لا يكون هو شخصيا ظاهرا علانية لهم. وهذا ما يحدث مع مجموع الناس. وليس أدل على ذلك - برأينا – مما حصل في حالة يوسف وإخوته:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]

أو مما حصل في حالة موسى عندما وكز الرجل وقضى عليه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

لكن المفارقة العجيبة التي سنحاول الترويج لها الآن تتمثل في أن الشيطان (هامان) قد يظهر علانية "لشخص ما" إذا ما وجد بأن ذلك الشخص قد أصبح لديه من الآيات ما لا يملكه شخص عادي.

الدليل

هذا هو هامان يظهر علانية لفرعون ليقدم له خدماته، فيصبح خادما مطيعا لتنفيذ أوامر فرعون:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]
- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾ [غافر: 36]

ونحن نظن (ربما مخطئين) بأن الشيطان (هامان) ما كان ليقدم مثل هذه الخدمات الكبيرة لفرعون لولا أنّ فرعون قد امتلك من الآيات ما جعله شخصا استثنائيا:

- ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: 57-56]

فكان الشيطان تابعا لفرعون، ينفذ له ما يطلبه منه في الحال:

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: 175-176]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: تأتي فرعون الآيات، يظهر له هامان، ينسلخ فرعون عن تلك الآيات، ويصبح هامان تابعا لفرعون ليقدم له الخدمات التي يطلبها منه مادام أنه قد انسلخ عن الآيات التي أوتيها.

ولنا أيضا في قصة أب إبراهيم مثالا آخر على الظهور العلني لهامان لبعض الناس الذين كانت لديهم من الآيات ما لم يكن للناس الآخرين من حولهم. فبالرغم أن القوم (في زمن إبراهيم) كانوا يعبدون التماثيل التي اتخذوها أصناما:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: 52-57]

إلا أن كبير القوم (أب إبراهيم) كان بنفسه يعبد الشيطان كما جاء ذلك صراحة على لسان إبراهيم عندما حاور أبيه بعيدا عن أعين الناظرين:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: 42-45]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن الشيطان (هامان) قد تواصلا تواصلا علنيا مع أب إبراهيم كما تواصل علانية كذلك مع فرعون.

وليس أدل على افترائنا هذا أيضا من تدخل الشيطان في الآيات التي آتاه الله للرسل أنفسهم. فهؤلاء الرسل هم من كانوا مؤهلين للرسالة، وبالتالي كان لديهم الآيات الكثيرة، فما يكون للشيطان إلا أن يتصدى لهم، ولكن ليس بطريقة غير مباشرة كما يفعل مع الناس العاديين، وإنما بطريقة مباشرة لأن هؤلاء أناس استثنائيون، فتكون مهمة الشيطان مع هؤلاء الناس الاستثنائيين تتمثل في ما جاء تفصيله في كتاب الله في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الحج: 52-54]

وإن كنا لا نريد الدخول الآن في تبيان فهمنا لهذه الآيات الكريمة (متى ما أذن الله لنا بذلك)، إلا أننا نحاول أن نسطر (حسب فهمنا لبعض ما فيها طبعا) افتراء مهما جدا في سياق حديثنا هذا، ألا وهو: التدخل المباشر للشيطان (هامان) في الآيات التي ينزلها الله على أحد من رسله. فكيف يكون ذلك؟

أما بعد

لم يكن محمد (كما أسلفنا) استثناء من الرسل، فقد جاءته الآيات كما جاءت الرسل من قبله، فما كان لهامان (نحن مازلنا نتخيل) أن يتخلى عن مهمته التي أوكلها لنفسه منذ القدم، وهي أن يلقي في أمنية الرسول. لذا جاء التحذير الإلهي لمحمد منه، فلا يطعه، في أول سورة أنزلت عليه:

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ

وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ١٩﴾ [العلق: 1-19]

ونحن نفهم هذه الآيات على النحو التالي:

⇐ كان محمد يقرأ بسم غير الرب الذي خلق في الفترة التي كان فيها ضالا يبحث عن الهداية (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ)، فجاءه الأمر الإلهي بأن يبدأ من هذه اللحظة القراءة بسم ربه الذي خلق:

- ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق: 1-5]

⇐ إخبار محمد بأن الإنسان سيطغى متى ما اتيحت له فرصة رؤية كينونة ما، ألا وهو ذلك الشيطان (هامان):

- ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾ [العلق: 6-8]

⇐ اخبار محمد بالمهمة التي يقوم بها ذلك الشيطان وهي نهي عباد الله عن الصلاة:

- ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢﴾ [العلق: 9-12]

وسنرى لاحقا علاقة الصلاة بالموضوع خاصة عندما أسكن إبراهيم من ذريته عند ذلك البيت لغرض إقامة الصلاة على وجه التحديد:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وسنجد بأن واحدة من مهام الشيطان هو صدّ الناس عن ذكر الله وعن الصلاة:

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: 91]

وتكون مهمته النهائية هو أن يستحوذ على الناس، فينسيهم ذكر الله:

- ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾ [المجادلة: 19]

ولو دققنا في شعائر الحج التي تجرى هناك عند البيت، سنجد الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: 198]

وسنرى كيف إن إقامة الصلاة عند البيت أولا وأن ذكر الله عند المشعر الحرام ثانيا هما ما يُحبط به عمل الشيطان (هامان)

وبالرغم أن مهمة الشيطان على نحو الصدّ عن ذكر الله وعن إقامة الصلاة:

- ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: 91]

فقد تولى حزب الشيطان مساندة الشيطان بمهمته تلك بالصد عن المسجد الحرام:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: 2]
- ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: 25]

فكان هؤلاء هم من أستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله:

- ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: 19]

(فالله وحده أدعوه أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بعلم في ذلك لا ينبغي لأحد غيري، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العلي العظيم)

⇐ إخبار محمد بأن الله يرى ما يقوم به ذلك الشيطان

- ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: 14]

⇐ إخبار محمد بعاقبة ذلك الشيطان إن لم ينته، وسيكون ذلك على نحو أن يسفع بناصيته:

- ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ [العلق: 15-16]

وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) بأن تلك الكينونة المشار إليها في هذا السياق القرآني لها ناصية، بالضبط كالدواب:

- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾ [هود: 56]

الأمر الذي سيدفعنا – إن شاء الله - إلى إجراء تقابل بين هامان (من له ناصية) مع الدواب التي لها ناصية، لنحاول فهم ما هي الناصية، وكيفية أن يسفع بالناصية، وعواقب السفع بالناصية.

(فالله وحده أدعوه أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بعلم في ذلك لا ينبغي لأحد غيري، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العلي العظيم)

إخبار محمد بوجود الإرادة الإلهية في المواجهة المباشرة إن رغب الشيطان في ذلك:

- ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾ [العلق: 17-18]

⇐ ختم تلك الرسالة الإلهية لنبيه الكريم بعدم اطاعة الشيطان والسجود والاقتراب من ربه الذي خلق:

- ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۝١٩﴾ [العلق: 19]

وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) كيف أن السجود هو ما يحقق الاقتراب من الله والابتعاد عن الشيطان

(فالله وحده أدعوه أن ينفذ مشيئته لي الإحاطة بعلم في ذلك لا ينبغي لأحد غيري، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العلي العظيم)

وهنا نتوقف قليلا عند افترائنا الذي مفاده إمكانية وجود تواصل مسبق بين محمد من جهة والجن من جهة أخرى، ليكون السؤال الآن هو: كيف فُتح باب التواصل بين محمد من جهة والجن من جهة أخرى؟ ولماذا انبرى هامان (حسب هذا الخيال المفترى من عند أنفسنا) ليقدم خدماته لمحمد كما

فعل (نحن نظن) مثلا مع أب إبراهيم أو مع فرعون من ذي قبل؟ وسنرى كذلك كيف فشل هامان في المهمة مع محمد، ولماذا فشل في المهمة مع محمد بينما نجح مع أب إبراهيم ومع فرعون.

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب الذي أدى إلى فتح قناة تواصل لمحمد مع الجن هو حيازته على علم الكتاب الذي يحتوي في طياته على الآيات. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا نحاول التدقيق في السياقات القرآنية التي تتعلق بتواصل الجن مع محمد كما تبينها بعض الآيات الكريمة، ولنبدأ بقوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: 29-32]

لو دققنا في هذه الآيات الكريمة، ربما نستطيع تسطير (بنا على فهمنا لها) بعض الافتراءات التي قد تساعد في فهم الأمور بطريقة مختلفة. ولنبدأ بالافتراءات الأولية التالية:

افتراء 1: كان صرف ذلك النفر من الجن ليستمعوا القرآن قد حصل بأمر إلهي، وقد حدث ذلك - نحن نرى- بطريقة مفاجئة (وَإِذْ صَرَفْنَا). فمفردة (إذ) تفيد – كما ذكرنا أكثر من مرة - بأن الحدث قد حصل بشكل فجائي، وأن هناك حدث سابق له أدى إلى حصول هذا الحدث بطريقة مفاجئة. ولو دققنا في مفردة "صرفنا" سنجد أن مجيء الجن إلى المكان كان بشكل متفرق فرادى وجماعات حتى تجمعوا كلهم معا في مكان واحد. فنحن نستخدم هذا المفهوم لتسمية الشخص الذي يقوم بتبديل العملات وتحويلها من الحالة المجتمعة إلى الحالة المتفرقة والعكس. فأنت عندما تصرف ورقة نقدية من فئة المئة دولار، تقوم بتبديلها بعدة أوراق نقدية من الفئة الأقل، أي من فئة الخمسين أو العشرين أو العشرة، وهكذا. وأنت عندما تقوم باعطاء ابنك مصروفا يوميا، أنت تقدم له المبلغ المالي كاملا، وهو يقوم بانفاقه شيئا فشيئا، وهكذا هو مصروفك على أسرتك، الخ. وبهذا الفهم المفترى يمكن أن نتخيل فعل تصريف الرياح والسحاب:

- ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: 164]

فالسحاب (كما الرياح) يكون على شكل موجات أو كتل متفرقة، تتابع وتتكاثف بتجمعها فوق بعضها البعض شيئا فشيئا حتى تصل إلى درجة أن يبدأ الماء ينزل منها في المكان الذي تجمعت معا فوقه.

افتراء 2: الجن هم من جاءوا محمدا وحده (بطريقة الصرف)، فما كان متواجد في المكان الذي صرفت الجن إليه لاستماع القرآن أحد غير محمد، بدليل الضمير الواضح في هذا السياق القرآني (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ). فلو كان هناك أحد متواجدا مع محمد في تلك اللحظة، لربما جاء النص على نحو (إذ صرفنا إليكم).

افتراء 3: كان الذين حضروا من الجن نفر (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ)

افتراء 4: كانت الغاية من صرف أولئك النفر من الجن إلى محمد هي أن يستمعوا القرآن (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ)

افتراء 5: بالفعل حضر أولئك النفر قراءة القرآن، ونحن نعتقد أن محمدا نفسه هو من كان يقرأ القرآن بمفرده في ذلك المكان الذي حضره الجن (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ)

افتراء 6: كان أول ما فعله الجن عندما حضروا ذلك القرآن يقرأ من محمد هو قولهم أنصتوا (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ)

المشهد التخيلي حتى الساعة: الجن يُصرَفون (أي يتوافدون فرادا وجماعات) حتى يجتمعوا معا في مكان واحد قريب من المكان الذي كان محمد يقرأ فيه القرآن، هناك يطلب بعضهم من بعض الإنصات؛ وما دام أنهم قد أنصتوا، فهم قد التزموا بالهدي الذي جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٢٠٤﴾ [الأعراف: 204]

وبذلك استحقوا أن يكونوا ممن تصيبهم الرحمة الإلهية.

افتراء 7: استمر وجودهم في المكان حتى انتهت قراءة القرآن من قبل محمد، فولوا إلى قومهم منذرين (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)

افتراء 8: عندما رجعوا إلى قومهم، أخبروهم بما حصل معهم (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ)

افتراء 9: كانت الرسالة التي نقلها أولئك النفر من الجن لقومهم هو سماعهم كتابا أنزل من بعد موسى (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ).

افتراء 10: تبيان أولئك النفر لقومهم بأن ذلك الكتاب مصدّقا لما بين يديه (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)

افتراء 11: تبيان أولئك النفر من الجن لقومهم بأن ذلك الكتاب يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم (قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ).

افتراء 12: دعوة أولئك النفر قومهم أن يجيب داعي الله وأن يؤمنوا به (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ).

افتراء 13: تذكير أولئك النفر لقومهم بأن ذلك سيجلب لهم غفران بعض ذنوبهم وإجارتهم من عذاب أليم (يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ).

افتراء 14: تذكير أولئك النفر من الجن قومهم بعاقبة ألا يجيبوا داعي الله (وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ).

نحن نظن بأن محاولة التدبر لهذه الآيات بهذه الطريقة التفصيلية ستجلب معها سيلا من التساؤلات التي ربما تحتاج إلى وقت وجهد كبيرين ربما يصعب في هذا المكان طرحها كلها جملة واحدة. لذا، سنقف هنا عند بعض التساؤلات التي قد تفيدنا في رسم صورة جديدة للاحداث (كما نفهمها طبعا) من خلال هذا الطرح ربما غير المألوف للكثيرين.

تساؤلات

- ⇐ من هم أولئك النفر من الجن؟
- ⇐ لماذا كانوا نفرا؟
- ⇐ كم كان عددهم؟
- ⇐ من أين جاءوا؟
- ⇐ إلى أين ولوا؟
- ⇐ من هم قومهم؟
- ⇐ لماذا صرف الله ذلك النفر على وجه التحديد؟
- ⇐ لماذا استمعوا؟
- ⇐ لماذا انصتوا؟
- ⇐ لماذا ولوا جميعا إلى قومهم منذرين؟
- ⇐ لماذا لم يخرج من بينهم من لا يتفق معهم؟
- ⇐ لماذا قالوا أنهم سمعوا كتابا (وليس قرءانا)؟
- ⇐ لماذا ذكروا أن ذلك قد أنزل من بعد موسى؟
- ⇐ لماذا لم يأت ذكر لعيسى في هذا السياق بالرغم أن ذلك الكتاب المشار إليه في خطابهم قد أنزل من بعد عيسى؟
- ⇐ كيف عرفوا أنه مصدق لما بين يديه؟
- ⇐ لماذا أيقنوا بأنه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؟
- ⇐ لماذا دعوا قومهم أن يجيبوا داعي الله؟
- ⇐ لماذا حذروا قومهم من مغبة ألا يجبوا داعي الله؟
- ⇐ الخ.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 1: عندما أنزل القرآن على قلب محمد، مُلئت السماء حرسا شديدا وشهبا، فما عاد الجن يستطيعوا أن يقعدوا منها مقاعد للسمع كما كانوا يفعلون من ذي قبل، فأشكل الأمر (أي أمر القعود من السماء للاستماع) عليهم فرادى وجماعات، فانبرى نفر منهم لمعرفة السبب. فقضت المشيئة الإلهية أن يصرف هؤلاء النفر (فرادى ومجموعات) لمعرفة السبب الذي جعل السماءَ تُملأ حرسا شديدا وشهبا في تلك الفترة من الزمن. فوصل أولئك النفر من الجن (فرادى وجماعات) إلى المكان الذي

يُقرأ فيه القرآن، فتجمعوا في مكان واحد ربما دون تخطيط مسبق بينهم جميعا، فوجدوا شخصا يقرأ القرآن بمفرده في مكان بعيد منعزل عن العالمين.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا 2: حضر أولئك النفر قراءة القرآن، فانصتوا حتى قضى ذلك الشخص قراءة ذلك القرآن، فتولى أولئك النفر إلى قومهم منذرين. وأخبروا قومهم بما حصل معهم، فنقلوا لهم الخبر بأنهم قد سمعوا كتابا أنزل من بعد موسى، وطلب أولئك النفر من قومهم الإيمان بذلك الكتاب، وإجابة دعوة الداعي به، وحذروهم من مغبة عدم الإيمان به.

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: لم يكن محمد على علم بحضور النفر من الجن لسماع القرآن في تلك اللحظة، ولم يحصل تواصل بين أولئك النفر مع محمد بعد أن قضى قراءته للقرآن، فالنفر من الجن ولوا إلى قومهم مباشرة بعد أن قضى محمد من قرآءته للقرآن.
نتيجة مهمة جدا: علم محمد لاحقا عن طريق الوحي بأن نفرا من الجن قد حضروا، فاستمعوا القرآن، فجاءه ذلك الخبر في سورة كاملة هي سورة الجن:

- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ
بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا
٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ
رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا
شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا
نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا
١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن
يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا
١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا
١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ١٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠ قُلۡ إِنِّي
لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ
ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ
فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤ قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ
ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ
رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجن:
28-1]

ليكون السؤال الأول الذي يجب أن نتعرض له هو: من هم أولئك الجن الذين حضروا سماع القرآن؟

جواب مفترى: إنهم نفر من الجن

السؤال: لماذا كانوا نفرا من الجن؟ لماذا لم يكن الجن بمجموعهم؟ ولماذا لم يكونوا فرادى على فترات متباعدة؟ لماذا كان حضورهم هناك كمجموعة واحدة (نفر) في ذات الوقت؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه يمكن لنا أن نستنبط السبب في ذلك بعد استعراض الآيات الكريمة التي ورد فيها مفردة "نفر" ومشتقاتها. قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء: 71]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: 38]
- ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 39]
- ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التوبة: 41]
- ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة: 81]
- ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: 122]
- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]
- ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف: 29]
- ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾ [الجن: 1]

فالمدقق في الآيات الكريمة هذه التي ترد فيها مفردة "نفر" ومشتقاتها، سيجد بأنها تتحدث بمجملها عن النفور في سبيل الله. لكن لو تدبرنا الآية الكريمة التالية على وجه التحديد:

- ﴿۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ [التوبة: 122]

لوجدنا بأن واحدة من أوجه النفور في سبيل الله هو أولا التفقة في الدين ثم أن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ثانيا.

السؤال: ماذا فعل نفر الجن عندما حضروا استماع القرآني؟ ولماذا إذًا صرفهم الله لمحمد ليسمعوا القرآن؟

نتيجة مفتراة: كان النفر من الجن الذين حضروا سماع القرآن من محمد هم طائفة من الجن وهم من تقع على عاتقهم مسئولية التفقه في الدين وإنذار قومهم. إنهم - بكلمات عامة - رسل من الجن. ولو دققنا مليّا في الآية التي تتحدث عن هؤلاء النفر من الجن، لوجدنا أنهم استطاعوا التميز بين ما يسمعونه الآن من الحق مقابل ما كان يقوله سفيههم على الله شططا من ذي قبل.

السؤال: كيف استطاع الجن التمييز بين ما سمعوه من محمد وهو يقرأ القرآن عمّا كان يقوله سفيههم على الله شططا؟

- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾ [الجن: 4]

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل نجد لزاما طرح تساؤل آخر له علاقة بالموضوع ألا وهو: من هو سفيههم الذي كان يقول على الله شططا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن سفيههم الذي كان يقول على الله شططا هو الشيطان هامان. انتهى.

السؤال: أين كان هامان متواجدا عندما حضر نفر من الجن قراءة القرآن؟

رأينا **المفترى**: نحن نظن بأن هامان لم يكن موجودا مع أولئك النفر وذلك لأن كل الذين حضروا من الجن حينئذ قد ولوا إلى قومهم منذرين، طالبين من قومهم الإيمان بما سمعوا، وترك ما كان يقوله سفيههم على الله شططا.

السؤال: لماذا لم يكن هامان متواجدا معهم حينئذ؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن محمدا كان في تلك اللحظة قد طهّر ثيابه و هجر الرجز. فما عاد هامان يستطيع أن يثني محمدا عن آيات ربه:

- .﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ [المدثر: 4-5]

وأن ذلك قد حصل قبل أن يشرح صدر محمد، فيُنقذ ظهره، ويُرفع عنه وزره:

- ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: 1-3]

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل ما حصل حتى تلك الساعة؟

تخيلات مفتراة من **عند أنفسنا**: نحن نظن بأن تواصل هامان مع محمد قد كان سابقا لحصول محمد على النبوة. وكان ذلك في مرحلة حصوله على الكتاب. انتهى.

الدليل

لو حاولنا البحث عن دليل قد يثبت هذا الافتراء الخطير الذي هو لا شك من عند أنفسنا، سنجد بأننا ملزمون أن نجلب الآية الكريمة التالية لمحاولة تدبرها من هذا الجانب. قال تعالى:

- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: 79]

فالمتدبر لهذا النص القرآني، سيجد أن هناك ثلاثة أشياء يحصل عليها أي واحد من البشر حتى لا تكون النتيجة أن يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله، ألا وهي على الترتيب:

⇐ الكتاب
⇐ والحكم
⇐ والنبوة.

لذا، تبدأ مرحلة تأهيل هذا الشخص على نحو أن يؤتيه الله الكتاب أولا ثم الحكم ثانيا وأخيرا النبوة.
ليكون السؤال الآن لماذا يكون الحصول على هذه الاشياء الثلاثة على نحو متتابع ومتسلسل؟
رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن المرحلتين الأولى (الكتاب) والثانية (الحكم) هي مقدمات أساسية للحصول على النبوة. فلا يمكن لمن يحصل على النبوة إلا أن يتخطى بنجاح المرحلتين السابقتين (الكتاب والحكم). لذا يمكن أن يحصل أحد من البشر على الكتاب ولا يحصل على الحكم والنبوة، ويمكن لشخص آخر أن يحصل على الكتاب والحكم ولا يحصل على النبوة. وبالمقابل يمكن أن يحصل شخص آخر على الكتاب والحكم ثم يحصل بعد ذلك على النبوة.
السؤال: هل فعلا يمكن أن يحصل أحد من البشر على الكتاب والحكم ولا يحصل على النبوة بعد ذلك؟
رأينا المفترى: نعم. نحن نعتقد (ربما مخطئين) بأن الكتاب ابتداء يمكن أن يحصل عليه أحد من البشر ثم لا يكون من نصيبه الحكم والنبوة.
السؤال: هل هناك دليل على أن أحدا من البشر قد حصل على الكتاب ولم يحصل بعد ذلك على النبوة؟

رأينا المفترى: للإجابة على هذا التساؤل، لابد أن نحاول معرفة الكتاب الذي يمكن أن يحصل عليه أحد من البشر. فلو بحثنا في القرآن على مساحته عن ذلك الكتاب الذي آتاه الله بعض عباده، سنجد الآيات الكريمة التالية التي تبين لنا ماهية الكتاب.

أولا، الكتاب موثق (عقد مبرم بين طرفين)

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: 235]
- ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: 78]

ثانيا، الغاية من الكتاب هو الحكم بين الناس:

- ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: 105]

ثالثا، يمكن الارتداد عن الحق بعد أن يأتي الله بعض الناس نصيبا من الكتاب:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: 23]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44]

رابعا، يمكن لمن آتاه الله نصيبا من الكتاب الإيمان بالجبت والطاغوت، وبالتالي الكفر:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: 51]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: 6]

خامسا، وجود الفصل الواضح بين الكتاب من جهة والقرآن والتوراة والإنجيل من جهة أخرى:

- ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: 68]
- ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ

ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١١٠﴾ [المائدة: 110]

سادسا، وجود الفصل الواضح بين الكتاب والحكم والنبوة

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام: 89]

سابعا، يمكن أن ينتقل الكتاب بالوراثة، فأصبح هناك أهل الكتاب

- ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾ [الأعراف: 169]
- ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾ [فاطر: 32]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشورى: 14]

السؤال: ما هو الكتاب إذًا؟
جواب مفترى خطير جدا: الكتاب هو آيات من نوع خاص:

- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [يونس: 1]
- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١﴾ [يوسف: 1]
- ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١﴾ [الرعد: 1]
- ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: 1]
- ﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الشعراء: 1-2]
- ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [لقمان: 1-2]
- ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الزخرف: 1-2]
- ﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾ [الدخان: 1-2]
- ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [الجاثية: 1-2]
- ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾ [الأحقاف: 1-2]

السؤال: ما هو القرآن؟
جواب مفترى خطير جدا: القرآن تفصيل لآيات الكتاب:

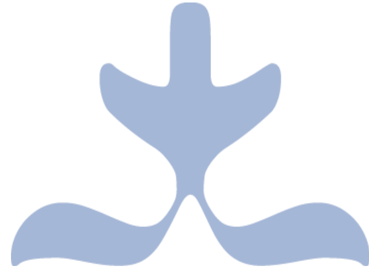
- ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

السؤال: كيف يكون القرآن تفصيلا للكتاب؟
رأينا المفترى: لقد ذكرنا في أكثر من مكان في مقالاتنا السابقة بأن التفصيل هو – بمصطلحاتنا الدارجة- الترجمة، أي نقل النص من صيغة إلى صيغة أخرى. لذا، نحن نفهم (ربما مخطئين) بأن القرآن هو النسخة باللسان العربي لما في الكتاب الذي هو أصلا غير عربي. انتهى.

نتيجة مفتراة: آيات الكتاب ليست بلسان بشري
نتيجة مفتراة: القرآن تفصيل (ترجمة) لآيات الكتاب بلسان قوم محمد (عربي)
نتيجة مفتراة: التوراة تفصيل (ترجمة) لآيات الكتاب بلسان قوم موسى (عبري)
نتيجة مفتراة: الإنجيل تفصيل (ترجمة) لآيات الكتاب بلسان قوم الحواريين

السؤال: من الذي يستطيع التواصل مع الجن؟
رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن من يستطيع التواصل مع الجن هو من كان يعلم آيات الكتاب بنسختها الأصلية. وذلك لأن الجن (نحن نرى) لا يعرفون اللسان العربي ولا اللسان العبراني ولا الآرامي، الخ. ولكنهم يعلمون الآيات التي في الكتاب بصيغتها الأصلية. فمن أراد التواصل مع عالم الجن، ومن أراد أن يتواصل معه عالم الجن، فعليه أن يتخاطب معهم بالصيغة التي يفهمونها.
تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن الجن قوم، فلهم طريقتهم في التواصل فيما بينهم، ومن أراد أن يستفيد من الخدمات التي يقدمها الجن، فعليه أن يتواصل معهم بتلك الطريقة التي يعرفونها. وسينبري الجن للتواصل مع الإنس إذا ما وجودوا من يخاطبهم بالصيغة التي يفهمونها ويستجيبون لها.
السؤال: أين تجد الطريقة التي يمكن أن يتخاطب بها الجن؟
الجواب: هذا ما سنتناوله – إن شاء - في الأجزاء القادمة من سلسة المقالات هذه التي تهدف للتعرف على شخصية نبي الله داوود إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك.
السؤال: من هو داوود؟

(دعاء: فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا. وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو السميع البصير).



قصة داوود

الجزء الثامن عشر



قصة داوود - الجزء الثامن عشر

كان أهم ما حاولنا افتراءه في الجزء السابق من هذه المقالة هو ظننا بمرور أي بشر بثلاث مراحل حتى يحصل على شرف التكليف بالرسالة، ألا وهي مرحلة حصوله على الكتاب أولا ثم الحكم ثانيا ثم النبوة ثالثا. وحاولنا استنباط ذلك من فهمنا (ربما المغلوط) لما جاء في قوله تعالى:

- ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ [آل عمران: 79]

وظننا بأن المرور بهذه المراحل الثلاث بشكل متسلسل هو الضمانة الحقيقية التي تكفل ألا يقول ذلك البشري للناس كونوا عبادا لي من دون الله، ولكن كونوا ربانيين.

وقد حاولنا الترويج لافترائنا بأن محمدا ما كان استثناء من النبيين، وبالتالي مرّ بهذه المراحل الثلاثة التي ظننا أن كلّ واحدة منها فصلتها سورة كاملة في كتاب الله، على النحو التالي:

⇐ **مرحلة الحصول على الكتاب**، فكان أبرز سمات تلك المرحلة مقارعة عالم الجن (التي تجليها سورة الجن التي جاء ترتيبها السورة 72 في المصحف) والاستفادة من خدمات الجن، وخاصة هامان.
⇐ **مرحلة الحصول على الحكم**، فكان أبرز سمات تلك المرحلة هي الإعداد الشخصي للنبي الكريم (التي تجليها سورة المزمل التي جاء ترتيبها السورة 73)، بتعلم تفصيل الكتاب قرآنا عربيا غير ذي عوج.
⇐ **مرحلة الحصول على النبوة**، فكانت مرحلة التبليغ بالرسالة (التي تجليها سورة المدثر التي جاء ترتيبها السورة 74)

وسنحاول في هذا الجزء تفصيلا أكبر لهذه المراحل الثلاثة حسب منهجنا المعهود، وذلك للنظر بطريقة مختلفة على الأحداث التي كانت في سيرة نبينا المصطفى. لذا، سنتحدث في هذا الجزء من المقالة عن المرحلة الأولى (مرحلة إيتاء الكتاب)، وسنتحدث في الأجزاء التي تليها – إن أذن الله لنا الإحاطة بشيء من علمه - عن المرحلتين التاليتين (الحصول على الحكم ثم النبوة). ونحن نؤكد هنا بأن النقاش التالي ربما يتقاطع مع بعض تفاصيل الموروث من جهة، وسيخالف - لا محالة - كثيرا منه من جهة أخرى. لذا، نحن نطلب من الجميع أن لا يأخذ كلامنا هنا من باب المسلمات القطعية، وإنما هي افتراءات مبنية على تصورات نظن أن الدليل الذي نحاول جلبه في الصفحات التالية يدعمها. (فالله وحده ندعوه أن يعلمنا ما لم نكن نعلم، وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا. ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو العليم الحكيم).

أما بعد،

1. المرحلة الأولى: باب إيتاء الكتاب

نحن نظن – ابتداء- بأن هناك فرقا جوهريا بين الكتاب من جهة والقرآن والإنجيل والتوراة من جهة أخرى. وكان أبرز ما افتريناه منذ أمد بعيد فيما يتعلق بالفرق بين الكتاب من جهة والتوراة والإنجيل والقرآن من جهة أخرى هو صيغة الخطاب في كل واحد منهم. فظننا أنه في حين أن صيغة الخطاب في التوراة والإنجيل والقرآن قد جاءت باللسان البشري، كانت صيغة الخطاب في الكتاب بلسان غير بشري. وقد حاولنا الترويج لفكرة أن واحدة من المهمات الرئيسية لأي نبي رسول أن يقوم بنفسه بتفصيل ما في الكتاب بلسان قومه. وبذلك عمد موسى (نحن نرى) إلى تفصيل الكتاب، فكانت التوراة (نسخة واحدة)؛ وعمد حواريو المسيح عيسى إلى تفصيل الكتاب، فكان الإنجيل (أكثر من نسخة)؛ وعمد محمد إلى تفصيل الكتاب، فكان القرآن (نسخة واحدة). فكان كل رسول يبيّن لقومه بلسانهم ما آتاه الله في الكتاب. وهذا ما نفهمه (ربما مخطئين) من قوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

فتبيان الرسول لما أُنزل إليه من ربه هو عملية تحويل النص من الصيغة غير البشرية إلى الصيغة البشرية التي يتحدث بها لسان قوم ذلك الرسول. لذا، نحن نظن بأن الكتاب الذي يشار إليه في قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2]

هو الكتاب الذي صيغة الخطاب فيه ليست بلسان القوم الذي بعث فيهم ذلك الرسول. ليكون السؤال الآن هو: ما أهمية هذا الافتراء في سياق حديثنا عن التواصل مع عالم الجن؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد جازمين بأن واحدة من الفروقات الرئيسية بين الجن من جهة والإنس من جهة أخرى هي صيغة الخاطب المتاحة لكل طرف منهما. فلكل طرف منهما صيغة خطاب يستخدمونها فيما بينهم، ويستخدمها كل طرف لتنفيذ مراده. ليكون السؤال الآن هو: ما هي صيغة خطاب الجن فيما بينهم ومع غيرهم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن تواجد الجن كان سابقا لتواجد الإنس، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 26-27]

ولو جلبنا السياق القرآني الذي جاءت فيه هذه الآيات الأخيرة، سنجد قصة خلق آدم، وطلب الله من الملائكة السجود له، حاضرة مباشرة. فدعنا نقرأ السياق كله لنحاول تجلية مراد قولنا في هذا الصدد، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣﴾ [الحجر: 26-43]

ونحن نكاد نجزم الظن (ربما مخطئين) بأن الملائكة الذين أُمروا بالسجود لآدم هم طائفة من الجن. لكن الملفت للانتباه هنا هو أن سجود الملائكة لآدم كان بسبب تفضيل الله لهذا المخلوق الجديد عليهم، وذلك بتعليمه الأسماء كلّها:

- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 31-34]

لذا، لم يكن الملائكة (كطائفة من الجن) على علم بالأسماء التي علمها الله لآدم يوم أن أمرهم بالسجود لآدم، ليكون السؤال هنا هو: ماذا كانت صيغة الخطاب التي كانت الملائكة (كطائفة من الجن) يعلمونها قبل اطلاعهم على العلم الذي علمه الله لآدم؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: كيف كانت صيغة الخطاب التي تلقتها الملائكة بأمر السجود لآدم؟ هل كانت الجن على علم بصيغة خطاب معينة يتم من خلالها تبادل المعلومة فيما بينهم (ومع الآخرين)؟

الجواب: لو دققنا في السياق ذاته، لوجدنا بأن صيغة الخطاب كانت بالكتمان (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)، أي لم تكن وسيلة منطوقة لفظا. فالقول يمكن أن يجهر به ويمكن أن يكتم، قال تعالى:

- ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝١١٠﴾ [الأنبياء: 110]
- ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: 7]

افتراء مهم جدا: نحن نظن بأنه كما يمكن الجهر بالقول فإنه يمكن كتمانه.

- ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النساء: 42]

السؤال: ما الذي اختلف بين كيفية خطاب الملائكة قبل تعليم آدم الأسماء كلّها وبعد أن أنبأهم آدم بتلك الأسماء؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه قد حصل اكتساب صيغة خطاب جديدة غير التي كانت بالكتمان، ألا وهي الإبداء (وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ). فالملائكة الآن تستطيع أن تبدي القول (مَا تُبْدُونَ) وتستطيع أن تكتمه كما كانت من ذي قبل (وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ).

السؤال: ما الذي اختلف في حالة آدم؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه قد تم في حالة آدم تحويل الصيغة غير اللفظية (التي كانت الملائكة تعلمها وهي الكتمان) إلى صيغة لفظية (كما أصبح آدم يعلمها وهي الإبداء)، فتم تحويل الصيغة غير اللفظية إلى أصوات منطوقة. انتهى.

نتيجة مفتراة 1: الجن قبل آدم كانوا يتخاطبون بالكتمان (صيغة غير منطوقة)
نتيجة مفتراة 2: الجن بعد آدم كانوا يتخاطبون بالكتمان، وأصبحوا الآن على علم بالصيغة المنطوقة التي اختص الله بها آدم (الإبداء بالاصوات المنطوقة)، وهي التي أنبأهم بها آدم في ذلك الموقف الفارق في حياة ذلك العالم المسمى بعالم الجن.
نتيجة مفتراة 3: آدم قبل المعصية كان يستطيع الخطاب بالإبداء (الأصوات المنطوقة). وأصبح الإنس (ممثلين بآدم) قادرين على النطق:

- ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾ [الذاريات: 23]

لكن علينا التفريق بين النطق بالحق مقابل النطق بغير الحق (عن الهوى):

- ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: 2-4]

نتيجة مفتراة: النطق لا يكون عن الهوى

ولا شك أن الذي ينطق بالحق (ولا ينطق عن الهوى) يأتيه ذلك من الكتاب مباشرة الذي ينطق بذاته:

- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]
- ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: 62]

نتيجة مفتراة: النطق يكون بالحق

ولو دققنا أكثر في السياقات القرآنية الخاصة بالنطق، سنجد أن الجلود مجهّزة لأن تنطق يوم الحساب:

- ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: 21]

لذا، سنجد أن المكذبين غير قادرين على النطق في ذلك اليوم:

- ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المرسلات: 34-35]

نتيجة مفتراة: النطق لا يشوبه الكذب

السؤال: كيف يمكن أن نفهم طريقة تخاطب الملائكة (الجن) بالكتمان، أي بالصيغة غير المنطوقة؟

رأينا المفترى: إنها الوسوسة

الدليل

لو رجعنا إلى قصة آدم في الجنة (قبل الهبوط)، سنجد التواصل الأول للشيطان (هامان) مع آدم وزوجه على النحو التالي:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

لذا، بعد أن أسكن الله آدم وزوجه الجنة، كان الشيطان (هامان) حاضرًا هناك. وكانت طريقة تواصله مع آدم وزوجه قد تمت بالوسوسة. ليكون السؤال الآن هو: إذا كان الشيطان ما يزال يستخدم الوسوسة كوسيلة تخاطب، وإذا كانت وسيلة تخاطب آدم وزوجه في الجنة هي بعلم الأسماء (الصيغة المنطوقة)، فكيف وصلت وسوسة الشيطان لآدم وزوجه؟ لماذا استقبل آدم وزوجه وسوسة الشيطان؟ فهل كان آدم وزوجه يملكان جهاز استقبال لوسوسة الشيطان حتى بعد أن علّمه الله الأسماء كلها؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأنه على الرغم من أن آدم وزوجه كانا يستخدمان الطريقة اللفظية فيما بينهما في الجنة، إلا أنهما كانا يستطيعان تلقي وسوسة الشيطان وذلك لسبب واحد، ألا هو وجود النفس فيهما. انتهى.

الدليل

سيجد المتدبر للنص القرآني بأن الوسوسة ليست حكرا على الشيطان وإنما هي من نصيب النفس كذلك. فكما الشيطان يوسوس، فإن النفس توسوس كذلك، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن آلية وسوسة الشيطان هي آلية وسوسة النفس للإنسان؛ إنها ذلك الحوار الداخلي (*Innerconflict*) الذي يجري بين ذات الإنسان (*EGO*) ونفسه (*SUPEREGO*). فعندما يختلي الإنسان بنفسه، لا ينفك أن يحدثها وتحدثه، فيخلق ذلك الحوار الداخلي، ويكأن هناك كينونتان متقابلتان يحاور بعضهم بعضا. ويكون ما يظهر من سلوكيات لفظية وفعليه من ذلك الإنسان نتيجة حتمية لما أفضى إليه ذلك الحوار من قرارات يتعلق بما تم التحاور فيه بين ذات الإنسان ونفسه. لكن يبرز هنا سؤال مهم لابد من طرحه، ألا وهو: ما دور الشيطان فيما يتخذ الإنسان من قرارات، فتتجسد قولا وعملا على أرض الواقع؟ وكيف يمكن لنا أن نميز بين الوسوسة التي تأتي من النفس:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]

مقابل الوسوسة التي تأتي من الشيطان:

- ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: 20]
- ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: 120]

رأينا المفترى: لو تدبرنا السياقات القرآنية بهذا الصدد، سنجد بأن جلّ ما يستطيع الشيطان عمله هو أن يزين للإنسان ما يعمل:

- ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: 43]
- ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: 63]

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: 24]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك بطريقة عملية؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الإنسان مكوّن – ابتداء- من كينونتين اثنتين، هما ذات الإنسان من جهة ونفسه من جهة أخرى. وهما ما يمكن أن يشار إليهما بالمصطلحات الفرودية (نسبة لعالم النفس الشهير سيجموند فرويد) بالـ EGO و SUPEREGO على التوالي. لكن يجدر الإشارة إلى أن الأولى (الذات) هي المكون الطبيعي لوجود الإنسان، لكن الثانية (النفس) هي المكوّن المكتسب لصفاته بعد ولادة الإنسان. وهذه الأخيرة (النفس) هي بالتالي نتاج التنشئة البئية للإنسان، وفيها يكتسب قيم الخير والشر (الصح والخطأ) بناء على قيم المجتمع وأعرافه التي تحيط بالشخص بعد ولادته. ولكن يجدر الإشارة بأن هذه النفس مجهزة ابتداء للفجور وللتقوى، فيمكن إذا تزكية هذه النفس أو تدسيتها من قبل ذات الإنسان، قال تعالى:

- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10]

فالنفس مسواة، أي منقسمة مناصفة بالتساوي (levelling) بين الفجور والتقوى. وقد حاولنا في مقالاتنا تحت عنوان "ما هي الأمانة؟" أن نفصّل بهذا الموضوع، ومن أراد الاستزادة في هذا، يمكنه الرجوع إلى تلك المقالات وإلى غيرها على المدونة. لكن ما يهمنا الآن في هذا الصدد هو تبسيط الفكرة بهدف تجلية حقيقة الإنسان بناء على فهمنا (ربما المغلوط) لبعض آيات الكتاب الحكيم الذي نظن أنها تعالج هذه القضية الوجودية التي أشكلت على علماء البشرية منذ القدم.

أما بعد،

يمكن أن نبدأ النقاش بالافتراء التالي الذي هو - لا شك - من عند أنفسنا: أن الإنسان يتكون من ذات أولا ونفس ثانيا، وفي حين أن ذاته هي جوهره الطبيعي (nature)، فإن نفسه هي مكتسبه البيئي (nurture)، والشكل التالي يوضح الفكرة التي في مخيالنا:

وأن هذه النفس - كما أسلفنا- مسواة بالإنقسام المتطابق بين الفجور والتقوى، فيصبح الشكل على النحو التالي:

وتكون مهمة الذات هي إكساب تلك النفس المنقسمة بين الفجور والتقوى ما يريد، فقد يزكيها، فيغلّب التقوى على الفجور، وقد يدسّها، فيغلّب الفجور على التقوى:

- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: 7-10]

وهنا تتدخل قوة ثالثة لتكون فاعلة في صناعة الإنسان كمكون واحد، ألا وهي قوة الشيطان، الذي لا يتعدى دوره أن يزيّن لتلك للنفس الفجور على حساب التقوى، فيصبح الشكل على النحو التالي:

إن صح هذا التركيب (structure) لشخصية الإنسان، تكون مكونات هذه الشخصية (Elements of personality) ثلاثة: الذات والنفس المنقسمة والشيطان. وتصبح ذات الإنسان هي الوسيط الواقعي الذي يحاول أن يوازن بين شهوات النفس الفاجرة التي يحثه عليها الشيطان ويزينها له، والنفس المتقية التي تمثل صوت الضمير (conscience) الذي يصارع من أجل قيم الحق والاستقامة.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم تطبيقات هذه الافتراءات من الناحية العملية؟ وكيف يمكن بالتالي أن نميّز بين الوسوسة التي تحدثها النفس مقابل الوسوسة التي تأتي من الشيطان؟

جواب مفترى خطير جدا جدا 1: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الفرق الجوهري بين الذات (EGO) من جهة والنفس (SUPEREGO) من جهة أخرى يتمثل بأن الذات تفعل بينما النفس تعمل. انتهى.

جواب مفترى خطير جدا جدا 2: نحن نفتري الظن بأن الشيطان يزين للنفس ما تعمل ولا يتدخل فيما تفعل الذات. انتهى.

أما بعد،

السؤال الأول: ما أهمية الافتراء الذي نقدمه هنا والذي مفاده أن الذات <u>تفعل</u> بينما النفس <u>تعمل</u>؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه سيكون لهذا الافتراء على بساطته (وربما غرابته عند الكثيرين) تداعيات جمّة من الناحية العملية في تفسير سلوكيات الإنسان على أرض الواقع. ونحن نتجرأ على الظن بأن النظرية الفرودية في التحليل النفسي (psychoanalytic theory) لم تكن قادرة على تحليل كثير من هذه السلوكيات، خاصة ما يتعلق منها بالتطبيقات العملية التي تجلّي السلوكيات البشرية وكذلك في معالجة الإختلالات في تلك السلوكيات. وسنحاول تاليا طرح القضية بطريقة ربما تكون غريبة للوهلة الأولى، لكننا نظن أنها قد تلقى بعض القبول عند الباحثين في السلوك الإنساني (psychologists) الرغبين في تأطير النظرية الخاصة بالشخصية الإنسانية (personality theory) وعند المعالجين لاختلالات تلك الشخصية (psychatrists) المدونين للتطبيقات العملية التي تساعد في تحليل تلك الشخصية (psychoanalytic theory) ومعالجة اختلالاتها. ونحن نعتقد بأن أهم ما يمكن أن يميز طرحنا هذا (عن الطرح الفرويدي) هو بساطته في التحليل أولا، وفاعليته في التطبيق ثانيا.

أما بعد،

2. باب الفرق بين الفعل والعمل

نحن نظن بأن جميع السلوكيات الإنسانية تنقسم إلى قسمين رئيسيين، هما ما يقع في باب الفعل مقابل ما يقع في باب العمل. لذا، دعنا نبدأ النقاش هنا بالنبش في افترائنا الذي مفاده أن الذات تفعل، بينما النفس تعمل، طارحين التساؤل التالي: ما الفرق بين المفردتين (وهما مفردة فعل وعمل) على مساحة النص القرآني؟

رأينا المفترى: لقد افترينا في مقالات سابقة لنا بأن الفرق بين الفعل من جهة والعمل من جهة أخرى يتمثل (برأينا ربما المغلوط) بأن الفعل صادر عن ذات الإنسان بينما العمل صادر من نفس الإنسان. فهناك إذا قوتان تتدخلان فيما يصدر عن الإنسان الطبيعي من تصرفات، وهما ذات الإنسان (EGO) ونفس الإنسان (SUPEREGO). ونحن نزعم الظن هنا بأن محرك ما يصدر عن الإنسان من **أفعال** هي ذات الإنسان، بينما محرك ما يصدر عنه من **أعمال** هي نفسه. ولا ننسى أن هناك قوة ثالثة يقع تأثيرها على نفس الإنسان فقط، وبالتالي تؤثر على أعماله دون أفعاله، فتحاول تعظيم جانب الفجور في النفس ليتغلب على جانب التقوى فيها. ولو استخدمنا مفردات فرويد ضمن طرحنا هذا لقلنا بأن الذات هي (EGO) والنفس هي (SUPEREGO) وقوة الشيطان هي (ID).فيصبح السيناريو على النحو التالي:

الذات (EGO): تفعل

النفس (SUPEREGO): تعمل

الشيطان (ID): يزين العمل، لكنه لا يتدخل بالفعل

الدليل: استراحة قصيرة

لمحاولة معرفة كيف يتدخل الشيطان في أعمال الإنسان، لكنه لا يتدخل في أفعال الإنسان، دعنا ندقق في بعض جوانب قصة موسى من هذا المنظور المفترى من عند أنفسنا كما بينتها الآيات الكريمة التالية (حسب فهمنا لها طبعا):

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 15-19]

بعد قراءة الآيات الكريمة بطريقة جديدة، خرجنا بالملاحظات الأولية التالية:

⇐ هناك حادثة قتل تقع جراء مشاجرة بين عدويين (بني إسرائيل مقابل آل فرعون).
⇐ موسى يتحمل المسئولية الكاملة لما فعل (قتل الذي من عدوه)
⇐ موسى يعترف بأنه قد ظلم نفسه جراء ما فعل
⇐ موسى يطلب المغفرة من الله على ما فعل
⇐ موسى لم يستثني وجود تدخل الشيطان في الحادثة

ولو ربطنا هذا مع ما جاء في سياقات قرآنية أخرى حول الحادثة، سنجد الملاحظات التالية:

⇐ أن ما فعله موسى حينئذ يقع في باب الذنب:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: 12-14]

⇐ وأن ذلك يقع في باب الفعل:

- ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]

⇐ وأن ذلك الفعل قد وقع في مرحلة ضلال موسى (أي قبل بعثته رسولا):

- ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]

3. مشاهد سينمائية متخيلة لتصوير أحداث القصة

دعنا نحاول إهادة تصوير الحادثة الآن على شكل مشاهد سينمائية مقتضبة لا تغيب عن الأذهان في سيرة موسى حينئذ، فتكون في مخيالنا على النحو التالي:

المشهد الأول: التقاط موسى من قبل آل فرعون بعد أن قذفته أمه في التابوت:

- ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص: 8]

المشهد الثاني: طلب امرأة فرعون من آل فرعون بأن لا يقتلوه، ليكون قرة عين لها ولبعلها (فرعون):

- ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨ وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 8-9]

المشهد الثالث: وجود موسى في أل فرعون وليدا ولبوثه فيهم سنين من عمره:

- ﴿قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨﴾ [الشعراء: 18]

المشهد الرابع: موت امرأة فرعون قبل بعلها فرعون:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

المشهد الخامس: خروج موسى من المدينة بعد موت امرأة فرعون، وذهابه إلى الأرض المقدسة حتى بلغ أشده واستوى، وهناك آتاه الله حكما وعلما:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾ [القصص: 14]

المشهد السادس: يموت الفرعون الأكبر الذي ليس له وريث ليتسلم السلطة من بعده، فيدب الخلاف بين الملأ في صراع محتدم على السلطة، فتصبح المدينة (أي العاصمة السياسية) في غفلة من أهلها. وقد ذكرنا في أكثر من مكان سابق بأن دخول موسى المدينة كان على حين غفلة من أهلها جميعا يمكن أن يفهم (نحن نرى) في حالة واحدة فقط، ألا وهي حالة موت الفرعون الأكبر الذي تربى موسى في كنفه، وانشغال الملأ من آل فرعون في صراع على السلطة من بعد ذلك الفرعون خاصة أنه لم يكن له وريث (ولد) لتنتقل السلطة إليه بطريقة سهلة وميسرة. فيكون ذلك عبارة عن "فراغ سياسي" لعدم تنصيب الحاكم الفعلي إلى حين. فمادام أن المدينة لا حاكم فعلي لها يعتلي كرسي الحكم، تكون في غفلة حتى يحين تنصيب الحاكم الفعلي.

السؤال: ما الذي حصل في فترة موت الفرعون الأكبر وبقاء المدينة في حالة فراغ سياسي لفترة من الزمن، وانشغال الملأ حينئذ بأمر اعتلاء كرسي الحكم من بعد الفرعون الأكبر؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: ما أن مات الفرعون الأكبر الذي كان يذبح أبناء بني إسرائيل (بالموت) ويستحيي نساءهم (بالختان أيضا) حتى أصبح هناك فراغ سياسي:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

وذلك لعدم وجود الوريث الشرعي الذي يعتلي العرش من بعده. وهنا (نحن نتخيل) يدب الخلاف في آل فرعون في صراع محتدم على السلطة فيما بينهم، طامع كل طرف منهم أن يكون هو صاحب الحظ في ذلك.

المشهد السابع: في هذه الأثناء (نحن ما زلنا نتخيل) يبدأ بنو إسرائيل محاولتهم الأولى للخروج من الاستعباد مستغلين الخلاف الذي يجري بين الملأ من آل فرعون على السلطة. فينشب الخلاف بين الطرفين (آل فرعون من جهة وبني إسرائيل من جهة أخرى). ويستمر هذا الصراع بين مؤيد للإصلاح من الفريقين ومعارض له.

المشهد الثامن: خلال هذا الصراع الدائر بين الطرفين، يدخل موسى المدينة التي كان خارجا منها من ذي قبل ليقود (نحن نظن) مفاوضات الصلح بين الطرفين، والخروج ببني إسرائيل من أرض مصر والعودة بهم إلى الأرض المقدسة.

المعضلة: عندما عاد موسى ليدخل المدينة ليقود حركة الاصلاح بين الطرفين، كان هناك في كلا الطرفين من كان يريد إصلاحا كما كان هناك من يريد إفسادا في الأرض. ليكون السؤال المفصلي في هذا النقاش هنا هو: من الذي كان يريد الإصلاح من الطرفين؟ ومن الذي كان يريد الإفساد من الطرفين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الذي كان يريد الإصلاح هو شخص من آل فرعون بينما الذي كان يريد الإفساد هو شخص من قوم موسى. انتهى.

الدليل

لو دققنا فيما حصل عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، لوجدنا بأنه كان هناك رجل من شيعة موسى (أي من بني إسرائيل) هو من استغاث موسى لينصره على الذي هو عدوه:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

فينبري موسى لنصرته، فيقع في المحضور عندما وكز الذي هو من عدوه، فيقضي عليه، وبالتالي يُقتل ذلك الذي عدو لهما على يد موسى نفسه. ولكن موسى يستذكر أن هذا ما كان ليقع لولا تدخل قوة أخرى في هذه الفتنة، ألا وهو الشيطان، فيعترف موسى قائلا (هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ). ولكن موسى لا ينفي تحمله المسئولية كاملة بأنه قد ظلم نفسه، فيطلب من الله المغفرة

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 16]

نتيجة مفتراة: موسى هو ذاته الفاعل، موسى يظلم نفسه، فتكون نفسه مفعول بها. يكون للشيطان تدخل في الحادثة

مؤكدا في ذات الوقت أنه لن يكون ظهيرا للمجرمين بعد تلك الحادثة:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 17]

السؤال: من المجرمون الذين سينأى موسى بنفسه عنهم بعد هذه الحادثة؟ من يدري؟!

لكن المفارقة العجيبة تتمثل في أنه لو دققنا فيما حصل في صبيحة اليوم التالي، لوجدنا بأن ذلك الرجل نفسه الذي هو من شيعة موسى، والذي استنصره بالأمس، يستصرخه اليوم على رجل آخر من آل





فرعون. فما يكون من موسى إلا أن يدرك بأن هذا الرجل الذي هو من شيعته (أي من بني إسرائيل) غوي مبين:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

ومع ذلك تتحصل الإرادة عند موسى لأن يبطش بالذي هو عدو لهما (اي الرجل الذي من آل فرعون) مرة أخرى:

- ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا .. ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

وهنا بالضبط يرتفع صوت الرجل الذي من آل فرعون قائلا لموسى:

- ﴿... أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

وفي هذه اللحظة يتراجع موسى عما كان يريد أن يفعله. فلا يقتل الرجل الذي هو من آل فرعون. وفي هذه الأثناء يأتي رجل من أقصى المدينة يسعى ليحذر موسى من مغبة تآمر الملأ به:

- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

إن ما يهمنا طرحه هنا هو ملاحظة بسيطة جدا سيكون لها - برأينا- تبعات جمة في نقاشنا في هذا الموضوع، والملاحظة مفادها أن الشخص الذي كان من شيعة موسى هو رجل ما كان يريد الاصلاح، وإنما هو غوي مبين.

السؤال: لماذا كان الرجل الذي من شيعة موسى غوي مبين؟ ولماذا كان (نحن نظن) يريد إحداث الفساد في الأرض ولا يريد أن يكون من المصلحين؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن السبب يكمن في أنه هو من افتعل حادثتي القتال عن قصد، ولغايات كان الشيطان هو من يحثه عليها، بينما كان الرجل الآخر الذي من آل فرعون - بالمقابل- كان يريد الإصلاح، بدليل ما قاله لموسى في خطابه هذا:

- ﴿... قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

السؤال: لماذا كان الرجل الذي من شيعة موسى لا يريد الإصلاح بينما كان الرجل الذي من آل فرعون ينشد الإصلاح؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري الظن بأن الرجل الذي كان من شيعة موسى رجل مفسد في الأرض، وذلك لأنه كان معاد لموسى شخصيا. بينما كان الرجل الذي من آل فرعون يريد الاصلاح لأنه كان يريد الخير بالطرفين.

السؤال: من هما هذان الرجلان اللذان نتحدث عنهما هنا؟

جواب مفترى: كان الرجل الأول هو شخص من شيعة موسى (أي من بني إسرائيل)، لكنه كان معاد لموسى لأنه (نحن نرى) كان يظن أنه هو صاحب الحق في قيادة بني إسرائيل. انتهى.

الدليل

دعنا نبدأ جلب الدليل – عزيزي القارئ- بالصور التخيلية الخاصة بافترائنا الذي مفاده أنه عندما سنحت الفرصة باحتمالية رأب الصدع بين بني إسرائيل من جهة وآل فرعون من جهة أخرى بعد موت الفرعون الأول الذي كان يذبح أبناء طائفة بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، كان لابد من خوض مفاوضات بين الطرفين. فكان على موسى العودة إلى المدينة كزعيم لبني إسرائيل، وليقود تلك المفاوضات المزمع عقدها بين الفريقين. ولكن لما كان من شيعة موسى (نحن ما زلنا نتخيل) من لا يسره بأن يكون موسى هو زعيم بني إسرائيل، عمد إلى إفساد العملية السياسية برمتها قبل أن تبدأ، فافتعل حادثة القتال مع شخص مجهول من آل فرعون بالضبط في اللحظة التي دخل فيها موسى المدينة على حين غفلة من أهلها. فحادثة الاقتتال هذه لم تكن (نحن نعتقد جازمين) محض صدفة عابرة، ولكنها كانت عملا مدبرا من قبل هذا الذي من شيعة موسى. لذا، لم يكن ليدع هذا (الشيطان من الإنس) الفرصة لموسى بأن يفكر مليّا بالأمر لحظة دخوله المدينة، ولم يعطه الفرصة للوصول إلى المفاوضين من الطرف الآخر من آل فرعون، فافتعل حادثة الاقتتال على طرف المدينة الذي دخل منه موسى، فاستغاثه على الفور، مستفزا الجانب العاطفي عند موسى في حبه لبني إسرائيل، فما يتردد موسى في نصرة الذي من شيعته، ظانا أن الاقتتال بينهم جار، وأن المعتد هو من كان من آل فرعون. وبهذا الفعل، يكون موسى قد وقع في المحضور، وبهذا تكون صفقة المفاوضات السياسية قد فشلت مع موسى شخصيا قبل أن تبدأ. فالمنطق يقول بأنه لن يقبل آل فرعون أن يتفاوضوا اليوم مع رجل قتل رجلا منهم بالأمس. وهذا ما جاءه الرجل من أقصى المدينة ليحذره منه:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص: 20]

فالملأ الذين كانوا منقسمين فيما بينهم على السلطة، قد تجمعوا ضد العدو الخارجي (موسى)، تاركين خلافاتهم الجانبية حتى تسوية قضيتهم مع موسى الذي قتل رجلا منهم.

وبهذا العمل تكون خطة هذا الشيطان (الذي هو من شيعة موسى) قد نجحت في اقصاء موسى عن قيادة بني إسرائيل، وفي تولي زمام المفاوضات مع آل فرعون. ولكن موسى لم ينتبه للأمر إلا بعد فوات الأوان، فيدرك أن ما فعله من عمل الشيطان:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

ونحن نعلم بأن مهمة الشيطان هو أن ينزغ بين الناس، فيحدث الفتنة التي هي أكبر من القتل:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217]

والتي هي أيضا أشد من القتل:

- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: 191-193]

ولو راقبنا ما قاله موسى نفسه للرجل نفسه الذي من شيعته في اليوم التالي، لوجدنا أنه يصفه بصفات الشيطان نفسه، ألا وهي الغواية:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

نتيجة مفتراة مهمة: في هذه اللحظة يدرك موسى الغواية التي خطط لها هذا الذي من شيعته. فموسى الآن يعلم بأن نوايا هذا الرجل غير سليمة بدليل أنه وصفه بأنه غوي مبين.

ولو دققنا أكثر في الحادثة، لوجدنا بأن هذا الشيطان (من الإنس) لم يكن هدفه أن يقصي موسى عن قيادة بني إسرائيل فحسب، ولكن كان له هدف أكبر من ذلك، يتمثل – برأينا- في أن يقطع المنة الإلهية على موسى مرة أخرى، فلا يكون موسى رسولا من الله لبني إسرائيل. ليكون السؤال الآن: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تكمن في طرح السؤال التالي: ماذا لو فعلا قتل موسى الرجل الذي من عدوهما في اليوم التالي؟ أي ماذا كان يمكن أن يحصل لموسى لو أنه وقع في القتل مرة أخرى خاصة بعد تذكير الذي هو عدو لهما موسى بأن ذلك سيكون من باب التجبر في الأرض وعدم الإصلاح؟

- ﴿... قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسٗا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه لو أصر موسى على قتل ذلك الرجل في اليوم التالي، لأصبح موسى جبارا في الأرض وما عاد من المصلحين، ولما تحققت له المغفرة الإلهية على ذنبه هذا، ولما كان مؤهلا لأن يكون رسولا لبني إسرائيل بعد ذلك.

تلخيص ما سبق: دعنا عزيزي القارئ نتخيل - إن شئت- ما حصل على النحو التالي: كان في بني إسرائيل رجل يضمر العداوة لموسى، فكان يريد أن يحقق غايتين اثنتين في نفسه: الأولى غاية دنيوية تتمثل في دحر موسى عن قيادة بني إسرائيل، فيخلو له المجال أن يكون هو القائد المؤهل لهذا المنصب بعد التخلص من موسى، والثانية أخروية تتمثل في أن يحجز المنّة الإلهية عن موسى من جديد، وذلك بأن يوقعه في القتل مرة أخرى، فلا يعود موسى مؤهلا للمغفرة الإلهية إن هو قتل مرة أخرى، وبالتالي لن يكون رسولا لبني إسرائيل. وقد دبر هذا الشيطان من الإنس خطته تلك على نحو المجاهرة بالعداوة الصارخة لآل فرعون، وافتعال القتال معهم ليوهم البسطاء من الناس بأنه شخص مكافح منافح عن حقوق العباد المستضعفين. (زي اللي بنعرفهم في التاريخ العربي الحديث – أبطال الخطابات ضد العدو وهم في الحقيقة يقتلون كل من يزاحمهم على الكرسي). وبالفعل نجح في أن يبعد موسى عن مشهد الأحداث عشر حجج عندما اضطر موسى لأن يخرج متوجها إلى مدين بعد أن قتل النفس الأولى. لكن ذلك الشيطان من الإنس لم ينجح في المهمة الثانية وهي ايقاف المنّة الإلهية على موسى بأن يكون رسولا إلى بني إسرائيل، لأن موسى تذكر، فتراجع عندما نبهه ذلك الرجل الذي هو عدو لهما قائلا:

- ﴿... قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسٗا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]

فكانت المنة الإلهية على موسى حاضرة مرة أخرى:

- ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩ إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه: 37-40]

فالمتدبر لهذا السياق القرآني، يجد بأن المنّة الإلهية على موسى قد حصلت مرتين: الأولى عندما أعاده الله إلى أمه من يد عدو الله فرعون عدما كان طفلا، والثانية عندما نجاه الله من الغم بعد أن قتل نفسا، وحصلت الفتنة بعد ذلك.

ولو دققنا في هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا بأن النجاة من الغم تكون بعد حادثة قتل (وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ). فالغم يحصل نتيجة القتل عندما يظلم الإنسان نفسه بقتل نفس آخرى، ويحدث

هذا الصراع الداخلي بين ذات الإنسان (التي ظَلمت) ونفسه التي ظُلمت. ولو دققنا في فكرة "النجاة من الغم"، لما وجدناها قد حصلت إلا مع اثنين من رسل الله وهما موسى:

- ﴿... وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 40]

وذي النون

- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87-88]

وسنرى التقاطع بين موسى من جهة وذي النون من جهة أخرى في هذا الجانب، ظانين أن الاثنين وقعا في حادثة قتل نفس، وظلم لأنفسهم. (وهذا ما سنتناوله في مبحث آخر إن شاء الله. فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم).

لكن الذي يهمنا هنا هو التركيز على قصة موسى من هذا الجانب، ومحاولة التعرف على تلك الشخصية من شيعة موسى، أي ذلك الرجل الذي كان يخطط ليمكر بموسى، وبالتالي محاولته إزاحة موسى عن مشهد الأحداث في قيادة بني إسرائيل في الدنيا، وخسرانه المنة الإلهية والثواب في الآخرة. ليكون السؤال هو: من هو ذلك الرجل الذي من شيعة موسى الذي استنصره في الموقفين الخاصين بمحاولة قتل رجل من آل فرعون في كل مرة؟

اليوم الأول:

- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

اليوم التالي:

- ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 18]

رأينا المفترى: للاجابة على هذا السؤال علينا أن نتعرف أيضا على الرجل الذي من آل فرعون الذي قتله موسى في اليوم الأول، وذلك الذي أراد موسى أن يقتله في اليوم التالي. فمن هما الرجلان اللذان كان من عدوهما؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق الذي يتحدث عن حادثة القتل في اليوم الأول:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

لوجدنا بأن الرجل الأول من آل فرعون الذي قتله موسى، لم يكن من المصلحين، وذلك لأنه لم يكن ليتردد بأن يقتل موسى لو أن موسى لم يقتله. لذا، لا يمكن أن يكون ذلك الرجل من المصلحين. فهو لم يبد أي أشارة تدل على أنه لا يريد القتال، أو أنه راغب في الإصلاح. فلقد كان من دهاء الرجل الذي من شيعة موسى أنه اختار في اليوم الأول عدوا حقيقيا لبني إسرائيل. لذا، عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، وجد الصراع قائما بين رجل من شيعته، ورجل من عدوه، فما كان موسى ليتردد في نصرة الذي من شيعته ليقينه بأن الآخر من عدوه. فنحن لا يجب أن نقرأ القصة على سبيل أنها حادثة وقعت مصادفة مع دخول موسى المدينة، بل هي حادثة مدبرة من قبل ذلك الذي من شيعة موسى، ليوقع موسى في الفخ. فاختار قتالا مع رجل هو فعلا عدو لبني إسرائيل.

لكن حتى ينفذ غايته الأخرى، وهي حجز المنة الإلهية على موسى مرة أخرى، كان عليه أن يوقع موسى في قتل متعمد لرجل لا يريد الفساد في الأرض، وإنما يريد الإصلاح فيها. فافتعل حادثة الاقتتال مع رجل آخر من عدوهما (أي من آل فرعون). ولو أقدم موسى على قتل هذا الرجل لكانت نتيجته كما قالها له ذلك الرجل بملء فيه:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

ولأصبحت السنة الإلهية التي تجليها الآيات الكريمة التالية سارية على موسى نفسه:

- ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المائدة: 32]

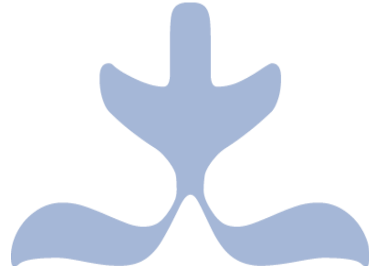
نتيجة مفتراة: لو أن موسى قتل ذلك الرجل بعد أن أفصح الرجل عن عدم رغبته في قتال موسى، لأصبح موسى جبارا في الأرض وما عاد من المصلحين. ولنجح ذلك الشيطان الغوي المبين (الذي هو من شيعة موسى) في انفاذ خطته التي هي من عمل الشيطان.

السؤال: من هو هذا الرجل الذي كان يريد إصلاحا من آل فرعون؟ ومن هو ذاك الرجل الذي من شيعة موسى وكان غويا مبينا؟

رأينا المفترى: عندما حاولنا البحث في النص القرآني على مساحته عن ذلكما الرجلين، وجدنا السياق القرآني التالي الذي يصور لنا قصتهما، وخاصة موضع الخلاف بينهما، قال تعالى:

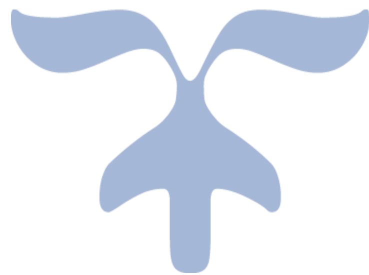
- ﴿۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا
ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥
وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ
أَحَدٗا ٣٨ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ
رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا
غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا
٤٣﴾ [الكهف: 32-43]

السؤال: من هو داوود؟



قصة داوود

الجزء التاسع عشر



قصة داوود - الجزء التاسع عشر

افترينا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأن شخصية الإنسان مكوّنة من تفاعل عناصر ثلاثة، هي:

⇐ **الذات**
⇐ **والنفس** المنقسمة بين الفجور والتقوى
⇐ **والشيطان**.

فظننا بأن الذات هي ما يشار إليه بمصطلحات علم النفس الفرويدي بمفردة EGO، بينما يشار إلى النفس بمصطلح SUPEREGO، ويشار إلى تأثير الشيطان على النفس بمصطلح ID، كما في الشكل التوضيحي التالي:



ولعل الفرق الجوهري الذي حاولنا تقديمه للتمييز بين ما يصدر من الذات مقابل ما يصدر من النفس يتمثل في ظننا بأن الذات تفعل بينما النفس تعمل. وظننا بأن الشيطان يزين للنفس ما تعمل ولا يتدخل فيما تفعل الذات.

كما افترينا القول بأن الذات هي الوسيط المطلوب منه أن يوازن بين شهوات النفس الفاجرة التي يحثه عليها الشيطان ويزينها له من جهة وصوت الضمير conscience الذي تطلقه النفس المتقية التي تصارع من أجل إحقاق قيم الحق والاستقامة.

وحاولنا تقديم مثال تطبيقي لهذا التصور المفترى من عند أنفسنا بإعادة رسم مشاهد تخيلية سينمائية لما حصل مع موسى في بعض جوانب قصته في صراعه مع آل فرعون. فظننا بأن هناك ثلاثة قوى تدخلت فيما حصل مع موسى في القصة التي جاء ذكرها في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 14-19]

فظننا – بناء على فهمنا لما جاء في هذه الآيات الكريمة – بأن القوى الثلاثة التي تدخلت هي على النحو التالي:

⇐ أن موسى ذاته هو من أحدث القتل، فكان فعل القتل الذي وقع فيه موسى مدفوعا من الذات
⇐ أن موسى يكون بذلك الفعل قد ظلم نفسه،
⇐ كان هناك تدخلا من الشيطان ليس على نفس موسى، وإنما على نفس الرجل الذي من شيعة موسى.

وبناء على ذلك، ظننا بأن ما قام به موسى يقع في باب الفعل، لأنه صادر عن ذات موسى، بينما ما جاء من عمل الشيطان يقع في باب العمل، لأنه صادر عن نفس الرجل الذي من شيعة موسى. السؤال: كيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لمّا لم يكن موسى مدبرا أمر قتل الرجل الذي من عدوه من ذي قبل، وأنه لمّا وجد أنه أمام مشهد مفاجئ لم يتحيط له سابقا، ظن على الفور بأن عليه القيام بواجب نصرة المظلوم. فقد كان موسى يعلم أن بني إسرائيل مستضعفون في الأرض على يد فرعون وآله. لذا، عندما استنصره الذي من شيعته، ظن موسى أن نصرته تقع في باب الواجب، فما كان منه أن يتردد أن يقوم بذلك الواجب. فكان ذلك فعلا (وليس عملا) من قبل موسى. وقد بيّن لنا النص ذلك صراحة في الآيات الكريمة التالية عندما أعيد ذكر الحادثة في لقاء موسى مع فرعون لاحقا:

- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: 19-20]

لكن – بالمقابل - لمّا كانت حادثة الاقتتال (نحن نرى) مدبّرة من قبل الذي من هو شيعة موسى (وليس حدثا عارضا)، ولمّا كان الهدف منها (نحن نظن) إحداث الفتنة بين الطرفين (بني إسرائيل وآل فرعون)، كانت عملا ساهم الشيطان في إذكاء فتنته:

- ﴿... قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

وكانت الغاية من تدبير حادثة الاقتتال من قبل من كان من شيعة موسى تتمثل في أن يستفيد منها ذلك الرجل شخصيا كما سيستفيد منها من كان يسانده (كما سنرى بعد قليل). فكانت حادثة الاقتتال (نحن مازلنا نتخيل) عملا مدبرا من شياطين الإنس الذين يبحثون عن مصالح شخصية ومطامع دنيوية وأخروية، وبتأييد من شياطين الجن، فزيّن لهم الشيطان (هامان) ما كانوا يعملون.

وقد حاولنا التلميح - دون التصريح - في الجزء السابق إلى شخصية المستفيدين من تدبير حادثتي الاقتتال بين الطرفين في اللحظة التي دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها. ونحن نكاد نجزم الظن هنا (ربما مخطئين) بأنه كان هناك على الأقل شخصان اثنان كان من مصلحتهم إقصاء موسى عن مسرح الأحداث (ولو حتى حين)، وهما:

⇐ قارون (الذي هو أصلا من قوم موسى)

⇐ وصاحبه الطامح في كرسي الحكم، الذي سيصبح الفرعون (الجديد) بعد فترة وجيزة.

كما نكاد نجزم الظن بأن هذان الشخصان (أو هذين الشخصين) كانا يتلقيان المساندة (اللوجستية) من الشيطان هامان:، فجاء ذكر هذا الثلاثي الخطير مجتمعين في موضعين من كتاب الله الكريم:

- ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾ [العنكبوت: 39]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٢٥﴾ [غافر: 23-25]

نتيجة مفتراة مهمة جدا في النقاش تاليا: على الرغم أن قارون كان من قوم موسى، إلا أنه كان من المؤيدين الداعمين لفكرة تقتيل أبناء من آمن مع موسى واستحياء نسائهم، فكان من الكافرون الذين يكيدون.

السؤال: ما هي مصلحة كل واحد من هذه الشخصيات في إقصاء موسى عن مسرح الأحداث (ولو حتى حين)؟

رأينا المفترى: أما قارون، فقد كانت مصلحته تتمثل – برأينا – في إقصاء موسى عن قيادة بني إسرائيل، وبالتالي الظفر بها من بعده. فعلينا أن لا ننسى بأن هذا الرجل قد كان من قوم موسى، لكنه لا شك بغى عليهم، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: 76-84]

فالحديث عن قارون في هذه الآيات الكريمات يبين لنا (كما نفهمها طبعا) بأن هذا الرجل قد أُوتي الكنوز العظيمة التي كان يظن بأنها تؤهله لأن يكون هو قائد بني إسرائيل. فلقد كانت عقيدة بني إسرائيل – على الدوام- بأن يكون من يبغي الملك عليهم ذا سعة من المال كما كان حديثهم واضحا في حالة طالوت الذي آتاه الله الملك عليهم، فاحتجوا عليه بأنه لم يؤت سعة من المال:

- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ...﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: 247]

نتيجة مفتراة: كان قارون ذا سعة من المال، فكان يظن أنه الأحق في قيادة بني إسرائيل.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن ندعو القارئ الكريم أن يتخيل – إن شاء- بأن قارون كان منافسا لموسى في قيادة بني إسرائيل

كما يجد المتدبر للآيات السابقة التي تتحدث عن هذا الرجل بأنه كان من الذين يبغون فسادا في الأرض، كما جاء صراحة على لسان من كان حوله في فترة ما من الزمن:

- ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: 77]

ولو تفقدنا السياق أيضا، لوجدنا بأنه من المجرمين:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: 78]

ولو ربطنا هذا الأمر بما قاله موسى يوم أن وقع في حادثة قتل الذي هو من عدوه، لوجدنا موسى يقول بأنه سينأى بنفسه عن المجرمين:

- ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص: 17]

نتيجة مفتراة: يعلم موسى الآن (بعد أن وكز الرجل وقضى عليه) أنه قد ظاهر مجرما، وأنه لن يكون ظهير للمجرمين بعد اليوم.

ولو تفقدنا السياق ذاته، لوجدنا بأن قارون لم يكن من المنتصرين، وقد تلقى جزاء ما عمل من سوء، لأنه كان من الذين يريدون علوا في الأرض ويريدون الافساد فيها:

- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص: 81]
- ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٨٤﴾ [القصص: 83-84]

نتيجة مفتراة: كان قارون من قوم موسى، وكان ذا مال، وكان طامعا في قيادة بني إسرائيل، لكنه كان ممن يبغون الفساد في الأرض، كما كان من المجرمين. ولكن النقطة التي تجلب الانتباه الآن هو أنه كان قد بغى على قومه (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ).

ليكون السؤال الأهم في هذا النقاش حول شخصية هذا الرجل هو: كيف كان قارون من قوم موسى وأنه في ذات الوقت قد بغى عليهم؟ فما هو البغي الذي أوقعه هذا الرجل على قوم موسى؟

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: 76]

جواب مفترى: نحن نظن بأن قارون قد شارك فرعون وهامان في الكيد لموسى (والذين آمنوا معه)، فكان من الكافرين، ولكن لما كان الله لا يهدي كيد الكافرين، كانت عاقبته أنه لم يكن من المنتصرين:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝٢٥﴾ [غافر: 23-25]

السؤال: كيف كانت تفاصيل الكيد الذي كاده قارون مع فرعون وهامان؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن واحدة من أهم أوجه بغي هذا الرجل على قوم موسى (بالرغم أنه عرقيا منهم) هو أنه قد خطط بأن لا يخرج بنو إسرائيل من الاستعباد في أرض مصر. لذا، نحن نتخيل بأن قارون قد تآمر مع شخص آخر حتى لا يخرج بنو إسرائيل من الاستعباد من أرض مصر. لنطرح بناء على ذلك سؤالين اثنين هما:

⇐ من هو ذاك الرجل الذي تآمر معه قارون على بني إسرائيل؟
⇐ كيف تآمر الأثنان على بني إسرائيل في تلك الحقبة من الزمن؟

رأينا المفترى (1): نحن نظن أن الشخص الذي تآمر معه قارون ضد بني إسرائيل هو الذي سيُنصب فرعونا جديدا على عرش مصر بعد موت الفرعون السابق الذي لم يكن له ولد – إنه الفرعون الجديد الذي سيعود له موسى بالرسالة. وهنا يبرز سؤال جديد هو: ما مصلحة هذا الذي سينصب فرعونا جديدا في أن يتآمر مع قارون ضد بني إسرائيل في تلك المرحلة من الزمن؟

رأينا المفترى (2): نحن نظن بأن هذا الذي سيكون فرعونا جديدا له غايتان اثنتان، أولهما غاية دنيوية تتمثل في الابقاء على عدو خارجي ليوحد آل فرعون من حوله ضدهم (فيبقى على قانون الدفاع فعالا بحجة الوقوف في وجه العدو الخارجي – أي بني إسرائيل)، ويستخدم ذلك كذريعة له للوصول إلى كرسي الحكم، والأخرى غاية أخروية تتمثل في أن يحجز المنّة الإلهية عن موسى، وبالتالي خسران موسى السلطان الذي بيده، ألا وهي العصا (الذي يعرف هذا الرجل قيمتها وأهميتها في الصراع بين الطرفين). فمراد القول هو أنه لو أقدم موسى على وكز الرجل الآخر بعصاه كما فعل في اليوم الأول، لما استحق موسى (نحن نظن) أن يتلقى المنّة الإلهية بأن ينجيه الله من الغم، ويعيد تلك العصا سيرتها الأولى:

- ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه: 21-22]

دعنا نحاول تلخيص ما سبق بمشهد سينمائي هو في مخيالنا فقط: يموت الفرعون الأول الذي لم يكن له ولد يرث العرش من بعده؛ يصبح كرسي حكم أرض مصر شاغرا من بعده؛ ينشغل الملأ من آل فرعون بالخلاف على ذلك الكرسي؛ يقوم هذا الشخص (XY) الذي سيصبح فرعونا جديدا (الذي تحدثنا مطولا عنه في مقالات سابقة لنا خاصة في الجزء السادس من فقه الزكاة) بعقد لقاء سري مع قارون الذي هو من قوم موسى، ويتزين ذلك اللقاء بحضور الشيطان هامان معهما. يتناقش الطرفان (قارون والفرعون الجديد) في المصلحة المشتركة بينهما في رسم الأحداث المستقبلية بطريقة تخدم أهدافهما غير المعلنة على الملأ؛ تنتهي المشاورات بينهما بوضع تفاصيل الخطة المحكمة على النحو التالي:

⇐ أن يبعث قارون لموسى الذي كان خارج المدينة ليعود إلى إليها لقيادة مفاوضات الاصلاح مع آل فرعون والخروج ببني إسرائيل من الاستعباد والعودة بهم إلى الأرض المقدسة.
⇐ يتفق الطرفان (بمساندة من هامان) على الايقاع بموسى في الفخ؛ فيكون اتفاقهما على نحو أن يفتعل قارون (الذي هو من شيعة موسى) قتالا مع واحد من أشد المعادين لبني إسرائيل لحظة وصول موسى إلى طرف المدينة في واحدة من جنتي قارون (التي

سنتحدث عنهما لاحقا بإذن الله). وبالفعل يصل موسى إلى المكان، ويفتعل قارون ذلك القتال مع من كان عدوا لموسى:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [القصص: 15]

لكن ما يلفت الانتباه هنا في هذه الآية الكريمة هو بيان أن الذي قضى عليه موسى كان عدوا له (أي عدوا لموسى فقط)، ليكون السؤال المحيّر الآن هو: لماذا كان ذلك الرجل عدو له (أي لموسى) فقط وليس عدو لهما (أي الاثنين موسى والآخر الذي هو من شيعة موسى)؟ ألم يجد موسى الرجلين يقتتلان معا لحظة دخوله المدينة؟ فكيف يكون (ذلك الرجل الذي ليس من شيعة موسى) عدوا لموسى فقط (وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ) وليس من عدو الاثنين معا (كأن يقول – مثلا - من عدوهما أو عدو لهما)؟

رأينا المفترى: سيجد المدقق في النص الأمر العجيب الذي هو على نحو أن الذي سيقتله موسى بعد قليل كان عدوا له، أي من الذين يعادون موسى مِنْ عَدُوِّهِ (وليس من عدوهما). فكيف لم يكن ذلك الرجل (نحن نكرر السؤال ذاته) عدوا لمن كان يقتتل معه لحظة دخول موسى المدينة؟ فهل فعلا كان ذلك الرجل عدوا لموسى لكنه لم يكن عدوا لمن هو من شيعة موسى (وهو من نظن أنه قارون)؟ فكيف يمكن تبرير ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك الرجل الذي من آل فرعون كان عدوا فقط لموسى ولم يكن عدوا لقارون الذي افتعل القتال معه لحظة دخول موسى المدينة، وذلك لأن قارون لم يكن يعاد آل فرعون أصلا، كما نظن بأنه قد افتعل المشكلة مع شخص كان يعادي موسى شخصيا لكنه لم يكن يعادي قارون نفسه. وبكلمات أخرى لقد أوقع قارون (بدهائه وبذكاء من يسانده من شياطين الإنس والجن) شخصا من آل فرعون يعادي بني إسرائيل (خاصة موسى)، لكنه صاحب مقرب من ذي قبل لقارون الذي كان يساند آل فرعون ضد بني إسرائيل.

افتراء مهم جدا: كان الرجل الذي قتله موسى في اليوم الأول عدوا لموسى لكنه لم يكن عدوا لمن كان يتقاتل معه لحظة دخول موسى المدينة.

وهذا الظن يدلنا (إن صح طبعا) على أن أمر الاقتتال بين الرجلين في تلك اللحظة كان مدبرا بليل. فلقد استدرج قارون مع من كان يسانده حينئذ (نحن نتخيل) واحدا من أصحابة المقربين من آل فرعون إلى ذلك المكان الذي سيفتعل فيه القتال لحظة دخول موسى المدينة، وهو يعلم يقينا أن هذا الرجل الذي من آل فرعون هو من الكارهين لبني إسرائيل بشكل عام ولموسى بشكل خاص، لكنه لم يكن معاد لقارون شخصيا لأنه كان يعلم أن قارون منحاز كليا لآل فرعون على حساب قومه (بني إسرائيل). وما أن استدرجه إلى ذلك المكان (ما زلنا نتخيل) حتى افتعل معه قتالا في تلك اللحظة بحجة النصرة لبني إسرائيل على آل فرعون.

ويمكن أن نتخيل المشهد ذاته من زاوية أخرى، فالاتفاق الذي دبّر بليل كان على نحو حصول مفاوضات في طرف المدينة بين بني إسرائيل من جهة (يترأسه موسى) وآل فرعون من جهة أخرى (يترأسه

هذا الذي هو عدو لموسى). فجاء الرجل الذي من آل فرعون مبعوثا لهذه المفاوضات، لكن ما أن حضر إلى المكان حتى وجد صاحبه قارون الذي ما تردد أن يفتعل معه قتالا لحظة دخول موسى المدينة. فالاختصام بينهما كان لحظيا لأنه كان مدبرا من ذي قبل. فهذا قارون (نحن ما زلنا نتخيل) ينقلب ظاهريا على الرجل الذي استدرج إلى المكان لغاية التفاوض؛ فيتهمه قارون – دون سابق إنذار- بأنه معاد لبني اسرائيل الذين هم قومه (أي قوم قارون)، ويظهر قارون حينها بأنه نصير لقومه (أي بني إسرائيل) على آل فرعون، ويطلق نداء استغاثة بموسى لأن ينصره على الذي من عدوه (أي عدو لموسى). وما أن يسمع موسى استغاثة الذي من شيعته على الذي من عدوه حتى سارع إلى نجدته، ظانا أنه يقوم بواجب مفروض عليه، ألا وهو نصرة المظلوم على الظالم.

نتيجة مفتراة 1: كان المقتول من آل فرعون على يد موسى عدوا لموسى
نتيجة مفتراة 2: لم يكن المقتول من آل فرعون على يد موسى عدوا لمن كان يقتتل معه في تلك اللحظة (أي قارون).

السؤال الغريب: لماذا حصل الاقتتال مع هذا الرجل من آل فرعون على وجه التحديد؟

رأينا المفترى الخطير والمهم جدا في هذا النقاش: نحن نظن بأن هذا المقتول من آل فرعون كان من أشد المنافسين على السلطة للشخص الذي حاك قارون معه الخطة (وهو الذي سيصبح الفرعون الجديد). وسنرى لاحقا (إن أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) كيف استطاع ذلك المخطط (الطامع في كرسي الحكم) أن يزيح هذا المنافس له عن السلطة على يد موسى، وبذلك يكون قد اصطاد – كما نقول بالعامية- عصفورين بحجر واحد: فهو يكون قد أشعل نار العداوة لموسى عند الملأ من آل فرعون (فموسى قد قتل رجلا ذا مكانة في قومه)، وهو ما جاء الرجل من أقصى المدينة ليحذره منه:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾ [القصص: 20]

فتآمر الملأ بموسى في هذه اللحظة كان (نحن نظن) ردة فعل انتقامية ضد موسى لأنه قتل هذا الذي هو في قومه من الملأ المقربين. فلن يقبل آل فرعون بعد هذه الحادثة التفاوض مع موسى، وبالتالي نجحت الخطة في الإبقاء على بني إسرائيل في الاستعباد فترة من الزمن، وهو يكون بذلك قد أزاح أيضا خصما عنيدا له على السلطة من آل فرعون.

تخيلات مفتراة: تخيل عزيزي القارئ – إن شئت- أن قارون كان يرسم الخطة مع ذلك الذي سيصبح الفرعون الجديد (وهو الذي لم يعتلي كرسي الحكم بعد) ليحققوا معا مصالح مشتركة. فكانت واحدة من مصالح قارون تتمثل في إزاحة موسى عن قيادة بني إسرائيل، وكانت مصلحة هذا الذي يخطط معه قارون هو إزاحة خصم عنيد له عن قيادة آل فرعون. فخطط الاثنان لأن يقتل موسى (زعيم بني إسرائيل الفعلي) بعصاه هذا الذي يعاديه من آل فرعون (الذي هو حتى الساعة الزعيم الأبرز لآل فرعون). وبالتالي تخلو الساحة لقارون بأن يصبح موسى هدفا لآل فرعون ليأخذوا بثأرهم منه، ولا يقبلوا التفاوض معه، ويصبح قارون هو المؤهل الآن لقيادة بني إسرائيل من بعد موسى. كما يصبح المكان - في ذات الوقت-

شاغرا لهذا الذي يخطط معه قارون لقيادة آل فرعون، فتخف المنافسة له على كرسي الحكم، وتصبح طريقه ممهدة إلى اعتلاء الكرسي أكثر سهولة ويسر.

نتيجة مفتراة: علينا أن نتخيل حسب فهمنا للقصة أن قتل موسى بعصاه الرجل الذي عدو له من آل فرعون على النحو التالي: يقتل الزعيم المفترض لبني إسرائيل (وهو موسى) الزعيم المفترض لآل فرعون.
نتيجة مفتراة: ما أن قتل زعيم بني إسرائيل الحقيقي زعيم أل فرعون المفترض حتى خلت الساحة لقارون لقيادة بني إسرائيل كما خلت الساحة لهذا الذي يخطط مع قارون لأن يصبح هو زعيم آل فرعون. راقب عزيزي القارئ - إن شئت- كيف أصبح قارون بعد هذه الحادثة زعيما لقومه، وكيف خرج عليهم:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: 79]

السؤال: كيف نفهم هذا السياق القرآني على وجه التحديد؟ ولماذا يصور لنا القرآن خروج قارون على قوم؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأن هذا الخروج من قارون على قومه كان مميزا، وذلك لأنه يبيّن لنا (حسب زعمنا) ما حصل في اليوم الذي أصبح قارون هو الزعيم الفعلي لبني إسرائيل بعد هروب موسى إلى مدين نتيجة قتله للذي هو عدو له من آل فرعون. فمن يخرج على قومه (نحن نرى) يكون هو صاحب القول الفصل فيهم لأنه هو زعيمهم. وهذه العبارة (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ) لا نجدها وردت مرة أخرى في كتاب الله إلا مع زكريا في قوله تعالى:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11]

فكما كان زكريا (نحن نتخيل) سيد بني إسرائيل وزعيمهم في فترة ما من تاريخهم، كان قارون سيدا لبني إسرائيل في فترة سابقة من تاريخهم، بالرغم من اختلاف الاثنين في العقيدة والتوجه.

المشهد السينمائي: لو أردت تصوير حادثة خروج قارون على قومه في زينته في مشهد سينمائي، لكانت على نحو يوم مميز في السيرة الذاتية لهذا الرجل (قارون) وفي تاريخ بني إسرائيل في أرض مصر (عيد شم النسيم)، وهو اليوم الذي نُصّب فيه قارون زعيما لبني إسرائيل بعد هروب موسى. فكان (أنا أتخيل) يوما استعراضيا بكل ما في الكلمة من معنى. فقد حضر بنو إسرائيل ذلك اليوم ليشهدوا تنصيب زعيم جديد لهم، ألا وهو قارون، فالتم الجمع في مكان فسيح، وعمت الأفراح في يوم بهيج (زي اللي منعرفهم في تاريخنا الحديث)، وخرج قارون عليهم لابسا الأوسمة الرفيعة، مستعرضا ما عنده من الزينة، فكانت ردة فعل أكثر الحاضرين الذين يريدون الحياة الدنيا على النحو التالي:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [القصص: 79]

ولكن على الرغم من ردة الفعل هذه لأكثر الحاضرين، ظل هناك بين الجمع من لم ينخدع بتلك الزينة من الذين أوتوا العلم، فكانت ردة فعلهم على نحو:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: 80]

وظل هذا الاختلاف قائما بين من يريدون الحياة الدنيا، المنخدعين بزينة قارون من جهة، والذين أوتوا العلم من جهة أخرى، حتى حُسِم الخلاف بينهم بما حلّ بقارون وبداره من العذاب:

- ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: 81]

وفي تلك اللحظة فقط أدرك الفريق الأول خطأ ما ظنوا، وعادوا إلى رشدهم، قائلين:

- ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: 82]

لكن، لو عدنا إلى مشهد الاقتتال في المدينة في اليوم التالي لدخول موسى المدينة، لنرقب ما حصل مع موسى في ذلك اليوم (أي بعد أن قتل الذي من عدوه في اليوم الأول)، سنجد العجب العجاب. فالذي أراد موسى أن يبطش به في اليوم التالي كان عدوا لهما، أي عدوا للاثنين (عدوا لموسى وعدوا كذلك للذي استصرخ موسى، وهو نفس الرجل الذي استنصره بالأمس، وهو برأينا المفترى هنا قارون):

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

السؤال: لماذا كان هذا الذي من آل فرعون المشترك في الاقتتال في اليوم الثاني عدو لهما (للاثنين)؟

تذكير بالافتراء السابق الخاص بمن قتله موسى في اليوم الأول: لمّا كان ذاك الذي قتله موسى في اليوم الأول من آل فرعون، كان لا شك عدوا لموسى، لكنه لم يكن عدوا لقارون، لأن قارون كان من قوم موسى وقد بغى عليهم لصالح آل فرعون. لذا، لا أتردد أن أظن (ربما مخطئا) بأن ذاك المقتول كان في سابق الأيام من المقربين لقارون بالرغم من اختلافهم في العرق.

رأينا المفترى اللاحق: أما الرجل الآخر الذي أراد موسى أن يبطش به في اليوم التالي، فقد كان عدوا لموسى لأنه من آل فرعون، فالعداوة بينهما عرقية، وهو أيضا عدو لقارون (الذي استصرخ موسى لينصره عليه) ليس عداوة عرقية وإنما عداوة من باب التوجه والمقصد. ففي حين أن الرجل الذي من شيعة موسى (أي قارون) كان من المفسدين، كان هذا الرجل الذي من آل فرعون ينشد الإصلاح ولا يبغ الفساد في الأرض، كما جاء على لسانه عندما حذر موسى من مغبة قتله:

- ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]

فهناك إذا (نحن نظن) نوعان من العداوة: عداوة عرقية وعداوه في التوجه والعقيدة. فأنت قد تعاد شخص لمجرد أنه ليس من قومك، فتكون عداوتك معه عداوة عرقية. وأنت قد تعاد شخص لأنه يختلف معك في التوجه (الايدولوجيا) كالعداوة بين من يحمل فكرا رأسماليا مع من يحمل فكرا شيوعيا، أو عداوة من يحمل فكرا دينيا مع من يحمل فكرا علمانيا، وهكذا. لنصل من خلال هذا النقاش إلى الافتراءات التالية:

افتراء 1: كان الرجل الذي قتله موسى في اليوم الأول عدوا لموسى عرقيا (لأنه من آل فرعون) وعدوا لموسى في التوجه، أيديولوجيا (لأنه مفسد)، فكان عدوا لموسى فقط.

افتراء 2: لم يكن الرجل الذي قتله موسى في اليوم الأول عدوا لقارون عرقيا، لأنه بالرغم أن قارون من قوم موسى إلا أنه بغى عليهم لصالح آل فرعون، ولم يكن عدوا لقارون في التوجه (أيديولوجيا) لأن كلاهما كان مفسدا. فلم يكم عدوا لقارون.

نتيجة مفتراة: كان الرجل الذي قتله موسى في اليوم الأول عدوا لموسى فقط، فجاء النص بصيغة المفرد على نحو "من عدوه":

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]

افتراء 3: كان الرجل الذي نبّه موسى في اليوم الثاني عدوا لموسى عرقيا (لأنه من آل فرعون)

افتراء 4: كان الرجل الذي نبّه موسى في اليوم الثاني عدوا لقارون في التوجه (أيديولوجيا)، فهذا يريد الفساد في الأرض وذاك ينشد الإصلاح

نتيجة مفتراة: كان الرجل الرجل الذي نبّه موسى في اليوم الثاني عدوا لقارون في التوجه، لأنه كان يريد الاصلاح على عكس قارون الذي كان يريد الإفساد
نتيجة مفتراة: كان الرجل الذي نبه موسى في اليوم الثاني عدوا لموسى (عرقيا) وعدوا لقارون في التوجه (أيدولوجيا). فكان عدوا للاثنين، فجاء النص بصيغة المثنى (عَدُوّٞ لَّهُمَا):

- ﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩﴾ [القصص: 19]

1. إعادة إخراج المشهد السينمائي

يموت الفرعون الأكبر، فلا يكون له وريثا للعرش، ينشغل الطامعون بكرسي الحكم في صراع محتدم على السلطة. يقوم شخص طامح في أن يكون هو الفرعون القادم بتدبير مؤامرة محكمة جدا مع شخص ثري جدا من بني إسرائيل اسمه قارون، ويساندهما في تلك المؤامرة الشيطان هامان. تلتقي مصلحة الطرفين في ابعاد موسى عن قيادة بني إسرائيل وفي ابقاء بني إسرائيل في الاستعباد أطول فترة من الزمن. ويكون من مصلحة الفرعون القادم إزاحة منافس شديد له على السلطة. فيجتمعان معا (بحضور يزينه هامان) ليخططا معا كيفية التخلص من موسى الذي من بني إسرائيل ومن هذا الخصم المنافس على السلطة من آل فرعون، فتكون خطتهما على النحو التالي:

- ⇐ أن يرسل قارون لموسى ليعود إلى المدينة وهي في غفلة (أي في فترة الفراغ السياسي)، طالبا من موسى بأن يكون على رأس الوفد المفاوض لاجراء الصلح بين الطرفين.
- ⇐ أن يرسل المخطط الآخر (الفرعون القادم) لأشد منافسيه على السلطة ليكون على رأس الوفد المفاوض عن آل فرعون.
- ⇐ قارون يرسل لموسى ليترأس وفد بني إسرائيل، وبالتالي يوهم موسى أنه يتقبل بسيادته على بني إسرائيل
- ⇐ الفرعون القادم المخطط مع قارون يرسل لشخص من آل فرعون ليكون على رأس الوفد المفاوض، وبالتالي يوهمه بأنه يتقبل بسيادته على آل فرعون
- ⇐ هذان المخططان (من شياطين الإنس) يعلمان (بمساندة شيطان الجن هامان) بأن موسى سيقتل هذا الذي من آل فرعون مادام أن بيده العصا. فيتم التخلص من المنافسين لهما على يد غيرهما.

2. الأحداث على أرض الواقع

ما أن يقدم موسى في اليوم الأول ويدخل المدينة حتى يكون في لقاء مع الشخص المعادي لبني إسرائيل بشكل عام ولموسى بشكل خاص، فكان ذلك الشخص من عدوه. ويقوم قارون الذي من شيعة موسى بافتعال اقتتال مع هذا الشخص الذي لم يكن قارون نفسه يعاديه، ولم يكن ذلك الشخص نفسه في عداء مع قارون من ذي قبل، ولكن قارون استخدمه (على الرغم من عدم وجود العداوة بينهما) كأداة لتنفيذ مخططه الذي حاكه مع ذلك الفرعون القادم وبمساندة وتزين من الشيطان هامان.

بالفعل، يقع موسى في المحظور، ويقتل الرجل عندما وكزه بعصاه. فيكون موسى قد خسر قيادة بني إسرائيل، ويكون قارون قد أبعد موسى عن قيادة بني إسرائيل فترة من الزمن، ليكون المنصب شاغرا له في قادم الأيام. ويكون قد نجح في ابقاء بني إسرائيل في الاستعباد فترة من الزمن، فيكون بذلك قد بغى عليهم.

وبالمقابل، يكون في إبقاء بني إسرائيل في الاستعباد فترة أطول من الزمن مصلحة للفرعون القادم الذي سيستخدمهم كعدو خارجي يجمع من حوله كل آل فرعون بعد أن يكون قد تخلص من المنافس له على الكرسي على يد موسى. فهو سيوحد الجبهة الداخلية (آل فرعون) باشعال العداوة على الجبهة الخارجية

مع بني إسرائيل بشكل عام ومع موسى على وجه التحديد. وانظر كيف استغل الفرعون الجديد عداوة بني إسرائيل عندما وصل إلى كرسي الحكم في مصر:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]

في اليوم التالي، يجهز قارون لقاءً لموسى مع المفاوض الآخر من آل فرعون الذي يريد الإصلاح ولا يبغي الفساد، ويفتعل معه قتالا كما فعل بالأمس، وعلى الرغم من إدراك موسى لطبيعة هذا الرجل الذي من شيعته، على أساس أنه غوي مبين، إلا أن الإرادة تتولد عند موسى بأن يقتل الذي هو عدو لهما، فما يكون من ذلك الرجل إلا أن يحذّر موسى من مغبّة ما قد يقع فيه من القتل مرة أخرى، وأن ذلك سيجعل موسى جبارا في الأرض، ولن يعود من المصلحين إن هو فعلا أقدم على قتله كما قتل نفسا بالأمس. وهنا يتراجع موسى عما كان يريد أن يفعله، فلا يقع في القتل مرة أخرى.

كانت غاية الفرعون القادم (مشاركة مع قارون وبمساندة من هامان) هو أن يعطّل السلطان الذي بيد موسى، فلا تتفعل من جديد بمنة إلهية أخرى على موسى. ولو فعلا أقدم موسى على قتل ذلك الرجل في اليوم التالي، لما عاد مؤهلا للمنة الإلهية مرة أخرى:

- ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [طه: 37-40]

3. قصة القتل التي وقع فيها موسى: نظرة جديدة

نحن نطلب من القارئ الكريم – إن أراد – أن ينظر إلى واقعة القتل التي حصلت مع موسى عندما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها من خلال الافتراءات التالية:

⇐ أن القصة لم تكن محض صدفة عابرة، ولكنها أحداث مدبرة
⇐ أن الأشخاص المشتركين في تفاصيل تلك القصة لم يكونوا أشخاصا عاديين، وإنما شخصيات مهمة ساهمت في رسم أحداث جسام حصلت في مسيرة بني إسرائيل في أرض مصر،
⇐ أنه كان لتلك القصة انعكاسات كبيرة على تطور الأحداث كلها، كما بينها النص القرآني بتفاصيلها الدقيقة.
⇐ الخ

لذا، نحن نطلب من القارئ – إن أراد- أن يحاول إعادة تصوره للقصة بناء على وجهة نظرنا (ربما المغلوطة في كليتها أو في بعض تفاصيلها) التي نحاول افتراءها، والتي هي على النحو التالي:

- ⇐ يموت الفرعون الأكبر الذي كان يذبح أبناء طائفة من بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ولا يكون له وريث للعرش، فتصبح المدينة في غفلة، وهنا يشغر كرسي الحكم لمن سيجلس عليه من بعد الفرعون الأول.
- ⇐ يحتدم الصراع في آل فرعون على ذلك الكرسي، فيكون هناك طامعين في ذلك الكرسي، ويكون بعضهم مؤهلا لأن يكون هو الفرعون القادم.
- ⇐ يحتدم الصراع (نحن نتخيل) على كرسي الحكم حينئذ بين اثنين من آل فرعون، أحدهما مفسد والآخر مصلح.
- ⇐ يكون هناك شخص ثالث يرقب عن بعد، ويخطط بدهاء منقطع النظير للوصول إلى كرسي الحكم، لكنه لم يكن ليصل إليه لو أن أحد الرجلين السابقين من آل فرعون ظل منافسا له على السلطة.
- ⇐ كان على هذا الطامع الطامح (المخطط من بعيد) أن يزيح منافسيه الآخرين عن الساحة، لكن بطريقة لا ينقصها الدهاء الشيطاني
- ⇐ كان هذا الطامع المخطط من بعيد يتلقى مساندة لوجستية مباشرة من الشيطان هامان
- ⇐ كان هذا الطامع الطامح يخطط مع شخص من بني إسرائيل اسمه قارون
- ⇐ دبر هذا الطامع المخطط من بعيد الأمر كله بطريقة تفسح له المجال لاعتلاء كرسي الحكم في أرض مصر
- ⇐ كان من أول ما رسم هذا الطامع أن يجعل قيادة بني إسرائيل في غير القائد الشرعي لهم (ألا وهو موسى)
- ⇐ وجد هذا الطامع أن أفضل من يتولى قيادة بني إسرائيل في تلك المرحلة هو الفاسد المفسد قارون الذي هو من قوم موسى
- ⇐ عقد هذا الطامع اجتماعاته السرية مع قارون بحضور يزينه هامان
- ⇐ أعد الطرفان (هذا الطامع في كرسي الحكم مع قارون) الخطة التي تحقق مصالح الطرفين بكل دقة وإحكام
- ⇐ كانت الخطة تنطوي على التوسط في عقد مفاوضات صلح (شكلية في ظاهرها فاشلة في باطنها) بين بني إسرائيل من جهة وآل فرعون من جهة أخرى
- ⇐ اتفق الطرفان على المكان الذي ستنعقد فيه مفاوضات الصلح بين الطرفين
- ⇐ انطوت الخطة على أن يقوم قارون باستدعاء موسى ليقود المفاوضات عن جانب بني إسرائيل، فأرسل قارون إلى موسى ليعود إلى المدينة في تلك الفترة التي كانت كلها على حين غفلة من أهلها
- ⇐ انطوت الخطة أن يرسل هذا الطامع في الكرسي - بالمقابل- إلى شخص من آل فرعون، هو الأحق بكرسي الحكم لتمثيل آل فرعون في تلك المفاوضات
- ⇐ عندما أرسل قارون لموسى يطلب منه قيادة بني إسرائيل في المفاوضات، ظن موسى أن قارون يتقبل موسى قائدا فعليا لبني إسرائيل

- ⇐ عندما أرسل هذا الطامع المخطط من بعيد للرجل من آل فرعون ليقود المفاوضات، ظن الذي جاء مفاوضا عن آل فرعون بأن هذا الوسيط (الذي يرتب اجراءات المفاوضات) يتقبل بأن يكون هذا المفاوض من آل فرعون هو زعيم آل فرعون، صاحب الأحقية في كرسي الحكم.
- ⇐ انطوت الخطة أن يفتعل قارون نفسه قتالا مع مندوب (أو لنقل ممثل) آل فرعون في اللحظة التي يدخل موسى فيها المدينة
- ⇐ كان هذا الذي يمثل آل فرعون من أشد المقربين لقارون، فلم يكن عدوا لقارون إطلاقا، لكنه كان عدوا لموسى
- ⇐ تم خداع الممثل لآل فرعون بأن يقبل أن تجرى المفاوضات (نحن نتخيل) في المكان الخاص بقارون، ظانا أنه صديقه الذي لن يخذله. فالتاريخ المشترك القديم بينهما يجعله يطمئن أن يكون في مكان خاص بصاحبه قارون.
- ⇐ يحضر مفاوض آل فرعون (صديق قارون القديم)، فيجد المكان قد جهّز لاستقباله بكل حفاوة وتكريم، لكن
- ⇐ ما أن دخل موسى المدينة ووصل إلى المكان المحدد بين الطرفين على طرف المدينة حتى افتعل قارون نفسه قتالا مع هذا الرجل الذي يمثل آل فرعون، فاشتعل الاقتتال بين قارون من جهة وصاحبه هذا الذي من آل فرعون من جهة أخرى دون سابق إنذار.
- ⇐ آظهر قارون بأنه المدافع المنافح عن حقوق بني إسرائيل في ذلك اللقاء حتى وصل الأمر إلى افتعال القتال على ذلك الخلاف التاريخي
- ⇐ لكي يتم السيناريو كما خطط له، ما تردد قارون في أن يطلب النصرة من موسى على هذا الذي هو عدو لموسى بحجة نصرة المظلوم (بني إسرائيل) على الظالم (آل فرعون)
- ⇐ لما رأى ممثل بني إسرائيل موسى (الذي هو فعلا عدو له) ما كان ليتردد أن يحاول قتل موسى. فهذه بالنسبة له فرصة تاريخية للتخلص من عدوه الأكبر. فقد كان هذا الرجل (نحن نتخيل) من أكبر المحرضين ضد موسى في بلاط الفرعون الأول، وهو من أوغر صدر الفرعون الأول وصدور آل فرعون كلهم ضد موسى من قبل حتى أضطر موسى للخروج من المدينة بعد موت امرأة فرعون التي كانت تحميه في القصر الفرعوني.
- ⇐ لا يتردد موسى بأن يقتل ذاك الرجل لأن ذلك الرجل لم يكن ليتردد أن يقتل موسى لو استطاع. فالوقت قد حان لتصفية الحساب القديم بينهما. لم يكن في آل فرعون من هو أحرص على التخلص من موسى من هذا الرجل الذي كان فعلا يعادي بني إسرائيل كلهم بشكل عام وموسى بشكل خاص.
- ⇐ كانت الغلبة لموسى (نحن نرى) لأن موسى كان يملك بيده العصا التي وكزه بها، فقضى عليه
- ⇐ وهكذا، تنجح الخطة في تفصيلاتها لليوم الأول، وذلك بإزاحة منافسين اثنين (شرعيين) على السلطة. فيصبح لآل فرعون ذنب على موسى، فعلى موسى أن يخرج من المدينة، وما عاد آل فرعون (الذي قتل موسى رجلهم الأول) يرضون بأن يكون موسى زعيما لبني إسرائيل، مفاوضا عنهم مادام أنه قد قتلا زعيما كبيرا لهم، فكان جلّ همهم في هذه الأثناء هو أن يأتمروا بينهم (أي أن يقطعوا الأمر فيما بينهم) بقتل موسى شخصيا،

انتقاما منه على قتل زعيمهم القادم. وهذا ما جاء الرجل الذي يسعى من أقصى المدينة ليحذر موسى منه، ويطلب منه الخروج من المدينة كلها.

⇐ تنتقل الخطة إلى اليوم التالي: فيبعث المخطط الطامح إلى الرجل الثاني صاحب الأحقية في قيادة آل فرعون لأن يأتي ليقود المفاوضات مع بني إسرائيل على أساس أنه رجل مصلح. ويكأنه يظهر صوت التعقل والرشد، فيخاطب هذا الرجل بما تميل له نفسه ألا وهو الإصلاح بين الطرفين. ويكأني به يقول له (تعال أنقذ الموقف قبل أن يتدهور أكثر، فأنت رجل مصلح تستطيع رأب الصدع الذي بدأ يتسع بين الطرفين، فمن غيرك يستطيع فعل ذلك؟)، لكن ما أن يأتي هذا المصلح من آل فرعون – المخدوع بمعسول الكلام من ذلك الشيطان الإنسي - حتى يفتعل معه قارون – كما خطط لذلك- قتالًا كما افتعله مع الرجل الآخر في البارحة.

⇐ ينشد قارون مرة أخرى المساندة من موسى، ويعلم موسى أن صاحبه هذا غوي مبين، لكن تتطور الأحداث لدرجة أن تتولد عند موسى الإرادة لقتل هذا الرجل أيضا.

⇐ يتدخل الرجل المصلح من آل فرعون برفع صوته في وجه موسى ليحذره من مغبة قتله كما قتل نفسا بالأمس، فيبدو (نحن نتخيل) ويكأنه متوسلا لموسى أن لا يقتله بعد أن أصبح في مرمى عصا موسى.

⇐ يتوقف موسى عن قتل هذا الرجل بعد أن تمكن منه في ذلك الصراع، لأنه لا يريد أن يكون جبارا في الأرض ويريد أن يكون من المصلحين.

⇐ وهكذا تنجح كثير من تفصيلات الخطة في يومها الثاني.

إن صح هذا السيناريو (كما نحاول أن نتخيله)، يكون الطامع في حكم مصر الذي خطط هذه الأحداث قد أقصى منافسه هذا (المصلح من آل فرعون) عن الكرسي للأسباب التالية:

⇐ أولا، لن يكون هذا المصلح في عيون آل فرعون على قدر المسئولية، لأنه لم يستطع أن يقتل موسى، فبان لهم بأنه رجل ضعيف، غير جدير بقيادة آل فرعون في هذه الظروف العصيبة، خاصة مع الثورة المشتعلة مع بني إسرائيل حينئذ.

⇐ ثانيا، بان لآل فرعون كذلك بأن هذا الرجل (المصلح) ليس معاد تماما لبني إسرائيل، لأنه عندما حانت فرصة أن يقتله موسى، تعذر لموسى بفكرة الإصلاح بين الطرفين على الرغم أن موسى قد قتل رجلهم الأول في اليوم السابق، فآل فرعون سيرون (وسيظنون) أن الرجل قد جبّ عن نفسه القتل، لكنه ترك الفوقية لبني إسرائيل على آل فرعون. فمادام أن زعيم بني إسرائيل (موسى) يصول ويجول، ولا يستطيع أحد من زعماء آل فرعون حينئذ أن يوقفه عند حده، فالكفة في نظر العامة تميل لصالح بني إسرائيل. فإن بقي الأمر على هذه الشاكلة، فسترتفع معنويات المقاومين من بني إسرائيل على المعتدين من آل فرعون الذين ستبدأ معنوياتهم بالانخفاض.

⇐ ثالثا، أصبحت الساحة متاحة للبحث عن رجل آخر يقبل التحدي، ويستطيع أن يقارع موسى، حتى لا تكون الغلبة لبني إسرائيل على آل فرعون. فمن يستطيع أن يرجح كفة آل فرعون بعد هذا العار الذي لحق بهم بقتل زعيمهم الأول ونجاة زعيمهم الثاني بالتوسل لموسى؟

⇐ في هذه الاثناء أصبحت العيون تشرئب نحو رجل يستطيع مواجه موسى أولا، وإخماد ثورة بني إسرائيل في أرض مصرثانيا، واثبات فوقية آل فرعون ثالثا، فمن سيكون (يا ترى)؟

وهذا ما كانت الخطة المحكمة ستحققه عندما نفذت على أرض الواقع، فكانت النتيجة على هذا النحو:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]

4. تخيلاتنا بمشاهد سينمائية احترافية

في هذه الاثناء بدأت الإشارات تأتي من هنا وهناك بأن لا أحد يستطيع فعل ذلك سوى (XY)، وهو الذي ما كان يعلم الجمع بأنه المخطط الذي ما فتئ يرسم كل تلك الأحداث في الخفاء، إنه فرعونهم القادم، ذلك العتل الزنيم الذي تربى مع موسى وهارون في كنف نبي الله ذي الكفل بعد مقتل أبيه ومصرع أمه على يد الفرعون السابق الذي لم يكن له ولد (للتفصيل في هذا انظر الجزء السادس من مقالة فقه الزكاة).

السؤال: كيف سيقنع هذا الشخص (XY) الجمع من آل فرعون بقدراته الاستثنائية للتصدي لموسى أولا، ولاخماد ثورة بني إسرائيل ثانيا، واسترجاع فوقية آل فرعون ثالثا؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه مادام أن الرجل (XY) قد ضمن أن بني إسرائيل سيصبحون تحت قيادة قارون، فلن يجد عناء في اخماد ثورتهم، فهو قد اشترى القائد قارون قبل أن يتم تنصيبه (زي اللي صار أمام ناظرينا في العهد القريب). فالقائد لبني إسرائيل هو قارون شريطة أن تتم إزاحة موسى عن مشهد الأحداث. لذا، كان آل فرعون يظنون أن هذا الرجل هو الوحيد القادر على الوقوف بوجه موسى لا بل وقتله. ولو فعل ذلك، فلن يتردد آل فرعون أن يقبلوا تنصيبه فرعونا جديدا عليهم. فكيف سيتصرف هذا الشيطان من الإنس (XY)؟

رأينا المفترى: لم تكن الفطنة لتنقص هذا الشيطان (XY) بأنه لن يستطيع القضاء على موسى لو حصلت مواجهة فعلية بينهما، فهو يعلم أن العصا بيد موسى، ولا طول له بمقارعة موسى مادام أن موسى يحمل تلك العصا بيده. لذا، عليه أن يتجنب المواجهة الفعلية مع موسى، لكن عليه أن يظهر أمام الجميع بأنه هو المنتصر. فكيف سيخطط لذلك؟

رأينا المفترى: ما كان هذا الرجل سيستخدم غير الحيلة (الكيد) التي تنقذه من المواجهة الفعلية مع موسى، لكنها تظهره بأنه هو المنتصر، فما كان منه (نحن ما زلنا نتخيل) إلا أن يرسل لموسى مندوبا يثق به موسى تماما، لينصحه بالخروج من أرض مصر:

- ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: 20]

تخيلات مفتراة: نحن نتخيل بأن هذا الشيطان من الإنس (XY) هو من عمد إلى أن يرسل لموسى شخصا ليحذره من تآمر الملأ به، وينصحه من الخروج من المدينة كلها. وقد سهل هذا الشيطان (XY) طريق الخروج لموسى دون أن يشعر موسى نفسه أو أحد من حوله من بني إسرائيل بذلك.

السؤال: ما فائدة هذا المكر الشيطاني بالنسبة لهذا الشيطان من الإنس (XY)؟

رأينا المفترى: مادام أنه قد أخرج موسى من المدينة، فقد تأجلت إذا المواجهة الفعلية بينهما حتى حين. وبالتالي ظهر أمام الجميع (خاصة آل فرعون) بأن موسى قد هرب من المدينة خوفا منه. فهروب قائد بني إسرائيل (موسى) يجعل الكفة الآن تميل لصالح الطرف الآخر. فلقد روج هذا الشيطان من الإنس (XY) قدرته الإعلامية الشيطانية لتنشر بين الناس حينئذ بأن موسى قد خاف من المواجهة الفعلية معه، فخرج من المدين خائفا يترقب، ويكأن لسان حاله يقول لهم: لماذا يهرب موسى من المواجهة معي، فليعد موسى إلى المدينة إن كان يستطيع المواجهة! فظهر بذلك أنه هو المنتصر، الذي لا يستطيع أحد (حتى موسى نفسه) الوقوف في وجهه. ويكون بذلك قد أقنع آل فرعون بأهليته للتصدي لموسى، فهو يعلم أن موسى قد خرج من المدينة بسبب الغم الذي أصابه من قتله النفس، وندم على ذلك، وطلبه الاستغار لذنبه (انظر سلسلة مقالاتنا السابقة عن قصة موسى). لكن هذا الشيطان الإنسي (XY) قد استغل الحادثة ليروج بين الناس عن قدراته الهائلة في التصدي لموسى، وبالتالي أهليته لأن يكون زعيم آل فرعون القادم.

بعد أن روج الرجل لقدراته في الوقوف بوجه موسى (زعيم بني إسرائيل)، لم يتبق أمامه إلا أن يخمد ثورة بني إسرائيل حينئذ. ويثبت فوقية آل فرعون عليهم، فكيف سيفعل ذلك؟

رأينا المفترى: كان أول ما فعل ذلك الرجل هو أن يعمد إلى تنصيب قارون زعيما على بني إسرائيل بعد خروج موسى خائفا يترقب، فأعد التحضيرات اللازمة للحدث، وهناك خرج قارون على قومه في زينته:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩﴾ [القصص: 79]

وما أن تقبل بنو إسرائيل قارون زعيما لهم (في غياب موسى الذي خرج من المدينة خائفا يترقب)، حتى أوكلوا لهم أمر التفاوض مع آل فرعون، وهنا أصبحت المهمة معروفة النتائج:

- ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: 76]

السؤال: كيف كان بغي قارون على قومه؟

السؤال: هل تذكركم هذه القصة كما افتريناها من عند أنفسنا بأحداث تجري على الساحة في يومنا هذا؟

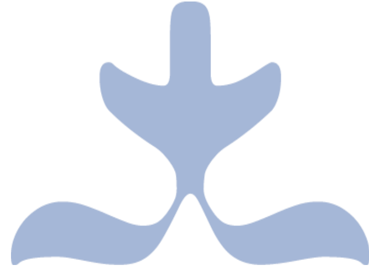
الجواب: شوية عربان بدهم يقفوا في وجه دهاء علماء بني إسرائيل!

صدقوني إذا ما تدخلت أنا ليجيبوكوا بحوض نعنع. فالله المستعان

قال تعالى:

- ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 97]

لكن يبقى السؤال القديم الجديد هو: من هو داوود؟



قصة داوود

الجزء العشرون



قصة داوود – الجزء العشرون

كان الهدف من النقاش في الجزء السابق من هذه المقالة هو محاولة اثبات إفترائنا الذي مفاده بأن ما قام به موسى من حادثة القتل في اليوم الأول الذي دخل فيه المدينة على حين غفلة من أهلها يقع في باب الفعل الصادر من الذات، وأنه لو وقع موسى (نحن نتخيل) في فعل القتل في اليوم الثاني، لما عاد ذلك فعلا، ولأصبح عملا صادرا من النفس، ولأصبح للشيطان بعد ذلك سبيل على نفس موسى، يزيّن له ما تعمل. فالشيطان ينشط ليوسوس للناس في صدورهم:

- ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [الناس: 4-5]

لذا، لابد من العودة من جديد لمتابعة محاولتنا التفريق بين الفعل من جهة والعمل من جهة أخرى، وذلك باستعراض الآيات الكريمة التي جاء فيها الجذران "فعل" و "عمل" (ومشتقاتهما) على مساحة النص القرآني. ولعل من المفيد التنويه إلى أن هذا الجزء ربما يخلو من عنصر الإثارة والتشويق، وسيكون زاخرا بالتكرار الذي قد لا يطيقه الكثيرون، لكن ربما يكون أهم ما يميزه هو الدقة التي يبحث عنها المتدبر للنص القرآني، لأن ذلك سيكون له (نحن نظن) انعكاسات كبيرة جدا في معظم القضايا التي تطرقنا سابقا والتي سنتناولها لاحقا بإذن الله. وسنثير بعض هذه القضايا الدقيقة (على شكل تساؤلات هنا وهناك) لجلب الانتباه لها، علّنا نجد من يتصدى لمهمة البحث فيها بطريقة علمية أكاديمية، ربما تؤتي أكلها بعد حين بإذن الله. فالله وحده أدعوه أن يعلمنا ثم يهدينا إنه هو العليم الحكيم.

أما بعد،

1. باب الفرق بين الفعل والعمل

دعنا نسطّر مرة أخرى افتراءنا السابق بهذا الصدد، والذي مفاده أن جميع السلوكيات الإنسانية تنقسم إلى قسمين رئيسيين، هما ما يقع في باب **الفعل** مقابل ما يقع في باب **العمل**. فزعمنا الظن بأن الذات تفعل، بينما النفس تعمل؛ فيصبح (حسب افترائنا) بأن هناك قوتان تتدخلان فيما يصدر عن الإنسان الطبيعي من تصرفات، وهما ذات الإنسان (EGO) ونفس الإنسان (SUPEREGO). ولا يجب أن نغفل عن وجود قوة ثالثة هي قوة الشيطان ID التي يقع تأثيرها على نفس الإنسان فقط، وبالتالي تؤثر على أعماله دون أفعاله، فتحاول تعظيم جانب الفجور في النفس ليتغلب على جانب التقوى فيها. فتصبح الصورة – كما افتريناها سابقا – على النحو التالي:

⇐ **الذات** (EGO): تفعل
⇐ **النفس** (SUPEREGO): تعمل
⇐ **الشيطان** (ID): يعمل، ويزيّن العمل، لكنه لا يتدخل بالفعل

2. باب عمل (ومشتقاتها)

عندما حاولنا تفقّد الآيات القرآنية الخاصة بمفردتي"عمل" (ومشتقاتها) لنجلب الدليل على هذا التصور المفترى من عند أنفسنا، خرجنا بالافتراءات المهمة جدا التالية:

أولا، لم نجد مفردة "عمل" (ومشتقاتها) مرتبطة بذات الإنسان، ولكن وجدناها مرتبطة بالنفس البشرية، فالنفس – على مساحة النص القرآني- تعمل ولا تفعل، قال تعالى:

- ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 70]

ثانيا، وجدنا بأن النفس منقسمة، فعملها قد يقع في باب عمل الخير، كما قد يقع في باب عمل السوء، قال تعالى:

- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

ثالثا، وجدنا بأن النفس مجبولة على حب الشهوات:

- ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ [فصلت: 31]
- ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف: 71]

سؤال للبحث: ما الفرق بين شهوة النفس ولذة العين؟ لماذا الشهوة للنفس واللذة للعين؟

رابعا، وجدنا بأن جلّ ما يستطيع الشيطان القيام به هو أن يزيّن للإنسان ما عملت نفسه (وليس ما يفعل هو)، فتأثير الشيطان - الذي هو التزيين - يقع على الأعمال (ولا يقع على الأفعال):

- ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 43]
- ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: 63]

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: 38]

نتيجة مفتراة مهمة وخطيرة جدا: الشيطان لا يتدخل فيما يفعل الإنسان، ولكنّه يتدخل فيما يعمل الإنسان، الأمر الذي يدفعنا إلى افتراء الظن (ربما مخطئين) بأن سلطان الشيطان واقع على النفس وليس على ذات الإنسان. ولو راقبنا حجة الشيطان بعد أن يُقضى الأمر، لوجدناه يتنصل من المسئولية تماما، ليُلقي بها على النفس مباشرة:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

نتيجة مفتراة 1: النفس تعمل (ولا تفعل)
نتيجة مفتراة 2: النفس تعمل الخير وتعمل السوء
نتيجة مفتراة 3: النفس مجبولة على حب الشهوات
نتيجة مفتراة 4: الشيطان يزين للنفس ما تعمل

---

3. باب "فعل" (ومشتقاتها)

وبالمقابل، عندما حاولنا تفقد السياقات القرآنية الخاصة بالجذر "فعل" (ومشتقاته)، خرجنا بالافتراءات التالية:

أولا، وجدنا بأن الفعل (وليس العمل) يصدر عن ذات الإنسان ولا دخل للنفس فيه. فخلت جميع السياقات التي ترد فيها مفردة "فعل" ومشتقاتها من تأثير النفس كقوة فاعلة مؤثرة، لا بل أصبحت "النفس" عنصرا سلبيًا يتم التأثير عليه. وسنحاول تاليا تفصيل الأفعال كما ترد في كتاب الله. لذا سندقق في الآيات التي يرد فيها الجذر "فعل"، وسنحاول تقديم بعض الافتراءات بناء على فهمنا للسياق القرآني قيد البحث. ولنبدأ بقوله تعالى:

- ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة: 23-24]

نتيجة مفتراة: محاولة الإتيان بمثل ما أنزل الله هو فعل. وأن من يحاول فعل ذلك هو من الكافرين الذين ستكون نهايته في النار مؤكدة

سؤال للبحث: هل تجدون أحدا قام بمثل هذه المحاولة (أي محاولة الإتيان بمثل ما أنزل الله؟ وكيف يمكن أن نقرأ ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: 79]
- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة: 68]
- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]

نتيجة مفتراة: قصة ذبح البقرة هي فعل، وليس عمل، لذا لا دخل للشيطان في ذلك. (وسنرى تبعات هذا الظن لاحقا عندما نحاول تسطير افتراءاتنا حول هذه القصة بإذن الله).

- ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٨٥﴾ [البقرة: 85]

نتيجة مفتراة: الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه هو فعل (وليس عمل).

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥﴾ [البقرة: 215]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]

نتيجة مفتراة: إمساك المرأة ضرارا هو فعل (وليس عمل)، وهو بذلك ظلم للنفس.

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًاۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٤٠﴾ [البقرة: 240]

نتيجة مفتراة: ما تقوم به المرأة بعد وفاة بعلها هو فعل صاددر من ذاتها

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 279-278]

نتيجة مفتراة: أن تذر الربا هو فعل من ذاتك، وليس عملا من نفسك.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ

وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

نتيجة مفتراة: كتابة الدين (أو عدم كتابته) هو فعل.

- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ [آل عمران: 28]

نتيجة مفتراة: اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين هو فعل

- ﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ [آل عمران: 115]
- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران: 135]
- ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾ [آل عمران: 188]

نتيجة مفتراة: أن تحب أن تحمد بما لم تفعل فهذا فعل (وليس عمل)

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ [النساء: 29-30]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ [النساء: 66]

نتيجة مفتراة: أكل الأموال بالباطل وقتل الأنفس هي أفعال

- ﴿۞لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١١٤﴾ [النساء: 114]

نتيجة مفتراة: الأمر بالصدقة أو المعروف والإصلاح بين الناس هي أفعال

- ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء: 127]
- ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: 67]

نتيجة مفتراة: ما قام به الرسول بالتبليغ بما أنزل إليه من ربه هو فعل

- ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79]

نتيجة مفتراة: المنكر فعل

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ [الأنعام: 112]

نتيجة مفتراة: الافتراء فعل

- ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾ [الأنعام: 137]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [الأنعام: 159]

نتيجة مفتراة: تفريق الدين فعل

- ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: 28]

نتيجة مفتراة: الفاحشة فعل

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

نتيجة مفتراة: ما يقوم به السفهاء هو فعل

- ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: 173]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: 73]
- ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [يونس: 36]
- ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦﴾ [يونس: 46]
- ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: 106]

نتيجة مفتراة: دعوة من هو من دون الله هي فعل

- ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [هود: 36]
- ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]
- ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]
- ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]

نتيجة مفتراة: ما كانت تأمر به امرأة العزيز يوسف يقع في باب الفعل

- ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف: 89]





نتيجة مفتراة: ما كان يقوم به إخوة يوسف تجاه أخيهم يوسف يقع في باب الفعل

- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النحل: 33]
- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: 35]
- ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾ [النحل: 50]

نتيجة مفتراة: ما تقوم به الملائكة بأمر من ربهم يقع في باب الفعل

- ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١﴾ [النحل: 91]
- ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف: 82]

نتيجة مفتراة: ما قام به صاحب موسى من أمر بناء الجدار كان فعلا

- ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ [الأنبياء: 59]
- ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأنبياء: 62-63]

نتيجة مفتراة: ما قام به إبراهيم من جعل الأصنام جذاذا يقع في باب الفعل

- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء: 73]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج: 77]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١﴾ [النور: 41]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: ما تقوم به الطير من الصلاة والتسبيح يقع في باب الفعل (وليس العمل)

- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨﴾ [الفرقان: 68]

نتيجة مهمة جدا: الدعوة مع الله إلها آخر، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، والزنا هي كلها أفعال (وليس أعمال)

- ﴿وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]
- ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤﴾ [الشعراء: 74]
- ﴿وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ٢٢٦﴾ [الشعراء: 226]
- ﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النمل: 34]
- ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾ [النمل: 88]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾ [الروم: 40]
- ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: 6]
- ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبِۭ ٥٤﴾ [سبأ: 54]
- ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 102]

نتيجة مفتراة: أمر الذبح الذي جاء إبراهيم بحق إسماعيل يقع في باب الفعل

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: 6]

نتيجة مهمة جدا جدا: إصابة قوم بجهالة بسبب ما جاء به فاسق يقع في باب الفعل

- ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢﴾ [القمر: 52]
- ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣﴾ [المجادلة: 13]

نتيجة مفتراة: تقديم الصدقة بين يدي النجوى هو فعل

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: 1]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف: 2-3]

نتيجة مفتراة: إعلان شي وابطان غيره يقع في باب الفعل

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون: 9]

نتيجة مفتراة: أن تلهك الأموال والأولاد عن ذكر الله يقع في باب الفعل

- ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: 12]
- ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: 36]





- ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧﴾ [البروج: 7]
- ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف: 10]

نتيجة مفتراة: القاء يوسف في غيابة الجب من قبل إخوته كان فعلا.

- ﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ٦١﴾ [يوسف: 61]

نتيجة مفتراة: مراودة الأبناء أبيهم عن أخيهم هو فعل

- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]

نتيجة مفتراة: احتمالية اقدام القوم على بنات لوط بمعرفته هو فعل.

- ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣﴾ [الكهف: 23]

نتيجة مفتراة: ما يمكن أن تقوم به في المستقبل يقع في باب الفعل

- ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٦٨﴾ [الأنبياء: 68]

نتيجة مفتراة: ما أقدم عليه القوم بحق إبراهيم من العذاب يقع في باب الفعل

- ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ [المؤمنون: 4]

نتيجة مهمة جدا جدا: الزكاة (على وجه التحديد) فعل

ثانيا، وجدنا (ربما مخطئين) بأنه لا يرد ذكر للشيطان عندما يتعلق الأمر بما يفعل الإنسان، فليس للشيطان سلطان على ذات الإنسان.

السؤال: ما أهمية البحث في الفصل بين الأفعال (التي تصدر عن ذات الإنسان) من جهة والأعمال (التي يكون محركها نفسه) من جهة أخرى؟

رأينا المفترى: لو دققنا في هذا الفصل، سنجد بأن ما يقوم به الإنسان يصبح واقعًا بين ما يصدر من ذاته مقابل ما تحثه عليه نفسه، وتكون نتيجة هذا الاحتدام بين تلك القوتين على النحو التالي:

أ. قد تتغلب ذاته (EGO) على نفسه (SUPEREGO)، فإن أنت فعلت حسنا، فقد أحسنت لنفسك، وإن أسأت، فلها:

- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: 7]

وقد تصل لدرجة أن تظلم ذاتُك (فاعل EGO) نفسَك (مفعول به Superego):

- ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: 44]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 16]
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [التوبة: 36]
- ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: 117]
- ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: 64]
- ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: 101]
- ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: 45]
- ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: 19]

ب. بالمقابل، قد تسيطر نفسُك (Superego) الأمارة بالسوء على ذاتك (Ego):

- ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف: 53]

وبذلك قد تصبح النفس (Superego) هي الظالمة:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ [يونس: 54]

السؤال: ما هو المطلوب من الإنسان؟

رأينا المفترى: يصبح المطلوب منك (أي من ذاتك Ego) أن تقي نفسك (Superego) ما تسول لك حتى لا تظلمها:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

فهذا موسى يقوم بقتل الرجل الذي وكزه، فيكون بذلك قد ظلمت ذاتُه (فاعل) نفسَه (مفعول بها):

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

وهناك مواطن كثيرة في كتاب الله حيث تكون الذات فاعل والنفس مفعول بها:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾ [البقرة: 234]
- ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٤٠﴾ [البقرة: 240]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]
- ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨﴾ [النحل: 28]

- ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: 79]
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]
- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: 23]
- ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ [الإسراء: 7]
- ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾ [المزمل: 20]

ولكن هناك – بالمقابل - مواطن أخرى حيث تصبح النفس هي الفاعل وتغدو الذات مفعولا بها:

- ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]
- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]
- ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101]

فيصبح الصراع الداخلي عند كل إنسان على النحو التالي: نفس تعمل الخير وتعمل السوء،

- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

مقابل ذات تفعل الخير وتفعل السوء.

- ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ [الإسراء: 7]

تبعات هذه الافتراءات

عندما حاولنا فهم تبعات هذه الافتراءات، وجدنا من الضرورة بمكان الإشارة إلى بعض الملاحظات التي يجب أن تبقى حاضرة في ذهن القارئ للنص القرآني لها على الدوام، لأننا نظن جازمين بأنه سيكون لها تبعات على تصرفات الإنسان، وفي تفسير تلك السلوكات من الناحية النفسية. ونحن إذ نذكر هذه الملاحظات على عجل حتى لا يكون خروجنا عن صلب النقاش طويلا، لنؤكد في الوقت ذاته أن كل واحدة من هذه الملاحظات تحتاج إلى عشرات (وربما مئات) المؤلفات لتجليتها والوقوف على حيثياتها وتبعاتها. لذا، نحن ندعو الجميع إلى التفكر بها، فلربما وصل بنا التفكير إلى مراحل متقدمة تسعفنا في الخروج من هذه الظلمات التي بعضها فوق بعض. سائلين الله وحدة أن يهدينا بعد أن يعلمنا إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

عندما حاولنا التدقيق أكثر في السياقات القرآنية الخاصة بالمفردتين "فعل" و "عمل"، خرجنا بالاستنباطات التالية التي هي - لا شك - افتراءات من عند أنفسنا.

4. أولا، الله يفعل والشيطان يعمل

لم نجد مفردة "عمل" (ومشتقاتها) مصاحبة للذات الإلهية على مساحة النص القرآني، بينما وجدنا أن كل ما يصدر عن الله يقع في باب الأفعال، خاصة عندما يسند الفعل بصيغة المفرد للذات الإلهية، قال تعالى:

- ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: 253]
- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40]
- ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النساء: 147]
- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: 22-23]

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: 14]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾ [الحج: 18]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [الفجر: 6]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]

السؤال قيد البحث والدراسة (إن صح منطقنا): لماذا يفعل الله؟ ولماذا لا يعمل الله؟

وعندما يكون الإسناد لله بصيغة الجمع، وجدنا جميع هذه السياقات قد جاءت أيضا بلفظ "فعل" (ومشتقاتها)، وليس بلفظ "عمل" (ومشتقاتها) إلا في سياق قرآني واحد خاص بخلق الأنعام. فقارن عزيزي القاري ما جاء في الآيات التالية:

- ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾ [الصافات: 33-34]
- ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾ [المرسلات: 16-18]
- ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]
- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]

مقابل ما جاء في الآية الكريمة التالية الخاصة بخلق الأنعام:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]

السؤال قيد البحث والدراسة (إن صح منطقنا): لماذا جاء الجذر "فعل" في جميع السياقات السابقة الخاصة بالذات الإلهية بصيغة المفرد أو الجمع إلا في سياق الحديث عن خلق الأنعام حيث جاء النص بصيغة الجذر "عمل"؟

5. الشيطان يعمل (ولا يفعل)

وبالمقابل، عندما حاولنا تفقد السياقات الخاصة بالشيطان، وجدنا أن الشيطان يعمل ولا يفعل. فلم نجد مفردة "فعل" (ومشتقاتها) مصاحبة للشيطان، بينما وجدنا أن كل ما يصدر عن الشيطان يقع في باب الأعمال، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة: 90]
- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]

كما وجدنا بأن مهمة الشيطان الكبرى هي أن يزين للناس سوء أعمالهم:

- ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 43]
- ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]
- ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦٣﴾ [النحل: 63]
- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]
- ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ٣٧﴾ [غافر: 37]

السؤال قيد البحث والدراسة (إن صح منطقنا): لماذا جاءت السياقات الخاصة بالشيطان أو ما يتعلق به بالجذر "عمل" (ومشتقاته)؟

عند محاولة البحث عن بعض الإجابات للأسئلة المقترحة قيد البحث والدراسة السابقة، نجد لزاما جلب الانتباه للإشارات المهمة التالية، التي سنذكرها، ونترك التعليق عليها بعد أن تتكامل الصورة في ذهننا بشكل أفضل (إن شاء الله لنا بشيء من علمه في ذلك).

أما بعد،

6. باب عمل الصالحات وعمل السيئات

عندما بحثنا عن مفردة "عمل" على مساحة النص القرآني، وجدنا أن الصالحات والسيئات هي أعمال وليست أفعال.

فعمل الصالحات (للنفس المتقية) يقابله عمل السيئات (للنفس الفاجرة): قال تعالى:

- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾ [البقرة: 25]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [البقرة: 62]
- ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: 18]
- ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف: 153]
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠﴾ [الفرقان: 70]
- ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84]
- ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 4]

كما وجدنا بأن عمل الصالحات يأتي لاحقا للإيمان. فكل السياقات القرآنية التي وردت فيها عبارة عمل الصالحات قد جاءت لعبارة حصول الإيمان على نحو (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ):

- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾ [الانشقاق: 25]

نتيجة مفتراة: الإيمان شيء وعمل الصالحات شيء آخر، وحسن الثواب بالجنة يكون بالاثنتين معا:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد: 29]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]

سؤال قيد البحث والدراسة: ما هي الصالحات التي يمكن للإنسان أن يعملها؟

وبالمقابل هناك عمل السيئات

- ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: 4]
- ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: 84]

لكن هذه السيئات يمكن أن تكفر:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [محمد: 2]
- ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾ [الفتح: 5]
- ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾ [التغابن: 9]
- ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق: 5]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم: 8]
- ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]

ويمكن العفو عن السيئات

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى: 25]

ويمكن التجاوز عن السيئات

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾ [الأحقاف: 16]

وبالمقابل يمكن أن تحبط الأعمال كلها (الصالحة والسيئة) في الحالات التالية:

أ. الكفر بالإيمان

- ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة: 5]
- ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩﴾ [الأحزاب: 19]

ب. الشرك

- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: 88]

ج. من كانت إرادته الحياة الدنيا وزينتها

- ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 15-16]

د. كره ما أنزل الله

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٩﴾ [محمد: 9]

هـ. اتباع ما اسخط الله وكراهية رضوان الله:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ٢٨﴾ [محمد: 28]

و. الكفر والصد عن سبيل الله وشقاق الرسول:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٣٢﴾ [محمد: 32]

ي. رفع الصوت فوق صوت النبي والجهر له بالقول

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾ [الحجرات: 2]

7. باب فعل الخيرات وعمل الخيرات

في حين أن الصالحات تعمل عملا، فإن الخيرات يمكن أن تعمل ويمكن أن تفعل. قال تعالى:

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]
- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء: 73]
- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]

سؤال قيد البحث والدراسة: ما الفرق بين الصالحات والخيرات حتى أصبحت الخيرات فعلا وعملا بينما الصالحات عملا فقط (وليس فعلا)؟

8. باب غفران الذنوب

في حين أن السيئات تكفر، فإن الذنوب تغفر، قال تعالى:

- ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: 3]
- ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح: 2]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ [آل عمران: 16]
- ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147]

- ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]
- ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف: 97]
- ﴿۞قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠﴾ [إبراهيم: 10]
- ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: 71]
- ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: 53]

غفران الذنوب مقابل تكفير السيئات

- ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]

الله يغفر الذنوب جميعا

- ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر: 53]

فعل الفاحشة أو ظلم النفس هو ذنب (فعل) يحتاج إلى مغفرة من الله مباشرة:

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾ [آل عمران: 135]

نتيجة مفتراة 1: الله يفعل ولا يعمل
نتيجة مفتراة 2: الإنسان يفعل ويعمل
نتيجة مفتراة 3: الذات تفعل
نتيجة مفتراة 4: النفس تعمل
نتيجة مفتراة 5: الشيطان يعمل
نتيجة مفتراة 6: الشيطان يزين للنفس ما تعمل
نتيجة مفتراة 7: الذنوب من الأفعال
نتيجة مفتراة 8: السيئات من الأعمال
نتيجة مفتراة 9: الذنوب تغفر
نتيجة مفتراة 10: السيئات تكفر (بالعفو والتجاوز)

السؤال: ما الفرق بين الفعل والعمل؟

السؤال: ما علاقة كل هذا بداوود الذي جاء النص القرآني ليصور لنا ما كان يعمل هو بنفسه:

- ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ [سبأ: 10-11]

وما كانت الجن تعمل لولده سليمان:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 12-13]

وما كان آل داوود يعملون؟

- ﴿... ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13]

مقابل من كان من آل إبراهيم الذين أوحى إليهم الله فعل الخيرات:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ۝٧٣﴾ [الأنبياء: 72-73]

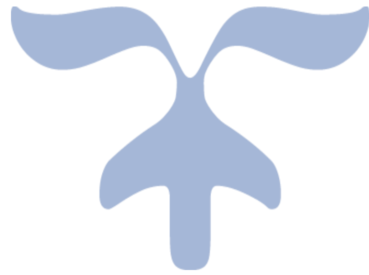
وآل يعقوب الذين كان زكريا منهم، وهم من كانوا يسارعون في الخيرات؟

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 90]



قصة داوود

الجزء الواحد والعشرون



قصة داوود – الجزء الحادي والعشرون

كانت النتائج المفتراة في نهاية الجزء العشرين على النحو التالي:

نتيجة مفتراة 1: الله يفعل ولا يعمل
نتيجة مفتراة 2: الإنسان يفعل ويعمل
نتيجة مفتراة 3: الذات تفعل
نتيجة مفتراة 4: النفس تعمل
نتيجة مفتراة 5: الشيطان يعمل
نتيجة مفتراة 6: الشيطان يزين للنفس ما تعمل
نتيجة مفتراة 7: الذنوب من الأفعال
نتيجة مفتراة 8: السيئات من الأعمال
نتيجة مفتراة 9: الذنوب تغفر
نتيجة مفتراة 10: السيئات تكفر (بالعفو والتجاوز)

وكان ذلك في محاولة منّا للتفريق بين الفعل من جهة والعمل من جهة أخرى. فجلبنا السياقات القرآنية التي يرد فيها الجذران (ف-ع- ل) و (ع- م- ل)، وحاولنا جلب انتباه القارئ لبعض الملاحظات التي يتوجب ألا يغفل عنها عند المرور بتلك السياقات القرآنية. وسنتابع في هذا الجزء مناقشة القضية ذاتها بالتركيز على سياقات محددة من أجل متابعة محاولة التفريق أكثر بين المفردتين (الفعل مقابل العمل). وسنبدأ بالآية الكريمة التالية التي نظن أنها ستكون واحدة من مفاتيح فك الاشتباك بين المفردتين، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: 41]

إن أبسط ما يمكن أن نستنبطه من هذا السياق القرآني هو أن صلاة الطير وتسبيحه هي عبارة عن أفعال (وليست أعمال). فالله – حسب منطوق الآية ذاتها – يعلم ما **تفعل** الطير (وليس ما تعمل الطير). ليكون السؤال الآن هو: لماذا تقع صلاة الطير وتسبيحه في نطاق الأفعال (وليس الأعمال)؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى أن الطير لا تملك خيارا آخر، فهي مفطورة على الصلاة والتسبيح على هذه الشاكلة. فالطير لا تملك إلا أن تنفذ ما هي مأمورة به مادام أنها (نحن نظن) لا تحمل في عنقها نفسًا يمكن أن يكون للشيطان سلطان عليها.

نتيجة مفتراة: نحن نفتري الظن بأنه ليس للطير نفس منقسمة بين الخير والشر (كما هي حال الإنسان مثلا)، فلا يصبح للشيطان عليها سلطان ليحثها على السوء. لذا يقع كل ما تقوم به في باب الأفعال. ولو راقبنا السياق القرآني التالي:

- ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص: 17-19]

لوجدنا بأن الطير محشورة. فهل تستطيع أن تتخلف عن ذلك الحشر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الطير محشورة، فهي إذا لا تستطيع إلا أن تستجيب. فأبسط معاني الحشر هو الحضور الاجباري، فيوم الحشر هو اليوم الذي جمع فيه الناس، فلم يغادر منهم أحدا:

- ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا ٤٧﴾ [الكهف: 47]

فيصبح ما تقوم به تلك الطير في باب "الفعل". وهذا هو سلوك الدواب والملائكة أيضا، فهم جميعا يفعلون ما يؤمرون:

- ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾ [النحل: 49-50]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]

نتيجة مفتراة: ما دمت أنك مأمور بتنفيذ أمر ما، ولا تملك إلا أن تقوم به، فإن الأمر يقع في باب الفعل.

ولو بحثنا عن الأحداث التي كان فيها أمر قد صدر، لوجدناها تقع في باب الأفعال، كما في قصة ذبح البقرة مثلا، فالأمر قد جاءهم بفعل ذلك:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة: 67-68]

وأصبح لا مناص أمامهم إلا أن يذبحوها:

- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]

لكن، لو راقبنا - بالمقابل - سلوك الجن كما تبينه الأيات الكريمة في سياق الحديث قصة سليمان، سنجد بأن خيار عدم الطاعة (أي أن يزغ أحدهم عن الأمر) كان مسألة ممكنة:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢﴾ [سبأ: 12]

فأصبح ما تقوم به الجن يقع في باب العمل. راقب الآية الكريمة السابقة في سياقها الأوسع:

- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 12-13]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما تقوم بأمر ما، ويكون لك فيه خيار، فلك أن تقوم به ولك ألا تقوم به، يصبح ذلك واقعا في باب العمل.

ولو راقبنا السياقات التالية، لوجدنا بأن ما يقومون به بعد الأمر الذي جاءهم يحمل معنى التخيير:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: 30-31]
- ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: 4-5]

لكن هل كان ذلك أمرا ملزما لهم؟ أي هل انصاعوا للأمر كما انصاعت الطير أو كما أنصاعت الدواب والملائكة؟

وهذا إبليس يؤمر بالسجود، فلا يلتزم بالأمر:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ١٢﴾ [الأعراف: 11-12]

نتيجة مفتراة: عندما يصدر لك أمر، تصبح أنت أمام واحد من خيارين: إما أن تنصاع للأمر أو أن لا تنصاع. فإن أنت كنت تنصاع دائما للأمر (كما الطير أو الدواب أو الملائكة)، تستطيع أن تتصرف بناء على إرادة حرة من عندك، وهنا تقع تصرفاتك تحت مسمى العمل. فنجد عندها صيغة العمل قد جائت مصاحبة للمشيئة:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]

ولا نجد مثل هذه الصيغة مع الفعل، فليس هناك في كتاب الله نصا مثل "افعلوا ما شئتم"، ولكننا نجد صيغة الفعل مصاحبة للأمر:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة: 68]

إذا، ما نقوم به نحن البشر ينقسم إلى قسمين رئيسيين:

⇐ هناك ما لا خيار لنا به (فعل)، ويصبح القيام به من باب الإلزام
⇐ هناك ما لنا خيار به (عمل)، ويصبح ما نقوم به من باب الاختيار

ولو دققنا في الأمر أكثر، لوجدنا بأن الأعمال (التي لنا فيها خيار) تصدر عن كينونتين اثنتين، وهما:

1. **النفس:**

- ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: 30]
- ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل: 111]
- ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 70]

2. **الأيدي**

- ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ٣٥﴾ [يس: 35]
- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ٧١﴾ [يس: 71]

ولو حاولنا ربط هذه الفكرة بقصة داوود، سنضطر أن نجلب السياق التالي الخاص بداوود:

- ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]

فداوود هو ذو الأيدي، لذا كان يستطيع أن يعمل. فكان آل داوود ممن يعملون شكرا:

- ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]

ولما كان هناك احتمالية الخيار في العمل، فيمكن أن يكون عملا صالحا، ويمكن أن يكون عملا سيئا، جاء التوجيه الإلهي لداوود على النحو التالي:

- ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

نتيجة مهمة جدا: العمل يتوجب وجود الاختيار للقيام به.
نتيجة مهمة جدا: العمل يمكن أن يدخل فيه اتباع هوى النفس

- ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠﴾ [النازعات: 40]

وهنا يبرز السؤال التالي: هل عنصر الاختيار متوافر في الفعل (كما هو متوافر في العمل)؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن عنصر الاختيار غير متوافر في الفعل (كما هو متوافر في العمل)، وبالتالي فإن الفعل ينطوي على وجود الضرورة. فأنت تفعل شيئا ما لأن ذلك من باب الضرورة، وذلك لأن عدم القيام به يترتب عليه عواقب أشد ضررا من القيام به حتى وإن كان فعلا لا يقع في باب الخير.

الدليل

لو عدنا إلى الملاحظة الخاصة بالذات الإلهية، والتي مفادها بأن ما يصدر عن الله يقع في باب الفعل، كما جاء في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: 253]
- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ [آل عمران: 40]
- ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾ [النساء: 147]

- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣﴾ [الأنبياء: 22-23]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج: 14]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ١٨﴾ [الحج: 18]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾ [الفجر: 6]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]
- ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾ [الصافات: 33-34]
- ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾ [المرسلات: 16-18]
- ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]
- ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: 104]

لأصبح لزاما علينا أن نطرح السؤال التالي: لماذا ما يصدر عن الذات الإلهية هو فعل؟ فهل الله مضطر للقيام بذلك؟ وهل الله مجبر على ذلك؟ فهل تنوي أن تقول – ربما يسأل صاحبنا مستغربا- بأن الله لا خيار له؟

رأينا المفترى: بداية، نحن نظن بأن كل ما يصدر من عند الله هو فعل، ونظن بأن السبب في ذلك هو توافر عامل الضرورة التي لا مناص منها. فالله يفعل لأن هذا مما يتوجب القيام به. فمادام أنه فعل، فقد أصبح (نحن نظن) لزاما حدوثه.

وهنا قد يستشيط البعض غضبا لأنه قد يظن – مخطئا- بأن الله لا خيار عنده (بمعنى غياب الإرادة)، وهذا ليس صحيحا إطلاقا، وهو ما لا نقصده أبدا. لذا، ما نود أن يكون واضحا من هذا النقاش (قبل المضي قدما فيه) هو أنه إذا صدر فعل من الله، فإن ذلك كان لزما حدوثه:

- ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡۖ فَقَدۡ كَذَّبۡتُمۡ فَسَوۡفَ يَكُونُ لِزَامَۢا ٧٧﴾ [الفرقان: 77]

وذلك لأن هناك ما استوجب أن يجعل ذلك الأمر حتمي الحدوث على أرض الواقع، فلا مناص إذًا إلا أن يتحقق. ولتبسيط الفكرة، دعنا نقدم المثال التالي: لو أن قوما استحقوا عذاب الله (نتيجة أفعالهم وأعمالهم)، ألا يصبح العذاب الذي سيقع عليهم هو فعل لا مناص من حدوثة؟

- ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨﴾ [المرسلات: 16-18]

فما حلّ بقوم عاد أو بأصحاب الفيل كان فعلا، لأنه كان لازما (أي حتمي الحدوث):

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]

السؤال: هل كان من الممكن ألا تقع تلك الأحداث؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه لم يكن ممكنا إلا أن تحدث، فحدوثها كان إلزاميا لأنها كانت ناتجة عن سبب استوجب وقوعها.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) بإن لزوم حدوث الأمر (أي أمر) ينقله إلى باب الفعل فورا. فالفعل هو ما توجب القيام به تحت ظرف الزامية حدوثه حتى وإن كان غير محبب أو غير مرغوب به.

ولعل كثيرا من لغات الأرض تميز بين نوعين من التراكيب اللغوية: الأفعال التي يكون القيام بها واقعا في باب توافر الضرورة والاضطرار (What you have to do)، مقابل الأعمال التي يمكن القيام بها من باب الرغبة (what you want, like, wish to do). فنجد متحدثي اللغة الإنجليزية – مثلا - يستخدمون (DO) مع الأفعال واجبة الحدوث، بينما يستخدمون (MAKE) مع الأعمال المبنية على الرغبة. والجدول التالي يوضح بعض الاستخدامات للنوعين:

Important Expressions with 'Do'	Important Expressions with 'Make'	
to do a favour	to make a booking	to make friends
to do a project	to make a bundle	to make fun
to do a test	to make a call	to make changes
to do an assignment	to make a cake	to make corrections
to do an exam	to make a choice	to make do
to do badly	to make a comment	to make love
to do business	to make a complaint	to make money
to do damage	to make a compromise	to make noise
to do exercise	to make a deal	to make peace
to do good	to make a decision	to make plans
to do harm	to make a difference	to make a profit
to do homework	to make a fire	to make progress
to do housework	to make a fool of yourself	to make sense
to do nothing	to make a fortune	to make someone angry
to do research	to make a fuss	to make someone happy
to do something	to make a habit	to make (someone) mad
to do some letter-writing	to make a move	to make someone's day
to do some reading	to make a phone call	to make sure
to do some studying	to make a point	to make time
to do some writing	to make a presentation	to make trouble
to do the accounts	to make a profit	to make dinner
to do the cleaning	to make a promise	to make lunch
to do the dishes	to make a remark	to make breakfast
to do the ironing	to make a reservation	to make a snack
to do the laundry	to make a sales call	to make tea / coffee
to do the math	to make a sound	to make a mess
to do the maximum	to make a speech	to make a mistake
to do the minimum	to make a suggestion	to make the bed
to do the paperwork	to make a threat	to make time
to do the shopping	to make a visit	to make war
to do the vacuuming	to make amends	
to do time	to make an appearance	
to do work	to make an appointment	
to do your best	to make an attempt	
to do your duty	to make an enquiry	
to do your hair	to make an exception	
to do your nails	to make an excuse	
to do your job	to make an offer	
to do your makeup	to make arrangements	
to do 50 miles per hour	to make believe	

فالأم – مثلا- تقع على عاتقها واجبات بيتية (household chores) كالطبخ والكنس والتنظيف ونحوها، لذا نجد العبارات:

- ⇒ Do the cleaning
- ⇒ Do the dishes
- ⇒ Do the ironing
- ⇒ Do the laundry
- ⇒ Do the vacuuming
- ⇒ ETC.

فأنت لا تستطيع العيش بطريقة طبيعية دون القيام بمثل هذه المهمات حتى لو كنت موجودا لوحدك أو في العائلة أو في المجتمع الأوسع. فهذه من المهمات التي لا تستقيم الحياة بدونها. والأب – كذلك- يقع على كاهله واجبات ملزمة كأن يعمل وأن يبذل قصارى جهده، وأن يتسوق البضاعة للبيت، ونحو ذلك، فنجد عبارات مثل:

- ⇒ Do the house work
- ⇒ Do the shopping
- ⇒ Do the damage
- ⇒ Do the best
- ⇒ ETC.

والطالب مطلوب منه حلّ الواجبات المدرسية، واجراء البحث والدراسة في الجامعة، ونحوها، فنجد عبارات مثل:

- ⇒ Do the homework
- ⇒ Do the test
- ⇒ Do research
- ⇒ Do the exercise
- ⇒ Do the assignment
- ⇒ ETC.

وعندما يطول شعرك أو تطول أظفارك، فأنت مضطر أن تقص شعرك وأن تقلم أظفارك، فتجد متحدثي اللغة الإنجليزية يستخدمون عبارات مثل:

- ⇒ Do your hair
- ⇒ Do your nails
- ⇒ ETC.

وقد لا يكون لائقا أن تخرج في الصباح الباكر إلى العمل بشعر غير مرتب أو مكياج غير لائق، لذا تجدهم يستخدمون:

- ⇒ Do your hair
- ⇒ Do your make-up

فجاءت كل هذه النشاطات مصحوبة بالفعل DO. لكن لو راقبنا – بالمقابل- العبارات التي تصاحب (MAKE)، سنجد أن عامل الاضطرار غير موجود، وسنجدها نشاطات تعرب عنها تراكيب لغوية مبنية على وجود عنصر الرغبة عند الشخص للقيام بها. (انظر الجدول السابق).

ولو راقبنا عبارات مثل do time vs. make time ، لوجدنا أنه على الرغم أن الاثنتين واردتان في اللغة الإنجليزية، إلا أن الفرق بينهما كبير جدا في المعنى. فإذا كان الشخص Doing time، فهذا يعني أنه يقضي فترة محكومية في السجن، أما إن كان making time فهو يحاول ايجاد وقت اضافي لنشاط معين. فالفرق بين الحالتين إذًا يتمثل (نحن نظن) في أن الأول اضطراري لا مناص منه، بينما الآخر مرتبط برغبة الشخص في ذلك.

نتيجة مفتراة: نحن نلخص ما سبق على النحو التالي: فلا مناص من اعداد الطعام (*DO COOKING*)، لكن أن تتناول وجبة فطور (*MAKE BREAKFAST*) أو غداء (*MAKE LUNCH*) أو عشاء (*MAKE DINNER*) أو أن يكون ذلك طبقا من اللحمة المشوية (*MAKE A STEAK*) أو سندويشة سريعة (*MAKE A SANDWITCH*)، فذاك يقع في باب الرغبة.

السؤال: ما فائدة هذا الطرح؟ هل يحلّ لنا اشكاليات محددة بعينها؟

جواب مفترى: لو عُدنا إلى قصة موسى، لوجدنا بأن ما قام به موسى في اليوم الأول كان فعلا، وذلك لأن موسى لم يكن يملك خيارا إلا أن يقتل ذلك الرجل مادام أنهما كانا في حالة اقتتال (حرب بين عدويين). فعدو موسى في ذلك الاقتتال في اليوم الأول كان لن يتوانى عن قتل موسى لو سنحت له الفرصة. وبالتالي أصبح موسى "مضطرا" (نحن نتخيل) أن يقتل ذلك الرجل الذي هو عدوه حتى لا تكون النتيجة عكسية. فعدم اقدام موسى على قتل الرجل في ذلك الاقتتال كان سؤدي إلى نتيجة أكبر تكلفة من إقدام موسى على قتل الرجل. فموسى في تلك اللحظة كان أمام خيارين أحلاهما مرّ (كما نقول بالعامية): إما أن يقتل هو الرجل وينجو بنفسه أو أن لا يقتله، فيقدم الرجل حينها على قتل موسى. فكان لزاما (نحن نرى) على موسى أن يقتل عدوه لينجو بنفسه. فكان ذلك فعلا كما جاء بصريح اللفظ في النص:

- ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء: 19-20]

ظلم فيه موسى نفسه:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي...۝١٦﴾ [القصص: 16]

فهو إذًا "فعل" مادام أن ذلك لم يتولد من رغبة (أو لنقل شهوة النفس) عند موسى في القتل. فقد قتل موسى الرجلَ مضطرا إلى ذلك. لكن، مادام أنه "فعل" ظلم فيه موسى نفسه تحت ظرف الاضطرار، كانت نتيجته المباشرة أن موسى قد اقترف ذنبا:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾ [الشعراء: 12-14]

وكان الخيار أمام موسى أن يستغفر ربه على ذنبه ذاك، فتحصل عليها:

- ﴿... فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 16]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إذا كان الفعل سيئا، فهو يحدث ذنبا، يمكن أن يغفر. قال تعالى:

- ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53]

ولكن تلك المغفرة مشروطة بعدم الإصرار على ما فعل الإنسان، قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: 135]

فموسى لم يصرّ على ذنبه، عندما قتل الرجل، وعلم يقينا أنه قد ارتكتب فعلا سيئا، فاكتسب ذنبا، فطلب من ربه المغفرة، وعقد النية ألا يكون ظهيرا للمجرمين:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص: 16-17]

لكن المفارقة التي نود أن نجلب الانتباه لها هي على النحو التالي: لو أن موسى قتل الرجل الذي هو عدو لهما في اليوم الثاني، لأصبح ذلك عملا (وليس فعلا)، وذلك لأن ذاك الرجل لم يكن عاقدا العزم أن يقتل موسى، فهو كان ناشدا الإصلاح كما قال لموسى:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

ففي تلك اللحظة الحاسمة، كان أمام موسى خياران: أن يقتل هذا الرجل الذي ينشد الإصلاح أو أن لا يقتله، فاختار موسى أن لا يقتله. ولو فعلًا أقدم موسى على قتل الرجل، لأصبح ذلك مما صدر عن نفس موسى، ولأصبح ذلك مدفوعا برغبة (أو لنقل شهوة النفس) في القتل، ولوقع ذلك في باب العمل الذي يزيّنه الشيطان لصاحبه. وبالتالي لأصبح عملا من النفس التي تأمر بالسوء، فيقع في باب السيئات التي تكفّر، لأن السيئات تحتاج إلى تكفير:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: 193]

تخيلات مفتراة: دعنا نتخيل بأن موسى قد قتل الرجل في اليوم الثاني، فكيف (نحن نسأل) سيكفّر عن تلك السيئة التي ارتكبها؟ وبكلمات أخرى: ماذا كان يتوجب على موسى أن يفعل حتى تكفّر عنه السيئات لو أنه أقدم على قتل الرجل في اليوم الثاني؟

جواب مفترى: التكفير يكون بالقصاص

الدليل

لو بحثنا في النص القرآني على مساحته عن مفهوم "الكفارة"، فسنجد بأنها لا تتحصل إلا بدفع المقابل (أي ما يكافئ ذلك). فمبدأ دفع الثمن هو على نحو أن النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن، الخ، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]

فالعدالة تقتضي أن تكون النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن، الخ. أليس كذلك؟ ولا يمكن تحقيق العدالة بغير ذلك إلا بشرط التصدّق (بالعفو) من قبل المتضرر ويكون ذلك كفارة له. ويتأكد مبدأ العفو في القصاص في قوله تعالى:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: 178]

ويكون ذلك من سلوك العافين عن الناس الذين هم لا شك من المتقين الذين يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السموات والأرض:

- ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: 133-134]
- ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: 13]

ولو بحثنا أكثر عن فكرة التكفير، سنجد بأن كفارة تعقيد الإيمان على نحو إطعام عشرة مساكين:

- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٨٩﴾ [المائدة: 89]

وجزاء قتل الصيد في فترة الإحرام على نحو "مثل ما قتل من النعم"، لكن كفارة ذلك هو إطعام مساكين أو عدل ذلك صياما:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٩٥﴾ [المائدة: 95]
- **سؤال للتفكر لاحقًا: ما الفرق بين جزاء الشيء (فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ) وكفارة الشيء (أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ) وعدل الشيء (أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا)؟**

نتيجة مفتراة 1: مادام أن ما فعله موسى في اليوم الأول هو فعل تحت ظرف الاضطرار، كان يكفيه أن يستغفر لذنبه،
نتيجة مفتراة 2: لو أن موسى قتل الرجل في اليوم الثاني، لأصبح ذلك عملا يتولد عنه السيئات، التي تحتاج إلى تكفير.
نتيجة مفتراة 3: إذا كان القتل فعلًا فهو يغفر
نتيجة مفتراة 4: إذا كان القتل عملًا فهو يحتاج إلى تكفير

- ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 193]

تساؤلات للتفكير الآن:

⇐ لماذا هرب موسى بعد حادثة القتل؟
⇐ لماذا لم يسلّم نفسه للسلطة للاقتصاص منه؟
⇐ هل يستطيع من يقع في القتل الهرب وعدم تسليم نفسه للسلطة للاقتصاص منه؟
⇐ الخ

عندما كان ما قام به موسى يقع في باب الفعل الذي كان دافعه عامل الاضطرار، ما كان موسى ملزما أن يسلّم نفسه للعدالة ليُقتصّ منه. فموسى كان في حالة اقتتال، كان كل طرف فيه حريص على أن ينجو بنفسه، وما كان ذلك ممكنا لأي طرف إلا بقتل الطرف الآخر. فتعادل الطرفان في الغاية والوسيلة. فما تبقى لأي منهما حجة على الآخر. فالجنود في الحرب – مثلا- يقتتلون، لكن لا يستطيع أي طرف أن يلقي باللائمة





على الطرف الآخر إذا ما قُتل أحدهما. ولكن يبقى القتل ذنب لأنه يحتاج إلى مغفرة من ربنا. لذا يكون الإنسان دائم لسانه يلهج بهذا الدعاء:

- ﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: 286]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: 16]

ولو أقدم موسى (نحن ما زلنا نتخيل) على قتل الرجل الآخر في اليوم الثاني، لأصبح ذلك عملا يحتاج إلى أن يكفّر، وما كان تكفيره ممكنا إلا بالقصاص أو بالعفو:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [البقرة: 178]

وحينها سيكون موسى (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) مضطرا ألا يهرب، ومضطرا كذلك أن يسلّم نفسه للعدالة ليقتص منه، فينال العقوبة في الدنيا حتى لا تصيبه في الآخرة.

ولو دققنا أكثر فيما حصل مع موسى بعد حادثة القتل، سنجد بأنه قد أصبح في المدينة خائفا يترقب، لكنه لم يصبح من النادمين أو الخاسرين كما حصل مع ابن آدم الذي قتل أخاه بسبب ما طوعت له نفسه:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِىۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: 30-31]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 1: الأفعال صادرة من ذات الانسان تحت ظرف الحاجة (الاضطرار أو لنقل الزامية الحدوث)
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا 2: الأعمال صادرة من النفس تحت ظرف الاختيار (الرغبة أو لنقل شهوة النفس)

السؤال: إن صحت هذه الافتراءات، ألا يستوجب علينا طرح التساؤلات التالية:

⇐ لماذا كل ما يصدر عن الله يقع في باب الأفعال؟
⇐ أليس لله نفس؟

⇐ هل ما يصدر عن نفس الله هي أعمال أم أفعال؟
⇐ الخ

جواب مفترى من عند أنفسنا: للإنسان ذات تفعل مقابل نفس تشتهي، فتعمل، ويكون للشيطان سلطان عليه لوجود الانقسام بين ما يريده الإنسان (ذاته) مقابل ما تحثه عليه نفسه، مادام أن نفس الإنسان منقسمة بين التقوى والفجور:

- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: 7-8]

لكن - بالمقابل: لله ذات تفعل مقابل نفس غير منقسمة بين الخير والشر، وليس للشيطان سلطان على تلك النفس. فتصبح ذات الله منسجمة مع نفسه (التي لا تشتهي). ويصبح هو الله أحد:

- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: 1-4]

وهذا الاعتقاد مدفوع بالعقيدة التي مفادها أن الله ليس كمثله شيء:

- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: 11]

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة التي تبين الفصل الواضح بين الله من جهة وسائر الأشياء من جهة أخرى، سنجد أن ذكر النفس حاضر فيها. لذا،علينا التفريق بين نفس الله من جهة ونفس الناس (أو نفس الجن) من جهة أخرى. وقد ذكرنا في مقالات سابقة لنا بأن النص الديني يبين لنا بأن هناك مفردتان اثنان للنفس، أحدهما تجمع على أنفس والأخرى تجمع على نفوس:

⇐ نفس (أنفس)
⇐ نفس (نفوس)

وقد حاولنا التفريق بين النفس التي تجمع على أنفس مقابل النفس التي تجمع على نفوس. ومن أراد الإستزادة من ذلك فعليه العودة – إن شاء – إلى تلك المقالات. لكن سنحاول هنا جلب بعض الأفكار التي ربما تسعفنا في نقاش الموضوع قيد البحث هنا. لذا سنبدأ النقاش حول مفردة النفس التي تجمع على أنفس بجلب جميع السياقات التي ترد فيها المفردة، لنحاول التعرف على خصائص وطبائع تلك النفس.

1. باب النفس (أنفس)

لو دققنا في مفردة الأنفس كما ترد في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أنها يمكن أن تُخدع:

- ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: 9]

ويمكن أن تُنسى:

- ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة: 44]

ويمكن أن تُقتل:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

ويمكن أن تُظلم أو أن تظلم:

- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٥٧﴾ [البقرة: 57]
- ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ [يونس: 54]

ويمكن أن تهوى:

- ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾ [البقرة: 87]

ويمكن أن تشرى:

- ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٩٠﴾ [البقرة: 90]

ويمكن أن تَحسِد:

- ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة: 109]

ويمكن أن تنقص:

- ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]

ويمكن أن تختان:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]

ويمكن أن يتم التربص بها:

- ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [البقرة: 228]

ويمكن أن تبتلى:

- ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186]

ويمكن أن تُزكى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء: 49]

ويمكن أن يصيبها الشح:

- ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨﴾ [النساء: 128]

ويمكن أن تُخسر:

- ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾ [الأنعام: 12]

ويمكن أن يُكذب عليها:

- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [الأنعام: 24]

ويمكن أن تهلك:

- ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [الأنعام: 26]

ويمكن أن يُمكر بها:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾ [الأنعام: 123]

ويمكن أن يتغير ما بها:

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53]

ويمكن أن تزهق:

- ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التوبة: 55]

ويمكن أن تضيق على صاحبها:

- ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: 118]

ويمكن أن تسول لصاحبها:

- ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: 18]

ويمكن أن تُلام:

- ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]

ويمكن أن تُزوج، (فيجعل منها بنين وحفدة):

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النحل: 72]

ويمكن أن يحسن لها أو أن يساء لها:

- ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧﴾ [الإسراء: 7]

ويمكن أن تُخلق:

- ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: 51]

ويمكن أن يخلق منها أزواجا:

- ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الروم: 21]

ويمكن أن تتوفى:

- ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

ويمكن أن تفتن:

- ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾ [الحديد: 14]

السؤال: هل هذه الصفات تنطبق على نفس الله؟ هل يمكن أن تكون نفس الله من الأنفس التي تزوج أو التي تهلك أو تتوفى أو تظلم أو تظلم أو تهوى، الخ؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فالله له نفس، كما جاء في أكثر من سياق قرآني:

- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ [آل عمران: 28]
- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: 30]
- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

لكن نفس الله لا تهلك ولا تهوى ولا تظلم ولا تظلم ولا تزوج ولا... . ليكون السؤال الآن هو: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك هو أن نفس الله ليست منقسمة بين الفجور والتقوى، فهو وحدة واحدة، لا يمكن أن تنقص، ونحن نجد ذلك في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4]

فالله ليس كمثله شيء، لأن نفسه لم يجعل منها زوجا كما هي حال الناس والأنعام:

- ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: 11]

لذا، نجد أن كل ما خُلق في هذا الكون مبني على مبدأ الثنائية (الزوجية):

- ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: 49]

فكل شيء ما دون الله مخلوق منه زوجين، فحتى جبريل وميكال هما زوجان، وإبليس والشيطان زوجان، والدواب زوجان والأنعام زوجان، وهكذا. فأنفس هؤلاء جميعا قد انقسمت بالتزاوج، فما عادة صامدة (أي ما عادت كتلة واحدة غير منقسمة)، ولكن الله هو الكينونة الوحيدة التي لم تنقسم نفسه، فكان الله أحد، وكان هو الصمد (أي الذي لم ينقسم). فما عاد هناك مجال لأن يلد أو أن يولد، وما كافئه في ذلك أحد:

- ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: 1-4]

ولهذا كل نفس ذائقة الموت:

- ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]
- ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]
- ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧﴾ [العنكبوت: 57]

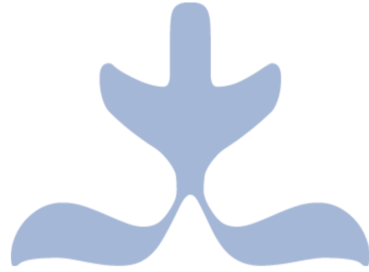
فالنفس المنقسمة لا محالة ستذوق الموت حتى يتم تزويجها يوم أن يرجعون إلى الله:

- ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾ [التكوير: 1-7]

فتصبح حينئذ تقع في باب النفوس وليس الأنفس.

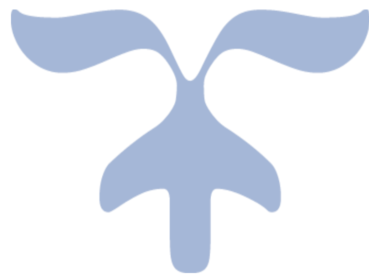
نتيجة مفتراة: النفس التي تجمع على أنفس هي نفس منقسمة، فتتزاوج
نتيجة مفتراة: النفس التي تجمع على نفو س هي نفس متحدة لا تنقسم.

السؤال الذي سنبقى نذكر القارئ الكريم به في نهاية كل جزء من سلسلة المقالات هذه هو: من هو داوود؟



قصة داوود

الجزء الثاني والعشرون



قصة نبي الله داوود -الجزء الثاني والعشرون

ما زلنا نتحدث في هذا الجزء من المقالات الخاصة بقصة نبي الله داوود -وتقاطعاتها مع قصص الأنبياء والرسل السابقين واللاحقين -عن الفرق بين الفعل والعمل، وهو الموضوع الجانبي الذي ابتدأنا حديثنا فيه في الأجزاء السابقة الأخيرة، ظانّين أنه ما يزال في جعبتنا ما نودّ البوح به في هذا المقام .لكن لابد من المرور سريعا على أبرز الافتراءات السابقة حتى يصبح النقاش متصلا .فالمعلومة الجديدة)أي الخبر (يجب أن يبنى على معلومة قديمة)أي المبتدأ .(فما سنخبر به تاليا مبني – برأينا -على ما ابتدأناه سابقا .لذا، دعنا نذكر القارئ الكريم -إن أراد -على عجل بنبأ ما ابتدأناه سابقا، ثم ننطلق تباعا لنقدم ما نظن أنه جديد عندنا حول الموضوع ذاته، سائلين الله وحده أنّ يعلّمنا من لدنه وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، فلا نفتري عليه الكذب، ولا نقول عليه ما ليس لنا بحق، فندعوه طامعين أن يهدينا الصراط المستقيم، فلا نبقى في ضلال مبين، أنه هو السميع البصير.

ولكن -كالعادة -دعنا نطلب من القارئ الكريم إلى عدم المضي قدما في قراءة ما عندنا في هذه المقالة، لأنه لن يجد فيها ما قد يعوضه عن إضاعة وقته وجهده فيما قد لا يضيف إلى مخزونه الفكري شيئا جديرا بأن يكون محط أهتمام أو حتى انتباه .ولاختصار الجهد على القارئ الكريم، فإني أجد من الضرورة بمكان التنويه إلى أننا سنقدم في هذا الجزء من المقالة رأينا)ربما المغلوط (عن كيفية حصول الإرادة الإلهية لفئة قليلة بالنصر على فئة كبيرة بإذن الله .طارحين التساؤلات التالية:

- ⇐ لماذا كان الله على الدوام مع الفئة المؤمنة القليلة (كما في حالة المواجهة بين طالوت وجالوت)؟
- ⇐ متى يكون الله مع الفئة القليلة (في كل وقت وحين)؟
- ⇐ متى يكون النصر بتأييد من الله (في أي مواجهة بين فئتين)؟
- ⇐ متى يكون النصر محسوما بقوة السلاح (في أي مواجهة بين فئتين)؟
- ⇐ كيف نستطيع أن نتحقق أن الله مع فئة دون أخرى وأن النصر كان بإذن الله أو أنه كان بقوة السلاح المادي؟
- ⇐ كيف نستطيع أن نعرف أن الله يتدخل (أو لا يتدخل) في اقتتال دائر بين طائفتين مهما كانت مسوغات وحجج كل واحدة منهما؟
- ⇐ الخ

أما بعد،

1. باب الفرق بين الفعل والعمل (تكملة)

فلقد افترينا القول سابقًا بأن واحدة من أهم الفروقات الرئيسية بين الفعل من جهة والعمل من جهة أخرى تتمثل في أنّ الأول)أي الفعل (صادر من الذات تحت ظرف الإلزام)أو لنقل الضرورة(، بينما الآخر)أي العمل (متعلق بالرغبة التي يكون محركها وجود الإرادة الحرة في الاختيار .ولو دققنا في المفردتين أكثر، سنجد أن ذاك جار على ألسنة العامة من الناس، فقد يسأل شخص ما شخصا آخر، قائلا :ماذا تعمل؟

أو ما هو عملك؟ ليرد عليه قائلا :حدادا، أو نجارا، أو طبيبا، أو مهندسا، أو ربما عاطلا عن العمل)انتبه وليس عاطلا عن الفعل .(فالمهنة هي في نهاية المطاف عملا، لأنها)نحن نظن ربما مخطئين (من اختيار الشخص نفسه .فأنت من اخترت أن تكون طبيبًا أو مهندسا أو نجارا، أو ربما أن تبقى عاطلا عن العمل .لكن عندما تحضر إلى ورشة النجار، فإنك لن تساله "ماذا تعمل؟"، لأنه ربما يجيبك بسخرية قائلا :ماذا ترى؟ ألستَ في ورشة نجار؟ لذا، فأنت تسأله هناك قائلا :ماذا تفعل؟ فيرد عليك قائلا :أصنع كرسيا، وذلك لأن صناعة الكرسي من متطلبات)أو لنقل الواجبات الأساسية (لأن تكون نجارا، فلا يمكن أن تكون نجارًا ما لم تكن قادرًا على صناعة الكرسي أو ما يشبه ذلك .فأنت كنجار تحتاج)أو أنك ملزم (أن تصنع كرسيا .فهل يمكن أن تكون نجارا)نحن نسأل (ولا تصنع كرسيا؟ من يدري؟!

فالفعل إذًا يكون إلزاميا مادام أنّ هناك حاجة ملحّة لوقوعه، لذلك نجد القاعدة الفيزيائية الشهيرة قد صيغتْ على نحو" :لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار معاكس له في الاتجاة ."ولا نجد مثل تلك القاعدة بلفظ العمل .فليس لكل عمل)نحن نظن ربما مخطئين (رد عمل مساو له بالمقدار معاكس له في الاتجاه .لذا، يمكنني أن أترجم الفعل إلى اللغة الإنجليزية على نحو أنه (ACTION)مقابل العمل الذي يمكن أن يترجم على نحو أنه .(ACTIVITY)

نتيجة مفتراة :مادام أن الفعل يولّد فعلا، فهو إذًا خاضع لقانون السبب والمسبب .فهناك إذا)نحن نستنبط (سبب لكل فعل أدى إلى وقوعه، أو أن هناك -لنقل -ما استوجب حدوثه .لذا علينا دائما أن نبحث عن السبب الذي استوجب حدوث الفعل .ويصعب أن ينطبق ذلك على العمل، لأن موجب العمل هو الرغبة أو الإرادة الشخصية التي ربما لا تكون)تلك الإرادة (مبررا حقيقيا لما تعمل .فأنت لا تستطيع أن تربط العمل بسبب حقيقي موجب له على الدوام، بقدر ما هو خاضع لهوى النفس ورغبة الشخص فيه .فالشخص يأكل ليعيش، فهذا فعل لازم مبرر، لكن أن يأكل خبزًا أو لحما، فذاك تابع لما تشتهي النفس وتحب، وليس بالضرورة أن يكون مبررا .ولهذا نجد أن الشيطان يزيّن للناس ما يعملون كما حصل مع قوم المرأة في سبأ:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾ [النمل: 24]

أو ما حصل مع كل الأقوام السابقة التي حقّ عليها العذاب:

- ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨﴾ [العنكبوت: 38]
- ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ٤٢ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [الأنعام: 42-43]

نتيجة مفتراة 1: مادام أن الشيطان قد زيّن لهم أعمالهم، فالسبب الذي سيسوقونه لتبرير أعمالهم هو سبب مزيف مهما زُيّنت صورته *(Bogus, fake, baseless, not real, not legal, fictitious, etc.).*
نتيجة مفتراة 2: الأفعال – بالمقابل -يمكن تبريرها بأسباب حقيقية *(authentic, real, genuine, bona fide)*، **وبالتالي يمكن تبريره** *(verifiable).*

ولو جلبنا الآية الكريمة الخاصة بالذات الإلهية، وهي قوله تعالى:

- ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: 22-23]

لوجدنا أنّ ما يصدر عن الإله هو فعل، وأنه لا يُسأل عن أي فعل يحدثه، وذلك لتوافر السبب الحقيقي الذي يبرر حدوث ذلك الفعل .فلن تجد للناس على الله حجة مادام أن ما يصدر عن الله هي أفعال:

- ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥﴾ [النساء: 165]

فما جاء به الرسل من عند الله يبيّن لنا تلك الأفعال وأسباب حدوثها .وبالتالي لا يبقى للناس على الله حجة بعد الرسل .ولكن بالمقابل نُسأل)نحن البشر (عما نفعل .فإن كانت أسبابا موجبة لحصول الفعل كانت مغفرة الله حاضرة حتى لو كان الفعل فيه ظلم للنفس)كما حصل مع موسى عندما قتل الرجل(، وإن لم تكن هناك أسباب موجبة، كانت حجتهم داحضة:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ۝١٦﴾ [الشورى: 16]

نتيجة مفتراة: الفعل ينتج عن سبب موجب، جعله حتمي الحدوث .وبهذا تجد لك العذر على ما فعلت .وبالتالي تصبح إرادتك الحرة معطلة في الفعل .ولهذا)نحن نرى (بأنه إن كان ما قمت فيه في غياب الإرادة الحرة)أو تحت ضغط عامل الضرورة (فعلا سيئا، فإنه ينتج عن فعلك ذاك ذنبا أنت تدعو الله أن يغفره لك)مادمت لم تملك خيارا حرا عندما أقدمت عليه(.

وهنا يجب أن **يطرح السؤال التالي**: كيف تعرف أن ردّ الفعل الذي نتج عن الفعل "صحيحا حقيقيا "وليس كاذبًا مزيفا؟

رأينا المفترى: لو دققنا فيما حصل ببني إسرائيل في أرض مصر تحت حكم فرعون، لربما استطعنا أن نتلمس الآلية السليمة في الحكم على ردة الفعل المناسبة .فكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نعلم ما حلّ ببني إسرائيل من الاستعباد في أرض مصر زمن حكم فرعون، فقد كان يقتّل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وكان ذلك من البلاء العظيم كما جاء وصفه في كتاب الله:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: 6]
- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: 30-33]

ليكون السؤال الآن هو: ماذا فعل بنو إسرائيل جراء ذلك الاستعباد؟ وبكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ماذا كان يستوجب على بني إسرائيل أن يفعلوا)كردة فعل (جراء ذلك البلاء العظيم الذي رزحوا تحته سنين عديدة في أرض مصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الاجابة على ذلك قد جاءت على لسان نبيهم موسى عندما اشتكوا له ضعف حالهم وقلة حيلتهم على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ... ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

فكان جواب موسى في تتمة السياق القرآني على نحو:

- ﴿... قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

وقد كان جلّ ما طلبه منهم موسى في ذلك الحين هو الاستعانة بالله والصبر، مذكّرا إياهم في ذات الوقت بالسنة الإلهية المتمثلة بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده المتقين:

- ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]

لذا، كان على بني إسرائيل أن يستعينوا بالله وأن يصبروا لينظر الله كيف يعملون .وبالفعل استعان بنو إسرائيل حينها بالله وصبروا على ذلك البلاء العظيم حتى كانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف: 130]

إن مراد القول هو أن الاستعانة بالله المحفوفة بالصبر هي ردة الفعل الصحيحة على الاستعباد في الأرض .لذا، لم نجد أن بني إسرائيل قد رفعوا السلاح في وجه فرعون وقومه للخروج من الاستعباد، منتظرين الأمر الإلهي بعد أن ينظر الله كيف يعملون .فكان أمام بني إسرائيل الخيار أن يعملوا ما يشاءون، لكن القوم لم يعملوا شيئا غير أنهم صبروا)كردة فعل (واستعانوا بالله)كردة فعل .(ليكون السؤال هو :لماذا لم يُقدم بنو إسرائيل على رفع السلاح في وجه فرعون للخروج من الاستعباد؟

رأينا المفترى :نحن نظن أنه لمّا كان بنو إسرائيل من المؤمنين الذين يظنون أن الله ربهم، كان عليهم أن يتّبعوا الأمر الإلهي المتمثل بعدم الاعتداء:

- ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة: 190]

ولما كان بنو إسرائيل متواجدين في أرض مصر، لم يكن لهم حق)نحن نظن (في رفع السلاح ضد فرعون وآله الذين هم أصحاب الحق الشرعي في أرض مصر، فكان طلب موسى من فرعون عندما جاءه بالرسالة على النحو التالي:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 104-105]

فكان طلب موسى يحمل في ثناياه اقرارا بأحقية فرعون وقومه في أرض مصر، ولكن كان على فرعون أن يتوقف عن الاعتداء على بني إسرائيل بالتعبيد.

السؤال :ما الذي كان يستوجب على فرعون فعله حتى لا يكون من المعتدين؟

رأينا المفترى :نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو نزل فرعون عند طلب موسى بإرسال بني إسرائيل معه، لما كان من المعتدين، ولما وقع)نحن نظن (عذاب من الله على فرعون وقومه .لكن لمّا رفض فرعون طلب موسى، وأصر على إبقاء بني إسرائيل في الاستعباد كان من المعتدين.

نتيجة مفتراة 1: لما رفض فرعون طلب موسى بإرسال بني إسرائيل مع موسى، ولما أصر على استعباد بني إسرائيل فقد كان من المعتدين
نتيجة مفتراة 2: لما لم يرفع بنو إسرائيل شعار المقاومة المسلحة ضد فرعون، ما كانوا من المعتدين.
نتيجة مفتراة 3: لما تبين بأن فرعون هو المعتدي وأن بني إسرائيل ليسوا من المعتدين، كان الله في صف المستضعفين في الأرض، فكانت منّة الله حاضرة عليهم:

- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ

وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝﴾ [القصص: 4-6]

نتيجة مفتراة مهمة جدا :استحق بنو إسرائيل أن يكونوا هم الوارثين، وبالتالي تمكينهم في الأرض، لأنهم لم يكونوا من المعتدين، وذلك لأنهم حققوا الشرط الأول لأن يكون الله معهم، فيدافع عنهم، ألا وهو أن يكونوا من الذين يقاتَلون (أي مدافعين) وليس يقاتِلون (أي مهاجمين)

- ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [الحج: 39-40]

السؤال :ماذا لو رفع بنو إسرائيل شعار المقاومة المسلحة ضد فرعون، هل كان الله سيكون معهم في ذلك الصراع؟

رأينا المفترى :نحن نظن بأنه إذا أقدم المظلوم على جلب حقه بيده، فإن الله سيتركه يفعل ذلك، لكن الله لن يتدخل في ذلك النزاع، لأن الله يكون على الدوام في صف المدافع وليس في صف المهاجم مهما كانت المسوغات .قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝﴾ [الحج: 38]

نتيجة مفتراة :نحن نظن بأن الله في صف الذين لا يعتدون، وذلك لأن الله هو من يدافع عن الذين آمنوا ولم يكونوا من المعتدين.
نتيجة مفتراة من عند أنفسنا :إذا وجدت نفسك مظلوما)مستضعفا(، فإنك تكون من المؤمنين الذين سيتولى الله الدفاع عنهم إذا أوكلت أمرك إلى الله ليتصرف نيابة عنك:

- ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝﴾ [آل عمران: 173]

وهناك دعوة واضحة صريحة من الله للمؤمنين أن يدعوا أذى الكافرين والمنافقين وذلك بالتوكل على الله:

- ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾ [الأحزاب: 48]

نتيجة مفتراة :عندما تجد أنك صاحب حق، ولكن ربما يلحق بك ضرر من طرف آخر، فما عليك إلا أن توكل أمرك إلى الله كما فعل يعقوب مع أبنائه عندما جعل الله وكيلا على ما تم الاتفاق عليه بينهم:

- ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: 66]

فالتمكين في الأرض من نصيب من أوكل أمره إلى الله ولم يُقدِم على أخذ حقه بيده، وليس أدل على ذلك مما حصل مع يوسف .فالله قد مكّن له في الأرض مرتين، فكانت الأولى بعد أن تآمر الإخوة عليه، وبيع بثمن بخس دراهم معدودة، فكانت النتيجة أن مكّن ألله له في بيت ذلك الرجل:

- ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: 21]

وحصل له التمكين الثاني في الأرض بعدما تآمرت النسوة عليه وأدخل السجن:

- ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: 55-56]

فكان الله غالبا على أمر يوسف، لأنه هو من كان يدبر له هذا التمكين بالرغم من تآمر الآخرين به .ففي حين أن الآخرين كانوا يردون به سوءا، كانت العاقبة لصالح يوسف مادام أن الله هو من توكل تدبير الأمر له.

وقد كان هذا ما فعله بنو إسرائيل في صراعهم مع فرعون في أرض مصر عندما اتخذوا الله وحده وكيلا:

- ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: 2]

فكانت النتيجة الحتمية هو نجاتهم من عدوهم:

- ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: 80]

واستخلافهم في الأرض:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

والتمكين لهم في الأرض:

- ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص: 5-6]

ليكون السؤال التالي هو: كيف يمكن أن نتعرف على المعتدي؟ وكيف لنا أن نعرف المؤمن الذي لا يعتدي؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: عندما يكون لك الحق، فأنت أمام خيارين اثنين، متاح لك حرية الاختيار بينهما، ألا وهما:

أن تأخذ حقك بيدك

أن توكل أمرك إلى الله، ليتصرف هو في الأمر كما يشاء

السؤال: أي الخيارين أسلم؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الخيار الثاني هو الأسلم، وذلك لأنك إن آثرت الخيار الأول، فإنك ستخسر أن يكون الله معك في ذلك النزاع، لأن الله (نحن نظن ربما مخطئين) لا يكون في صف المبادر بالفعل، خاصة إن كان ظنه أنه يستطيع أن يستجلب حقه بيده. فكيف لك (نحن نسأل) أن تؤمن أن الله يجلب لك حقك ولا تكون عندك الثقة المطلقة بأن الله قادر على ذلك وفي ذات الوقت لا تترك له تدبير بالأمر كما يشاء؟ من يدري؟!

رأينا المفترى العجيب الغريب: إن مجرد مبادرتك لأخذ حقك بيدك تحمل (نحن نظن) في ثناياها العقيدة التي مفادها أنك لم تصبر حتى يدبر لك الله ذلك، ربما لأنك تخشى أن لا يأتيك حقك كاملا إن أنت صبرت (حتى يدبر الله الأمر بيده)، فالإنسان مجبول على العجلة من أمره:

- ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: 11]

لكن -بالمقابل- فإن الذي يظن بربه ظنا يقينيا، فهو الذي يترك الأمر برمته لله لأن يدبره كيفما يشاء، ولا يعدم الإيمان المطلق بأن النتيجة ستكون في صالحه مهما طال الزمن. وذلك مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق: 3]

فتدبير الأمر من الله يحتاج إلى وقت حتى يبلغ الله أمره .وهذه لا شك قضية كبيرة جدا سنتعرض للحديث عنها إن شاء الله متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك) .فالله أدعوه وحده أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم(

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا :إن أبسط أبجديات عدم الاعتداء هو عدم المبادرة في الفعل، فأنت عندما تكون في موقف يتطلب وجود ردة فعل، عليك أن لا تكون مبادرا في ردة الفعل خاصة تلك التي يمكن أن تكسبك إثما أو ذنبا .ولنبدأ جلب الدليل على هذا الافتراء العجيب الغريب الذي قد يبدو للوهلة الأولى بأنه رد سلبي)وربما انهزامي(، وسنحاول جلب الدليل بالتعرض من جديد لما حصل مع ابني آدم في الصراع الأقدم على الأرض .فعندما نشبت مشكلة بين الأخوين لسبب ما)انظر المقالات السابقة(، كان حلها يتمثل في أن يقربا قربانا، لفض الخلاف بينهما، فكانت النتيجة في صالح أحدهما .لكن أحد الأخوين لم يتقبل النتيجة التي كانت لصالح أخيه، فكان المبادر في ردة الفعل، فتوعد أخاه بالقتل، قائلا:

- ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

لكن على الرغم أن الحق كان إلى جانب الأخ الآخر، إلا أن هذا الشخص)صاحب الأحقية في موضوع الخلاف بين الطرفين (لم يعمد إلى أن يأخذ حقه بالقوة، بل آثر أن لا يبسط يده لقتل أخيه، وكان ذلك مخافة الله رب العالمين، قائلا:

- ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [المائدة: 28]

وهنا نجد أنفسنا أمام السيناريو الأول وهو أن تكون صاحب حق، لكن خصمك يرفض الاعتراف لك به، لا بل ويصر على سلبك ذلك الحق بالقوة .فتجد نفسك هنا أمام خيارين اثنين، أحلاهما مر، وهما:

⇐ أن تضطر إلى أخذ حقك بقوة منك، فتضطر إلى الحاق الضرر بخصمك لتنال حقك، مادام أن خصمك مصرا على سلبك ذلك الحق

⇐ أن تؤثر أن لا تأخذ حقك بالقوة، وتدع خصمك يلحق بك الضرر، ويسلبك ذلك الحق، وتوكل أمرك إلى الله وحده.

السؤال :ما الذي ستفعله حينها؟

رأينا المفترى :لو حاولنا أن نبحث عن هاتين الحالتين في النص القرآني، لوجدناهما قد حصلا فعلا على أرض الواقع:

⇐ مرة مع ابني آدم،

⇐ والآخرى مع موسى وعدوه عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها، واضطر إلى قتال مع عدوه .فماذا كانت ردة فعل كل واحد من المؤمنين في كلا الموقفين.

رأينا المفترى :في أي صراع محتدم يجد الإنسان نفسه مضطرا للقتال، عليه أن يوزن الأمور بين أن يكون مبادرا في ردة الفعل، فيَقتل (فيكون قاتلا كموسى) أو أن لا يبادر بردة الفعل، فيُقتل (فيكون مقتولا كابن آدم).

التساؤلات:

⇐ لماذا آثر المؤمن من ابني آدم أن يكون مقتولا وليس قاتلا؟
⇐ لماذا اختار موسى أن يكون قاتلا وليس مقتولا؟

رأينا المفترى :دعنا نبدأ أولا بقصة ابني آدم، فنحن نظن بأن ابن آدم)صاحب الحق (قد آثر أن يكون مقتولا، لأنه لا يريد أن يبوء بإثمين اثنين:

- ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [المائدة: 29]

السؤال :كيف ذلك؟

رأينا المفترى :لما كانا ابنا آدم هما المتواجدين على الأرض حينها فقط، كانت النتيجة أن الحياة ستستمر بأحدهما، فالمؤمن منهما يرى أنه سواء كان قاتلا أو أنه كان مقتولا، فلن يؤثر ذلك على استمرارية الحياة على الأرض .لذا عندما وازن المؤمن من ابني آدم خياراته المتاحه، وجد (نحن نتخيل فقط) أنه لن يكون لحالته (قاتلا) أثرا ايجابيا على فعلته، وإنما سيكون الأثر كله سلبيا عليه شخصيا وعلى ذريته من بعده .فصحيح أنه سيكون مستفيدا ببقائه شخصيا على قيد الحياة، لكن غيره لن يستفيد من ذلك، لا بل سيكون لفعلته أثر سلبي على غيره (أي ذريته من بعده) .(وسنتحدث عن ذلك إن شاء الله لاحقا عندما يأذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك .فالله أسأل أن يعلمني علما لا يكون لأحد غيري، إنه هو العزيز الوهاب).

ولتوضيح الصورة أكثر، دعنا نتخيل أن ابن آدم المؤمن اختار أن يقتل آخاه الآخر (غير المتقي) .فما الذي كان سيجنيه من ذلك القتل الذي أضطره أخوه إليه؟

رأينا المفترى :لو أقدم المؤمن من ابني آدم على قتل أخيه للحصول على حقه الشرعي، لكانت النتائج – في ظننا -على النحو التالي:

أولا، أن يبوء باثمين (اثمه واثم أخيه)

ثانيا :أن يظلم نفسه فيكسب ذنبا، يضطره إلى أن يلجأ إلى ربه ليغفره له، كما حصل مع موسى عندما قتل عدوه ليحصل على حقه في البقاء حيا .وهذا الأمر ينقلنا مباشرة إلى حالة موسى .فما الذي حصل في حالة موسى؟

رأينا المفترى :لمّا كان المتواجدون على الأرض في حالة موسى أناس كثيرون، كان لحادثة الاقتتال تلك تاثير ليس فقط على الشخصين المتصارعين (موسى وعدوه)، وإنما على الآخرين من حوله (وهم بنو إسرائيل المستعبدين في الأرض آنذاك) .فلو أن موسى آثر (نحن نرى) أن يكون مقتولا، لكان لذلك تبعات جمة (وخيمة) على قومه (بني إسرائيل)، ولربما أصبح (نحن نظن) من الاستحالة بمكان على بني إسرائيل أن

يخرجوا من الاستعباد من أرض مصر لو أن حادثة الاقتتال قد أسفرت عن قتل موسى شخصيا .لذا، نحن نظن بأن موسى قد اختار أن يكون قاتلا، فيظلم نفسه، لكنه لا يكون ظالما لبني إسرائيل الذين هم في أمس الحاجة إليه .فكانت تكلفة أن يكون موسى قاتلا أقل ضررا من أن يكون مقتولا .ولا ننسى (كما حاولنا تصوير ذلك سابقا) بأن قيادة بني إسرائيل كانت ستؤول (في غياب شخص موسى) إلى قارون الذي هو من قوم موسى، فبغى عليهم.

نتيجة مفتراة :لو أن موسى اختار أن يكون مقتولا، لظل بنو إسرائيل إلى الأبد تحت قيادة قارون وأمثاله من الذين سيكرسون استعباد بني إسرائيل في مصر .وسيطول بقاؤهم في أرض مصر تحت حكم فرعون وملئه.

لكن يجب جلب انتباه القارئ الكريم – إن أراد -إلى ملاحظة بسيطة تتمثل في أنه عندما اختار موسى أن يأخذ حقه بيده ويقتل عدوه، فقد كسب ظلما لنفسه، فخسر بذلك أن يكون الله في صفه حينها، لأن موسى اضطر أن يخرج من المدينة خائفا، ويمكث في مدين مدة عشرة حجج مستغفرا لذنبه، وما عاد الله في صف موسى إلا بعد أن غفر له ذلك الذنب بعد عملية الاستغفار التي كلفت موسى عشر حجج من الزمن .وكان ذلك في الواد المقدس في لقائه الله بربه، عندما ناداه الله، وجعله من الآمنين:

- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: 31]

السؤال :عندما تجد نفسك في حالة من الاضطرار لأن تأخذ حقك بالقوة الذاتية، فما الذي عليك أن تفعله؟

نتيجة مفتراة :عندما تكون صاحب حق، ويفرض عليك القتال، عليك أن توازن بين خياراتك، سائلا نفسك السؤال التالي :أيهما أكبر ضررا وأقل نفعا أن تكون قاتلا أو أن تكون مقتولا؟ فإن أنت وجدت أن كونك قاتلا أقل ضررا من أن تكون مقتولا)كما في حالة موسى(، فعليك أن تختار أن تكون قاتلا .لكن إن وجدت أن كونك مقتولا أقل ضررا وأكثر نفعا)كما في حالة ابن آدم(، فالأفضل أن تكون مقتولا، ناشدا حقك عند ربك الذي لن يبخسك ذلك الحق .وفي هذه الحالة الأخيرة ستكون ممن يقتلون في سبيل الله، فتكون النتيجة على نحو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: 169-171]

لذلك، نحن نظن أنه لمّا اختار الابن المؤمن من ابني آدم أن يكون مقتولا في سبيل الله، كانت نتيجة ذلك أن رفعه الله إليه مكانا عليا:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: 56-57]

للتفصيل في هذا الباب، انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان :لماذا قدم نبي الله لوط بناته بدلا من ضيوفه؟ حيث تجد النقاش المفصل حول فكرة أن المقتول من ابني آدم هو نبي الله إدريس الأخ الشقيق لإسرائيل الذي هو الأخ القاتل

السؤال :كيف لي أن أعرف توزين هذه الخيارات (أن أكون قاتلا أو أن أكون مقتولا)؟

رأينا المفترى :دعنا نبحث في ماهية الصراع الذي يمكن أن يكون فيه أحد طرفي النزاع ظالما أو أن يكون مظلوما .ولنبدأ بقوله تعالى:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9]

لعلنا لا نختلف كثيرا إن قلنا أن الخلاف عادة ما يقع بين طرفين)أو طائفتين .(وهناك سيناريوهين اثنين لهذا الخلاف، وهما:

⇐ أن تكون الطائفتان معا على غير حق
⇐ أن تكون أحدى الطائفتين على حق والأخرى على غير حق

ويستحيل (نحن نظن ونفتري) أن تكون الطائفتان معا على حق، وذلك لو أنهما كانتا معا على حق، لما وقع الاقتتال ابتداء .فالحق واحد لا يمكن أن يسبب خلافا بين طرفين كلاهما على حق.

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه عندما تكون الطائفتان على غير حق، فذلك صراع لا يتدخل الله فيه، وتحسمه القوة السياسية والعسكرية للطائفتان .ولكن عندما تكون احدى الطائفتين على حق، فهناك احتمال أن يكون الله في صف هذه الفئة .ليكون السؤال هو :متى يتدخل الله في ذلك الصراع لصالح الطائفة التي على حق؟

- ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٥﴾ [محمد: 35]

رأينا المفترى :علينا أن نتعرف ابتداء على تلك الطائفة التي تكون على حق حتى نستطيع أن نكون في صفها، ونؤمن كذلك أن الله يمكن أن يكون معهم في ذلك الصراع .وعلينا أن نتعرف كذلك على الطائفة الباغية حتى لا نكون في جانبها، ونؤمن أن الله لن يكون معهم في ذلك الصراع.

السؤال :كيف نعرف حقيقة كلتا الطائفتين؟

رأينا المفترى :نحن نظن أن استكشاف حقيقة كل طائفة في اي نزاع هي عملية غاية في السهولة، تتمثل بأن الطائفة التي على حق هي التي تقبل بمبدأ التحكيم بين الطرفين من قبل فئة محايدة .وبالمقابل فإن الفئة الباغية هي التي قد لا تقبل – ابتداء -بمبدأ التحكيم في فض الخلاف .لذا، عندما يكون هناك

خلاف بين طرفين يكون اللجو إلى التحكيم هو الخطوة الأولى لفض ذلك الخلاف بين المتخاصمين .فمبدأ التحكيم قائم بين الأفراد كالزوج والزوجة وبين الجماعات كطوائف متصارعة، قال تعالى:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: 35]
- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9]

ففكرة الصلح بين المتخاصمين (أفرادا أو جماعات) هي أساس العلاقة بين المؤمنين:

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: 10]

نتيجة مفتراة 1: نحن نستطيع أن نستطلع ابتداء حقيقة طرفي الخلاف عند فرض مبدأ الصلح على المتخاصمين .فالطرف الذي يرفض مبدأ الصلح ابتداء هو الطرف المعتدي مهما كانت مسوغاته وأسباب رفضه .والطرف الذي يقبل بمبدأ التحكيم في الخلاف هو طرف يسعى إلى حل الخلاف، وهو الطرف غير المعتدي مهما كانت حالة الخلاف التي وقع فيها.
نتيجة مفتراة 2: إذا حصل خصام بين طرفين، فالباغي هو الذي يرفض مبدأ التحكيم في الخلاف من قبل طرف ثالث محايد

السؤال :ماذا لو قبل الطرفان بميدأ التحكيم بين الطرفين؟

رأينا المفترى :في هذه الحالة، يبقى معرفة الطرف الباغي معلقة حتى ظهور نتيجة التحكيم بين الطرفين .فعندما يتمخض عن التحكيم قرار يحسم الخلاف لصالح أي طرف من الأطراف، يتحتم على المتخاصمين القبول به)مهما كانت صيغته .(ويكون الطرف الرافض لقرار التحكيم هو الطرف الباغي الذي يجب مقاتلته من قبل الجميع:

- ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: 9]

نتيجة مفتراة 3: إذا حصل خصام بين طرفين، فالباغي هو الذي يرفض نتيجة التحكيم بين الطرفين

ولو دققنا في قصة ابني آدم، سنجد بأن الأخوين قبلا -ابتداء- بمبدأ التحكيم لفض النزاع الناشب بينهما حينئذ، فكانت الطريقة المتفق عليها هي تقديم القربان:

- ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ... ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]

لكن كانت المفاجأة أن أحد الأخوين رفض نتيجة التحكيم، وأصر على سلب أخيه الآخر حقه، فكانت ردة فعله على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

فكان هو المعتدي، فكان من الخاسرين:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

2. التطبيق العملي :الخلاف بين طرفين

دعنا نتخيل وجود خلاف بين زوجين، عندها يصبح الموقف يحتاج إلى عملية تحكيم على النحو التالي:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ٣٥﴾ [النساء: 35]

وهنا نبدأ مع أول مراحل استكشاف حقيقة المتخاصمين)الزوج والزوجة(، فلو أن أحدهما رفض مبدأ الصلح بالتحكيم، فهو الذي يجب أن يتحمل كافة الخسائر التي يُمنى بها الطرف الآخر .فإذا كان الزوج هو الرافض لمبدأ الصلح، فعليه أن يدفع كافة حقوق الزوجة غير منقوصة .أما إذا كانت الزوجة هي التي ترفض مبدأ التحكيم، فعليها أن تدفع للزوج كل ما له من حقوق عليها.

أما إذا قبل الطرفان بمبدأ التحكيم، فقد انتقلنا إلى المرحلة الثانية من عملية الصلح، وهي أن يقبل الطرفان بقرار التحكيم بينهما .وإذا تبين أن أحد الطرفين يرفض قرار التحكيم، فهو الذي يكون من المعتدين، وعلى الجميع أن يكون في صف الطرف الآخر القابل بقرار التحكيم .ويصبح الطرف الرافض هو الطرف الذي نعته الله في كتابه بصفة الباغي .ويجب أن يطبق على الطرف الباغي مبدأ التعويض للطرف الآخر، وإلا فإن على الجميع أن يكونوا في صف الطرف الآخر (أي غير المعتدي) لمقاتلته (أي لمقاتلة الطرف الباغي)، وإرغامه على قبول النتيجة ولو بالقوة (أي الاقتتال)، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

ولهذا تصبح مقاتلة الطرف الباغي واجبة على الجميع حتى يفيء إلى أمر الله .فأمر الله مبني على مبدأ القبول بقرار التحكيم بين الطرفين المتقاتلين الذي يقوده فريق المصلحين بين المتخاصمين.

3. التطبيق العملي :الخلاف بين الجماعات (أو الدول)

لو طبقنا المنطق السابق)على ركاكته (على حالات الصراع بين الأطراف المتصارعة في أي قضية ناشبة، سنجد أن المبدأ ذاته ينطبق بخطوطه العريضة بشكل تام .فلو كان هناك صراع بين دولتين مثلا، فعلى كل واحدة منهما أن تقبل – ابتداء -بمبدأ التحكيم في الخصومة، وعلى كل طرف منهما أن يقبل بقرار المحكمين في النزاع.

ولا شك عندنا أن عملية التحكيم هي عملية غاية في الدقة من حيث المضمون والشكل والإجراءات .فعلى المحكّمين أن يطّلعوا على تفاصيل القضية، وعليهم أن يسمعوا للاطراف المتنازعة، وعليهم أن يأخذوا الوقت الكافي للاطلاع على حيثيات القضية، فيقدّم كل طرف حجته .وبناء على المعطيات والظروف، يستطيع المحكمون أن ينتهوا إلى قرار قطعي ليكون قرارا معلنا على رؤوس الأشهاد .وذلك لكي تتم عملية الوقوف في صف صاحب الحق، ومقاتلة الباغي من الطرفين.

السؤال :متى يحق لك أن تتصرف؟

رأينا المفترى :نحن نظن أنه لا حق لأحد اتخاذ قرار بالتصرف في حالة الخصام إلا بعد انتهاء عملية التحكيم وبيان رأي المحكمين في النزاع .فأنت لا تستطيع أن تعتبر نفسك مظلوما في أي خصام لمجرد أنك ترى ذلك بنفسك .فالنفس البشرية بمجملها جُبلت على أن تظن أن الحق معها في كل وقت وحين .فالزوج – في حالة الاختصام -يرى نفسه محقا ويرى الخلل في زوجته، والعكس صحيحا .والرجل يرى نفسه محقا، ويرى الخلل – عند نشوب المشكلة – في جاره أو في أخيه أو ابنه، والمدرس يرى الخلل عند طلابه، والوزير يرى المشكلة في الشعب الذي لم يرى الحكمة في قرارته، والشعب ما كفّ يوما أن يُلقي باللائمة على المسئول، وهكذا.

السؤال :ما الذي يجب أن تفعله إن رفضت الفئة الباغية قرار التحكيم وأصرت على ظلم الطرف الآخر الذي قبل بمبدأ التحكيم وبنتيجته؟

رأينا المفترى الخطير جدا :نحن نظن (ربما مخطئين) أن للطائفة التي تبين أن الحق إلى جانبها أن تقاتل الفئة الباغية تحت شرط واحد، ألا وهو وجود القائد الشرعي الذي يحق له اعلان القتال ضد الفئة الباغية.

الدليل

لو عدنا إلى قصة بني إسرائيل في صراعهم على الأرض، سنجد الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

ولو دققنا في هذه الآيات الكريمة من هذا المنظور، لربما حقّ لنا أن نطرح التساؤل المثير التالي، ألا وهو :لماذا طلب الملأ من بني إسرائيل من ذلك النبي أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله؟ ألم يكن بمقدورهم – نحن نسأل – أن يقاتلوا دون أن يبعث لهم ملكا؟

رأينا المفترى :نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو أقدم بنو إسرائيل على القتال دون ذلك الملك، لما تحقق لهم النصر، ولما استطاعت الفئة القليلة أن تهزم الفئة الكبيرة .والأهم من ذلك لما كانت غلبتهم بإذن الله .انتهى.

السؤال :لماذا؟

رأينا المفترى :نحن نظن أن القتال دون وجود الملك سيكون قتالا دون توافر الإذن الإلهي به .لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن الإذن الإلهي بالقتال يتطلب وجود الملك .انتهى.

السؤال :لماذا؟

رأينا المفترى :لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لربما تحصل لنا ما نبغي قوله في هذا الصدد .قال تعالى:

- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ [البقرة: 251]

فالمدقق في هذا السياق القرآني سيجد أن انتصار الفئة القليلة وأن هزيمة الفئة الباغية كانت قد حصلت بالإذن الإلهي.

السؤال :كيف نفهم أن هزيمة المعتدين على يد الفئة القليلة كانت بإذن الله (فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ)؟

رأينا المفترى :قبل محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل علينا أن نثبت الافتراءات التالية:

⇐ يمكن أن يحصل انتصار لفئة وغلبة لفئة أخرى دون الإذن الإلهي

⇐ يمكن أن يحصل انتصار لفئة وهزيمة لفئة أخرى بالإذن الإلهي (فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ)

فكم من المعارك حصلت على مر التاريخ، لكن هل نستطيع أن نقول بأن النصر فيها كلها كان بالإذن الإلهي؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا. فمعظم معارك الأمم عبر التاريخ كانت تحسمها قوة السلاح. لكن هناك معارك فاصلة قليلة كانت الغلبة فيها للفئة القليلة وكان ذلك بالإذن الإلهي كتلك التي حصلت بين طالوت (ومعه ثلة من المؤمنين) ضد جالوت (ومعه الجيش العرمرم).

السؤال: كيف تحصلت تلك الفئة القلية على الإذن الإلهي بالقتال وبالتالي تحققت لهم هزيمة الطرف الآخر بالإذن الإلهي؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك قد حصل بسبب وجود الملك (طالوت) الذي قاتل بنو إسرائيل تحت لوائه ضد الفئة الكبيرة بقيادة جالوت وجنوده.

السؤال: لماذا كان الإذن الإلهي حاضرا في هذا القتال؟

رأينا المفترى مكررا (لتثبيت الفكرة في الأذهان): نحن نظن أنه عندما تبغي طائفة على أخرى، يحق للطائفة غير الباغية القتال شريطة أن يكون هناك قائد شرعي هو من يطلق قرار الاقدام على القتال.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الملأ من بني إسرائيل كانوا يعلمون يقينا بأن قرار القتال يحتاج إلى وجود قائد شرعي يعلنه. فلا حق لأحد أو لمجموعة من الاشخاص (نحن نرى) اتخاذ قرار القتال إذا لم يكن هناك قائد له شرعية القيادة للطائفة المظلومة التي تريد استرداد حقها من الطرف الذي بغى عليهم. لهذا (نحن نظن) جاء طلب الملأ من بني إسرائيل من ذلك النبي أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله. فالقتال في سبيل الله ضد الطائفة الباغية يجب أن يكون تحت لواء الملك الذي تكون له شرعية اتخاذ القرار في القتال.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا ومهمة جدا: نحن نتجرأ على الظن (ربما مخطئين) بأنه في حالة القتال الذي لا يوجد فيه ملك شرعي، فإن الغلبة في الصراع تكون لقوة السلاح بين المتخاصمين، ونؤمن يقينا بأن الله لا يكون مع أي طرف منهما ضد الطرف الآخر.

السؤال: ما الحاجة إلى وجود الملك الشرعي صاحب الحق في اتخاذ قرار القتال؟ وبكلمات أخرى: ما فائدة وجود الملك الذي يقود القتال مادام أن تلك الفئة صاحبة حق شرعي لابد من استرداده؟ وهل يتوجب على الطائفة المظلومة (مسلوبة الحق) أن لا تبدأ القتال (لاسترداد حقها) إذا لم يكن لها ملك شرعي يقود ذلك القتال ويأمر به؟

رأينا المفترى: نعم، نحن نظن أنه على الفئة المظلومة أن لا تلجأ إلى خيار القتال مهما طال الزمن مادامت لا تجد القائد الشرعي لها. فوجود القائد الشرعي هو -برأينا- مقدمة الحصول على الإذن الإلهي لهم بالقتال. فلو دققنا في قصة بني إسرائيل في أرض مصر تحت الحكم الفرعوني، لوجدنا بأنهم لم يلجأوا إلى القتال ضد المعتدي فرعون وملئه بالرغم من طول الفترة الزمنية التي كانوا فيها معبدين في أرض

مصر وبالرغم من قساوة الاستعباد .ولكنهم صبروا منتظرين وصول قائدهم (موسى) ليتخذ هو بنفسه ذلك القرار، كما جاء على لسانهم ذات مرة، موجهين شكواهم موسى الذي طال انتظارهم له:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا :نحن نظن أنه على الرغم من طول الفترة الزمنية التي رضخ فيها بنو إسرائيل للاستعباد في أرض مصر، وعلى الرغم من قساوة الاستعباد، إلا أنهم لم يقدموا على اتخاذ قرار المواجهة في غياب موسى عنهم .انتهى.

السؤال مرة أخرى :ما فائدة وجود القائد الشرعي حتى يأذن الله بحصول القتال؟ وبكلمات أكثر دقة، لماذا لا يحصل الإذن الإلهي للطائفة المستضعفة بالقتال إلا بوجود الملك؟

رأينا المفترى :لا شك عندنا أن هناك موجبات كثيرة لهذا الأمر، لكننا سنركز على سبب واحد في هذا النقاش، ألا وهو عدم حصول الاقتتال الداخلي (الذي لا محالة حاصلا في حالة عدم وجود الملك الشرعي).

السؤال :كيف ذلك؟

رأينا المفترى :عندما يكون هناك قتال بين طائفتين، فعلى الطائفة صاحبة الحق أن لا تنقسم فيما بينها في حالة اتخاذ قرار قتال الطائفة الباغية الخارجية (أي العدو الخارجي) .ولا شك أن أول أسباب الانقسام الداخلي بين الناس في كل حالة (مهما بدت محقة) هو عدم وجود القائد الذي يتفق الجميع على شرعية قيادته للجميع .فلو دققنا في السياق القرآني الخاص بقصة طالوت، سنجد أنه على الرغم من عدم رضا جمع كبير من بني إسرائيل عن القتال، وبالرغم من احتجاجهم على أن يكون طالوت هو الملك عليهم، إلا أن أحدا منهم لم ينبري ليدعي شرعية القيادة بعد أن ثبتت شرعية قيادة طالوت بآية ملكه.

وبالتالي فقد تخلف كثير منهم عن القتال، وظهرت النوايا السيئة عند بعضهم إلا أنه لم يحصل انقسام في صف الطائفة المؤمنة .فلم يلجأ البعض منهم إلى شق الصف بادعاء القيادة على مجموعة من المخالفين .فقرار القيادة قد حسم لصالح طالوت، وما عاد أحد من المخالفين (حتى وإن كان طامعا) يستطيع أن يشق صف المجموعة المؤمنة .فأي شخص منهم يستطيع أن يتلكأ عن القتال، لكنه لا يستطيع أن يشق صف المؤمنين .ولو دققنا في السياق القرآني التالي الذي يصور لنا سيناريو قتال المؤمنين ضد عدوهم، لوجدنا الأمر الإلهي واضحا لا لبس فيه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46-45]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا :لا يجوز اتخاذ قرار القتال ضد طرف خارجي قبل أن تسوى شرعية القائد للفئة المؤمنة حتى لا يتنازع المؤمنون فيما بينهم وبالتالي يفشلوا وتذهب ريحهم .لذا، إذا حصل خلاف بين المؤمنين على قيادة الفئة المؤمنة، فالأولى حلّ هذا الخلاف بمبدأ التحكيم الداخلي فيما بينهم قبل اللجوء إلى اتخاذ قرار القتال ضد الطرف الخارجي.

السؤال :ما فائدة حل الخلاف الداخلي قبل المواجهة مع العدو الخارجي؟

رأينا المفترى :نحن نظن (ربما مخطئين) بأنه لو حصل أن اتخذ أحد (أو مجموعة من الأشخاص) قرار القتال قبل حسم شرعية الملك، فإن الله لن يكون في صفه، وأن الغلبة ستكون لقوة السلاح.

نتيجة مفتراة 1: لا قرار بالقتال قبل حسم قضية الملك
نتيجة مفتراة 2: الملك الشرعي هو الذي يتخذ قرار القتال
نتيجة مفتراة 3: يستطيع أي شخص)أو مجموعة(أن تختار أن لا تقاتل، لكنها لا تستطيع شق صف الطائفة المؤمنة التي اتخذ ملكها الشرعي قرار القتال.

السؤال :لماذا؟ لماذا نطلب وجود الملك (كما فعل الملأ من بني إسرائيل) قبل الاقدام على قتال الفئة الباغية الخارجية؟

رأينا المفترى :نحن نرى أن هناك على الأقل سببين حقيقيين لضرورة حسم الخلاف على الملك قبل الشروع بقتال العدو الخارجي .أولهما عدم المنازعة على السلطة بين أفراد الطائفة المؤمنة .فلا شك -عندنا- أن الطامعين في القيادة سيكونون متواجدين في كل زمن ومكان .لذا، عندما يصار إلى حسم قرار شرعية الملك، لن يستطيع أحد المنازعة على السلطة، بادعائه الأحقية في ذلك، وبالتالي جر مجموعة من الناس من خلفه، لقسمة المجموعة الواحدة إلى فرق وأحزاب متفرقة متشتتة، وبالتالي تكون النتيجة الفشل بذهاب ريح الطائفة المؤمنة بأكملها .وثانيهما كشف المنافقين والكاذبين من بين افراد الطائفة المؤمنة كلها، وتصفية الفئة المؤمنة حقا التي سيكون الله في صفهم لحظة حصول القتال .فهذه العملية لن تبقى في صف الفئة المؤمنة إلا المؤمنين الصادقين حقا، الذين يستطيعون تحقيق النصر لأن الله سيكون حينها معهم .فالله (نحن نتجرأ على افتراء الظن من عند أنفسنا) لا يكون مع أي فئة مادام فيها ولو شخصا واحدا من المنافقين أو الكاذبين الذين علم الله ما في قلوبهم من رجس ونفاق.

نتيجة مفتراة مهمة جدا :نحن نظن أن عملية اختيار الملك الشرعي ستظهر الفاسقين عن الأمر الإلهي .فمن لا ينصاع للأمر الإلهي، أو لصاحب الشرعية في الحكم، فهو إذا من الفاسقين، الذي لا يستحق النصر وإنما يستحق العقاب .فهاهم بنو إسرائيل يفسقون، فيحرم عليهم دخول الأرض المقدسة أربعين سنة يقضونها تائهين:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 25-26]

وذلك لأن الشرعية عهد بين المومنين، ومن ينقض ذلك العهد فهو من الفاسقين:

- ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾ [الأعراف: 102]

ولا شك أن سنة الله قد قضت بأن لا يهدي القوم الفاسقين:

- ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصف: 5]
- ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة: 80]

وهم الذين استحقوا دارا في الآخرة محلها الجحيم:

- ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

ولا شك أن موقف القتال هو الموقف الذين ستبين فيه النوايا الحقيقة للفاسقين مهما حاولوا اخفاءها والتستر عليها بالحلف الكاذب:

- ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٥ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ [التوبة: 95-96]

وهؤلاء هم المستكبرون في الأرض بغير الحق، وذلك لأن غايتهم متاع الحياة الدنيا فقط:

- ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ٢٠﴾ [الأحقاف: 20]

وبالتالي فإن قضية حسم شرعية الملك، وظهور صاحب الشرعية في القيادة كفيلة بأن تخرج الفئة المؤمنة حقا من بين الجمع كله، وهذه الطائفة المؤمنة هي التي سيلهج لسان حالها بما في قلوبهم من صدق، قائلين:

- ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250]

وتلك هي الفئة التي سيكون دعاؤهم مستجابا، فيكون الله معهم، ماداموا أنهم سيكون من المؤمنين حقا:

- ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩﴾ [الأنفال: 19]

وسيكونوا من الصابرين:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]
- ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: 249]
- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]
- ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 66]

وسيكونوا من المتقين ومن المحسنين:

- ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [البقرة: 194]

- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 128]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة: 123]

وستكون النتيجة النهائية على النحو التالي:

- ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٥﴾ [محمد: 35]

نتيجة مفتراة 1: عندما يحصل الاقتتال، فإن الله سيكون في صف الفئة المؤمنة الصابرة المتقية الذين هم محسنون.
نتيجة مفتراة 2: لن يكون الله في صف أي طائفة فيها منافقين وكافرين.

السؤال :لماذا؟

رأينا المفترى :عندما يكتب على طائفة من المؤمنين القتال، فلابد أن يتم تصفية تلك الطائفة من الشوائب العالقة بها من المنافقين والكاذبين، لأنه في حالة أن يكتب القتال على طائفة تحت قيادة ملك شرعي سيتولى -لا محالة -الذين في قلوبهم مرض:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦﴾ [البقرة: 246]

وذلك لأن ديدين هؤلاء الحقيقي هو ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧﴾ [النساء: 77]

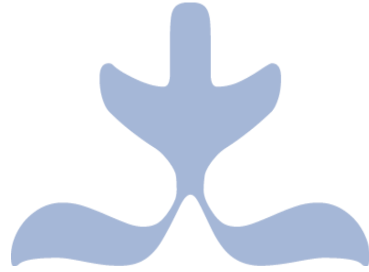
فهؤلاء المتقاعصون عن القتال المكتوب عليهم هم الذين يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وهؤلاء هم الذي يريدون متاع الحياة الدنيا .ولو دققنا في أوصافهم كما جاء في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا بأن وجودهم في صف المقاتلين المؤمنين سيكون عبئا ثقيلا، لأنهم لن يزيدوا المؤمنين إلا خبالا:

- ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: 41-47]

فالدقق في هذه الآيات الكريمة سيجد الأمور التالية:

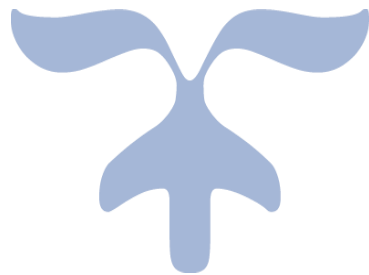
⇐ أن هؤلاء يبغون عرضا قريبا وسفرا قاصدا
⇐ أنهم يحلفون وهم كاذبون
⇐ أنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر
⇐ أنهم ممن ارتابت قلوبهم
⇐ أنهم لا يعدون للخروج عدة
⇐ أنهم ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم
⇐ أنهم لن يزيدوا المؤمنين إلا خبالا
⇐ أنهم سيكونون سببا في أن يوضعوا خلال المؤمنين
⇐ أنهم الذين سيكون لهم تأثير على بعض المؤمنين خاصة من كانوا سماعين لهم
⇐ أنهم الذين علم الله أنهم ظالمون
⇐ الخ

السؤال الأخير في هذا الجزء من المقالة هو :لماذا كان داوود خليفة في الأرض؟



قصة داوود

الجزء الثالث والعشرون



قصة نبي الله داوود - الجزء الثالث والعشرون

افترينا القول في معرض حديثنا الجاري عن الفرق بين الفعل والعمل بأن الفعل يحدث تحت ظرف الاضطرار (أو لنقل تحت تأثير الأمر الخارجي)، فما يأمر الله به هو فعل (وليس عمل)، كما حصل – مثلا- في قصة الخلق الأولى عندما صدر الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: 12-11]

فكان على الملائكة أن تأتمر بالأمر الإلهي، فتسجد لآدم. وعلى الرغم من الخصومة التي حدثت في الملأ الأعلى حول الامتثال للأمر الإلهي بالسجود لآدم:

- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص: 69-75]

إلا أن الملائكة انصاعوا للأمر الإلهي بعد أن عقدوا اجتماعًا تشاوريا (انظر مقالاتنا السابقة)، كانت نتيجته إجماعا فيما بينهم بالنزول عند الأمر الإلهي بالسجود لآدم، وما خرج عن ذلك الإجماع إلا إبليس:

- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: 30-31]
- ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 73-74]

وهذا يعني أن الأمر الإلهي ليس مبني على الإلزام، ولكنه مبني على التخيير، فيستطيع المأمور أن ينفذ الأمر الإلهي كما فعلت الملائكة، ويستطيع أن لا ينفذ الأمر الإلهي كما فعل إبليس (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان التخيير والتسيير). وهنا كانت المفارقة التي نودّ أن نجلب الانتباه لها، ألا وهي أن انصياع الملائكة للأمر الإلهي لم يترتب عليه مكافأة مباشرة لمن سجد، ولكن ترتب عليه عقاب لمن تخلّف، ألا هو إبليس الذي أبى واستكبر:

- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: 34-35]
- ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: 77-78]

نتيجة مفتراة: إن الانصياع للأمر الإلهي يترتب عليه تجنب العقاب الإلهي على من يمتثل له. فمن نفذ الأمر الإلهي أمن عواقب كادت أن تصيبه.





لذا، عندما يأمرنا الله – مثلا- بأداء الأمانات إلى أهلها، فإن الذي يؤدي الأمانات إلى أهلها فهو يقوم بفعل هو ملزم القيام به، لأن ذلك أمر من الله، وقد لا يترتب على ذلك مكافأة مباشرة مادام أنه يقع في باب ما يجب فعله:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾ [النساء: 58]

لكن – بالمقابل- فإن الذي يخالف عن أمر الله كالذي لا يؤدي الأمانات إلى أهلها، فإن عقوبته ستكون حاضره:

- ﴿... فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ [النور: 63]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: تتمثل عقوبة مخالفة الأمر الإلهي باصابتهم فتنة أو عذاب أليم.

لكن علينا أن نتذكر أن الأمر الإلهي يأتي كفعل مادام أنه مبرر، أي يكون له سبب حقيقي أدى إلى صدور الأمر الإلهي به. ولعلي لا أتردد أن افتري الظن من عند نفسي (ربما مخطئا) بأن "معرفة" الأمر الإلهي يترتب عليه الحصول على علم عظيم، يخسره من لا يمتثل له. فلا يمتثل للأمر الإلهي – نحن نظن- إلا من يريد الخروج من الظلمات إلى النور. وبالمقابل فإن الذي لا يمثل لأمر الله هو من يختار أن يبقى في الظلمات لا يخرج منها:

- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام: 122]

فعندما أمر الله بني إسرائيل – مثلا- أن يذبحوا بقرة، كان عليهم الانصياع للأمر الإلهي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]

فلو دققنا في مفردات الآية الكريمة، لوجدنا بأن ذلك كان أمرا إلهيا (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ)، ولو دققنا في السياق الأوسع لهذه الآية الكريمة، لوجدنا أن القوم مطالبون أن يقوموا بذلك كفعل، كما جاء على لسان موسى:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة: 68]

نتيجة مفتراة: مادام أن "ذبح البقرة" كان أمرًا إلهيا، فهو إذًا فعل يستوجب الانصياع له. وبالتالي فهو فعل مبرر حدوثه.

السؤال: ما هو السبب الذي أدى إلى صدور الأمر الإلهي لبني إسرائيل بذبح البقرة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن محاولة الإجابة على هذا التساؤل تتطلب طرح السؤال المعاكس، ألا وهو: ما الذي كان يمكن أن يحدث لو أن بني إسرائيل لم ينصاعوا للأمر الإلهي بذبح البقرة؟

رأينا المفترى: إنها الفتنة:

- ﴿... فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63]

السؤال: ما هي الفتنة التي كادت أن تقع ببني إسرائيل لو أنهم لم ينصاعوا للأمر الإلهي بذبح البقرة؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه لو لم ينصاع بنو إسرائيل للأمر الإلهي بذبح البقرة، لكانت العاقبة مضاعفة على نحو أن تحصل الفتنة فيهم أولا، ولخسر بنو إسرائيل علمًا عظيما، يتمثل – برأينا- بخسارتهم علم إحياء الموتى، ورؤية آيات الله بأم أعينهم ثانيا:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]

السؤال: كيف ذلك؟ أي كيف كان فعل ذبح البقرة الذي جاء بني إسرائيل على لسان موسى سببًا في وأد فتنة كادت أن تطيح بهم، وتجنب خسارة بني إسرائيل علم إحياء الموتى ورؤية آيات الله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا ندقق في القصة من أولها لإثبات أمرين اثنين:

⇐ أن ذبح البقرة كف عن بني إسرائيل فتنة كادت لا تصيبن الذين ظلموا منهم خاصة
⇐ أن ذبح البقرة جنّب بني إسرائيل خسارة علم إحياء الموتى ورؤية آيات الله

الدليل

هذا موسى يأتي قومه في مرحلة من رحلته معهم إلى الأرض المقدسة (وهم خارجين من أرض مصر) بخبر مفاجئ (بدليل وجود مفردة وَإِذْ – انظر مقالاتنا السابقة حول هذه الجزئية)، ألا وهو الأمر الإلهي لهم بذبح بقرة.

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ...﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

فما يكون رد القوم على طلب موسى هذا إلا على النحو التالي:

- ﴿... قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ...﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

وما يكون من موسى حينئذ إلا أن يدافع عن مطالبته إياهم بذبح البقرة على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: 67]

لمّا علم بنو إسرائيل بأن موسى لا يتخذهم هزوا، وأن ما يطلبه منهم هو فعل بأمر إلهي، يتوجب عليهم الانصياع له، بدأت محاولاتهم بعدئذ بطرح التساؤلات حول تلك البقرة المطلوب منهم أن يذبحوها. ليكون السؤال الأول الأن هو: لماذا لم ينصاع بنو إسرائيل للأمر مباشرة دون مناقشة (دون طرح الاسئلة حول ماهية البقرة)؟ فهل لو أقدم القوم - نحن نسأل - على ذبح أي بقرة لكفتهم؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، فنحن نظن أن ذبح أي بقرة لا يفي بالغرض؟

السؤال: لماذا؟ ما الذي كان يمكن أن يحصل لو أنهم أقدموا مباشرة على ذبح أي بقرة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو أقدم القوم على ذبح أي بقرة دون طرح التساؤلات حول ماهيتها لما تحصل لهم العلم الذي ينشدون.

الدليل

نحن نفتري الظن بأنه عندما يأتي الأمر الإلهي، فإن ذلك يصبح فعلا (وليس عملا). لذا، لابد أنه يخضع (نحن نرى ربما مخطئين) لقانون السبب والمسبب. فالفعل - كما ذكرنا أكثر من مرة - له سبب أدى إلى حدوثه. فمن يفعل شيئا، فهو يقوم بذلك نتيجة لسبب ما. لذا، كان بنو إسرائيل (نحن نرى) يريدون الوقوف على سبب مجيئ الأمر الإلهي لهم بذبح البقرة، وكذلك الحكمة المترتبة على ذبح تلك البقرة. وهذا يقودنا إلى افتراء الظن من عند أنفسنا – ربما على عكس ما ذهب إليه معظم أهل العلم السابقين- بأن بني إسرائيل لم يكونوا مجادلين – كما قد يبدو للوهلة الأولى - من جراء طرحهم الكثير من التساؤلات حول تلك البقرة، ولكنهم كانوا (نحن نرى) باحثين عن السبب الحقيقي للأمر الإلهي لهم بذبح البقرة، والأهم من ذلك هو معرفتهم بحيثيات الفعل حتى ينفذوه على أكمل وجه، وبالتالي الاستفادة من التجربة بالحصول على العلم المكتنز في ذلك الفعل إن هم نفذوه كما يجب. فالقوم إذًا يسألون - نحن نرى- لينفذوا الفعل على أكمل وجه، فلا يقعون في خطأ عند تنفيذ الفعل على أرض الواقع، فتضيع عليهم فرصة اكتساب علم عظيم. ونحن نفتري مثل هذا الظن ليقيننا بأن السائلين من بني إسرائيل هم قوم يتصفون بالعلم مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٩٧﴾ [الشعراء: 197]

ولعلمنا أيضا بجدية موسى، فلو كان القوم مجادلين لا ينشدون علمًا عظيما (كما قد يظن البعض ويرى)، لما جاراهم موسى في أسئلتهم تلك، أي لما كان موسى مضطرًا أن يجيب على كل سؤال يأتيه منهم. فاستجابة موسى لأسئلتهم دليل كاف على أن اسئلتهم قد حُملت على محمل الجدّ من قبل موسى، فما تردد أن يجيب على تلك الأسئلة في الحال. إن هذا الطرح الذي قد يبدو للوهلة الأولى غريبًا على آذان كثير من المستمعين يقودنا مباشرة إلى البحث في ماهية الأسئلة التي طرحها القوم حتى نتعرف على كيفية

تنفيذهم للأمر بالطريقة الصحيحة، وبالتالي الحصول على العلم الذي يكتنف الأمر الإلهي بذبح تلك البقرة كفعل (وليس كعمل).

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما طلب موسى من قومه تنفيذ الأمر الإلهي بذبح بقرة، كان ذلك الأمر (نحن نظن) مستغربا عند القوم لسببين اثنين على الأقل، أولهما أن الأمر كان مفاجئا لهم بدليل وجود مفردة (وَإِذْ قَالَ). وثانيهما لغرابة الفعل ذاته، إلا وهو ذبح بقرة. فكان أول ما قالوه لموسى، جراء طلبه منهم ذبح بقرة، هو على النحو التالي:

- ﴿... قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ ...﴾ [البقرة: 67]

فالقوم يستغربون طلب موسى لدرجة أنهم ظنوا أن موسى يتخذهم هزوا. وكأني أرى الاستغراب والوجوم على أوجه الحاضرين باديا لحظة أن طلب منهم موسى ذلك. ولو لم يكن الأمر مستغربا عندهم لما كان ردهم الأول على طلب موسى بهذا الشكل. ولكن عندما بيّن لهم موسى بأنه لا يمكن أن يكون مستهزءا، وإلا سيكون حينئذ من الجاهلين:

- ﴿... قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٦٧﴾ [البقرة: 67]

بدأ القوم يحملون الأمر الإلهي الذي جاءهم على لسان نبيهم موسى على محمل الجد، وبدأت جولات الاستفسار حول ماهية تلك البقرة مادام أن موسى قد طلب منهم أن يذبحو بقرة (بصيغة التنكير). فموسى لم يقل لهم – مثلا – اذبحوا البقرة. ولو جاء النص على تلك الشاكلة، لكانت تلك بقرة معروفة عند القوم، ولربما عمدوا إلى احضار تلك البقرة وذبحها مباشرة. لكن لمّا كانت الصيغة على نحو "بقرة" (نكرة)، لم يكن القوم يعرفون ما هي تلك البقرة المنشودة، فكان أول ما اختلف فيه القوم (نحن نتخيل) هو النقاش التالي: هل يمكن أن يصار إلى ذبح أي بقرة (ربما كان رأي بعضهم) أم هل هي بقرة محددة بعينها (ربما رأي بعضهم الآخر)؟ ولعلي لا أتردد أن أظن بأن القوم قد تجادلوا في تلك الجزئية بعضا من الوقت. لكن لمّا كان في بني إسرائيل علماء، كانت الغلبة لهؤلاء الذين يبحثون عن التفاصيل، وينشدون الدقة في الفعل، وبالتالي فهم العلة في ذلك. فربما يعلم الجميع بأن من مواصفات من كان عالمًا أن لا يتسرع في اتخاذ قرار قبل دراسة حيثياته دراسة متأنية ودقيقة. فقد انبرى من بين القوم (نحن مازلنا نتخيل) من يعلم يقينًا بأن موسى لا يمكن أن يستهزء بهم لأن ذلك يجعله في زمرة الجاهلين، الذين يسألون عن شيء ليس لهم به علم كما تبين ذلك – مثلا- محاورة نوح ربه. فالله نفسه هو من حذّر نوح أن يكون من الجاهلين مادام أنه قد سأل ما ليس له به علم:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

لذا، نحن نفتري القول بأن موسى قد نفى عن نفسه أن يكون من الجاهلين (الذين يسألون ما ليس لهم به علم). ويكأنه (نحن نتخيل) يقول لقومه إن عندي علم ما أسألكم (...أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ). لذا، فأن ما آمركم به هو علم (عندي) لأنه أمر من الله.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: عندما بيّن موسى لقومه أنه لا يتخذهم هزوءا، وأنه ليس من الجاهلين، تيقنوا بأن موسى يسألهم عن شيء عنده علم فيه. لذا، عمد القوم (خاصة أهل العلم منهم) محاولات استقصاء ذلك العلم الذي عند موسى عن تلك البقرة؛ ويكأن لسان حالهم حينها (نحن نتخيل) هو على النحو التالي: مادام أنك (يا موسى) لست من الجاهلين، فعندك إذًا علم ما تسأل، فهاته لنا. فكان سؤالهم الأول على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ ...﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: 68]

فما تلكأ موسى عن إجابة سؤالهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: 68]

السؤال: ما الذي فهمه القوم من رد موسى هذا؟ أو كيف فهم القوم هذه المفردات التي استخدمها موسى ليصف لهم تلك البقرة المنشودة؟

رأينا المفترى: لو دققنا في هذا السياق القرآني، لوجدنا أن موسى يكرر لهم بأن هذا أمر إلهي وأنه فعل (فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ). وذلك لأن الأمر الإلهي - كما ذكرنا أكثر من مرة - مبني على الإلزام (وليس على الاختيار)، لأن من لا يمتثل للأمر الإلهي سيكون من الخاسرين. فعندما يقضي الله أمرا، لا يعد للمؤمنين من عباده الخيرة من أمرهم:

- ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: 36]

فالخيرة من الأمر الإلهي ليست خيارا للمؤمن أو للمؤمنة بعد أن يقضي الله ذلك الأمر. فمن ينصاع للأمر الإلهي (طواعية أو كرها)، فهو من المؤمنين، ومن يفسق عن (أي لا ينصاع لـ) الأمر الإلهي فهو من الكافرين، كما كان إبليس:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

نتيجة مفتراة 1: من ينصاع للأمر الإلهي، فهو مؤمن
نتيجة مفتراة 2: من يفسق عن الأمر الإلهي، فهو من الكافرين

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأنه لمّا لم يكن بنو إسرائيل حينئذ من الكافرين، ولمّا كانوا فعلا مؤمنين، ما عاد لهم الخيرة من أمرهم، وأصبحوا ملزمين أن ينفذوا الأمر الإلهي، لكن بعد أن يتعرفوا – كعلماء من بينهم - على حيثيات الأمر حتى ينفذوه كما يجب. فجواب موسى على سؤالهم الأول قدم لهم معلومات غاية في الأهمية حول تلك البقرة، فتحصل لهم العلم بأن من مواصفات البقرة أن تكون:

⇐ لا فارض
⇐ لا بكر
⇐ عوان بين ذلك

فالقوم يعلمون (نحن نفتري القول من عندنا) أن الفارض من البقر هي التي قد انجبت من ذي قبل، وأن البكر من البقر هي التي لم تنجب بعد. وأن العوان بين ذلك (أي بين الفارض والبكر) هي البقرة التي تحمل في بطنها جنينا للمرة الأولى.

نتيجة مفتراة: كان على بني إسرائيل أن يبحثوا عن تلك البقرة التي لم تلد من ذي قبل، وليست بكرا في ذات الوقت، ولكنها تحمل في بطنها جنينا لأول مرة.

تخيّلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على الظن بأن بني إسرائيل قد بحثوا (في ذاكرتهم وعلى أرض الواقع) عن بقرة بهذه المواصفات، فوجدوا (نحن نتخيل) أكثر من بقرة واحدة من حولهم ينطبق عليها هذا الوصف. لذا، ما كان منهم (نحن نتخيل) إلا أن يتجادلوا فيما بينهم حول البقر التي كانت حولهم وتحمل المواصفات السابقة، ولكن عندما لم يتوصلوا إلى اتفاق بينهم، رجع القوم إلى رسولهم (موسى) طالبين تفصيلًا أكثر عن تلك البقرة حتى يستطيعوا أن يحددوا بقرة واحدة بعينها، فكان سؤالهم الثاني عن لون تلك البقرة:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ ....﴾ [البقرة: 69]

فجاء جواب موسى لهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾ [البقرة: 69]

فانطلق القوم (نحن ما زلنا نتخيل) يبحثون ويتجادلون (في ذاكرتهم وعلى أرض الواقع) عن بقرة لم تلد من ذي قبل، وليست بكرا في ذات الوقت، وتحمل في بطنها جنينا لأول مرة، وصفراء فاقع لونها تسر الناظرين. لكنهم وجدوا أنه ما يزال هناك من حولهم أكثر من بقرة ينطبق عليها هذا الوصف.

نتيجة مفتراة: وجد القوم الآن أكثر من بقرة، لا فارض، ولا بكر (عوان بين ذات)، ذات لون أصفر فاقع (الذي هو لون الذهب الذي - لا شك - يسر الناظرين) . فكان البقر المتواجد عندهم ما يزال يتشابه عليهم. لذا، جاء سؤالهم الأخير على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝٧٠﴾ [البقرة: 70]

وهنا جاء جواب موسى ليحدد لهم بقية المواصفات للبقرة المنشودة، قائلا:

- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة: 71]

لذا، علم القوم (خاصة أهل العلم من بينهم) من جواب موسى بأن تلك البقرة هي أيضًا:

⇐ لا ذلول تثير الأرض (فهي ليست مذللة للحراثة)
⇐ لا تسقي الحرث (فهي ليست مذللة للسقاية)
⇐ مسلمة (مأخوذة كدّية)
⇐ لا شية فيها (غير منقّطة – لا يوجد عليها بقع أو دوائر)

وهنا انتهى القوم من طرح تساؤلات أخرى لأنهم تعرفوا على البقرة المنشودة. فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿... قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ۝٧١﴾ [البقرة: 71]

لاحظ عزيزي القارئ الكريم - إن شئت - كيف أن القوم أقرّوا بلسانهم الآن بأن طلب موسى كان حقا (قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ)، بعد أن كانوا قد ظنوا في بداية طلبه منهم ذبح البقرة أنه ربما كان يتخذهم هزوا (قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ). فقد علم القوم الآن أنّ ما طلبه موسى منهم هو حق يجب تنفيذه، وبالتالي نفذوا الأمر (فَذَبَحُوهَا) على الرغم أنهم ما كادوا يفعلون. (وسنتعرف لاحقا بإذن الله عن سبب أن القوم ما كادوا يفعلون عندما نتحدث بتفصيل أكثر عن تلك القصة العظيمة في كتاب الله. فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لا ينبغي لأحد غيري، وأن يأذن لي بعلم من لدنه لا يكون لأحد غيري إنه هو السميع البصير).

إن ما يهمنا طرحه من تقديم مثال فعل ذبح البقرة – على عجل هنا - هو محاولتنا اثبات الافتراءات التالية:

⇐ أن الفعل يكون صادر عن أمر مسبق (فذبح البقرة كان فعلا جاء كأمر إلهي)،
⇐ أن الذي ينفذ الأمر الإلهي هو من المؤمنين،
⇐ أنه لا خيار للمؤمن عند وجود أمر إلهي؛ فتنفيذ الأمر الإلهي إلزامي على المؤمن،
⇐ أن الذي لا ينفذ الأمر الإلهي، هو من يفسق عن الأمر الإلهي، فيكون من الكافرين،
⇐ أن تنفيذ الأمر الإلهي يتطلب معرفة ألية تنفيذه بالطريقة التي أمر الله بها،
⇐ أن تنفيذ الأمر الإلهي مبني على علم عظيم، يحل مشكلة عالقة لا يمكن الوصول إليه إلا بالامتثال الحرفي للأمر الإلهي،

⇐ إن تنفيذ الأمر الإلهي دون معرفة تامة بتفاصيل الأمر، ربما يخفق في تنفيذ الأمر الإلهي كما يجب،
⇐ أن عدم تنفيذ الأمر الإلهي (أو تنفيذه دون علم مكتمل به) ينبني عليه خسارة علم عظيم، لا بل الوقوع في الضلال المبين،
⇐ أن عدم تنفيذ الأمر بعد العلم أنه حق، وبالتالي الاستهزاء به، يكون سببا في إيقاع العذاب الإلهي على من يفسق عنه:

- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأنعام: 5-6]

⇐ الخ

السؤال المحير: لماذا لم يقدّم لهم موسى مواصفات تلك البقرة المنشودة جملة واحدة؟ ولماذا قدّم لهم المعلومات الواحدة تلو الأخرى؟

رأينا المفترى: إن هذا الطرح يقودنا إلى افتراء الظن من عند أنفسنا بأن الله يأمر ليعلم (ليمحص، ليفتن، الخ). فالامتثال للأمر الإلهي (مهما كان مستغربا) كفيل بأن يظهر من بين الجمع كله الفئة المؤمنة القليلة مقابل الفئة الفاسقة الكثيرة التي أضلها الله ضلالًا بعيدا. لذا، كان موسى (نحن نتخيل) يرقب عن كثب ردة الفعل من كل بني إسرائيل شيئا فشيئا، ويرقب كيف أن تصفية الخبيث من الطيب تتم شيئا فشيئا بعد تقديم كل معلومة عن تلك البقرة، فيتبين له الذين صدقوا ويعلم الكاذبين كما هي الحال في كل وقت وحين:

- ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: 43]

إن مراد القول هنا أن تجزئة المعلومة من قبل موسى لقومه حول ذبح تلك البقرة كان جزءا من الأمر إلهي. لذا، كان كفيلا بأن يُظهر الصادقين الذين يريدون فعلًا الامتثال للأمر الإلهي وبالتالي معرفة الحقيقة والحصول على العلم المنشود، مقابل فئة الكاذبين الذين كانوا يراوغون لتغطية نواياهم السيئة التي يردون كسب المنافع الدنيوية فقط. فلا شك عندنا أنه كان في تلك اللحظة بين الجمع في بني إسرائيل من يريد كشف الحقيقة والامتثال للأمر الإلهي مقابل من كان يريد عرض الحياة الدنيا بالتستر على الحقيقة واتباع خطة الشيطان. لذا، علينا أن نحاول تصور الموقف كما حصل على أرض الواقع. فيكون السؤال الأول هو: لماذا جاء أصلا الأمر الإلهي لبني إسرائيل على لسان موسى بذبح البقرة بشكل فجائي؟ ما الذي استدعى مجيئ الأمر الإلهي للقوم بذبح البقرة؟

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً...﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

رأينا المفترى: لمّا كان ذبح البقرة أمرًا إلهيا، كان فعلا (وليس عملا). لذا، كان له سبب أدى إلى حصوله. فما هو سبب مجيئ الأمر الإلهي لبني إسرائيل بذبح البقرة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل أنه في خلال مسيرة موسى مع بني إسرائيل بعد خروجهم من الاستعباد في أرض مصر، حصلت جريمة قتل أسفرت عن مقتل رجل منهم على يد بعض منهم، حاولوا التكتم عليها:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: 72]

وكان لتلك الحادثة تأثير كبير على رحلة بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة، كادت أن تؤدي إلى انشقاق الصف، و حصول الاقتتال الداخلي بينهم، أي الفتنة.

- ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: 63]

لو دققنا في هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الفتنة تقع بسبب من يتسللون لواذا.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان هناك في جمع بني إسرائيل حينئذ من يتسللون لواذا، وهدفهم هو إحداث الفتنة، وربما وقوع العذاب الأليم على بني إسرائيل.

الدليل

نحن نعلم أن بني إسرائيل مع موسى كانوا مقطّعين اثنا عشرا سبطا أمما:

- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]

ولا شك عندنا أن هذا التقطيع كان يضّم الصالحين منهم والذين هم أدنى من ذلك:

- ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: 168]

وفي اللحظة التي وقعت فيه حادثة القتل تلك، كان على موسى أن يتدخل حتى لا تتفاقم المعضلة، فكان لابد من حسم الجدال الذي بدأ يتفاقم بين القوم بمعرفة القاتل لهذه النفس من بني إسرائيل. لذا، انقسم الناس - كالعادة - من حوله إلى فئتين، فئة تريد معرفة الحقيقة وانهاء الخلاف، وأخرى تحاول التستر على المشكلة، وتغطية الحقيقة لمصالح شخصية، أهمها (نحن نظن) إحداث الفرقة في بني إسرائيل من قبل من يتسللون لواذا. لكن لمّا كان موسى ما يزال متواجدا بينهم، كان لديه ما يمكنّه من تجلية الحقيقة،

وبالتالي انهاء المشكلة بمعرفة القاتل، لا بل وسبب قتلهم لتلك النفس، وبالتالي اخماد الفتنة التي كان يحاول البعض اشعالها، وذلك لأن الفتنة أكبر (وأشد) من القتل:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: 217]
- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة: 191]

السؤال: ما الذي كان عند موسى حتى يستطيع معرفة القاتل لتلك النفس، وبالتالي اخماد الفتنة التي كان من الممكن أن تنشب؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أنه ما كان من موسى إلا أن ينظر في الألواح التي بين يديه. فقد كانت مشيئة الله قد قضت من قبل أن يكتب لموسى في تلك الألواح موعظة وتفصيلا لكل شيء. فما كان موسى إذًا يحتاج (نحن نرى) إلى أكثر من أن ينظر في الألواح ليجد فيها الآلية الحقيقية لإحياء الموتى. فوجد أن ذلك (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) موجود في الألواح تحت باب (أو لنقل سفر) البقرة. فوجد موسى بأن ذبح بقرة بعينها، وضرب الميت ببعضها كفيل بأن يحيي الله بها الميت:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]

فما كان من موسى إلا أن يطلب من القوم ذبح تلك البقرة:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ ... ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

وفي هذه اللحظة لاح (نحن نتخيل) الوجوم (والاستغراب) على وجوه القوم، فما كان ردهم أكثر من أن يقولوا لموسى:

- ﴿... قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ ... ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

لكن لما كان موسى يعلم ما يقول، أصبح من الاستحالة بمكان أن يكون موسى ممن يسأل ما ليس له به علم، فجاء رده على استغرابهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

ولمّا بان للقوم يقينا بأن موسى يسألهم ما له به علم، وأن ذلك أمر إلهي، حصل الخلاف الأول بينهم بخصوص تلك البقرة، إن كانت بقرة خاصة (أي بقرة بعينها) أو بقرة عامة (أي أي بقرة يمكن أن تفي بالغرض)، فجاء طلبهم الأول من موسى على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ ... ٦٨﴾ [البقرة: 68]

وهنا لا يتردد موسى أن يقدم لهم إجابة على سؤالهم ذاك على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ [البقرة: 68]

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال محيّر لابد من الإجابة عليه قبل المضي قدما في هذا النقاش، ألا وهو: كيف دعا موسى ربه حتى كان يأتيهم بالاجابة في الحال؟ فهل كان موسى يذهب للقاء ربه ليدعوه بعد كل سؤال يأتيه من القوم؟

رأينا المفترى: قد يتخيل القارئ للنص القرآني بأن موسى قد ذهب ليدعو ربه في كل مرة يسأله قومه سؤالا جديدا عن ماهية تلك البقرة؛ ويكأن لسان حالهم يقول أن موسى ذهب لمكان ما لمقابلة ربه، فدعاه هناك ليعلم الجواب على سؤال القوم الأول، ثم عاد لهم بالجواب. وما أن سأله القوم سؤالهم الثاني حتى ذهب ليدعو ربه من جديد في مكان ما، وهكذا. وهذا ما ننفيه جملة وتفصيلا، لنثبت رأينا المفترى من عند أنفسنا الذي مفاده أن موسى ما كان يحتاج إلى لقاء مع ربه ليدعوه في كل مرة، ولكن كانت الاجابة متوافرة عند موسى مباشرة بتلك الألواح التي بين يديه. لذا، كان كل ما يحتاج موسى فعله (نحن نرى) هو أن ينظر في تلك الألواح، خاصة في باب البقرة منها، ليأتيهم بما يقوله ربه في هذا الباب (باب البقرة). وليس أدل على ذلك من صيغة الفعل الذي جاء على نحو (إنه يقول). فلو كان موسى قد ذهب للقاء ربه، ثم عاد من هناك بجواب على سؤالهم، لجاء النص (نحن نظن) صيغة الفعل الماضي على نحو (قال الله). لكن مادام أن الفعل على لسان موسى قد جاء بصيغة (إنه يقول)، فهذا أمر موجود على الدوام بين يدي موسى. ويكأن موسى يقول لهم (ها أنا أقرأ لكم من الألواح ما يقوله ربي جوابا على سؤالكم). فنحن نستخدم هذه الصيغة حتى يومنا هذا. فإذا ما كان هناك نقاش بين طرفين، وأراد أحد المتحاورين أن يجلب آية من كتاب الله الذي نزل قبل أربعة عشر قرنا، فإن جوابه يكون على نحو (يقول الله في كتابه الكريم) ولا نقول (قال الله في كتابه الكريم)، وذلك لأن النص ما يزال متوافرا حتى الساعة بين أيدينا يستطيع أي شخص استحضاره في اي لحظة يريد.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو ربه ليأتيهم بجواب على سؤالهم، ما كان من موسى إلا أن يستحضر ما هو مكتوب عنده في الألواح، ليجد الجواب على ما يسألون حاضرا. ولو بحثنا في السياقات الخاصة بموسى، لوجدنا بأن آل فرعون من قبل كانوا يطلبون من موسى أن يدعو ربه بما عهد عنده:

- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ٤٩﴾ [الزخرف: 49]

فبنو إسرائيل يعلمون يقينا الآن (بعد نجاتهم من فرعون وقومه وخروجهم مع موسى عائدين إلى الأرض التي كتب الله لهم) أن الله قد عهد عند موسى ما كان أكثر مما كان عنده يوم أن كانوا في مصر، فخلال رحلة موسى خروجا من مصر، حصل اللقاء الثاني لموسى مع ربه، وهناك كُتب له في الألواح موعظة من كل شيء وتفصيلا لكل شي، وجاء الأمر الإلهي واضحا بأن يأخذها موسى بقوة وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، وجاء البيان معه واضحا أن ذلك سيكون سببا بأن يريهم الله دار الفاسقين:

- ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: 145]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: لو دققنا في هذا السياق القرآني سنجد أن الأخذ بأحسن ما في تلك الألواح ستكون نتيجته الحتمية هي رؤية دار الفاسقين.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة ذبح البقرة؟ فهل سيبين للقوم دار الفاسقين بهذا الأمر الإلهي (ذبح البقرة)؟

رأينا المفترى: إن مراد الطرح هنا هو جلب انتباه القارئ الكريم - إن أراد - أن طلب القوم من موسى أن يدعو ربه، تتضمن البحث في تلك الألواح التي بين يدي موسى، وليس الذهاب إلى ربه في مكان ما في كل مرة ليدعوه، فيأتي بالجواب من عنده مباشرة. فهل تتخيل - عزيزي القارئ - أن موسى كان يذهب إلى ربه عند كل سؤال من قومه، ليعود لهم بالجواب من هناك؟ إن كان كذلك، هل تتخيل أن موسى كان يستطيع أن يذهب لربه فيجده في كل مرة ليجيبه عن سؤال واحد؟ فلِم لم ينتظر موسى الحصول على كل أسئلتهم ليذهب بها جملة واحدة ويأتيهم بجميع الاجابات في سياق واحد؟ من يدري؟!

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن موسى كان يملك بين يديه تلك الألواح التي فيها من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء، لذا كل ما كان يتوجب على موسى فعله (نحن نرى) هو أن ينظر في الألواح بنفسه بعد كل سؤال يطرحه القوم عليه، ليقدم لهم الإجابة على الفور. فعندما سألوه أول سؤال:

- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ... ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: 68]

نظر موسى (نحن نتخيل) في الألواح، فجاءهم بالمعلومة التالية عن البقرة المنشودة:

- ﴿... قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: 68]

ليكون السؤال القديم مرة أخرى هو على النحو التالي: لماذا لم يقدّم لهم موسى كل المعلومات عن البقرة جملة واحدة؟

رأينا المفترى: لمّا كان موسى لا يعلم بعد حقيقة المحاورين من بني إسرائيل، كان عليه أن يتأنى بتقديم الإجابات لهم حتى تبين له - كما أسلفنا - النوايا الحقيقية للقوم جميعا، فيعلم الصادقين منهم ويعلم الكاذبين الذين يتسللون لواذا. فنحن نتخيل بأنه ما أن قدّم لهم موسى الجرعة الأولى من المعلومة حتى

ظهر من بين الجمع من يحاول المجادلة مقابل من يحاول معرفة الحقيقة. ولا شك أن الجدال بينهم قد أخذ الوقت الكافي ليظهر ما في قلوبهم، فكان موسى (نحن نتخيل) يعطي الوقت الكاف للقوم ليتجادلوا فيما بينهم حتى يعودوا إليه بسؤال جديد يطلبون من خلاله حسم ما تجادلوا فيه حتى الساعة. لذا، ما أن يبين أن الجدال بينهم لم يحسم حقيقة، جاء سؤالهم الثاني الذي اختلفوا فيه متعلقا بلون تلك البقرة:

- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ...﴾ [البقرة: 69]

ليكون السؤال الأكثر إرباكا لنا هو: لماذا جاء سؤال منهم خاصا بلون تلك البقرة؟ فهل كان اللون يعني لهم شيئا حتى يسألوا عنه على وجه التحديد؟

جواب مفترى خطير جدا: أنا أفتري الظن من عند نفسي أن القوم (خاصة أهل العلم منهم) قد كان عندهم علم عظيم، وذلك لأن السؤال عن لون البقرة لا يأت إلا ممن يظن أن لون البقرة ضروري في هذه الحالة. ليكون السؤال الآن هو: ما الذي كان القوم يريدونه من معرفة لون البقرة؟ وهل للون البقرة علاقة بعلم إحياء الموتى؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن قصة البقرة في كتاب الله هي قصة عظيمة. ولا ننسى أن نذكّر القارئ الكريم بأن قصة البقرة موجودة في العقائد السابقة، لدرجة أن وصل ببعض أتباع تلك العقائد - كالبوذية مثلا - افضاء طابع القدسية على البقرة. وهناك تراث كبير عن البقر عن أتباع العقيدة اليهودية؛ كما نجد قصة البقرة بارزة في الحضارات القديمة كالبابلية والمصرية القديمة. ولما كنا نعلم بأن بني إسرائيل كانوا خارجين من أرض مصر للتو، لابد أن نتعرض لمسألة تأثر القوم (أي بني إسرائيل) بمن كانوا ضيوفا عندهم فترة طويلة من الزمن (أي فرعون وقومه). لذا، نحن نتجرأ - ابتداء - أن نفتري الظن بأن استغراب فريق من بني إسرائيل طلب موسى منهم بذبح البقرة في بادئ الأمر كان سببه ربطهم مطلب موسى هذا (أي ذبح البقرة) بما كان عند المصريين من عقائد ومن ممارسات تتعلق بالبقرة (انظر قصة البقرة حتحور عند المصريين)؛ وكأن لسان حال القوم عندما قالوا لموسى أتتخذنا هزوا على النحو التالي: أتريدنا أن نفعل (يا موسى) ما كان يفعل المصريون الذين لم يكونوا موحدين مثلنا؟ فهم إذًا يستغربون (لا بل ينكرون على موسى) أن يطلب منهم مثل هذا الطلب وهو من هو؛ لكن موسى أراد أن يبين لهم أن ذلك (أي طقس ذبح البقر) من الدين الحق، لكن المشكلة تكمن عند المصريين في تحريف الحقائق للصدّ عن سبيل الله. وفي هذه (نحن نظن) التقط بعض علماء بني إسرائيل الإشارة، وبدأوا يطرحون التساؤلات التي كانت تحيّرهم في عقائد وممارسات المصريين عن البقر؛ فكان أول ما أرادوا التأكد منه هو أهمية لون البقر. فكان جزء من النقاش له علاقة بأهمية اللون في فعالية الطقوس التي يقومون بها، وبكأن لسان حالهم ينقسم بين من يظن أن للون البقرة أهمية خاصة مقابل من يظن أن لون البقرة ليس له تأثير في الطقوس، فطرح علماء بني إسرائيل على نبيهم موسى السؤال على النحو التالي:

- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ...﴾ [البقرة: 69]

فتجلّت - للقوم من جواب موسى - عندما نظر في الألواح التي بين يديه – معلومة هامة جدا عن لون البقرة المنشودة، فجاء جوابه على سؤالهم على النحو التالي:

- ﴿... قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ٦٩﴾ [البقرة: 69]

نتيجة مفتراة: بان للقوم بأن لون البقرة له أهمية خاصة في فاعلية تلك الطقوس. ويكأنه (نحن نفهم) يقول لهم: نعم، لون البقرة مهم، وذلك لأنه ليست كل بقرة ممكن أن تفي الغرض، فالبقرة المنشودة يجب أن تكون صفراء فاقع لونها. ويكأن الجواب يحمل (نحن نظن ربما مخطئين) في ثناياه الاستنباط بأن البقر يصنف بناء على لونه. فالبقر ذات اللون الأصفر الفاقع – على وجه التحديد- ليس كغيره من البقر. ليكون السؤال هو: ما أهمية أن يكون لون البقر المنشود أصفر فاقع؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن (كما حاولنا القول سابقا) بأن اللون الأصفر الفاقع هو لون الذهب، وافترينا القول حينها (ربما مخطئين) أن هذا اللون هو اللون الذي تهابه الجن (وخاصة الشياطين منهم)، فلا تقترب منه (انظر مقالاتنا السابقة عن الجن في قصة سليمان). فابتعاد الشياطين عن البقرة ذات اللون الأصفر يؤدي (نحن نستنبط) إلى صفاء المادة المنشودة من البقرة لإحياء الموتى.

وهنا تهدأ بعض الاصوات، وتبقى أخرى مرتفعة. فيبين جزء من نوايا المغرضين الفاسقين، ولكن الجدال لم يحسم بهذه المعلومة، فيأتي سؤالهم التالي على النحو الذي يصور أن الأمر ما يزال "ضبابيا" مادام أن البقر قد تشابه عليهم:

- ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ٧٠﴾ [البقرة: 70]

ولكن هذا السؤال يبين للمدقق بالنص (على غير الأسئلة السابقة) أنه قد جاء مصاحبا لاظهار مشئتهم بأنهم إن شاء الله لمهتدون، الأمر الذي يدفعنا للظن (ربما مخطئين) أن هذا السؤال على وجه التحديد قد جاء من المؤمنين الراغبين بمعرفة الحقيقة وتجلية القضية برمتها. وبالفعل يأتيهم موسى بالجواب الكافي الشافي بعد أن ينظر للمرة الأخيرة في النص المتوافر في الألواح التي بين يديه:

- **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا... (2:71)**
- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ ...٧١﴾ [البقرة: 71]

فما يكون منهم إلا الاقرار بما جاء به موسى على أنه حق:

- ﴿... قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١﴾ [البقرة: 71]

وبالفعل يعلم بنو إسرائيل حقيقة البقرة المنشودة، فيجلبوها بعينها، ويذبحوها، ليضربوا الميت ببعضها:

- ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣﴾ [البقرة: 72-73]

السؤال: لماذا قدّم موسى هنا المعلومة الكاملة بعد سؤالهم هذا؟ لماذا لم يجزء المعلومة من الجديد كأن يقول لهم أنها (إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ) وكفى؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن موسى قدّم المعلومة كلها بعد هذا السؤال، وذلك لأن نوايا القوم بانت كلها لموسى، فما عاد هناك ضرورة لاستكشاف ما يبطنه البعض وما يظهره آخرون.

في هذه اللحظة ينتقل القوم من مرحلة الاستفسار عن ماهية البقرة إلى التطبيق العملي لما طلبه موسى منهم، وهم يعلمون سبب الطلب المتمثل بضرب الميت ببعض تلك البقرة.

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية التي هي جزء من قصة البقرة، سنجد الدليل - بظننا - القطعي بأن القوم لم يكونوا مجادلين:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 73]

فعندما طلب منهم أن يضربوا البقرة ببعضها، لم يُقدِم أحد منهم للاستفسار عن ذلك البعض. فلو كان القوم مجادلين، ولو أنهم فهموا أن بعض البقرة - كما قد يبدو للعامة من الناس - يشير إلى أي جزء منها، لربما جاء سؤال من بعضهم عن أي جزء. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن القوم كانوا يعلمون ما هو البعض المطلوب منهم أن يضرب الميت به. ليكون السؤال الآن هو: ما هو بعض البقرة التي سيضربون الميت به؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) بأن بعض البقرة هو المادة المتحصّلة من الجنين الذي في بطن تلك البقرة. فالقوم مطلوب منهم استخراج ذلك البعض بعد ذبح البقرة ثم ضرب الميت به. ليكون السؤال – إن صح هذا الافتراء - هو كيف ستتم عملية الضرب؟

رأينا المفترى: تحدثنا في أكثر من مكان سابق في مقالاتنا عن معنى الضرب، وافترينا الظن بأن الضرب هو عملية إدخال شيء في شيء من أجل حلّ معضلة قائمة (للتفصيل انظر مقالات المرأة). ولا شك عندنا أن عملية الضرب هي عملية دقيقة جدا، تتم على أيدي أشخاص متخصصين، يعلمون ما يفعلون. فعملية الضرب هي عملية طبية غاية في الدقة حتى تكون فعالة. ليكون السؤال هو: ما هي تلك الآلية؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن عملية الضرب تتم بأدوات تقنية جدا، يقوم بها أطباء مهرة، يعمدون إلى استخراج ذلك البعض من البقرة، ثم تتم عملية حقن ذلك البعض بالميت. ليكون السؤال الآن هو: كيف تتم عملية حقن بعض البقرة بذلك الميت؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن عملية الضرب (الحقن) تتم في منطقة محددة من جسد الميت، ألا وهي السرة. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما علم بنو إسرائيل ماهي البقرة المنشودة بعد تلقي الإجابات على تساؤلاتهم عن تلك البقرة، انتقل القوم إلى مرحلة التطبق العملي لعملية ضرب الميت ببعض ذلك البقرة. فتمت "العملية الجراحية" على النحو التالي:

⇐ احضار تلك البقرة

- ⇐ ذبح تلك البقرة
- ⇐ استخراج بعض تلك البقرة
- ⇐ ضرب (أو لنقل حقن) الميت من خلال سرته ببعض تلك البقرة
- ⇐ حل المشكلة التي علقت بينهم، فتم وأد تلك الفتنة التي كادت أن تنشب بينهم
- ⇐ حصول بني إسرائيل على علم عظيم
- ⇐ رؤية القوم أيات الله
- ⇐ الخ

السؤال: ما هي المشكلة التي كادت أن تُحدِث فتنةً بين القوم، وتم حلّها، وبالتالي اخماد الفتنة المتوقعه، وتجنب أن يصيبهم عذاب أليم، عن طريق ذبح البقرة المنشودة، وضرب الميت ببعضها؟

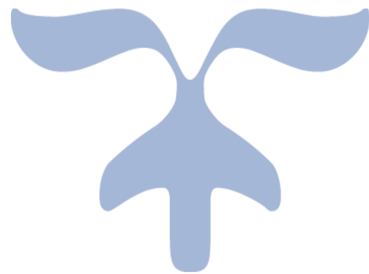
هذا ما سنحاول النبش فيه في الجزء القادم بإذن الله. لكن قبل أن ننهي النقاش في هذا الجزء من المقالة لابد من تذكيركم بسؤالنا القديم:

من هو داوود؟



قصة داوود

الجزء الرابع والعشرون



قصة نبي الله داوود - الجزء الرابع والعشرون

تعرضنا في الجزء السابق من هذه المقالة (في خضم حديثنا عن الفرق بين الفعل والعمل) إلى قصة ذبح البقرة في بني إسرائيل مع نبيهم موسى. وافترينا القول من عند أنفسنا بأن القوم لم يكونوا مجادلين، وإنما كانوا محاورين، ينشدون ما عند موسى من علم في الألواح التي كانت بين يديه عن ماهية طقس ذبح البقرة في قضية إحياء الموتى. وكانت الافتراءات الرئيسية هي على النحو التالي:

⇐ حصول حادثة قتل في بني إسرائيل
⇐ محاولة نفر من بني إسرائيل التستر على الجريمة، بعدم كشف هوية الفاعل الحقيقي
⇐ احتمالية حصول الفتنة في القوم، والحاق الضرر بموسى من جهة وببني إسرائيل من جهة أخرى
⇐ تدخل موسى في الحادثة لإيقاف الفتنة وكف العذاب الذي كان من الممكن أن يصيب القوم
⇐ تفاجأ القوم من طلب موسى أن يذبحوا بقرة، وذلك لغرابة الطلب، فظنوا أن كلامه يقع في باب الاستهزاء بهم
⇐ نفى موسى عن نفسه أن يكون مستهزأ، لأن ذلك يجعله في باب الجاهلين الذين يقولون بما ليس لهم به علم
⇐ استقر بعد فترة وجيزة لدى القوم بأن طلب موسى هو أمر إلهي كان لزاما على المؤمنين منهم الإنصياع له
⇐ بدأ القوم يتجادلون في ماهية تلك البقرة، فبدأوا يسألون عنها طلبا للعلم، من أجل أن ينفذوا الأمر بحرفيته حتى يتحصلوا على النتيجة المرجوة
⇐ قدّم لهم موسى المعلومة من تلك الألواح التي كانت بين يديه، بناءً على التساؤلات التي طرحوها عليه تباعا
⇐ قدّم لهم موسى المعلومة مجزّأة (ردا على تساؤلاتهم)، ليرقب عن كثب ردة فعل القوم كلهم، فيعلم المؤمنين منهم والذين هم أدنى من ذلك
⇐ كانت نتيجة تقديم المعلومة بهذا الشكل أن بان لموسى الذين صدقوا من بين القوم مقابل المجادلين الذين كانوا يتسللون لواذا منهم
⇐ عندما بان لموسى حقيقة الجمع، قدم لهم المعلومة كاملة
⇐ أقدم القوم على جلب البقرة المنشودة
⇐ عندما ذبح القوم تلك البقرة، عمدوا إلى استخراج بعض تلك البقرة (وهي المادة المتكون منها الجنين داخل بطن البقرة – انظر الجزء السابق)
⇐ عمد القوم إلى حقن تلك المادة (البعض) في سرة ذلك المريض
⇐ كانت النتيجة أن دبت الحياة في ذلك المقتول، فتجلت الحقيقة للجمع، وتم وأد الفتنة التي كادت أن تحصل بينهم
⇐ كان نتيجة تلك التجربة أن تحصّل لبني إسرائيل علم إحياء الموتى ورؤية آيات الله بأم أعينهم
⇐ الخ.

(للوقوف على تفاصيل افتراتنا هذه، انظر الجزء السابق من هذه المقالة)

لمتابعة النقاش في تفاصيل تلك القصة العظيمة، نطرح ابتداء السؤال التالي: ما هي المشكلة التي حصلت في بني إسرائيل في تلك الفترة من الزمن؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن القوم اختلفوا في حادثة "قتل نفس" حصلت فيهم، فحاول نفر منهم أن "يدّارأوا" فيها، وذلك في محاولة منهم أن يكتموا شيئا في أنفسهم:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝﴾ [البقرة: 72]

لذا، نحن نظن بأن الأمر الإلهي لهم بذبح البقرة كان هدفه أن يخرج الله ما كان يكتمه أولئك النفر من القوم (وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ). ولو دققنا في هذه الآية الكريمة، سنجد بأن قتل تلك النفس التي "ادارأ" القوم فيها كانت لغاية في نفوسهم يحاولون التستر عليها. وإذا صح هذا الافتراء، فإن بعض التساؤلات الملحّة الآن ستكون على النحو التالي:

⇐ ما هي تلك النفس التي قتلها نفر من القوم؟
⇐ كيف تمت عملية القتل؟
⇐ أين تمت عملية القتل؟
⇐ لماذا تمت عملية القتل؟
⇐ كيف "ادارأ" القوم في قتل تلك النفس؟
⇐ الخ

يجد المدقّق في الآيات الكريمة على مساحة النص القرآني أن "الكتمان" هو النقيض المقابل للجهر من القول، قال تعالى:

- ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ۝﴾ [الأنبياء: 110]

فالذي "يكتم" هو الذي لا يجهر بالقول، لنصل إلى النتيجة المهمة التي مفادها بأن عملية القتل التي حصلت في بني إسرائيل حينئذ كان يحيطها الكتمان، أي عدم الجهر بالقول. فلقد اكتنف الغموض - نحن نتخيل - حادثة القتل حتى أصبح من العسير أن تجد من يدلي بمعلومة تفيد في معرفة حيثيات الجريمة أو المتورطين فيها. ليكون السؤال الآن هو: لماذا أصبح الكتمان يكتنف تلك الجريمة، فلم لم ينبري (نحن نسأل) من يدلي بشهادة تفيد في معرفة القاتل أو طريقة القتل أو حتى الغاية من قتل تلك النفس؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن (ربما مخطئين) أن السبب في ذلك يعود إلى أن جريمة القتل تلك قد خُطّطت بإحكام تام. فالمتورطون في الجريمة قد خططوا تنفيذها بدقة حتى أصبح من العسير كشف مخططهم دون تدخل إلهي مباشر يفضح أمرهم، ويكشف حقيقة ما فعلوا. فجريمتهم - بكلماتنا الدارجة - "جريمة كاملة"، وهذا يعود لمجموعة من الأسباب، نذكر منها:

⇐ أن القتلة كانوا على درجة عالية من الذكاء (لا بل الدهاء والمكر)
⇐ أن القتلة ربما كانوا على مكانة اجتماعية رفيعة بين القوم
⇐ أن الجريمة كانت مكتملة الأركان من حيث الزمان والمكان وطريقة التنفيذ

⇐ أن الجريمة كانت لغاية كبرى، يصعب على الناس العاديين فهم ماهيتها
⇐ الخ

لمّا كان المتورطون في الجريمة مجتمعين على مصلحة مشتركة تطالهم جميعا، كانوا متفقين (نحن نرى) فيما بينهم على ما يكتمونه. فهناك إذا غاية في نفوسهم لا يريدون أن تظهر على العلن. ولو دققنا بحرفية المفردات الواردة في هذا السياق عن قصة هؤلاء النفر من بني إسرائيل، وهي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: 72]

سنجد أن عبارة "مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ" لم ترد في كتاب الله بهذه الحرفية إلا في سياق الحديث عن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم:

- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

فقد أظهرت الملائكة - كما أسلفنا - شيئا من "عدم الرضا" عن ذلك القرار الإلهي، وعلّلوا "عدم رضاهم" على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]

لكن، نحن نعلم أنه على الرغم من جهرهم بشيء من القول، إلا أن أنهم (نحن نظن) قد كتموا الغاية الحقيقية من "عدم رضاهم" التام عن القرار الإلهي، فبيّن لهم الله أنه يعلم ما يبدون ويعلم كذلك ما كانوا يكتمون:

- ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 33]

فأنت قد تظهر سببا لتعلل به موقفك تجاه قضية ما، لكنك قد تكتم الغاية الحقيقة من وراء ذلك. فالأسباب المعلنة قد لا تكون هي السبب الحقيقي لموقفك المعلن. فالملائكة كتمت (نحن نظن) السبب الحقيقي من وراء موقفهم بالرغم من أنهم قدموا علانية أسبابا لتبرير رأيهم. فالسبب الحقيقي الذي كانت الملائكة تكتمه هو ما أظهره إبليس علانية: ألا وهو الكبر الذي كان في أنفسهم. لكن على الرغم من وجود شيء من ذلك الكبر في أنفسهم، إلا أنهم نزلوا في نهاية المطاف عند الأمر الإلهي، فتغلبوا على ذلك الكبر، وأقروا بأفضلية آدم عليهم بما عهد الله عنده من علم الاسماء، فسجدوا، وأصر إبليس من بينهم جميعا على موقفه، فهو فقط مِن بينهم جميعا مَن لم يتراجع عن موقفه السابق، فأبى واستكبر:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: 11-12]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾ [الحجر: 30-33]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]
- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ [طه: 116]
- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [ص: 73-76]

والمدقق في هذه الآيات الكريمة التي تبين لنا ما كان من أمر إبليس سيجدها سبع آيات في عددها، وقد يظن القارئ لهذه الآيات الكريمة أنها تكرار لموقف إبليس في حالة واحدة. وهذا ما نرفضه جملة وتفصيلا. فنحن نظن (ربما مخطئين) بأن هذه الآيات السبعة تتكامل مع بعضها (ولا تكرر ذاتها) لتبين لنا ما كان من أمر إبليس بكل تفاصيله. فهي إذن سبع حالات متكاملة. فإبليس قد أبى:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦﴾ [طه: 116]

وهو قد استكبر:

- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 74]

وهو قد أبى واستكبر:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]

وهو قد فسق عن أمر ربه:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: 50]

وكان من الكافرين:

- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾ [ص: 74]
- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾ [البقرة: 34]

وهو لم يكن من الساجدين:

- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ١١﴾ [الأعراف: 11]

وهو قد أبى أن يكون مع الساجدين:

- ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر: 31]

والمهم عندنا هنا أنه قد علّل ذلك قائلا:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: 61]

فعلى الرغم من وجود إبليس في بداية الأمر مع جمع الملائكة الذين أظهروا الاحتجاج على النحو التالي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [البقرة: 30]

إلا أن الله قد أخرج ما كان يكتمه إبليس الذي رفض النزول عند الأمر الإلهي:

- ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]
- ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76]
- ﴿... قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١﴾ [الإسراء: 61]
- ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 33]

إن هذا الطرح يفيدنا في الوصول إلى افتراء مفاده أن الذي يكتم شيئا هو من يحاول ألا يبوح بالغاية الحقيقية "المبطنة" لموقفه المعلن. ولا شك عندنا أن الكتمان في حالة القتل يتمثل بوجود "دافع" عند القاتل يكتمه في نفسه. وهذا يقودنا إلى محاولة الإجابة على السؤال التالي: لماذا دبّر أولئك النفر حادثة القتل كما جاء ذلك صريحا في كتاب الله؟

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: 72]

رأينا المفترى: دعنا نطرح السيناريو المقترح التالي في قصة حادثة القتل في بني إسرائيل: كان هناك نفر في بني إسرائيل يكتمون السوء ضد طائفة أخرى يرون أنهم قد فضّلوا عليهم (كما ظن إبليس أن الله قد فضل عليه آدم). ولا شك أن هؤلاء يرون أنهم أكثر أهلية من الطرف الآخر الذي يرون بأم أعينهم تفضيله عليهم (كما ظن إبليس أنه خير من آدم). فدبروا حادثة القتل تلك (نحن نرى) انتقاما لأنفسهم، واحراجا للطرف الآخر عندما يستطيعوا (بناء على حساباتهم غير المعلنة) التشكيك بأهلية ذلك الطرف الآخر بذلك التفضيل. وإن صح هذا الطرح (على غرابته)، سيكون السؤال التالي هو: كيف دبّر أولئك النفر حادثة القتل؟ أي كيف نُفّذت جريمة القتل تلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى: نحن نعتقد (غير جازمين) بأنه لابد لجريمة قتل كهذه أن تكون مكتملة الأركان من حيث التوقيت والمكان وطريقة التنفيذ. وبالتالي، لابد أن تكون قد حصلت (نحن نتخيل) في وقت محدد وفي مكان معين حيث لا يكون لأعين الناظرين الى ذلك سبيلا. فلا ضير أن نتخيل - ابتداءً - بأن الوقت كان يغطيه جنح الظلام، وأنّ المكان يخلو من وجود الناس، كأن يكون - مثلا- مكانا غير مسكون، كما جاء في الآية الكريمة التالية التي ختمت بالفكرة ذاتها وهي علم الله بما يبدي الناس وما يكتمون:

- ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [النور: 29]

فمثل هذا المكان (البيوت غير المسكونة) يمكن أن يدبر بها الأمر بليل، فلا تطاله أعين الناظرين. ولا ننسى أن نذكّر القارئ الكريم بأن القوم كانوا للتو خارجين من أرض مصر، حاملين أوزارهم، فقذفوها في مكان ما، فأصبح مكانا فيه متاع لهم:

- ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه: 87]

ولا شك أنه كان هناك فرصة أن يرى البعض ما لا يراه الآخرون، كما حصل مع السامري عندما بصر بما لم يبصر به القوم:

- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾﴾ [طه: 96]

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل أن القوم في رحلتهم إلى الأرض المقدسة وصلوا مكانا ما، حيث وضعوا أوزارهم التي كانوا يحملونها، فأصبح مكانا فيه متاع لهم. فكانوا يستطيعون الدخول إليه بحجة وجود المتاع فيه. وهذا المكان يتصف بصفتين متضادتين تماما:

⇐ إما أن يكون مكتضا بالناس لكثرة الواضعين متاعهم فيه (كحالته في النهار المبصر)
⇐ أن يكون مكانا خال من الناس بحجة حراستة حتى لا يسرق متاع الناس (كحالته في الليل المظلم)

ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نتخيل القوم وقد قتلوا تلك النفس، فدارأوا فيها كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [البقرة: 72]

مادام أن القوم قد "ادارأوا" في تلك النفس التي قتلوها، أصبح لزاما علينا أن نبحث في استخدام هذه المفردة على مساحة النص القرآني، آملين أن نستطيع تحديد معنى دقيق لها، يفيدنا في فهم بعض تفاصيل القصة كما نفّذت فعلا على أرض الواقع.

1. باب فَادَّارَأْتُمْ

لو فتشنا إذًا عن مفردة ادَّارَأْتُم - ومشتقاتها - على مساحة النص القرآني، سنجد قوله تعالى:

- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: 22]
- ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: 54]
- ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور: 8]

فالمدقق في هذه الآيات سيجد بأن "المدارأة في شيء" تكون على نحو ابعاد (أو لنقل تجنب) شيء ما (غالبا ما يكون غير محمود) بالقيام بشيء آخر. فأنت تدرء السيئة بالحسنة، أي تريد التخلص من السيئة على نحو أن تعمل الحسنة حتى يتحصل لك ذهاب السيئات بعمل الحسنات كما جاء في قوله تعالى :

- ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: 114]

والمدقق في الآيات الكريمة يجد بأن درء شيء سيئ (كالسيئة) بشيء حسن (كالحسنة) يؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة محمودة (أُولَـئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار):

- ﴿... وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: 22]

في مقابل الذي يجيء بالسيئة فتكون عاقبته على نحو أن تكبّ وجوههم في النار:

- ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النمل: 90]

لذا، فإن درء شيء سيئ بشيء سيء (مثله أو أشد سوء منه) يجلب لك العقوبة. فالزانية التي تدرء عن نفسها العقاب الدنيوي بأن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين:

- ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾﴾ [النور: 8]

ستكون عاقبتها عند الله على النحو التالي:

- ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [النور: 9]

السؤال: كيف "ادارأ" نفر من بني إسرائيل بقتل تلك النفس؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا (لا تصدقوها): نحن نفتري الظن بأن نفرا من بني إسرائيل قد قاموا بفعل القتل (قتلوا نفسا) ليدرأوا عن أنفسهم عذابا كان من المفترض أن يقع عليهم لو أنهم لم يفعلوا ذلك. لذا، كان قتلهم لتلك النفس - برأينا ربما المغلوط - ليس أكثر من وسيلة ليدرأوا (أي ليكفوا) عن أنفسهم عذابا بسبب "عمل ما" قاموا به لغاية (كتموها) في أنفسهم. فتكون الصورة (في ذهننا حتى الساعة) على النحو التالي: يقوم نفر من بني إسرائيل بعمل مشين ضد شخص محدد بعينه (حسدا من عند أنفسهم)، ويعلمون يقينا بأنه لو ظهر هذا العمل إلى العلن، سيتجرعون - لا محالة - عاقبته الوخيمة أمام الناس وعلى رؤوس الأشهاد. ولكي لا يصبيهم ذلك، فيفتضح أمرهم (المشين) بين الناس، كان عليهم (نحن نتخيل) أن يدرأوا عن أنفسهم عاقبة ما فعلوا. فلم يكن متاح أمامهم خيارا (بعد تدارسهم القضية بكل حيثياتها) إلا أن يقتلوا تلك النفس من بينهم، فـ "يدارأوا" فيها. ليكون السؤال الآن هو: ما هو العمل الذي اضطروا بسببه إلى أن يقوموا بفعل القتل حتى يكفوا عن أنفسهم عذابا كاد أن يقع عليهم (لو افتضح أمرهم وبانت فعلتهم أمام العالمين)؟

رأينا المفترى: لا شك عندنا أن هناك - حتى الساعة - أكثر من سيناريو محتمل لحادثة القتل تلك. وحتى نستطيع أن نحدد أيّا من تلك السيناريوهات هي الأكثر وجاهة، وبالتالي الأكثر واقعية لتصوير ما حصل فعلا على أرض الواقع، علينا أن نطرح جمّلة من التساؤلات، نذكر منها:

⇐ ما هي تلك النفس المقتولة؟ هل هي نفس ذكر أم نفس أنثى؟ أي هي المقتول كان ذكرا أم أنثى؟
⇐ من المشتركون في عملية القتل؟
⇐ كيف تمت عملية القتل؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: لو دققنا في مفردات القصة كما يبينها النص القرآني، سنجد بأن المقتول كان ذكرا وليس أنثى، بدليل قوله تعالى:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]

فالمقتول إذا شخص ذكرا، بدليل مفردة (ٱضْرِبُوهُ)، فلو كان المقتول أنثى، لربما جاء النص على نحو (اضْرِبُوهَا).

نتيجة مهمة جدا: كانت النفس التي قتلها نفر من بني إسرائيل هي نفس شخص ذكرا.

السؤال: ما هي القضية "المشكلة" التي من أجلها أقدم القوم على قتل تلك النفس؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأنه مادام أن القوم قد "ادارأوا" في تلك النفس التي قتلوها، فإن لذلك علاقة بحادثة زنا. انتهى.

الدليل

لو فتشنا مرة أخرى عن مفردة (فَادَّارَأْتُمْ) ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، لوجدنا أن واحدة من مشتقات المفردة، ألا وهي "ادرء" قد جاءت في سياق ايقاع العذاب:

- ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: 168]

ولو دققنا أكثر، لوجدنا بأنها قد وردت في سياق كفّ العذاب على من قد يثبت عليه الوقوع في فعل الزنا:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٩﴾ [النور: 6-9]

ولو أمعنا النظر في هذا السياق القرآني على وجه التحديد، سنجد أن درء العذاب قد ورد في سياق وقوع الأنثى في فعل الزنا. ويكون درء العذاب عمن وقعت به في حالة عدم وجود شهداء إلا الزوج هو أن تشهد أربع شهادات بالله إنه من الكاذبين. في ضوء هذه الطرح (ربما المغلوط) حول فعل "المدارأة"، سنطرح التساؤل التالي: كيف يمكن أن نتخيل القصة (إن صح خيالنا هذا) كما حدثت على أرض الواقع؟

سيناريو خيالي غريب عجيب (لا تصدقوه): دعنا نتبنى حتى حين السيناريو الخيالي العجيب الغريب التالي الذي نطلب من القارئ أن لا يصدقه ما لم يثبه الدليل لاحقًا، فهو ليس أكثر من خيال جامح غير مضبوط - حتى الساعة - بالدليل الحاسم: كان في بني إسرائيل رجل صالح، وكان له امرأة (جميلة) خائنة. وكان هناك في عِلية القوم من يكيد بهذا الرجل وبغيره من الذين فضلهم الله عليهم، فما كان منهم إلا أن يقدموا على ايقاع الأذى به عن طريق امرأته غير الصالحة، فاخذوا يترددون على تلك المرأة في جنح الظلام. ولكن لمّا كان بعلها - نحن نتخيل - رجلا صالحا، كان يعرف ما يدور حوله بعيدا عن ناظريه، فهداه الله - نحن مازلنا نفتري القول من عند أنفسنا - لأن يكتشف العلاقة غير السوية القائمة بين امرأته من جهة وبعض الرجال من علية القوم من جهة أخرى. وبالفعل استطاع ذلك الزوج أن يملك الدليل على تلك العلاقة غير الشرعية بين الطرفين. فكان يستطيع أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين على فعلة امرأته:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النور: 6]

وهنا ينتهي للخائنين خبر اكتشاف أمرهم مع تلك المرأة، وبالتالي فضح تلك العلاقة المشبوهة. فما الذي سيفعله أولئك النفر (الخائنين المتربصين كيدا بالذين آمنوا) إزاء ما يمكن أن يقع عليهم من الفضيحة بين القوم أولا ثم العذاب الذي سيلحق بهم إن ثبت صحة شهادة الزوج ثانيا؟

رأينا المفترى: عندما وجد أولئك النفر بأن فضيحتهم ستكون معلنة على رؤوس الأشهاد، استقرت عندهم القناعة بأن تكلفة تلك الفضيحة (إن ظهرت) ستكون كبيرة عليهم، ربما لا يستطيعون تحمل تبعاتها. فهم يعلمون أن تلك المرأة (محط الشبهة) ربما ستشهد أربع شهادات بالله أن زوجها من الكاذبين، وبالتالي ربما ستستطيع أن تدرأ العذاب عن نفسها أولا وعن القوم الخائنين معها ثانيا، لكن ذلك لن يسكت ألسنة الناس التي ستتناقل الشكوك حول أولئك النفر المتورطين في القضية، آخذين بعين الاعتبار مكانتهم العليا في القوم. فحتى لو استطاعت المرأة أن تدرأ عن نفسها العذاب بشهادتها، إلا أن الناس من حولها لن يتوقفوا عن إثارة الشبهات حول من كان متورطا معها في فعل مشين كهذا من بين القوم جميعا. ولا شك أن ألسنة الناس لن تكف عن البحث مادام أن زوج تلك المرأة - هم يعرفون - رجل صالح من غير المتوقع أن يكون من الكاذبين. فالقوم يعلمون يقينا بأن مثل هذا الرجل المؤمن لن يرمي المحصنات الغافلات، لأن ذلك أمرا منهي عنه في الدين. قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النور: 23]

فرمي المحصنات (أي لم يبرم عليهن عقد نكاح اطلاقا) أمر غير وارد عند من كان مؤمنا إلا تحت شرط وجود الشهداء. ولكن على الرغم من أن رمي المحصنات يحتاج إلى وجود الشهداء، فإن رمي الأزواج لا يحتاج إلى الشهداء، فيستطيع الرجل أن يرمي زوجته، شريطة أن يشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين:

- ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾ [النور: 6]

وهو يعلم أن عاقبة ذلك وخيمة إن كان من الكاذبين:

- ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٧﴾ [النور: 7]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: إن صحّ افتراؤنا بأن ذلك الرجل كان رجلا صالحا، فإن قناعة الناس من حوله ستكون على نحو استحالة أن يكون من الكاذبين الذين يمكن أن تصيبهم لعنت الله إن هو أقدم على فعل كهذا. لذا، لن يتوقف الناس حينها (نحن ما زلنا نتخيل) عن تصديق شهادته حتى لو استطاعت تلك المرأة أن تدرأ عن نفسها العذاب بشهاداتها الأربعة:

- ﴿وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾ [النور: 8]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان القوم يعلمون طبيعة ذلك الرجل الصالح مقابل طبيعة امرأته غير الصالحة، فلو أقدم ذلك الرجل على رمي امرأته بشهاداته الأربعة، فسيستقر لدى العامة من الناس أنه يستحيل أن يكون من الكاذبين حتى لو استطاعت المرأة أن تدرأ عن نفسها العذاب بأربع شهادات مقابلة لشهادة بعلها. وبالتالي لن يتوانى القوم عن التشكيك بشهادة تلك المرأة، وبالتالي توجيه أصابع الاتهام نحو بعض النفر من القوم خاصة أولئك الذين يعلمون أنهم يبيتون المكيدة (وربما العداء) ضد ذلك الرجل. وسيصبح كل من كان له عداء مع ذلك الرجل الصالح محل اتهام غير مباشر من الناس من حولهم.

السؤال: ما الذي سيفعله المتآمرون (نحن نسأل) حيال هذا الوضع حتى لا تسوء سمعتهم في قومهم، ويكونوا محط الشبهة على ألسنة الكثيرين من بني إسرائيل من حولهم، فتضيع جزء من هيبتهم، ويفقدون جزءا كبيرا من المكاسب التي كانوا يتمتعون بها بين الناس حينئذ، والتي يطمعون أن تزيد؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل بأنه ما كان منهم إلا أن يحاولوا أن يدارأوا في تلك النفس وذلك بقتلها، والتستر على الأمر برمته:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢﴾ [البقرة: 72]

ولو راقبنا مفردات هذه الآية جيدا، لوجدنا بأن الفاعلين الذين ادارأوا بقتل النفس كانوا – كما أسلفنا القول- يكتمون شيئا (مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)، وقد جاء وصف حالهم - كما أسلفنا - بالمفردات ذاتها التي صورت بها قصة "تلكأ" الملائكة بالسجود لآدم من ذي قبل:

- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 33]

فمادام أن القوم كانوا يكتمون شيئا، فهم - برأينا ربما المغلوط - يحاولون أن لا يظهر ذلك الشيء على العلن. ومادام أنهم يكتمونه، فهو إذا أمر سيء. وهؤلاء - لا شك عندنا - من المنافقين الذين لا تتطابق أقوالهم مع ما في قلوبهم، وانظر كيف ختمت الآية الكريمة التالية التي تصوّر حال هؤلاء المنافقين:

- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾ [آل عمران: 167]

فهم الذين يظهرون بثياب الإيمان، ولكن حقيقتهم هي ما تصوره الآية الكريمة التالي:

- ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ٦١﴾ [المائدة: 61]

نتيجة مفتراة: نحن نتخيل وجود نفر في بني إسرائيل يظهرون الإيمان على العلن ولكنهم ممن دخلوا بالكفر، وهم قد خرجوا به

السؤال: لماذا أقدم أولئك النفر على تلك الفعلة؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القوم قد أقدموا على تلك الفعلة لأنهم كانوا يكتمون شيئا في أنفسهم، مصداقا لقوله تعالى في السياق ذاته:

- ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢﴾ [البقرة: 72]

السؤال: ما هو ذلك الشيء الذين كان أولئك النفر من بني إسرائيل يكتمونه حينئذ؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنه الحسد المدفوع بالكبر. انتهى

السؤال: ما هو الحسد الذي كان في نفوسهم؟

رأينا المفترى: للاجابة على هذا التساؤل، لابد لنا أن نطرح جملة من التساؤلات حول القصة، نبدأها بهذه المجموعة:

- ⇐ لماذا تدخل الله لإخراج ما كان القوم يكتمونه؟ فهل يتدخل الله لإخراج ما يكتمه كل من وقع في فعل قتل نفس؟
- ⇐ لماذا جاء موسى نفسه بالأمر الإلهي بأن يذبحوا البقرة؟
- ⇐ لماذا تلقى منهم موسى التساؤلات تباعا (الواحدة تلو الأخرى)؟
- ⇐ لماذا أجابهم موسى على كل تساؤلاتهم؟
- ⇐ الخ.

رأينا المفترى: نحن نظن أن التدخل الإلهي لإخراج ما كان القوم يكتمونه ما كان ليحصل لولا أن الأمر جلل، كما نظن أن موسى ما كان ليجاريهم في جميع تساؤلاتهم لولا أن الأمر كان يتطلب ذلك. فمراد القول هنا هو أن حادثة القتل تلك كانت ذات طابع جدّي، لذلك جاءت - برأينا - الإرادة الإلهية لإخراج ما كان القوم يكتمونه. ليكون السؤال الآن هو: ما الذي كان يميّز تلك الحادثة حتى استدعت التدخل الإلهي

لإخراج ما كان القوم يكتمونه كما استدعت تدخل موسى شخصيا في تلك الحادثة ومجاراة القوم في كل تساؤلاتهم؟

رأينا المفترى: لمّا كنّا نظن بأن تلك الحادثة ذات طابع جدي، كان من الممكن (نحن نتجرأ على الظن هنا) أن تكون تداعياتها خطيرة جدا، وذلك لسببين اثنين على الأقل:

أولا، أن تطال تبعاتها موسى شخصيا،

ثانيا، أن تحدث ضررا كبيرا في مسيرة بني إسرائيل كلهم أجمعين.

لهذا استوجبت التدخل الإلهي المباشر فيها، ومجاراة موسى لجميع تساؤلاتهم التي ما انفكوا يطرحونها الواحدة تلو الأخرى.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نفتري الظن أن التدخل الإلهي في هذه القضية قد جاء لكشف المؤامرة التي كانت تحاك ضد نبيه موسى شخصيا أولا وضد بني إسرائيل كلهم أجمعين ثانيا. فليس كل حادثة قتل تقع بين الناس يأتي التدخل الإلهي ليكشف جوانبها بالطريقة التي كُشفت بها تفاصيل تلك الحادثة. ليكون السؤال مرة أخرى: لماذا كشف الله تلك الجريمة وأخراج ما كان القوم يكتمونه؟

رأينا المفترى: لو دققنا فيما حصل في تلك القصة كما يبينها الله في قوله تعالى:

- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: 73]

سنجد بأن هناك سببين رئيسيين لهذا التدخل، وهما:

أولا: أن يبين الله لنا كيف يحي الموتى (كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ). وهذا ما حاولنا مناقشته في الجزء السابق من هذه المقالة

ثانيا: أن يرينا الله آياته (وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ). وهذا ما سنحاول مناقشته في هذا الجزء.

السؤال: ما علاقة تبيان الله احياء تلك النفس بضربه ببعض البقرة لكشف الجريمة من جهة ورؤية آيات الله من جهة أخرى؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: لماذا ختمت مسألة إحياء الله تلك النفس ببعض البقرة (كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ) بأن يري الله آياته للناس (وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ)؟

رأينا المفترى العجيب الغريب (فلا تصدقوه): إنها الأنعام

السؤال: ما علاقة الأنعام بهذه القصة؟

رأينا المفترى: دعنا نحاول ربط الآيات التي بيّن الله لنا فيها قصة ذبح البقرة من جهة بالآيات القرآنية التي جاء فيها الحديث عن الأنعام من جهة أخرى. وانظر عزيزي القارئ - إن شئت - في السياقين معا، لترى كيف يرد فيهما عبارة (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) ذاتها:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٧٣﴾ [البقرة: 72-73]
- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ۝٨١﴾ [غافر: 79-81]

سنجد إذًا بأن عبارة (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) لم ترد بالحرفية ذاتها على مساحة النص القرآني إلا في هذين السياقين. ففي سياق الحديث عن ذبح البقرة جاءت العبارة (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ) كما جاءت أيضا في سياق الحديث عن الأنعام (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ).

السؤال: كيف يمكن أن نربط السياقين معا؟

رأينا المفترى الذي نطلب من القارئ مرارا وتكرارا ألا يصدقه هو على النحو التالي: كان هناك نفر من بني إسرائيل لديهم من العلم الذي يمكّنهم من مجادلة من يأتيهم بعلم يتنافى مع ما عندهم منه. وقد كان ديدنهم - كغيرهم من الذين سبقوهم والذين لحقوا بهم من المكذبين بالرسل - على نحو أن يستهزوا (لا بل ويسخرون) ببعض آيات الله، لأن عندهم من العلم ما يتعارض معها:

- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا ۝٥٦﴾ [الكهف: 56]
- ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ۝١٠٦﴾ [الكهف: 106]
- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝٩﴾ [الجاثية: 9]
- ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝٣٥﴾ [الجاثية: 35]

وقد كانت سنة الله أن يبعث الرسل بالآيات ليحيق بهؤلاء ما كانوا به يستهزءون:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣﴾ [غافر: 83]

- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: 26]

لذلك، نحن نتخيل بأنه لمّا جاء موسى قومه بالآيات والبينات، كان من بينها ما هو خاص بماهية الأنعام، فكان مفاد ما جاءهم به موسى في هذا الجانب يتمثل في أن تلك الأنعام فيها من آيات الله التي أرنا الله إياها بأم أعينا. فكان مما جاء به موسى قومه من بني إسرائيل في وقت ما هو ما ورد في قوله تعالى:

- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: 66]
- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: 21]

ولما كان القوم أهل علم، كان سؤالهم لنبيهم موسى عن "العبرة" في تلك الأنعام، فكان (نحن مازلنا نتخيل) مما قاله موسى لهم أن واحدة من "العبرة" في تلك الأنعام تتعلق بإحياء الموتى. ويكأني (ما زلت أتخيل) أسمع موسى يقول لهم بأن سر إحياء الموتى موجود في الأنعام، وذلك من العبرة المتوافرة في الأنعام. وهنا ما كان من القوم - خاصة أهل العلم منهم - إلا أن يتخذوا آيات الله ورسله هزوا:

- ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف: 106]
- ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾ [الجاثية: 9]

ولو عدنا إلى بداية تفصيل قصة البقرة في كتاب الله، لوجدنا أول رد من القوم على طلب موسى الذي جاءهم بذلك الأمر الإلهي هو على النحو التالي:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]

فهم – إذا- ظنوا أن ما يقوله موسى لهم يقع في باب الاستهزاء بهم، لذا ستكون ردة فعلهم هي أيضا تقع في باب الاستهزاء بما يقوله الطرف الآخر، وسكونوا فرحين بما عندهم من العلم:

- ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: 83]

فالقوم إذا يستهزءون بما يقوله لهم نبيهم موسى، لأنهم يظنون أن ما عندهم من العلم أكثر صدقا مما جاءهم به رسولهم. فكانوا فرحين بما عندهم من العلم (فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)، مستهزئين بما عند الطرف الآخر. وقد افترينا في أكثر من مكان سابق أن من كان فرحا، هو الذي ظن أن رأيه مطلق الصحة والثبات (للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة). لذا نجد أنفسنا ملزمين – بناء على هذا الطرح الغريب- أمام سيناريو خيالي هو على النحو التالي: ينشب هناك خلاف بين موسى من جهة وبعض أهل العلم من بني

إسرائيل من جهة أخرى حول ماهية العبرة في الأنعام (فيكون جدالا علميا بين طرفين كل لدى كل طرف منهم رأيه الذي يتعارض مع رأي الطرف الآخر). فيكون مفاد موقف موسى المبني على ما عنده من علم في الألواح التي بين يديه على نحو أن العبرة من الأنعام تتمثل بوجود سر إحياء الموتى فيها، ويكون رأي أهل العلم من بني إسرائيل مغايرا تماما. فيتشبث الطرف الآخر برأيهم، فرحين بما عندهم من العلم، مستهزئين في ذات الوقت بما يقوله موسى بهذا الصدد. فكيف سيفض الخلاف بين الطرفين؟

لننظر – ابتداء- في بعض الآيات التي وردت فيه قصة العبرة من خلق الأنعام في سياقها الأوسع حيث سنجد بأنها تختم بفكرة مجادلة الرسل من قبل الطرف المكذب الذي يفرح بما عنده من العلم، فيستهزء بما يأتي به الرسل من البينات:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: 79-83]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: لما سمع القوم - خاصة أهل العلم منهم - ما جاءهم به موسى من العلم (البينات) في هذه الجزئية، ماكان منهم إلا أن:

⇐ يستهزءوا بما يقوله لهم رسولهم
⇐ يتحدون ذلك الرسل لإثبات ما يقدم لهم من البينات

تساؤلات:

⇐ كيف سيتحدون رسولهم موسى؟
⇐ كيف سيثبت لهم موسى صدق ما يقول؟
⇐ كيف سيحيق بهم ما كانوا به يستهزءون؟
⇐ الخ.

رأينا المفترى: لمّا كان بعض أولئك النفر من القوم يكيدون بموسى شخصيا، حسدا من عند أنفسهم، سنحت لهم الفرصة الآن أن يكشفوا (حسب ظنهم) خطأ موسى أمام الناس، وبالتالي الايقاع بكل بني إسرائيل في المصيدة، ليكذبوا رسولهم موسى. فهم سيدبّرون الأمر على نحو أن يضطروا موسى أن يثبت ما يأتيهم به من البينات بالتطبيق العملي على أرض الواقع. فيصطادون (حسب ظنهم) عصفورين بحجر واحد:

⇐ تكذيب الرسول والاستهزاء بالآيات، إن صدق ظنهم

⇐ اكتساب ذلك العلم الذي عند موسى إن كان صحيحا

ولا ننسى أن علماء بني اسرائيل ينقسمون إلى فئتين متضادتين:

⇐ فئة تريد تكذيب الرسل وصدّ الناس عن الحق حتى بعد أن جاءهم العلم:

- ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ [آل عمران: 19]

⇐ فئة تريد الوصول إلى الحقيقة:

- ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٩٧﴾ [الشعراء: 197]

السؤال: كيف سينفذ المتأمرون خطتهم الماكرة على أرض الواقع؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا الذي نطلب من القارئ الكريم مرة أخرى ألا يصدقه هو: أن يتهموا موسى نفسه بحادثة قتل نفس من بينهم. انتهى.

الدليل

لابد – ابتداء - أن نثبت وجود الحسد عند القوم تجاه موسى شخصيا. فالآيات الكريمة التالية تبيّن لنا أن نفرا من القوم قد سألوا موسى مجادلين، مدفوعين بما عندهم من الحسد، محاولين أن يردوا الذين آمنوا كفارا حتى بعد أن يتبين لهم الحق:

- ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨ وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ [البقرة: 108-109]

ولا يتوقف موقفهم من موسى عند مستوى الحسد، بل تجاوزوا كل الخطوط الحمراء، محاولين إيقاع الأذى بموسى شخصيا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ ... ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

ولكن لما وصل بهم الأمر إلى درجة إلحاق الأذى بموسى شخصيا، ما كان الله ليذرهم وطغيانهم، فكان لابد من فضح أمرهم أولا، وتبرئة نبيه موسى من ذلك الأذى الذي ألحقوه به ثانيا. وانظر تتمة السياق القرآني الخاص بمحاولتهم إلحاق الأذى بموسى، قال تعالى:

- ﴿... فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

ولتكون النتيجة النهائية على نحو أن يحيق الله بهم بما كانوا به يستهزءون، وذلك باثبات صدق كلامه (وصحة الآيات البينات التي جاء بها رسله)، وبطلان قول الذين هم من دونه مهما كان لديهم من العلم:

- ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: 83]

تساؤلات جديدة

⇐ ما الذي سأله القوم لموسى وجاء الأمر الإلهي لمن كان حول محمد من المؤمنين ألا يسألوا نبيهم كما سأل نفر من بني إسرائيل نبيهم موسى؟

- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾ [البقرة: 108]

⇐ ما هو الأذى الذي نهى الله المؤمنين من حول محمد أن يلحقوه بنبيهم كما فعل من كانوا حول موسى؟ أي ما هو الأذى الذي ألحقه بنو إسرائيل بنبيهم موسى؟

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: 69]

⇐ كيف برأ الله نبيه موسى مما قال أولئك القوم؟

- ﴿... فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: 69]

⇐ ما وجه الشبهة بين قصة موسى في هذا الصدد مع قصة محمد حتى جاء الأمر الإلهي لمن حول محمد ألا يفعلوا برسولهم كما فعل بنو إسرائيل برسولهم؟ أي لماذا جاءت المقارنة في هذه الآيات على وجه التحديد بين محمد وموسى فقط؟

⇐ الخ

2. افتراءات يصعب على الآذان سماعها، فلا تصدقوها

الافتراء الأول: لقد اتهم نفر من بني إسرائيل موسى بالزنا

الافتراء الثاني: لقد اتهم نفر من بني إسرائيل موسى بقتل نفس

الافتراء الثالث: لقد أشاع أولئك النفر خبرا كاذبا بأن موسى قتل الرجل لرغبة عنده في زوجته الجميلة

دعوة كريمة: نحن ندعو القارئ الكريم ألا يتعجل باسقاط هذه الافتراءات في قصة نبينا الكريم مع من كانوا حوله قبل فهم تفاصيل قصة موسى بكل حيثياتها. ومن يحاول افتراء شيء من عنده، فهو من يقع

عليه واجب جلب الدليل على كلامه، وهو من يتحمل تباعات ما يفتري من عند نفسه. لذا، أرجو أن لا يضع أحد من القراء (أو المستمعين) كلاما من عنده في فمنا، ثم يتهمنا بما لم نقل.

ملخص القصة: لمّا كان أولئك النفر من بني إسرائيل يعادون موسى شخصيا حسدا من عند أنفسهم، ولما كانت بغيتهم أن يردوا المؤمنين كفارا من بعد إيمانهم، كان شغلهم الشاغل أن يلحقوا بموسى أذى يحقق لهم غاياتهم غير المعلنة. فما كان منهم إلا أن يقيموا علاقة غير شرعية مع زوجة رجل من بني إسرائيل، تتصف بالجمال. ويقدموا على قتل زوجها، ثم القاء تهمة الزنا والقتل على موسى شخصيا.

3. الدليل: باب وجيها

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بموسى، سنجد قوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: لماذا ختمت الآية التي تبين لنا محاولة نفر من بني إسرائيل إلحاق الأذى بموسى بقوله تعالى واصفا نبيه موسى بأن كان عند الله وجيها؟ وبكلمات أخرى نحن نسأل: ما علاقة أن موسى كان عند الله وجيها بالأذى الذي ألحقوه أولئك النفر بموسى؟

رأينا المفترى: حتى نستطيع الإجابة على هذا التساؤل، يصبح لزاما علينا أن نبحث في معنى هذه المفردة (وَجِيهًا)، طارحين التساؤل التالي: ما معنى وجيها في النص القرآني؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: عندما حاولنا البحث عن هذه المفردة على مساحة النص القرآني، وجدنا قوله تعالى:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ [آل عمران: 45]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [الأحزاب: 69]

لنجد أن المفردة ما وردت في كتاب الله إلا في سياق الحديث عن عيسى بن مريم وفي سياق الحديث عن موسى. لكن المفارقة تكمن بأن عيسى كان وجيها في الدنيا والآخرة، بينما كان موسى وجيها عند الله. فكيف يمكن أن نفهم ذلك؟

رأينا المفترى: تعرضنا في مقالات سابقة لنا لهذه الجزئية، وافترينا الظن حينئذ بأن عيسى كان وجيها في الدنيا والآخرة، لأنه كلمة الله وروح منه؛ وبالتالي كان من الاستحالة بمكان أن ينظر الناس لعيسى إلا من جهة وجهه. فحيثما نظر الشخص إلى عيسى، كان في مقابلة مع وجه عيسى، وكان ذلك واحدة من أسباب

فتنة الناس بعيسى حتى ظن بعضهم أن عيسى هو الله، وظن البعض أنه ابن الله. فالناس يعلمون أن الإله لا يمكن النظر إليه إلا ويكون وجهه حيثما تولي وجهك، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة: 115]

وربما لهذا السبب، ظننا أن الإله سيسأل عيسى ابن مريم على وجه الخصوص إن كان فعلا قال للناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دون الله:

- ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: 116]

لذلك، فتن الناس - نحن نرى - بعيسى في الدنيا، وسيفتنون به في الآخرة، لأنهم لن يستطيعوا النظر إليه إلا جهة وجهه. فكان عيسى وجيها في الدنيا والآخرة.

أما موسى فقد اكتسب تلك الخاصية في الدنيا فقط عندما طلب من الله أن ينظر إليه، فتجلى الله للجبل، وارتد النور الإلهي من الجبل إلى وجه موسى، فخر صعقا:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]

فكان موسى وجيها عند الله.

لكن ما يهمنا طرحه الآن هو أن مفردة وجيها تحمل في ثناياها أمرا آخر، ونحن نتجرأ على الظن بأن من كان وجيها، فقد كان له شأن مختلف في علاقته بالنساء. ليكون السؤال الآن هو: كيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن أبسط ما يمكن أن نفتريه عن عيسى بن مريم هو أنه ما قرب النساء في حياته في الدنيا قط، ولن يقربهن في الآخرة. فعيسى – كما ذكرنا أكثر من مرة – ليس من الناس، لذا فهو لم ولن يطأ النساء قط. وبالتالي يستحيل أن تلقى عليه تهمة الاقتراب من النساء بأي صيغة كانت.

أما موسى، فقد كان إنسانا عاديا، بدليل أن الرجل الذي جاءه في مدين وقص عليه القصص، قد أنكحه احدى ابنتيه:

- ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: 27]

ولكن عندما اكتسب موسى خاصية الوجاهة عند الله في تلك الحادثة الشهيرة، أصبح من الاستحالة بمكان أن تكون علاقته بالنساء مشبوهة. فيستحيل بعد تلك الحادثة أن تلقى عليه تهمة انشاء علاقة غير شرعية مع النساء، فوجهه الذي اكتسب شيئا من النور الإلهي لا يمكن أن تلطخه تمهة (أو لنقل) علاقة غير شرعية مع النساء.

السؤال: كيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نعلم بأن الإنسان يمكن أن يرتكب كثيرا من الفواحش والذنوب والسيئات، لكن من بين جميع تلك الموبقات، تبرز واحدة فقد لتلطخ "وجه" الرجل، فيظل وجهه مسودا أمام العالمين، ألا وهي فاحشة الزنا:

- ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء: 32]
- ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۝٢٢﴾ [النساء: 22]

فالزنا - على وجه الخصوص - هو الفاحشة التي تكون نتيجتها على نحو (ساء سبيلا). وينعكس ذلك على وجه من يقع فيها. فالعار – بكلماتنا الدارجة – لا يلحق بالرجل إلا من جراء الوقوع في فاحشة الزنا التي تظهر نتيجته على وجهه عندما يبقى يحاول أن يتوارى من القوم من سوء ما فعل.وليس أدل على ذلك من التصاق العار بوجه الرجل من غصته من الحصول على ذرية من الإناث (مقابل الذرية من الذكور). فقد بين القرآن بأنه حتى بشرى الرجل بالأنثى تجعله يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، وذلك لأن وجهه يكون مسودا:

- ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: 57-59]

المعضلة: إذا كانت البشرى بالإنثى تنعكس على الوجه بأن يصبح مسودا:

- ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ [الزخرف: 16-17]

فكيف إذا سيكون وجهه لو أنه فعلا وقع هو (أو أحد من محارمه) في تلك الفاحشة؟ فهل سيبقى وجيها بين الناس؟

رأينا المفترى: إن الفكرة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هنا هي على نحو أن ما يتعلق بالعلاقة غير الشرعية مع الإناث تجلب للرجل من السوء ما تتجلى آثاره على وجهه، فلا يصبح وجيها إن طالته تلك الفاحشة في شخصه أو في أجد من محارمه. لذا، فإن من كان وجيها، هو الذي لم يسود وجهه بعلاقة غير

شرعية مع النساء. ولا يمكن أن يقع في فاحشة الزنا شخصيا، ولا أن تطال تلك الفاحشة أحدا من محارمه، فيبقى وجهه (كما نقول بالعامية) أبيضا (غير مسود)، ولن يكون ممن يواري وجهه عن الآخرين خجلا مما فعل. ولو عدنا إلى قضة "العِرض" في الثقافات المختلفة، لوجدنا بأن ما يسمى بتبيض الوجه له علاقة بالتبرئة من حادثة الزنا.

افتراء خطير جدا: لقد كان موسى عند الله وجيها، لأن القوم (نحن نظن ربما مخطئين) اتهموه بحادثة الزنا، فكان ذلك مما أوقعوا به من الأذى على موسى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ ... ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: 69]

فما كان الله إلا أن يرد كيدهم، بأن يبرأ موسى مما قالوا، ويثبت وجاهة موسى (اي كرامة وجهه) الذي ما كان ليسود أمام العالمين بمثل تلك التهمة:

- ﴿... فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: 69]

فيبقى وجه موسى مرفوعا نظيفا لم يمسه العار (الزنا). ويكون موسى وجيها عند الله، فما بالك به عند الناس؟! من يدري؟!

السؤال: كيف تمت تبرئة موسى مما قالوا، فكان موسى وجيها؟

جواب مفترى: بذبح البقرة. وإحياء النفس التي قتلها القوم.

ولا ننسى في هذا المقام التذكير بالتوجيه الإلهي للمؤمنين من حول محمد ألا يقعوا بنفس الأمر المحضور الذي وقع فيه من كان من حول موسى، وطلب الله منهم أن يكونوا ممن يتقون الله ويقولون قولا سديدا:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: 69-70]

تلخيص ما سبق: لقد كانت واحدة من أساليب المجرمين الذين يكيدون بأنبياء الله ورسله تتمثل بإلقاء تهمة الزنا به أو بأحد من محارمه، طامعين أن يسود وجهه أمام الناس. ولا أريد الدخول في تفاصيل هذا الأمر فيما يتعلق بما جرى من محاولة إيذاء نبينا الكريم من قبل المتربصين المعادين الذين يكيدون بالنبي وبالدين الذي جاء به، خاصة ما يتعلق بقصص زواجه ببعض نسائه، واترك للقارئ الكريم التحليق بخياله لوحده حتى يأذن الله لنا بشيء من علمه في ذلك. ولكني سأحاول الدخول في تفاصيل ما يشبه ذلك عند بني إسرائيل في قصتهم الشهيرة مع نبي الله داوود، كما حاولوا تسويقها في تفسيراتهم لنبأ الخصم الذين تسوروا المحراب على داوود:

- ﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ
خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ
وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ
وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا
فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ۩ ٢٤ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥ يَٰدَاوُۥدُ
إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 21-26]

السؤال: من هو داوود؟